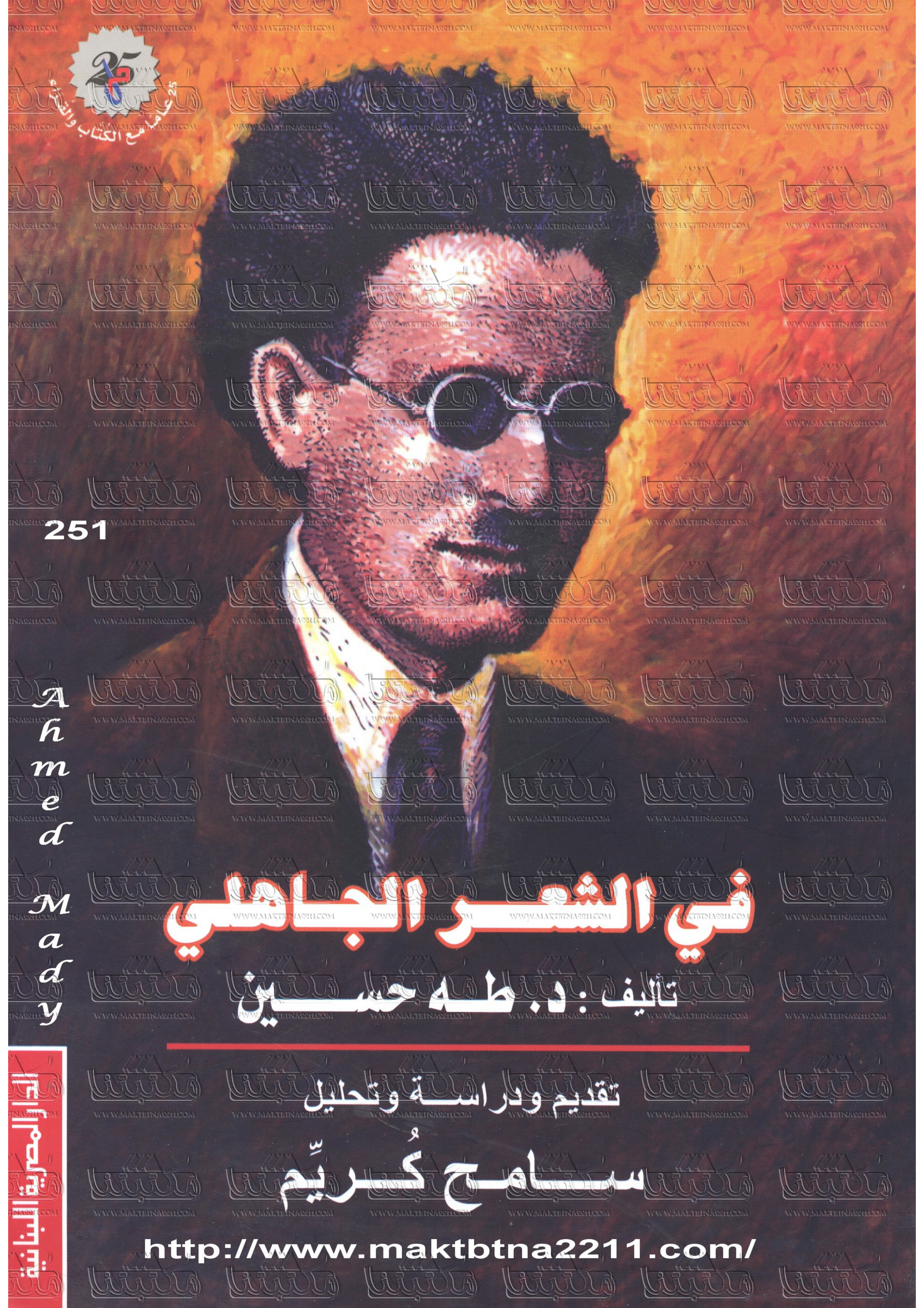
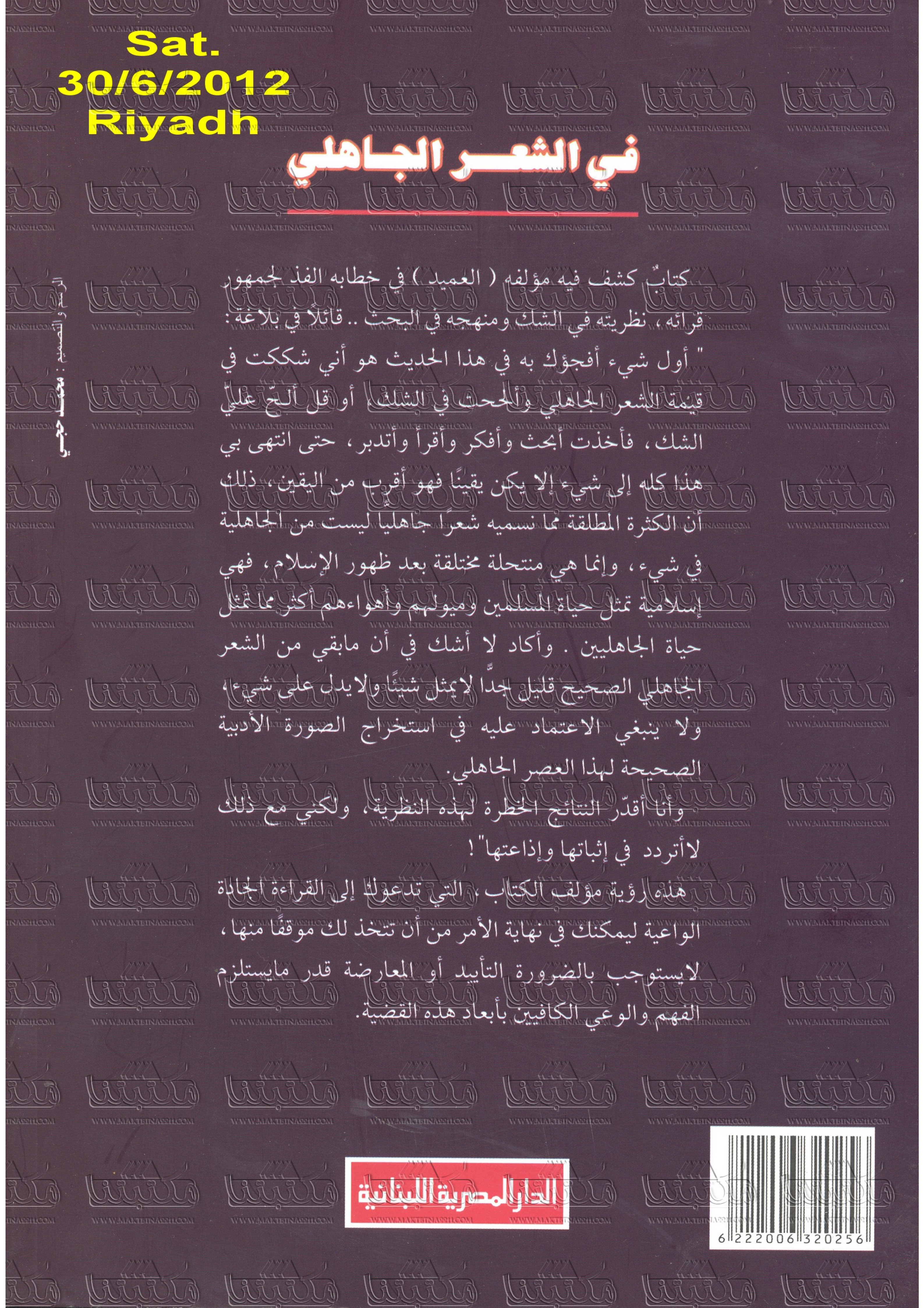
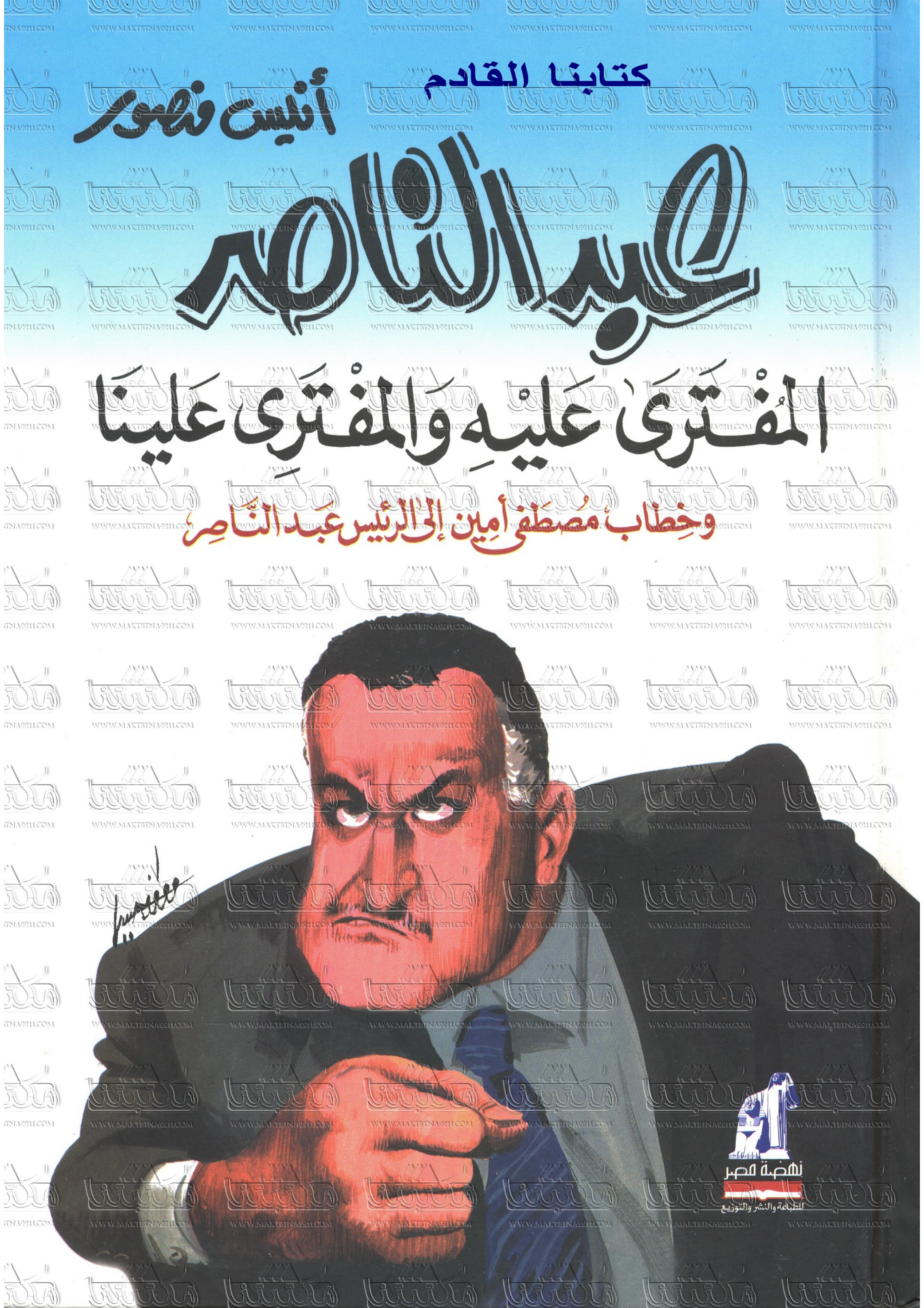


25 عاماً مع الكتاب والقراء
251
Ahmed Mady
في الشعر الجاهلي
تأليف : د. طه حسين
تقديم ودراسة وتحليل
سامح كُريِّم
الدار المصرية اللبنانية
http://www.maktbtna2211.com/


Sat.
30/6/2012
Riyadh
في الشعر الجاهلي
كتابٌ كشف فيه مؤلفه (العميد) في خطابه الفذ لجمهور قرائه، نظريته في الشك ومنهجه في البحث .. قائلاً في بلاغة:
" أول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك، أو قل ألحّ عليّ الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينًا فهو أقرب من اليقين، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرًا جاهليًا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وأكاد لا أشك في أن مابقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدًا لايمثل شيئًا ولايدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي.
وأنا أقدّر النتائج الخطرة لهذه النظرية، ولكني مع ذلك لاأتردد في إثباتها وإذاعتها" !
هذه رؤية مؤلف الكتاب، التي تدعوك إلى القراءة الجادة الواعية ليمكنك في نهاية الأمر من أن تتخذ لك موقفًا منها، لايستوجب بالضرورة التأييد أو المعارضة قدر مايستلزم الفهم والوعي الكافيين بأبعاد هذه القضية.
الرسم والتصميم : محمد حجي
الدار المصرية اللبنانية
6 222006 320256


كتابنا القادم
أنيس منصور
عبد الناصر
المُفْتَرَىٰ عَليْهِ وَالمفْتَرِىٰ علينا
وخِطاب مُصطفى أمِين إلى الرئيس عبد النّاصِر
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



في الشعـر الجـاهلي

تأليف: د. طـه حسـين

تقديم ودراسـة وتحليل

سـامح كُـرِيِّم

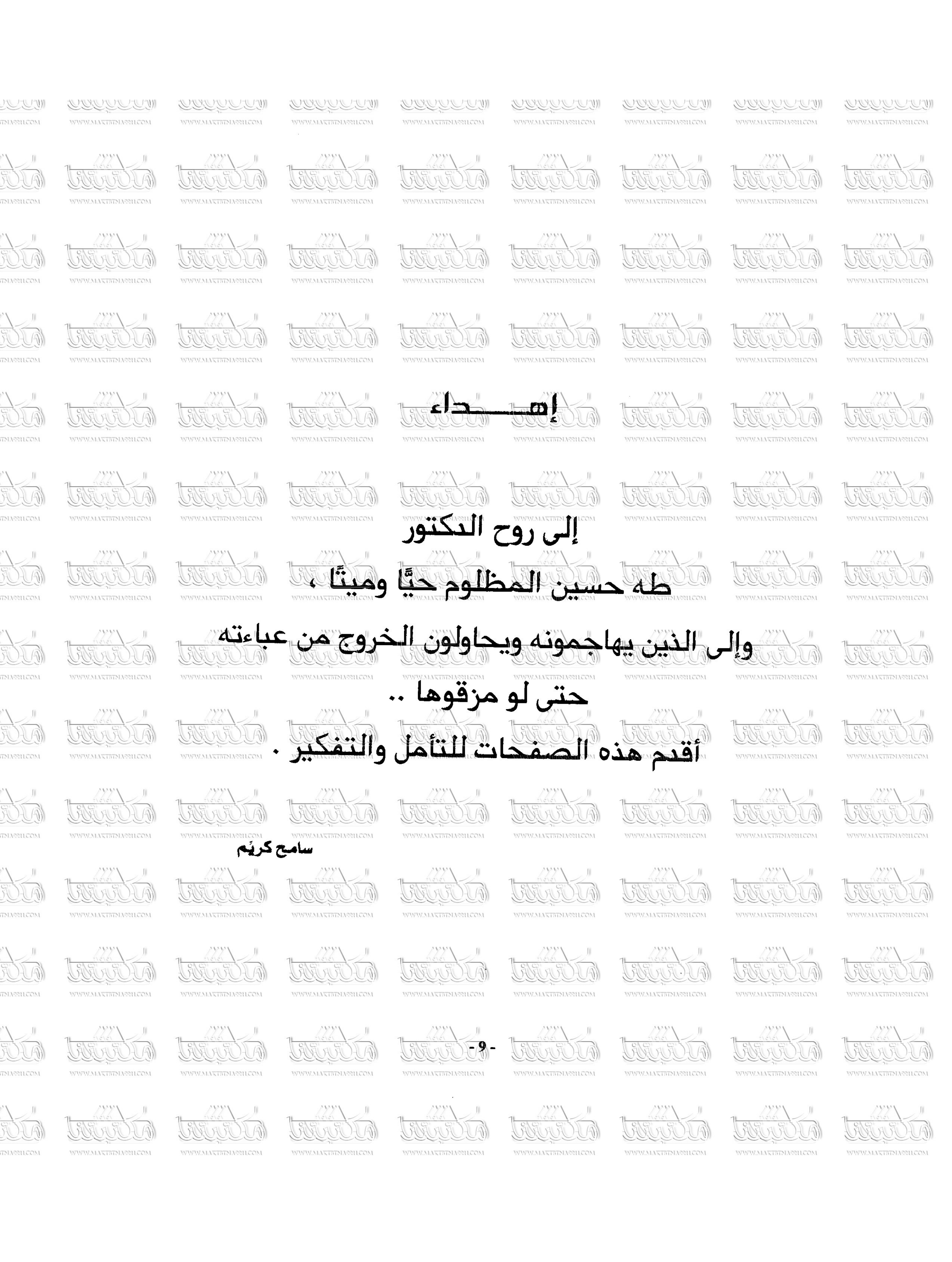
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم



المحتويـــات





إهـــداء

إلى روح الدكتور

طه حسين المظلوم حيًّا وميتًا ،

وإلى الذين يهاجمونه ويحاولون الخروج من عباءته

حتى لو مزقوها ..

أقدم هذه الصفحات للتأمل والتفكير .

سامح كريّم

على سبيل التقديم

في ظل أزمة قلبية حادة، وصفها الأطباء بالذبحة الصدرية، أزمة، جعلتني أبقى هكذا بين الحياة والموت، اليأس والرجاء، الألم والأمل .. ثم الانتظار والترقب ... نعم انتظار ما يسفر عنه هجوم هذه الذبحة الشرسة للقلب الضعيف، وترقب لما يتم من مقاومتها بالأدوية والمحاليل، وعناية فائقة من فريق ممتاز من أطباء القلب، يقوده العالم **الجليل الدكتور حازم الجندي**، أستاذ القلب والأوعية الدموية بالجامعات المصرية والعربية، وقبلهم عناية من الله ورعايته ... مع ذلك اصطحبت معي أصول هذا الكتاب الذي بين يديك الآن عزيزي القارئ – في إصرار ملحوظ اندهش له الأهل والأحباب – أملًا في أن يهبني الله من رحمته الواسعة، وقتًا أستطيع فيه إنجاز ما لم يتم من صفحاته.

أقول في ظل هذه الحالة الصحية المتردية، التي انتهت بي إلى معايشة تامة لغرفة العناية المركزة، بعد التدخل الجراحي الذي كان لا مناص ولا معدل عن إجرائه حتى تستقر دقات هذا القلب العليل وتعود إلى عملها الطبيعي.

وهكذا لم أهدأ مما كان يساورني من قلق على استكمال صفحات هذا الكتاب، إضافة إلى القلق الأكبر الذي يشمل كل أقطار النفس بسبب هذا المرض اللعين، وما يسببه من جراحة خطيرة، وتمريض دقيق ومحسوب .. وغير ذلك مما يتبع مع مريض القلب، إنقاذًا لحياته من براثن الموت، إلا بعد أن أتممت هذه الصفحات التي بين يديك عزيزي القارئ.

وربما يتساءل القارئ لهذه السطور: ولماذا كل هذا الاهتمام باستكمال صفحات لم تتم؟ والرد: لأنني وددت أن أنهي هذا الكتاب الذي كنت قد تعاقدت عليه مع الصديق

الناشر المثقف الأستاذ/ محمد رشاد صاحب ومدير «الدار المصرية اللبنانية» منذ سنوات شغلت خلالها في عملي الصحفي اليومي بالأهرام، وإصدار بعض الكتب الأخرى هذا إلى جانب تنفيذ رغبة على جانب كبير من الأهمية سمعتها من الدكتور/ طه حسين أكثر من مرة في كل لقاء كان يتيحه لي، مؤداها أن يتاح نشر كتابه «في الشعر الجاهلي» مع بيان مقاصده الحقيقية للقارئ، بصورة موضوعية تعطيه حقه وتأخذ منه ما يزيد على حقه.
ولعل هذا السؤال يجرنا إلى سؤال آخر، وهو: ولماذا الإصرار على إصدار هذا الكتاب الذي تأخر - لسبب أو لآخر - عن موعد تسليم أصوله سنوات؟ والإجابة: إيمان وقر في القلب، وصدقه العقل بعدالة قضية مؤلف هذا الكتاب، ونظريته في الشك، ومنهجه في البحث واضعًا في الاعتبار، كل ما يتعلق بهذه القضية بين يدي القارئ، أملًا في أن يقف بنفسه على تداعياتها وملابساتها، بحيث يطلع على كل جوانبها من ناحية، وأن أقدم للقارئ الذي دأب على التطاول على «طه حسين» وتجريحه بعدوانية وجهل فاضح .. كل ما يمكن تقديمه من الحقائق مدعومة بالو ثائق التي تدحض ما قد يكون من آراء غير ناضجة أو غير موثقة أو متسرعة؛ حتى يكف ويقلع عن هذا الأسلوب الذي لا يستند إلى حجج أو أدلة، مع طه حسين، أو غيره من الرواد الذين أعطوا وبذلوا، وكانت حياتهم سلسلة من التضحيات الباسلة ... خاصة بعد رحيلهم عن دنيانا .. ويكفي - طه حسين- ما ناله قبل رحيله منذ نشر هذا الكتاب في مارس عام 1926 إلى وفاته في أكتوبر عام 1973 .. فقد كان على امتداد هذه الفترة مستهدفًا لكل ألوان التهجم والافتراء، التطاول والتجريح حتى كانت الألسنة لا تكف، والأقلام لا تجف، والتفكير لا ينقطع، وكلها تطالب بإدانة طه حسين ووضعه في قفص الاتهام .. مع أنه لم يرد لأمته إلّا الخير، فلم يكن متنكرًا لدينه، ولاخائنًا لوطنه، ولا مخربًا لثقافته، ولا عابثًا بلغته .. وإنما كانت هذه وغيرها بمثابة الرسالة السامية التي أراد أن يضطلع بها إلى آخر يوم في حياته، أمرًا جعله واحدًا من أصحاب الرسالات الثقافية في تاريخنا العربي، وصاحب الرسالة لا يهدأ ولا هنأ، إلا بعد أن يحقق ما تفرضه عليه هذه الرسالة من أهداف واجبة، خدمة لأبناء وطنه في كل المجالات.

ولا أزعم أن صفحات هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الآن، أو أضعاف أضعافها من صفحات، أو ما تم نشره في هذه السنة، أو حتى في السنوات التالية لهذا الإصدار، لا أزعم

أنه سوف يتوقف عندها العلماء والأدباء والنقاد عن مناقشة أفكار طه حسين الخاصة بكتاب «في الشعر الجاهلي» ؛ ذلك أن خصوبة أفكار هذا الكتاب وجديتها ونضجها عندما طرحها صاحبها يجعلها دائمًا مثيرة للجدل والنقاش، تغري المتلقي بالأحاديث سواء كان مستمعًا أو قارئًا أو مشاهدًا . مما يجعله لا يتوقف عند هذا الكتاب أو غيره من كتب لطه حسين، ولا عند هذه السنة التي يصدر فيها هذا الكتاب، أو التي بعدها.. بل هي مستمرة في اليوم، وغدًا، وإلى ما شاء الله .. لأنه إذا كانت الأيام والسنون من شأنها أن تجرَّ على الأحداث والأشخاص ذيول النسيان، فإن ذلك ليس شأن طه حسين أو غيره من أصحاب الرسالات الثقافية .. حيث يعتبر الواحد منهم على قيد الحياة الفكرية في نظر وسائل الاتصال، المقروءة والمسموعة والمرئية .. فلم يمت طه حسين في نظر هذه الوسائل كواحد ممن أنجبهم ذلك المناخ الفكري النشيط لعصره، فحملوا بذور دعوات إصلاحية، وآراء حرة، ومبادئ صلبة، وهموم التجديد والمعاصرة، وملكوا الموهبة النادرة التي أتاحت لهم التفوق كأدباء ونقاد ومفكرين وعلماء، وحملة أقلام كبار .

وبفضل جهود طه حسين وأبناء جيله من الرواد في مصر وعالمنا العربي دارت أكبر وأعنف المعارك، وأثيرت أغزر المناقشات والمساجلات، حول مجموعة من قضايا الفكر والأدب والنقد والفن والسياسة، قضايا لم نزل نعيش في ظل بعضها إلى اليوم ؛ حيث فرض هؤلاء الرواد ومنهم طه حسين بحيويتهم النادرة ومواهبهم الفذة وعلمهم الزاخر، وتجاربهم الثرية ... فرضوا أنفسهم على زمانهم وما بعد زمانهم فرضًا عادلًا ومنطقيًّا .

إن الذي أفسح لطه حسين طريقه إلى الريادة هو طه حسين نفسه ابن عصره وابن زمانه، والذي جعله مؤثرًا في صياغة عقول أجيال وأجيال هو طه حسين الطاقة المبدعة لفلسفة هي ابنة زمانها وتجاربها، والذي جعله متحدثًا إلى قراء الصحف وجمهور الإذاعة، وعشاق الكلمة هو طه حسين أحد أعلام النهضة الحديثة التي شهدت نمو وتطور وسائل النشر وانتشار نفوذها واتساع رقعة جمهورها .

ولذلك أقول : عاش طه حسين كل حياته وما بعد حياته على قيد الحياة الأدبية في نظر وسائل الاتصال بالجماهير إلى اليوم .. فلم يمت في نظر هذه الوسائل طه حسين الأديب،

ولم يمت طه حسين مثير التساؤلات ، ولا مات طه حسين المولع بطرح المشكلات ، ولا انتهى طه حسين القلق بين مواقع أفكاره المنشورة والمسموعة والمرئية، ومواقع أفكار الآخرين ... لم يمت واحد من هؤلاء الذين ضمهم جسد طه حسين لحظة أن فارق النبض قلبه فراقه الأخير .

وبالتالي لم تمت دعواته الإصلاحية ، ومنها دعوته - التي نحن بصددها - في هذا الكتاب ، والتي ترى أن يكون التعبير الأدبي - نثرًا كان أو شعرًا - مرآة للحياة التي يوجد فيها ، وأنه ينبغي أن تناقش جوانب هذه الحياة سواء العقلية أو الدينية أو السياسة أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية .. إلى آخر هذه الجوانب التي ينتج عنها شكلٌ معبرٌ عن الحياة ، وأنه لا ينبغي أن نطمئن إلى ما قاله السابقون في هذه المجالات ونأخذه كما هو دون بحث أو تمحيص ، بل يجب أن نناقشه ، ونشك فيه شكًا علميًا دقيقًا حتى نصل إلى حالة من اليقين لا يكون بعدها أي شك ... وهذا هو جوهر ما جاء في كتابه «في الشعر الجاهلي» وأساس دعوته في تقويم التراث الجاهلي من الشعر .. هذه الدعوة التي جاءت بعد منتصف عشرينيات القرن الماضي في وقت خيم اليأس فيه على النفوس. فبدت هذه الدعوة غير مقبولة إن لم تكن غير معقولة أوهي وهم من الأوهام .. وبالغ البعض في ذلك حين اعتبروها ضد ثقافتنا .. ومناهضة لعقائدنا!! إلا أن صاحب هذه الدعوة كان مؤمنًا بدعوته ، وبدأ يشق لها الطريق وسط ما كان يتم حوله من عواصف وأنواء .. أقول : استمر في تعهد هذه الدعوة رغم التحديات حتى صارت عملًا وأسلوبًا ومنهجًا يهتدي به الدارسون والباحثون داخل جامعاتنا المصرية والعربية ، وخارج أسوار هذه الجامعات فيما يصدر من الدراسات والأبحاث والإبداعات والدراسات الأدبية ، والنقدية ، والفنية حتى أصبح الجميع لا يخرجون من عباءة طه حسين حتى لو شاءوا تمزيقها سواء بالتطاول عليه أو الاتهام له .. وهذا لعمري قمة النجاح والتوفيق الذي حققه طه حسين في دعوته .

ولذلك أقول : إن هذا الكتاب - الذي بين يدي القارئ الآن - أو غيره من كتب تدور حول فكر طه حسين لن توقف الحديث عنه أو مناقشة أفكاره ، إن بالسلب أو بالإيجاب..

بل الكل يريد أن يكتب وأن يناقش - وهذا حقهم - حتى يصل الحاضر بالماضي ، وييسر السبل للأجيال في بحثها المستمر إلى الأفضل . ولهذا أيضًا أقول : إن الحديث عن طه حسين وفكره ، ومناقشة ذلك لن يتوقف ، ولن يحدث أن تجر عليه ذيول النسيان بل سيستمر إلى ما شاء الله .

* * *

والآن .. وقبل الدخول إلى محتويات هذا الكتاب ، أود أن أذكر بعض الملاحظات الخاصة بطريقتي في هذا الكتاب .. ومن ذلك أنه قد يلحظ القارئ تكرارًا لبعض القضايا المهمَّة في حياة طه حسين ، أو في صفحات كتابه «في الشعر الجاهلي» .. هذا التكرار مقصود أقول للمرة الثانية مقصود بعينه أو لا لتذكير القارئ بها حتى لا يتوقف استمرار تفكيره عند واحدة منها ، وثانيا للتأكيد على أن هذه القضايا على درجة كبيرة من الأهمية، ولذلك ينبغي التأكيد عليها بالتكرار حتى لا يغيب عن نظر القارئ فينتقل إلى قضية أخرى ومن هذه الملاحظات تحليل بعض الآراء والأفكار ، بل والقضايا التي جاءت بكتاب «في الشعر الجاهلي» وهذا أيضا كان مقصودًا حتى أصحب القارئ ، في قراءة وتأمل لما جاء في تضاعيف هذا الكتاب الذي كانت من محنة صاحبه أن البعض ممن تصدوا له بالهجوم والاتهام ، أو حتى التطاول والتجريح لم يقرأوه ولم يقفوا على ما فيه بعين مخلصة وأخرى واعية ، ثم من هذه الملاحظات حرصي الشديد على إلحاق ما كتبته من تقديم وشرح وتحليل .. بعدد من الوثائق أولها : نص كتاب في الشعر الجاهلي نفسه ، وثانيها : الترجمة العربية لمقالة «مرجليوث» «نشأة الشعر الجاهلي» المتهم طه حسين بالسطو عليها ، وثالثها : الترجمة العربية لمقالة «مرجليوث» عام 1927 لتبرئة طه حسين من السطو على مقالته كما ذهب مؤرخو طه حسين ونقاده ، وإلى أن لكل منهما (طه حسين - ومرجليوث) خطه الفكري المستقل ومنهجه الخاص في البحث مما أسفر عن ذلك نتائج مختلفة .

ويبقى بعد ذلك أن نعرف ما يتضمنه الجزء الخاص بالتقديم والدراسة والتحليل تلك التي قام بها كاتب هذه السطور لكتاب «في الشعر الجاهلي» والتي تنقسم إلى ثلاثة أبواب.. أفردت أولها لدراسة الشك في صحة الشعر الجاهلي ، ويتفرع إلى فصول فيها: نظرية الشك ومنهج البحث ، بعد ذلك دوافع هذا الشك في الشعر ، وأسباب الانتحال في الشعر ، ثم النظرة لشعر وشعراء العصر الجاهلي . يليه الباب التالي ويدور حول صدى نشر كتاب في الشعر الجاهلي قبل رحيل طه حسين وبعده ، متضمنًا بعض الكتب والمقالات التي تناولت كتاب في الشعر الجاهلي ومناقشة كل رأي على حدة . ونختم هذه الدراسة وذاك التحليل بالباب الثالث والأخير ويتضمن تحليلاً لتطور البحث في قضية الشعر الجاهلي ، وهل كانت في صالح ما جاء في كتاب «في الشعر الجاهلي» أم كانت غير ذلك ؟ إلى أن نختم هذا الباب الثالث بفصلين : أحدهما يدور حول المنهج الذي سلكه طه حسين في تناوله وتقييمه للشعر الجاهلي ، وهل كان عربيًّا أصيلا أم كان غير ذلك ؟ وثاني هذين الفصلين يدور حول إجابة لسؤال : هل يمكن أن تكون أعمال طه حسين ومواقفه ، كفيلة بالدفاع عنه بعد رحيله إذا ما تعرض صاحبها لأي هجوم ظالم أو ادعاء باطل ؟ وبهذا الفصل من الباب الثالث ينتهي تحليلنا وشرحنا .

* * *

والله أسأل أن يوفقنا إلى اتباع الحق الذي يفيد ولا يضير ، يبني ولا يهدم ، يجمع ولا يبدد .

سامح كريم

القاهرة الجديدة

15 / 2 / 2010

الجزء الأول : التقديم والدراسة والتحليل

- الباب الأول : الشك في صحة الشعر الجاهلي .
- الباب الثاني : نقد المفكرين والعلماء والنقاد ولكتاب في الشعر الجاهلي .
- الباب الثالث : تطورات البحث في قضية الشعر الجاهلي ونتائجها .

الباب الأول

الشك في صحة الشعر الجاهلي

في تقديمه لكتاب «في الشعر الجاهلي» أعلن الدكتور طه حسين نظريته في تقييم هذا الشعر مخاطبًا القارئ قائلًا : «وأول شيء لأفجأك به في هذا الحديث ، هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي ، وألححت في الشك ، أو قل ألح على الشك فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إن لم يكن يقينًا ، فهو قريب من اليقين ، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرًا جاهليًا ، ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواؤهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدًا لا يمثل شيئًا ، ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي» .

في هذا التقديم الذي كتبه الدكتور / طه حسين في أولى صفحات كتابه ، يعلن عن ملامح فكرته ، ومضمونها الشك في الكثرة المطلقة من الشعر الجاهلي ، وأن ما يبقى من هذا الشعر وهو الذي ينسب لشعراء الجاهلية قليل ، ولكنه على الرغم من قلته فهو يؤكد أن طه حسين لم يشك في كل الشعر الجاهلي وإنما في بعضه الذي يمثل الكثرة .. وهو حين يعلن ذلك ، فإنه يدرك أن هذه الفكرة تعتبر مفاجئة وصارمة للقارئ الذي ليس لديه أي شك في وجود الشعر الجاهلي .. وعلى هذا فإن هذا الباب يتضمن أربعة فصول تعالج مسألة هذا الشك في الشعر الجاهلي ، وهي : نظرية الشك ومنهج البحث ، دوافع الشك في الشعر الجاهلي ، أسباب انتحال الشعر الجاهلي ، والشك في شعر وشعراء الجاهلية .

■ 1 ■
نظرية الشك ومنهج البحث

إن أول ما يستوقفنا من هذه النظرية هو أن الدكتور طه حسين شك في الشعر الجاهلي، ولكنه (لم يشك فيه كله) – وأريد أن أضع عشرات الخطوط تحت لم يشك فيه كله – وإنما شك في أكثره ، وبقي بعضه لم يشك فيه ، ولكنه مع ذلك لا يمكن أن يمثل حياة الجاهليين .. هذه الحياة في جوانبها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية كما – تحدد النظرية – أرجو من القارئ أن يتذكر ذلك ولا ينساه لأهميته بعد ذلك – حين نقارن بين كتاب طه حسين ومقالة المستشرق الإنجليزي «صمويل مرجليوث» وعنوانها: «نشأة الشعر الجاهلي»-، تلك التي شكت في كل الشعر الجاهلي جملةً وتفصيلًا وليس أكثره أو أقله أو بعضه كما فعل طه حسين .

ويبدو أن الدكتور طه حسين كان يتوقع أن نظرية على هذا النحو سوف تجر عليه الكثير من المتاعب ، والسبب أنه يفجع الكثيرين ممن وثقوا واستمتعوا بروائع هذا الشعر الذي وصل تقديرهم له إلى درجة اعتباره أساسًا للثقافة العربية ، ولذلك فإن الشك فيه هو بمثابة الشك في أساس هذه الثقافة العربية .. أقول : إن ذلك سيجر عليه الكثير من المتاعب وإلا فما معنى أن يقول بعد إعلان هذه النظرية مخاطبًا القارئ : «وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإذاعتها ، ولا أتردد عن أن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفه أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء ، وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب ، أو صنعة النحاة، أو تكلف القصاص ، أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين ..» .

وطبيعي أن لا يرضي أحد بما جاء به طه حسين في الشك في أكثر الشعر الجاهلي ، أو هؤلاء الشعراء الذين يعتبرون آباء للشعر العربي كما توقع ، أقول : طبيعي ذلك لأن الذين أفرزوا الأحاديث النبوية الشريفة من الإسرائيليات التي كانت مدسوسة ومتداخلة مع الأحاديث الصحيحة لم يكن عملهم هذا الذي بذلوا الجهد فيه موضعًا للرشى ، بل واجهتهم المتاعب ، والتاريخ الإسلامي - وخاصة جانب استخراج الأصيل من الدخيل في هذه الأحاديث الشريفة - خير شاهد وأصدق دليل .

هذه النظرية التي جاء بها طه حسين كانت تحتاج إلى ما يمهد لها ويسوغها في جوانب عملية على أرض الواقع . فهو لكي يؤكد ما أتى به من جديد لابد أن يتساند على ما كان يتم قبل الإسلام في العصر الجاهلي ، أو بعده سلبًا أو إيجابا ، لابد أن يحدثنا عن اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام وبعده ، وأن يحدثنا عن المسيحية وما كان لها من الانتشار في بلاد العرب قبل الإسلام وما أحدثت من تأثير في حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية ، وما بين الأدب العربي والشعر العربي من صلات، وأن يحدثنا عن المؤثرات السياسية الخارجية التي كانت في حياة العرب قبل الإسلام وكان لها أثر قوي في الشعر العربي الجاهلي ، وفي الشعر العربي الذي انتحل وأضيف إلى الجاهليين.. لابد من هذا وغيره ليقول لنا في النهاية إن «هذه المباحث ستنتهي كلها إلى تلك النظرية التي قدمتها ، وهي أن الكثرة المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلي ليست من الشعر الجاهلي في شيء..» .

ثم ينتقل في نظريته إلى جانب آخر ، وهو البحث الفني واللغوي الذي ينتهي إلى أن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء ، ولا أن يكون قد قيل أو أذيع قبل نزول القرآن الكريم ، وهذا بدوره ينتهي إلى نتيجة مهمة هي أنه لا ينبغي أن نستشهد بهذه الشعر على تفسير القرآن الكريم ، أو تأويل الحديث النبوي الشريف ، وإنما ينبغي أن يكون العكس هو الصحيح . أن نستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف على تفسير هذا الشعر وتأويله ، هذا الرأي للدكتور طه حسين أراه يعلي من شأن القرآن الكريم والحديث

الشريف ويضعهما في المكانة الصحيحة التي ينبغي أن يوضعا فيها ، في تاريخنا الثقافي. حين يجعلهما مصدرين علميين لا يتطرق إليهما أي شك ، وعلى ضوءهما يمكن تفسير وتأويل ، بل وفهم الحياة الجاهلية قبل الإسلام وما فيها من شعر .

* * *

وإذا كان الدكتور طه حسين قد انتهى إلى هذه النظرية ، التي ترى أن هناك شكًا في أكثر الشعر الجاهلي فلابد أن يكون ذلك محكومًا بمنهج يستطيع به فرز الشعر الجاهلي من غيره ، فكان المنهج الديكارتي .. نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت - الذي استخدمه في تقييم هذا الشعر الجاهلي إلى جانب تأثره بالطبع بأساليب العرب الأقدمين في مسألة الشك تلك التي استخدمها قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات في تقييمه لشعر الخنساء ، كما سنرى فيما بعد .

هذا المنهج الديكارتي يقتضي على مستخدمه أن يتجرد من كل المؤثرات أو كما يقول الدكتور طه حسين إن «القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوّا تامّا» .

وينتقل في حديثه عن المنهج الديكارتي فيقول : «فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه في البحث والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل ، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضًا» .

وعلى هذا فقد أعلن صراحة أنه استخدم المنهج الديكارتي في تقييمه للشعر الجاهلي، على اعتبار أن هذا المنهج ليس وقفًا على العلم والفلسفة فحسب ، وإنما هو مستخدم أيضًا في الأدب والأخلاق والحياة الاجتماعية ، ولعل استخدامه للمنهج الديكارتي على الوجه الصحيح ووفق شروطه ينفي ما قاله أحد تلاميذ الفلسفة في عام 1925 الذي كان وقتئذ طالبا في السنة الأولى بكلية الآداب قسم الفلسفة وهو المرحوم محمود محمد

الخضيري من أن الدكتور طه حسين لم يستخدم المنهج الديكارتي ، وهذا محض افتراء.. والغريب أن يصدقه البعض من النقاد والأدباء الكبار ، وإني أتساءل : هل يعقل أن يثق القارئ فيما كتب طه حسين الذي قرأ ودرس وتعلم ونال أكبر الشهادات من الجامعة المصرية القديمة وسافر إلى فرنسا لينال الدكتوراة ، أم يثق في قول مرسل لطالب بالسنة الأولى بقسم الفلسفة؟! والعجيب أن يعتمد على هذا القول المرسل العلامة محمود محمد شاكر بالسنة الأولى قسم اللغة العربية الذي كان زميلًا للخضيري حيث يسجل بعد ذلك في مقدمة كتابه عن المتنبي رأى المرحوم الخصيري فيما استحدث طه حسين من استخدام المنهج الديكارتي وإعلانه عن ذلك ، حيث قال - أي الخضيري - طعنا في طه حسين : «إن اتكاء الدكتور طه حسين على ديكارت في محاضراته ، اتكاء فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكارت الفيلسوف ، وبما كتبه في كتابه (مقال عن المنهج) ، وأن تطبيق الدكتور طه حسين لهذا المنهج في محاضراته عن الشعر الجاهلي، ليس من منهج ديكارت في شيء..» ... إلى آخر ما ذكره الأستاذ ضمن رأيه في كتاب «في الشعر الجاهلي» . أقول هذا عجيب لكن الأعجب أن يتأثر به الأستاذ محمد لطفي جمعه الذي كان من المهاجمين لطه حسين في هذا الجانب بالذات والقائل عن نفسه أنه على علم بالفلسفة .

والسؤال الآن : لماذا استعان الدكتور طه حسين بالمنهج الديكارتي في تقييمه للشعر الجاهلي ؟ إن لذلك أكثر من سبب : لأنه كان أفضل المناهج وأقومها وأحسنها أثرًا، ولأنه جدد العلم والفلسفة تجديدًا واضحًا ، ولأنه غير مذاهب الأدباء في أدبهم ، والفنانين في فنونهم ، ولأنه هو الطابع الذي تمتاز به نهضة العصر الحديث إلى آخر ما نلمحه في رأيه حتى يقول : «ولو أن القدماء - أي العرب الأقدميين - استطاعوا أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم ، وأن يتناولوا العلم على نحو ما يتناوله المحدثون - أي الديكارتيون - لا يتأثرون في ذلك بقومية ولا عصبية ولا ما يتصل بهذا كله من الأهواء لتركوا لنا أدبا غير الأدب الذي نجده بين أيدينا ، ولأراحونا من هذا العناء الذي نتكلفه الآن ..» .

ولعلي أضيف إلى ما صنعه الدكتور طه حسين باستخدامه لهذا المنهج فأقول : لا بأس في أن يستخدم طه حسين منهجًا أجنبيًا في تقييم تراثنا من الشعر الجاهلي فعقيدتنا تحثنا على أخذ العلم ولو في الصين ، وأن الحكمة – أي حكمة من أي مكان – ضالة المؤمن أنى وجدها هو أحق الناس بها . وعلى هذا فلا ضرر ولا ضرار في أن يستخدم هذا المنهج أو غيره ما دام لا يتعارض مع تفكيرنا أو عقيدتنا .

■ 2 ■

دوافع الشك في الشعر الجاهلي

في القسم الأول أو الكتاب الأول كما يسميه الدكتور طه حسين أسباب الشك في الشعر الجاهلي ، تطالعنا في بدايته صفحات تدور حول البحث عن الحياة الجاهلية من كتاب «في الشعر الجاهلي» وعنوانها في هذا الكتاب : «مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس في القرآن لا في الشعر الجاهلي» بمعنى أنه يسجل تقديره وإعزازه بل وتقديسه للقرآن الكريم كمصدر علمي لا يرقى إليه أي شك ، موجها حديثه للذين يحبون الشعر الجاهلي ، ويستمتعون به ، حيث نكتشف طريقا واضحة قصيرة سهلة يصلون منها إلى هذه الحياة الجاهلية التي ينكر أن يكون الشعر الجاهلي وسيلة لمعرفتها ، وعلى هذا فلن يكون هذا الشعر وسيلة أو طريقة لمعرفتها .. وعلى هذا أيضًا فلن يكون شعر كل من امرئ القيس أو النابغة أو زهير وسيلة لمعرفة هذه الحياة الجاهلية .. لأنه في الأصل لا يثق بما ينسب إليهم من شعر .

وتأسيسًا على ذلك فوسيلته في البحث عن الحياة الجاهلية أو مرجعه العلمي إلى ذلك هو نص لا سبيل إلى الشك في صحته ، هو القرآن الكريم .. لأن هذا الكتاب أصدق وسيلة لتعريفنا على الحياة الجاهلية أو ما قبلها ، ويؤكد ذلك مرات بأن هذا الكتاب الكريم ثابت لا سبيل إلى الشك فيه قائلا : «أدرسها في القرآن ، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي ، ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه . أدرسها في القرآن ، وأدرسها في شعر هؤلاء الذين عاصروا النبي وجادلوه في شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ، ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي ألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام...» .

وفي هذا إعلاء لشأن القرآن الكريم - كما قلنا - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يتطرق إليه أي شك كما يسجل طه حسين في الصفحات الأولى من كتابه، وهو ما يؤكد إيمانه وعدم خروجه من حظيرة الإسلام كما يدعي مهاجموه ، إذ إنه يلوذ ويلجأ إلى كتاب الإسلام ويراه أوثق وأصدق مرآة للعصر الجاهلي أو غيره من العصور السابقة على نزوله .

وبعد الرجوع إلى القرآن الكريم كنص ثابت لا سبيل إلى الشك فيه في دراسة الحياة في العصر الجاهلي ، يمكن أن يدرس بعض تفاصيل هذه الحياة الجاهلية في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي ﷺ ، وساروا على هديه ، واستمعوا إليه وحدثوه وجادلوه، إذ ليس هناك ما يمكن الوثوق فيه ، والاعتماد عليه ، والرجوع إليه بعد القرآن الكريم إلا ما يكون قد تم وحدث أثناء حياة النبي ﷺ على لسان الذين عاصروه .

ويرى أيضًا أنه قد تدرس بعض تفاصيل هذه الحياة الجاهلية في شعر الشعراء الذين جاءوا بعد شعراء عصر النبوة بشرط أن تكون نفوسهم قد برئت تماما من الآراء التي اعتادها وألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام ، ثم تدرس هذه الحياة في الشعر الأموي حيث إن حياة العرب في الجاهلية كانت واضحة ظاهرة في شعر الشعراء الكبار من أمثال : الفرزدق ، وجرير ، وذي الرُمة ، والأخطل أكثر من وضوحها وظهورها في الشعر الجاهلي الذي ينسب إلى شعراء مثل : طرفة بن العبد أو عنترة بن شداد ، أو بشر بن أبي خازم ، أو الشماخ .. أو غيرهم ممن يمثلون العصر الجاهلي .

ويؤكد ذلك أكثر من مرة قائلًا ومخاطبًا القارئ : «قلت إن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية ، وهذه القضية غريبة حين نسمعها ، ولكنها بدهية حين تفكر فيها قليلًا ، فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن الكريم حين تُليت عليهم آياته ، إلا أن تكون بينهم وبينه صلة .. هي هذه الصلة التي توجد بين الأثر الفني البديع ، وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه ، وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبي فيه . ألا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه، وليس

من اليسير بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديدًا كله على العرب ، فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه ، ولا آمن به بعضهم ، ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر ، وإنما كان القرآن جديدًا في أسلوبه ، جديدًا فيما يدعو إليه ، جديدًا فيما شرع للناس من دين وقانون ، وكان كتابًا عربيًّا ، لغته هي اللغة العربية الأدبية التي كان يصطنعها الناس في عصره ، أي في العصر الجاهلي . وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية ، وفيه رد على اليهود ، وفيه رد على النصارى ، وفيه رد على الصابئة والمجوس.. وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس ، أو صابئة الجزيرة وحدهم ، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها ، ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر ، ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه أو أيدوه ، وضحوا في سبيل تأييده أو معارضته بالأموال والحياة» .

والمعنى الذي أراده الدكتور طه حسين في هذه العبارة واضح فهو يرى أنه قد بلغ من قوة القرآن وشموخه وعظمته أنه يرد على اليهود والنصارى والصابئة والمجوس الذين في مكة والمدينة في عقر دارهم كفرق تمثلهم في البلاد العربية نفسها . ومن هنا تبدو قيمته وخطره ، فأنت تستطيع أن تهاجم من تريد وترد عليه بأقصى الردود والهجمات في غيبته ، ولكن الأمر يختلف إذا كان من تقصده بالرد حاضرًا أمامك .. وهذا بالضبط ما حدث للقرآن في رده على هؤلاء الذين كانوا يعيشون في العصر الجاهلي .. ومن هنا بدت قوة إقناعه ، وشموخ موقفه ، وعلى هذا فلا يمكن أن يكون هناك مصدر للبحث عن الحياة الجاهلية أقوى وأصدق من القرآن .

ولكي يؤكد طه حسين وجهة نظره في أن القرآن ، وما جاء بعد نزوله كان أوثق المصادر وأصدقها التي تكشف لنا الحياة الجاهلية ، يدلل على ذلك أن من الشعر الجاهلي ما يظهر لنا الحياة غامضة جافة بريئة من الشعور الديني القوي ، والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس ، المسيطرة على الحياة العملية فيتساءل : «أين تجد شيئًا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة ؟ بل يتساءل مندهشًا مرة ثانية : أو ليس عجبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية تلك التي تبدو واضحة جلية عند دراسة حياة أي قوم من الأقوام.. و هو ما لم نجده في الشعر ، مع أن هناك صورًا لهذه الحياة الدينية ،

حيث نجدها مثلا في قريش التي كانت تناصب أتباع النبي ﷺ العداء والحرب ولا تفعل ذلك إلا لإيمانها بدينها حتى لو كان وثنيًا ... ومن هنا يكرر طه حسين مرات أن القرآن أصدق تمثيلًا لهذه الحياة الدينية عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم وهو ما لا نجده في الشعر الجاهلي .

* * *

وغير ذلك تمثيل الحياة الدينية كان الاهتمام بالحياة العقلية حيث كان الجدال الديني، وما يجعله ينتقل إلى الحياة العقلية والحضارية فيقول : «أفتظن قومًا يجادلون في هذه الأشياء جدالًا يصفه القرآن بالقوة ، ويشهد لأصحابه بالمهارة .. أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين ؟ كلا ! لم يكونوا جهالًا ولا أغبياءَ ، ولا غلاظًا ، ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء ، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة»، وهو ما أشار إليه القرآن صراحةً أو ضمنًا ، ولم يكن له صدى في الشعر الجاهلي» .

كذلك تحدث القرآن عن الحياة السياسية في الجاهلية ، وكيف كان أهلها على اتصال بمن حولهم من الأمم ، فحدثنا عن الروم ، وما كان بينهم وبين الفرس من حروب انقسمت بسببها القبائل العربية إلى حزبين مختلفين ، حزب يشايع الروم ، وحزب يشايع الفرس ، وفي القرآن سورة الروم ، التي تبتدئ بهذه الآيات الكريمة :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ ﴾ [1]. وهو ما يؤكد أن العرب في الجاهلية لم يكونوا منعزلين كما يقرر الشعر الجاهلي ، وإنما كانت لهم سياسة تعتني بالروم تارة ، وبالفرس تارة أخرى .

* * *

(1) الروم : 1 - 5.

وإلى جانب هذه الحياة السياسية للعرب في الجاهلية التي سجلها القرآن الكريم ، ولم يسجلها الشعر الجاهلي ، هناك تسجيل للحياة الاقتصادية ، حيث كان للعرب في جاهليتهم اتصال اقتصادي بغيرهم من الأمم ، وذلك في الصورة المعروفة :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾[1] حيث كانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام التابعة للروم ، والأخرى إلى اليمين التابعة للحبشة والفرس.

* * *

كذلك نجد تمثيلًا للحياة الاجتماعية في الجاهلية في القرآن ولا نجد ذلك في شعر شعراء الجاهلية فيقول : «فهذا الشعر لا يعني إلا بحياة الصحراء والبادية ، وهو لا يعني بها إلا من نواحي لا تمثلها تمثيلًا تامّا . فإذا عرض لحياة المدن فهو يمسها مسّا رقيقًا لا يتغلغل في أعماقها .. وما هكذا نعرف شعر الإسلام ، ومن عجيب الأمر إنا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه ، فإذا ذكر ، فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل .. أما القرآن فيمُنّ على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر ، وبأن لهم في هذا منافع كثيرة ...» .

* * *

وبعد أن أثبت الدكتور طه حسين أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الجاهلية ، وإنما يمثلها القرآن في الجوانب الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ينتقل إلى اختلاف اللغة بين الشعر ولغة العصر الجاهلي ، حيث يري أن هذا الشعر «بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه ، إلى أن يقول: «أن هناك خلافًا قويّا بين لغة حمير – وهي من العرب العاربة ، ولغة عدنان – وهي العرب المستعربة مستندًا في ذلك إلى أمرين ، الأول : ما قاله أبو عمرو بن العلاء وهو – كما أورده الدكتور طه حسين : «ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا» ، والثاني : أن البحث العلمي الحديث أثبت خلافًا جوهريّا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في

(1) قريش : 1 ، 2 .

جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد ، ثم يشير إلى هذه النقوش الحميرية التي اكتشفت ، والتي تمكن من يريد من إثبات الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضًا .

ويذكر الدكتور طه حسين أنه إذا كان أبناء إسماعيل عليه السلام قد تعلموا العربية من أولئك العرب العاربة ابتعدت المسافة ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب المستعربة حتى استطاع أبو عمرو بن العلاء أن يقول إنهما لغتان متمايزتان مختلفتان ، بل استطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة والبراهين التي لا تقبل الشك أو الجدال ... وهكذا يرى الدكتور طه حسين أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فواضح جدا لكل من له إلمام بالبحث التاريخي عامة، ويدرس الأساطير والأقاصيص خاصة . أن هذه المسألة متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية واقتصادية وسياسية .

إلى أن تجيئ عبارة جاءت استطرادًا في صلب هذا البحث الذي عقده عن الشعر الجاهلي واللغة ، وعن القحطانية «العرب العاربة» والعدنانية «العرب المستعربة» ، أي العرب العاربة والعرب المستعربة ، والخلاف الجوهري بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في شمال البلاد ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في جنوب البلاد إلى آخر هذه الأمور التي ذكرناها والتي تلح في البرهنة على أن الكثرة من هذا الشعر الذي يسمونه بالجاهلي والذي لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحًا .. وإلى هنا فلا شيء يؤخذ على الدكتور طه حسين أو يهاجم من أجله ، فالبحث عادي وعلمي لا يثير اللغط من قريب أو من بعيد . إلا أنه في استطراده في البحث كتب هذه العبارة : «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلًا عن أن هذه القصة التي تحدثت بهجرة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام إلى مكة ونشأة العرب المستعربين فيها ، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى...» .

هذه العبارة يقول عنها في حديث أجرته معه مجلة الأنفور مسيون الفرنسية ونشرته بعد ترجمته مجلة السياسة الأسبوعية في مايو 1926 قائلًا : «إنه يكفي لكي نثبت من الوجهة العلمية وجود إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في التاريخ أن يكون اسماهما قد ذكرا في التوراة والقرآن ، وليس معنى ذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يوجد قط ، كما نسب إلى البعض ذلك» .

وأما عن الحيلة لإثبات الصلة التي بين اليهود والعرب فيقول : «نحن نعلم أن حروبًا عنيفة نشبت بين هؤلاء اليهود وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد ، وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة ، فلا يبعد أن يكون هذا الصلح الذي استقر بين المغيرين من اليهود ، وأصحاب البلاد من العرب منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام . لا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئًا من التشابه غير قليل ، فأولئك وهؤلاء ساميون» .

إلى أن يصل إلى نتيجة لهذا البحث مؤداها أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ، ولا يمكن أن يكون صحيحًا ، ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئًا كثيرًا من الشعر الجاهلي قوما ينتسبون إلى عرب اليمن أو القحطانية العاربة ، التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن الكريم ، والتي كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء إن لغتها مخالفة للغة العرب، والتي أثبت البحث العلمي الحديث أن لها لغة أخرى غير اللغة العربية .

ويستطرد الدكتور طه حسين في بحثه عن اللغة والشعر الجاهلي قائلًا : «ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف إلى شعراء القحطانية - أي العرب العاربة في اليمن - لا نجد فرقًا قليلًا ولا كثيرًا بينه وبين شعر العدنانية - أي العرب المستعربة في مكة والمدينة - نستغفر الله!! بل نحن لا نجد فرقًا بين لغة هذا الشعر ، ولغة القرآن ، فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله؟ أمر ذلك يسير وهو أن هذا الشعر الذي يضاف إلى القحطانية قبل الإسلام ليس من القحطانية في شيء لم يقله شعراؤها وإنما حمل عليهم بعد الإسلام لأسباب مختلفة حين نعرض لهذه الأسباب التي دعت إلى انتحال الشعر الجاهلي في الإسلام .

وهناك أيضًا اختلاف في اللهجات حيث يقول : فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ، ولا متفقة اللهجة قبل ظهور الإسلام ، فيقارب بين اللغات المختلفة، ويزيل كثيرًا من تباين اللهجات واختلافها ، وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية ، وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ، ولا سيما إذ صحت النظرية التي أشرنا إليها آنفا وهي نظرية العزلة العربية ... فإذا صح هذا كله كان من المعقول أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ومذهبها في الكلام ، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ، ولهجات متقاربة ، ولكننا لا نرى شيئًا من ذلك في الشعر العربي الجاهلي ، فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي الصحيح ، فسترى فيها مطولة لامرئ القيس وهو من كندة أي من قحطان، وأخرى لعنترة وثالثة للبيد وكلهم من قيس ، ثم قصيدة لطرفه ، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة وكلهم من ربيعة ... تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافًا في اللهجة ، أو تباعدًا في اللغة ، أو تباينًا في مذهب الكلام .. فالبحر العرضي هو هو ، وقواعد القافية هي هي ، والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين ، والمذهب الشعري هو هو .. فنحن بين اثنتين فإما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان لا في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي ، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل بعد الإسلام حملًا ، ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى ، فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان» .. إلى آخر ما قاله ورآه في عدم اختلاف اللهجات بين ما جاء به هذ الشعر الذي ينسب إلى الجاهلية ، وبين واقع لهجات القبائل العربية قبل الإسلام .

ومن البراهين التي ترى أن بعض الشعر الجاهلي ليس جاهليًا وإنما هو إسلامي شكلًا ومضمونًا ، الاستشهاد بالشعر الجاهلي على ألفاظ القرآن الكريم ، وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين : «إنا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة

للاستشهاد على ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ونحوهما ومذاهبهما الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسرًا ، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قد على قد القرآن والحديث ، كما يقد الثوب على قد لابسه .. لا يزيد ولا ينقص ما أراد طولًا وسعةً ، إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء ، وأن هذه الدقة في الموازاة بين القرآن والحديث ، وبين الشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلى أن يقول متسائلًا «أليس يمكن ألا تكون هذه الدقة والموازاة نتيجة من نتائج المصادفة وإنما هي شيء تكلف وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي ؟» .

* * *

يبقى بعد ذلك في مجال الشك في صحة الشعر الجاهلي هو أن هذا الشعر لم يصلنا إلا عن طريق الرواية الشفهية .. والدكتور طه حسين لا يتحدث عن هذا الجانب كما صنع في الجوانب الأربعة السابقة وهي أن هذا الشعر لا يمثل الحياة في العصر الجاهلي، وأن هناك اختلافًا في اللغة ، واختلافًا في اللهجات ، وأنه يستشهد به على ألفاظ القرآن والحديث . إنه يكتفي بأن يشير إليه إشارات عابرة لا يقف عندها طويلًا ، وإن كان حديثه - أي طه حسين - يتضمن أثر هذا الدافع الأخير وهو الرواية الشفهية في نفسه ، ولعل أصرح وأوضح جملة عن هذا الأمر قوله : «وحسبي أن شعر أمية بن أبي الصلت لم يصل إلينا إلا من طريق الرواية والحفظ لأشك في صحته كما شككت في شعر امرئ القيس والأعشى وزهير» .

ويختم هذا القسم أو الباب أو الكتاب الأول كما يسميه طه حسين بتساؤل هو : «أرأيت أن التماس الحياة الجاهلية سواء الدينية أو العقلية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية .. في القرآن الكريم أجدى وأنفع من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه جاهليًا !؟ وأرأيت أن هذا أمر أهل الجاهلية وحياتهم ، بالرجوع إلى المصادر الإسلامية ، وفي مقدمتها القرآن الكريم وليس فيما ترك الجاهليون من أشعار حتى ولو كانت على لسان امرئ القيس أو طرفة بن العبد أو عنترة بن شداد؟!» .

إن هذا البحث للدكتور طه حسين قد يزيل عنه أي اتهام بالكفر والإلحاد ، ذلك الذي سنرى في الصفحات التالية ، وكما هو مثبت في وثيقة قرار النيابة ببراءة الدكتور طه حسين.

■ 3 ■
أسباب انتحال الشعر الجاهلي

يحتوي القسم الثاني أو الكتاب الثاني كما يسميه الدكتور طه حسين من كتابه «في الشعر الجاهلي» على ستة موضوعات تناقش «دوافع وأسباب انتحال الشعر» بصفة عامة، والشعر الجاهلي بصفة خاصة تبدأ هذه الموضوعات بمناقشة أن الانتحال ليس مقصورًا على العرب لتتوالى بقية الموضوعات وهي : «السياسة وانتحال الشعر» و«الدين وانتحال الشعر» ، و«القصص وانتحال الشعر» و«الشعوبية وانتحال الشعر» ، و«الرواة وانتحال الشعر» . حيث يتناول كل موضوع من هذه الموضوعات بالبحث والدراسة ليخلص في النهاية إلى دوافع وأسباب الانتحال .

ونبدأ بتمهيده لهذه الدوافع والأسباب الخاصة بالانتحال ، بالموضوع الذي يدور حول الانتحال ليس مقصورًا على الأمة العربية ، وإنما يتجاوزها إلى غيرها من الأمم ذات الثقافات القديمة ، وخاصة الأمتين اليونانية والرومانية ، فنجد أن انتحال الشعر قد حدث في هاتين الأمتين القديمتين قبل الأمة العربية ، وحمل على القدماء من شعرائهما، وانخدع به الناس وآمنوا ، ونشأت عن هذا الانخداع والإيمان ، سنة أدبية توارثها الخلف عن السلف مطمئنين إليها حتى كان العصر الحديث ، حين استطاع النقاد من أصحاب التاريخ والأدب واللغة والفلسفة أن يردوا الأشياء إلى حقيقتها وأصولها بقدر ما يستطيعون .

وبهذا الأسلوب استطاعت الحركة النقدية في هاتين الأمتين أن تصل إلى نتائج غيّرت تغييرًا تامّا ما كان معروفًا ومتوارثًا من تاريخهما وآدابهما بل وعلومهما . وقد كان منشأ هذه الحركة النقدية ، إنما هو في حقيقة الأمر تأثر الباحثين في الأدب والتاريخ بهذا المنهج نفسه الذي يدعو إليه الدكتور طه حسين في تقييمه للشعر الجاهلي ، وهو منهج ديكارت .

ويضرب مثلًا على ذلك بما حدث في هاتين الأمتين ، داعيًا القارئ إلى أن يقرأ من هذه الكتب الكثيرة التي تنشر الآن في أوروبا ، والمهتمة بتاريخ الآداب اليونانية والرومانية.. وبعد ذلك سأل نفسه هذه الأسئلة : ماذا بقي مما كان يعتقده القدماء في تاريخ الآداب : «أحق ما كان يعتقده القدماء في شأن الألياذة والأوديسا ؟ أحق ما كان يتحدث عنه هؤلاء القدماء في شأن هوميروس وهيروديوس وغيرهما من الشعراء القصصيين ؟ أحق ما كان هؤلاء القدماء يتخذونه أساسًا لسياساتهم وعلومهم وآدابهم ، بل وحياتهم عامة من أخبار اليونان والرومان؟» .

وفي هذا السياق ينبه الدكتور طه حسين بعد الوصول إلى إجابات لهذه الأسئلة إلى أن القارئ سوف يجد فرقًا بين ما كان يكتبه القدماء ، وما يقره المحدثون ، وذلك بسبب استخدامهم للمنهج الديكارتي الذي قلب موازين الأشياء .

والأمر نفسه نجده في آدابنا وعلومنا العربية . فقد نجد شيئًا من هذا الفرق - كما يرى الدكتور طه حسين بين ما كان يتحدث به ابن اسحق أو يرويه الطبري من تاريخ العرب في آدابهم وعلومهم وما يكتبه بعد ذلك المؤرخون عن هذه الآداب والعلوم في العصر الحديث .. والسبب أن أكثر هؤلاء المؤرخين القدماء لم يتأثروا بالمنهج الديكارتي ، بل والأخطر لم تستطع بعد ثقافاتنا أن تؤمن بشخصيتها ، وأن تخلص هذه الشخصية من الأوهام والأساطير التي دخلتها .. الأمر الذي لم ينج منه الحديث النبوي الشريف ، ولولا أن هناك رجالًا كانوا من أشد الناس حرصًا فتتبعوا ذلك ، واستطاعوا بمناهجهم العربية التي سبقت ديكارت وغيره من الأوروبيين أن يفرزوا هذه الأحاديث ويستخرجوا منها ما قد يكون قد علق بها من الإسرائيليات ، وبمعنى أعم وأشمل استطاع هؤلاء الرجال المخلصين في حضارتنا العربية الإسلامية أن يستخرجوا الأصيل والصحيح الذي لا شك في أنه كان حديثا نبويًا صحيحًا ، ويا ليت هذا الأسلوب أو المنهج قد اتبع في تراثنا من الشعر الجاهلي . لكن الذي حدث ظللنا مؤمنين بهذا الشعر ينقله ويتأثر به الخلف عن السلف ، ومن الأوراق الصفراء إليى الأوراق البيضاء باستثناء ما فعله

وصنعه بعض النقاد الأقدمين وفي مقدمتهم ابن سلام الجمحي وغيره ممن وضعوا الشعر الجاهلي في الميزان فشكوا في بعضه ، وهو ما صنعه بعد ذلك طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» مستنيرًا بهذه المناهج العربية القديمة ، وإلى جانبها منهج ديكارت الحديث ، والأساليب التي اتبعها الأوروبيون في تنقيتهم للآداب اليونانية والرومانية .

* * *

وبعد مناقشته لسبق الأمم القديمة على أمتنا العربية في انتحال الشعر كظاهرة في كل الآداب والعلوم وفي مقدمتها آداب وعلوم اليونان والرومان ينتقل إلى موضوع السياسة وانتحال الشعر فيرى أن سببها الأول هو العصبية ، وتأثيرها في الشعر والشعراء ، ويضرب مثلا لذلك لعله في كيفية تأثير عصبية الزبير وبني هاشم في شعر شاعر كبير في طول قامة حسان بن ثابت ، وشاعر كبير آخر هو النعمان بن بشر لمناهضة الخصوم، وكيف كان لهذه العصبية من تأثير على الشعر والشعراء .

ويذكر الدكتور طه حسين أنه قد يستطيع الكاتب في التاريخ السياسي أن يضع كتابًا خاصًا عن العصبية بين قريش والأنصار ، وما كان لهذه العصبية من تأثير في حياة المسلمين أيام بني أمية ، ليس في المدينة ومكة ودمشق ، وإنما في مصر والأندلس ، كما يستطيع هذا الكاتب أن يضع سفرًا مستقلًا عن هذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير في شعر الفريقين على شعرائهما في الجاهلية .. ذلك لأن هذه العصبية لم تكن مقصورة على مكة والمدينة ، ولكنها تجاوزت إلى العرب كافة ، فتعصبت العدنانية على اليمنية، وتعصبت مضر على بقية عدنان ، وتعصبت ربيعة على مضر ، وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب ، وعصبية بكر .. وقل مثل ذلك في اليمن ، فقد كانت للأزد عصبيتها ، ولحمير عصبيتها ، ولقضاعة عصبيتها ، وكانت هذه العصبيات تتشعب وتتفرع بأشكال الظروف الإقليمية والسياسية التي تحيط بها . فلها شكل في الشام ، وآخر في العراق ، وثالث في خراسان ورابع في الأندلس.. وهكذا أزالت هذه العصبيات سلطان بني أمية، لأنهم أرادوا أن يعتزوا بفريق من العرب ضد فريق ، مما قوّى العصبيات وعجزوا عن ضبطها .

وهذه العصبيات التي كان لها تأثيرها على الشعر والشعراء كان لها تأثير على القبائل العربية في جهادها السياسي العنيف ، وهنا تحرص كل واحدة منها على أن يكون قديمها في الجاهلية رفيعًا مؤثلًا بعيد العهد ، وقد أرادت الظروف أن يضيع الشعر الجاهلي ، لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد وإنما كانت ترويه حفظًا ، فلما كان ما كان في الإسلام من حروب الردة ، ثم الفتوحات ، ثم الفتن ، قتل من الرواة والحفاظ خلقٌ كثير ، ثم اطمأنت العرب في الأمصار أيام بني أمية وراجعت شعرها ، فإذا أكثره قد ضاع ، وأقله قد بقي ، وهي بعد في حاجة إلى الشعر تقدمه ومؤداه لهذه العصبية المضطرمة ، فاستكثرت من الشعر وقالت منه القصائد الطوال وغير الطوال ونحلتها شعراءها القدماء .

ويؤكد الدكتور طه حسين هذا الأمر مشيرًا إلى أنه ليس شيئًا نفترضه أو نستنبطه استنباطا، وإنما هو شيء كان يعتقده القدماء أنفسهم ، وقد حدثنا به محمد بن سلام الجمحي في كتابه «طبقات فحول الشعراء» مسجلًا أن : «قريشًا كانت أقل العرب شعرًا في الجاهلية ، فاضطرها ذلك إلى أن تكون أكثر العرب انتحالا للشعر في الإسلام» .

ويستطرد الدكتور طه حسين قائلًا : «ولابن سلام مذهب في الاستدلال لإثبات أن أكثر الشعر قد ضاع ويرى - أي ابن سلام - أن طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص من أشهر الشعراء الجاهليين وأشدهم تقدمًا . ولكن الرواة لم يحفظوا لهذين الشاعرين إلا قصائد عشر» .

بل ويتجاوز ابن سلام ذلك ، بل هو ينقد ما كان يرويه ابن اسحاق وغيره من أصحاب السير من الشعر ويضيفونه إلى عاد وثمود وغيرهم ، ويؤكد أن هذا الشعر منحول مختلق، وأي دليل على ذلك بعد أن أوضح القرآن الكريم أن هذه النصوص القرآنية أثبتت أن الله قد أباد عاد ، وثمود ولم يبق منهم باقية .

وينتهي الدكتور طه حسين إلى نتيجة وهي أن العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت أهم الأسباب التي حملت العرب على انتحال الشعر ، وشقوا من هذه العصبية شقاءً كثيرًا . وأنه من هذه النتيجة استطاع أن يستخلص منها قاعدة علمية

هي أن مؤرخ الآداب مضطر حين يقرأ الشعر الذي يسمى جاهليًا عليه أن يشك كلما رأى شيئًا من شأنه تقوية العصبية ، أو تأييد فريق من العرب ، وأنه ينبغي أن يشتد هذا الشك كما كانت القبيلة أو العصبية التي يؤيدها هذا الشعر قبيلة أو عصبية لها دور في الحياة السياسية .

* * *

وإذا ما انتقلنا إلى موضوع الدين وانتحال الشعر نجد أنه لم تكن العواطف والمنافع الدينية أقل من العواطف والمنافع السياسية . وليس هذا في العصور المتأخرة وحدها بل في العصر الأموي أيضًا ، وربما ارتقى عصر الانتحال بالدين إلى أيام الخلفاء الراشدين .. وهناك أمثلة منها :

كان الانتحال في بعض أدواره يقصد به إثبات صحة النبوة وصدق النبي ﷺ ، وكأن هذا النوع من الشعر موجه إلى عامة الناس . فهذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهدًا لبعثة النبي ﷺ وكل ما يتصل بها من الأخبار التي تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم ، وأحبار اليهود ورهبان النصارى .. كانوا ينتظرون ظهور نبي عربي يخرج من قريش أو مكة .

ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته إلى أهل الجاهلية ، هو ما يتصل بتعظيم شأن النبي ﷺ من ناحية أسرته ونسبه في قريش .

ونوع ثالث من تأثير الدين في كل الشعر ، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب ، وإثبات أن القرآن الكريم كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب ، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن الكريم بشيء من شعر العرب ، يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها .

ونوع رابع من تأثير الدين في نحل الشعر هو في هذه الخصومات بين العلماء ، والتي كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته ، ومن هنا كان هؤلاء العلماء حريصين

على أن يظهروا دائما بمظهر المنتصرين .. وأي شيء يتيح لهم هذا غير الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن الكريم؟!

ونوع خامس من تأثير الدين في انتحال الشعر هو وجود أفراد قبل الإسلام كانوا يحتفظون بالحنفية دين إبراهيم عليه السلام ، وكان في أحاديثهم ما يشبه الإسلام . وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين : «فأحاديث الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم بعد الإسلام ، لا شيء إلا ليثبت أن للإسلام في بلاد العرب قدمه وأصالته وأوليته».

ثم يتحدث الدكتور طه حسين عن المسيحية واليهودية فيقول : «ليس من المعقول أن ينتشر هذان الدينان في البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر في الشعر العربي قبل الإسلام. وقد راينا أن العصبية العربية حملت العرب على انتحال الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم في الجاهلية بعد أن ضاع هذا الشعر . فكذلك الأمر لدى اليهود والنصارى الذين تعصبوا لأسلافهم في الجاهلية وقرروا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم «من الوثنيين فنحلوا كما نحل غيرهم ، ونظموا شعرًا أضافوه إلى «السموؤل بن عادياء» من شعراء اليهود أو «عدي بن زيد» من شعراء النصارى .

وقد أثبت الدكتور طه حسين أن للدين تأثيرًا في انتحال الشعر حتى يوجد بعض العرب في الإسلام أمجادًا لهم في الجاهلية ، فيلفقون الأحداث وينظمون حولها الشعر .

فكان للعواطف الدينية على اختلافها وتنوع أغراضها مثل ما للعواطف السياسية من التأثير في انتحال الشعر وإضافته إلى العصر الجاهلي ، وفي هذا ينبه الدكتور طه حسين قائلًا : «إذا كان من الحق أن نحتاط في قبول الشعر الذي يظهر فيه تأثير ما للأهواء السياسية ، فمن الحق أيضًا أن نحتاط في قبول الشعر الذي يظهر فيه تأثير للدين» .

وأكبر الظن أن الشعر الذي يسمى جاهليًا – في رأي الدكتور طه حسين – مقسم بين السياسة والدين ، فذهبت هذه – أي السياسة – بشطر منه ، وذهب هذا – الدين – بالشطر الآخر .

وحين ينتقل إلى القصص والقصاصين يحدثنا عن نشأة هذه القصص وقيام طائفة القصاصين فيقول : «.. وأنت تعلم - مخاطبًا القارئ - أن القصص العربي لا قيمة له ولا خطر في نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين . ومن هنا فقد كان القصاص أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير من الشعر يزينون بها قصصهم، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه ، وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون .. فكانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لها القصائد وينسقونها ..» .

ونخص بالذكر ثلاثة أنواع من القصص هي : قصص لتفسير طائفة من الأمثال والأسماء والأمكنة ، وقصص المعمرين وأخبارهم ، وقصص لأيام العرب وأخبارهم .

هذا الفن القصصي تناول الحياة العربية والإسلامية كلها من ناحية خيالية لم يقدرها الذين درسوا تاريخ الآداب العربية قدرها ، ولا يستثنى منهم سوى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - كما يقرر طه حسين -- الذي فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص في انتحال الشعر وإضافته إلى أهل الجاهلية ، كما فطن لأشياء أخرى قيمة وأحاط بها إحاطة حسنة في الجزء الأول من كتابه «تاريخ آداب العرب» .

ويذكر الدكتور طه حسين في مناقشته لهذا الموضوع الخاص بالقصص وانتحال الشعر ملاحظة على جانب كبير من الأهمية هي أن هؤلاء القصاصين من المسلمين قد تركوا آثارًا قصصية لا تقل روعةً وحسن موقع في النفس عن «الإلياذة والأوديسيا» ، وكل ما بين القصص الإسلامي واليوناني من الرفق هو أن الأول لم يكن شعرًا كله ، وإنما كان نثرًا يزينه الشعر ، بينما كان الثاني - أي اليوناني - شعرًا ، وأن الأول لم يكن يلقيه صاحبه على أنغام الموسيقى ، بينما كان القاص اليوناني يعتمد على الأداة الموسيقية اعتمادًا تامّا، وأن الأول لم يجد من عناية المسلمين ، مثلما وجد الثاني من عناية اليونانيين ، فبينما كانوا يقدسون «الإلياذة» و«الأوديسيا» ، ويعنون بجمعهما وترتيبهما وروايتهما وإذاعتهما .. كان المسلمون لا يهتمون كثيرًا بهذه القصص ، باستثناء ما كانت تذكر في القرآن .

وينتقل إلى موضوع «الشعوبية وانتحال الشعر» فيعتقد أن هؤلاء الشعوبيين قد انتحلوا أخبارًا وأشعارًا كثيرة ، أضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين ، ولم يقف أمرهم عند انتحال الأخبار والأشعار ، بل قد جعلوا خصومهم ومناظريهم يضطرون إلى الانتحال والإسراف فيه ، ولعل سبب ذلك كان في هذا الحقد الذي أضمره الفرس المغلوبين للعرب الغالبين، وأن هذه الخصومة بين الطرفين قد أخذت مظاهر مختلفة منذ تم الفتح للعرب ، وأحدثت آثارًا مختلفة بعيدة في حياة المسلمين الدينية والسياسية والأدبية . إلا أنه يهتم بالحياة الأدبية وحدها ، وفي انتحال الشعر والأخبار وأضافوها إلى العرب ذكرًا لمآثر الفرس ، وما كان لهم من سلطان ومجد في الجاهلية فكان العرب مضطرين إلى أن يجيبوا بلون من الانتحال يشبه هذا اللون ، في تغليب للعرب على الفرس ، وفيه إثبات أن مُلك الفرس في الجاهلية وتسلطهم على العرب لم يكن من شأنه أن يذل العرب أو أن يقدم عليهم الفرس .

ومن هنا كانت مواقف هذه الوفود التي تتحدث أمام كسرى بأمجاد العرب وعزتها ومنعتها وإبائها للضيم ، ومن هنا أيضا كانت هذه المواقف التي تضاف إلى ملوك الحيرة، والتي تظهر هؤلاء الملوك مناهضين للملك الأعظم ، ثم من هنا كانت هذه الأيام والوقائع التي كانت للعرب على الفرس .

وعلى هذا فالشعوبية – كما يرى الدكتور طه حسين – في مظهرها السياسي الأول قد حملت الفرس على انتحال الأشعار والأخبار ، ومن ناحية أخرى اضطرت العرب على أن يقابلوا الانتحال بمثله .

ويبدي الدكتور طه حسين ملاحظة مؤداها : أن الكثيرين من العلماء الذين انصرفوا إلى الأدب واللغة والكلام والفلسفة كانوا من العجم والموالي ، وليسوا من العرب ، وهؤلاء كانوا يستظلون بسلطان الوزراء والمشيرين من الفرس ، وكانت غايتهم قد استحالت من إثبات سابقة الفرس في الملك والسلطان إلى ترويج هذا السلطان الذي اكتسبوه أيام بني العباس ، وإقامة الأدلة الناهضة على أن الأمر قد رُدّ إلى أهله ، وعلى أن هؤلاء العرب حيل بينهم وبين السيادة الفعلية ، لم يكونوا أهلًا لهذه السيادة . ومن هنا ازدرى هؤلاء العلماء والمناظرون العجم والموالي وغضوا من أقدارهم .

ولعل أصدق مثال لهذه الخصومة العنيفة بين علماء العرب ، والموالي - كما يرى الدكتور طه حسين - هو هذا الكتاب الذي كتبه الجاحظ في البيان والتبيين وهو كتاب العصا في أن أصل هذا الكتاب هو أن الشعوبيين كانوا ينكرون على العرب الخطابة، وينكرون على خطباء العرب ما كانوا يضيعون أثناء خطاباتهم من هيئة وشكل ، أو ما كانوا يتخذونه من أداة ، وكانوا يعيبون على العرب اتخاذ العصا والمخصرة وهم يخطبون. فكتب الجاحظ كتاب «العصا» ليثبت فيه أن العرب أخطب من العجم ، وأن اتخاذ الخطيب العربي للعصا لا يغض من فنه الخطابي .

لكن على الرغم من ذلك فإن الجاحظ وأمثاله من الذين يهتمون بالرد على الشعوبيين، لم يستطيعوا أن يعصموا حتى أنفسهم من الانتحال الذي كانوا يضطرون إليه اضطرارًا ليسكتوا خصومهم من الشعوبيين ، ولذلك يرى الدكتور طه حسين أن كل ما يرويه الجاحظ من الأشعار والأخبار في كتبه ، ويضيفه إلى الجاهليين صحيح ، وأن الخصومة حين تشتد بين الفرق والأحزاب فأيسر وسائلها الكذب . ومن هنا كانت الشعوبية تنتحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم ، وكان خصوم الشعوبية من العرب ينتحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم .

وأمر آخر أشار إليه الدكتور طه حسين هو أنه ينبغي أن يكون للعرب قول في كل شيء وسابقة في كل شيء ، وهم مضطرون إلى ذلك اضطرارًا ليثبتوا فضلهم على هذه الأمم المغلوبة ، واضطرارهم يشتد ويزداد بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسي ، وبمقدار ما ترفع هذه الأمم المغلوبة رؤوسها .

* * *

ويبقى بعد ذلك من أسباب انتحال الشعر ، سبب متصل بالرواة ، وهم بين اثنتين : إما أن يكونوا من العرب فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب ، وإما أن يكونوا من الموالي، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالي من تلك الأسباب العامة .. وهم - على تأثرهم بهذه الأسباب العامة - متأثرون بأشياء أخرى هي التي يمكن الوقوف عندها وقفات .

لعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي وجعلت حظه من الهزل عظيما، مجون الرواة وإسرافهم في اللهو والعبث، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق، إلى ما يأباه الدين، وتنكره الأخلاق.

ويذكر الدكتور طه حسين اثنين من هؤلاء الرواة أحدهما حماد الراوية، والآخر هو خلف الأحمر .. وقد كان حماد الراوية زعيم أهل الكوفة في الراوية والحفظ، وكان خلف الأحمر زعيم أهل البصرة في الرواية والحفظ أيضًا، وكان كل من الرجلين سكيرًا فاسقًا مستهترًا بالخمر والفسق، كما كان كلٌّ منهما صاحب سخرية ودعابة ومجون.

فأما حماد الراوية فكان يسرف في الرواية والتكثر منها، وأخباره في ذلك لا يكاد يصدقها أحد، فلم يكن يُسال عن شيء إلا عرفه. حتى قيل عنه إنه يستطيع أن يروي على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة لمن لم يعرفهم من الشعراء.

وأما خلف الأحمر فتكلم الناس في كذبه، وابن سلام ينبئنا بأنه أفرس الناس ببيت شعر، ويتحدثون عنه بأنه وضع لأهل الكوفة ما شاء الله أن يضع لهم، ثم رجع في آخر أيامه فأنبأ أهل الكوفة بما كان قد وضع لهم من الشعر فلم يصدقوه، واعترف هو للأصمعي بأنه وضع غير قصيدة، ويزعمون أنه وضع لامية العرب على الشاعر الشنفري ولامية أخرى على الشاعر «تأبط شرًّا» كانت قد رويت في الحماسة.

وهناك طائفة من الرواة غير هذين الراويين - حماد وخلف - ليس من شك في أنهم كانوا يتخذون الانتحال في الشعر وسيلة للكسب، وكانوا يفعلون ذلك في شيء من السخرية والعبث. وهم الأعراب الذين كان يرتحل إليهم في البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب منه. أي يسألون عن ما يجهلون.

إلى آخر هذه الأسباب والدوافع لانتحال الشعر. الأمر الذي يجعلنا نجتهد في استخراج الصحيح منه لإضافته إلى الشعراء الجاهليين من الشعر. وسبيل ذلك دراسة الشعر نفسه في ألفاظه ومعانيه كما يرى الدكتور طه حسين. وهذا منهج علمي دقيق ينبغي استخدامه في إثبات صحة الشعر الجاهلي.

■ 4 ■

الشك في شعر وشعراء الجاهلي

القسم الثالث أو الكتاب الثالث كما يسميه الدكتور طه حسين من كتابه «في الشعر الجاهلي» وعنوانه : «الشعر والشعراء» . ويحتوي على خمسة موضوعات أو فصول هي: «قصص وتاريخ» ، «امرئ القيس ، وعبيد ، وعلقمة» ، و«عمرو بن قميئة ، ومهلهل، وجليلة»، و«عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة» ، و«طرفة بن العبد ، والمتلمس» ، بحيث يتناول كل موضوع أو فصل بالبحث والدراسة ، مبررًا شكه في الشعر الجاهلي وشعرائه، من خلال تقديمه لهم وفق منهج الشك الديكارتي الذي استخدمه في تقييمه لجوانب هذا الشعر الجاهلي فيما سبق من صفحات كتابه . وكذلك وفق مناهج العرب الأقدمين في شكهم في صحة بعض الشعر الجاهلي ، وفي مقدمتهم ابن سلام الجمحي وغيره . كما سنرى بعد ذلك .

ويبدو أنَّ الدكتور طه حسين قد اعتبر الموضوع الأول وعنوانه : «قصص وتاريخ» تمهيدًا أو تقديمًا للموضوعات أو الفصول الأربعة التالية .. تلك التي تتضمن تقييمه لعشرة شعراء جاهليين ، قسمهم إلى أربع مجموعات كل مجموعة من شعرائها متجانسة تجانسًا ملحوظًا .

فهو يرى أننا «لن نستطيع معرفة أن ما يروى من سيرة هؤلاء الشعراء الجاهليين ، وما يضاف إليهم من الشعر تاريخ يمكن الاطمئنان إليه ، أو الثقة به ، وإنما كثرة هذا كله قصص وأساطير لا تفيد يقينًا ولا ترجيحًا ، وإنما تبعث في النفوس ظنونًا وأوهامًا ، وسبيل الباحث المحقق أن يستعرضها في عناية وبراءة من الأهواء والأغراض ، فيدرسها

محللًا ناقدًا مستفيضًا في النقد والتحليل ، فإن انتهى من درسه هذا إلى حق ، أو شيء يشبه الحق أثبته محتفظًا بكل ما ينبغي أن يحتفظ به من الشك الذي قد يحمله على أن يغيّر رأيه ، ويستأنف بحثه ونظره من جديد» .

وللدكتور طه حسين الحق في ذلك ، فأخبار الجاهليين لم تصل إلينا من طرق تاريخية صحيحة ، وإنما وصلت إلينا من هذه الطرق التي تصل منها القصص والأساطير مثل : طرق الرواية الشفاهية والأحاديث ، طرق الفكاهة واللعب ، طرق التكلف والاصطناع أو الانتحال . ولذلك فنحن مضطرون أمام هذه الطرق إلى أن نقاوم ميولنا وأهواءنا وفطرتنا التي هي مستعدة للتصديق والاطمئنان في سهولة ويسر ، ونحن لا نعرف نصّا عربيّا وصل إلينا من طرق تاريخية صحيحة يمكن أن نطمئن إليها قبل القرآن الكريم ، إلا طائفة من النقوش لا تثبت في الأدب حقا ، ولا تنفي منه باطلا . وهي إن أفادت في تاريخ الفن التشكيلي (الرسم) ، فذلك كل ما يمكن أن يؤخذ منها إلى وقت كتابة البحث عن الشعر الجاهلي .

وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين : «القرآن وحده هو النص العربي القديم الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ويعتبره مشخصًا للعصر الذي تُلي فيه . فأما شعر هؤلاء الشعراء ، وخطب هؤلاء الخطباء ، وسجع هؤلاء الساجعين .. فلا سبيل إلى الثقة بها ، ولا الاطمئنان إليها ، ولا سيما بعد ما بسطنا ذلك في الكتاب الأول – الفصل الأول من كتابه في الشعر الجاهلي – من الأسباب التي تدعو إلى الشك في صحتها ، وبعد ما بسطنا ذلك في الكتاب الثاني – الفصل الثاني من كتابه – من الأسباب التي كانت تحمل الناس على التكلف والانتحال ..» .

وتأسيسًا على ذلك ، وعلى ما سبق مما عرفناه من نظرية «طه حسين» ومنهجه ، يجب أن يكون لمؤرخ الآداب العربية موقفان مختلفان . أحدهما طريق الأساطير والأسمار التي تروى عن العصر الجاهلي وشعرائه ، والطريق الثاني هو طريق النصوص التاريخية الصحيحة التي تبتدئ بالقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وهو ما بينه الدكتور

طه حسين فيما سبق من صفحات كتابه ، مبينًا ومؤكدًا أن هذا ليس شأن الآداب العربية وحدها ، وإنما هو شأن الآداب القديمة كلها ، ضاربًا المثل بالأدب اليوناني ، والأدب الروماني . في كيفية الاطمئنان إلى المصادر التي لا يرقى إليها أي شك .

والدكتور طه حسين لا يزعم أن القدماء من الشعراء وغيرهم في العصر الجاهلي كانوا شرّا من المحدثين ، كما لا يزعم أيضًا أنهم كانوا خيرًا منهم ، وإنما أولئك وهؤلاء سواء.. لا تفرق بينهم إلا ظروف الحياة التي تصدر طبائعهم صورًا ملائمة لها دون أن تغير هذه الطبائع فالقدماء كانوا يكذبون كما يكذب المحدثون ، وكانوا يخطئون كما يخطئ المحدثون . وكان حظ القدماء من الخطأ أعظم من حظ المحدثين . لأن العقل لم يبلغ من الرقي في تلك العصور ما بلغ في هذا العصر الحديث ، ولم يستكشف من مناهج البحث والنقد ما استكشف في هذا العصر . فإذا أخذنا أنفسنا بأن نقف أمام القدماء موقف الشك والاحتياط فلسنا مخطئين ولا مسرفين ، وإنما نحن نؤدي لعقولنا حقها ، ونؤدي للعلم ما له علينا من حق ، وإذا كنا نطلب إلى أنصار القديم شيئًا فهو أن يكونوا منطقيين، حيث يلائمون بين حياتهم المعاصرة حين يقرأون ويكتبون ، وحياتهم بعد ذلك حين ينشرون ويصدرون .

ويختم الدكتور طه حسين هذا الفصل أو الباب بقوله : «فلنتناول مع الإيجاز الشديد شيئًا من البحث عن الشعر والشعراء في العصر الجاهلي لنرى إلى أي شيء نستطيع أن نطمئن من هذه الأشعار والأخبار التي امتلأت بها الكتب والأسفار القديمة» .

* * *

ويبدأ موضوعه الثاني الذي يتناول ثلاثة شعراء هم : «امروء القيس ، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة» بادئًا بالشاعر امرئ القيس حيث يتحدث عنه بإسهاب مقارنًا إيّاه بالشاعرين الآخرين عبيد وعلقمة مشيرًا إلى ملحوظة على جانب كبير من الأهمية تتعلق بأن قبيلة كندة التي ينتسب إليها امروء القيس كانت - هي - بالذات منبع القصص والأساطير التي تروي وتحكي عن العصر الجاهلي قائلًا : «فأكبر الظن أنها - أي القصص والأحاديث

والأساطير . نشأت في هذا العصر ولم تورث عن العصر الجاهلي حقًا ، وأكبر الظن أن الذي أنشأ هذه القصة ونماها هو هذا المكان الذي احتلته قبيلة كندة في الحياة الإسلامية منذ تمت للنبي ﷺ السيطرة على البلاد العربية ، إلى أواخر القرن الأول للهجرة ...» .

ويؤصل لهذه الفكرة ، فكرة أن قبيلة كندة وهي القبيلة التي انتسب إليها امرؤ القيس كانت منبع القصص والأحاديث والأساطير في رأيه . منذ أن وفد على النبي ﷺ وفد من كندة على رأسه الأشعث بن قيس ، طالبًا من النبي ﷺ أن يرسل معهم مفقها يعلمهم الدين ، وأن كندة ارتدَّت بعد وفاة النبي ، وأن عامل الخليفة أبي بكر رضي الله عنه حاصر كندة المرتدة في النجير وأدخلها مستعيدًا إياها إلى حظيرة الإسلام بعد أن قتل منهم أعدادًا كثيرةً ، بل وأوفد إلى أبي بكر طائفة من كندة بعد هزيمتها فيها الأشعث بن قيس نفسه الذي تاب وأناب وطلب مصاهرة أبي بكر فتزوج أخته ، وأن هذا الرجل - الأشعث بن قيس اشترك في فتح الشام ، كما شهد الحرب بين المسلمين والفرس وحسن بلاؤه في هذا كله ، وكانت مكافأته تولي الأعمال المهمة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت له مواقف مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأن ابنه محمد بن الأشعث بن قيس كان سيدًا من سادات الكوفة ، وعليه وحده اعتمد زياد حين أعياه أخذ حجر بن عدي الكندي ، وأن قتله مع نفر من أصحابه على يد بني أمية تركت أثرًا سيئًا وعميقًا في نفوس المسلمين عامة واليمنيين التي منها قبيلة كندة خاصة حيث صورت الأشعث بن قيس في صورة البطل الشهيد ، الذي جاء حفيد له هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد خلع عبد الملك بن مروان ، وعرض دولة بني مروان للزوال ، وكان ذلك سببًا في إراقة الدماء بين المسلمين في الشام والمسلمين في العراق حيث تم قتل عشرات الآلاف من الطرفين لتكون النتيجة هزيمة هذا الحفيد - أي عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ولجوؤه إلى ملك الترك ، ثم أعاد الكرة متنقلا بين مدن العراق وفارس ، ولكنه لم يحقق انتصارًا أو تقدمًا في مسعاه فعاد إلى ملك الترك . وأن هذا الأخير غدر به وأسلمه إلى عامل الحجاج في العراق ، وفي الطريق قبل أن يقع أسيرًا لدى الحجاج قتل نفسه ، لتجز رأسه ويطاف بها في العراق والشام ومصر .

وقد قصدنا من هذا التأصيل الذي أورده الدكتور طه حسين إلى أهمية توضيح ما يتعلق بالشعر الجاهلي عامة وشعر امرئ القيس وشخصيته خاصة حيث يتساءل الدكتور طه حسين قائلًا مخاطبًا القارئ: «أفتظن أن أسرة كهذة الأسرة الكندية تنزل هذه المنزلة في الحياة الإسلامية وتؤثر فيها وفي تاريخ المسلمين لا تصطنع القصص ولا تأجر القصاص والرواة لينشروا لها الدعوى ويذيعوا عنها كل ما من شأنه أن يرفع ذكرها ويعلي صوتها؟» ثم يجيب: «بلى»! ويحدثنا الرواة أنفسهم أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس اتخذ القصاص وأجرهم كما اتخذ الشعراء وأجزل صلتهم بالمال والتقرب منه.

ويخلص الدكتور طه حسين إلى نتيجة مؤداها أن ما يروى من أخبار كندة في الجاهلية متأثر من غير شك بعمل هؤلاء القصاص الذين كانوا يعملون لدى بني الأشعث، والأكثر من ذلك أن ما يروى عن امرئ القيس بنوع خاص يشبه إلى حد كبير ما يروى عن حياة عبد الرحمن بن الأشعث. فهي تمثل لنا امرأ القيس مطالبًا بثأر أبيه وهو ما فعله عبد الرحمن بن قيس منتقمًا لمقتل حجر بن عدي، كما تمثل لنا امرأ القيس طامعًا في الملك، وقد كان عبد الرحمن يرى أنه ليس أقل من بني أميه حتى لا يملك، وظل يطالب به، ثم إنها تمثل لنا امرأ القيس متنقلًا في قبائل العرب وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث متنقلًا في مدن العراق وفارس، كذلك تمثل لنا امرأ القيس لاجئًا إلى قيصر روما مستعينًا به كما صنع عبد الرحمن بن الأشعث من نفسه لاجئًا إلى ملك الترك مستعينًا به، وهي تمثل لنا أخيرًا امرأ القيس وقد غدر به قيصر، مثلما غدر ملك الترك بعبد الرحمن بن الأشعث، وهي تمثل لنا بعد هذا وذاك امرأ القيس وقد مات في الطريق عائدًا من بلاد الروم، مثلما مات عبد الرحمن أثناء عودته من بلاد الترك.

بعد هذا يتساءل الدكتور طه حسين: أليس من اليسير أن نفترض أن حياة امرئ القيس في الجاهلية كما تحدث عنها الرواة ليست إلا لونًا من التمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث في الإسلام استحدثه القصاص إرضاءً لهوى القبائل اليمنية مستعيرين له اسم الملك الضليل - أي الضال - اتقاء لعمال بني أمية من ناحية، واستغلالًا لطائفة يسيرة من الأخبار كانت تعرف عن هذا الملك الضليل من ناحية أخرى؟

أما شعر امرئ القيس فينقسم إلى قسمين - في رأي الدكتور طه حسين - أحدهما يتصل بقصة عبد الرحمن بن الأشعث التي أشرنا إليه منذ قليل فشأنه مثل شأن هذه القصة انتحل بعض هذا الشعر لتمثيل التنافس بين القبائل العربية ، وأما القسم الثاني فشعر لا يتصل بهذه القصة ، وإنما يتناول فنونًا من القول مستقلة عن الأهواء السياسية والحزبية .

ويشبه الدكتور طه حسين شخصية امرئ القيس بشخصية الشاعر اليوناني هوميروس حيث لا يشك مؤرخو الآداب اليونانية في أنها وجدت في الواقع حيث لا يعرفون من أمرها شيئًا يمكن الاطمئنان إليه . ثم يعقد مقارنة بين امرئ القيس وهذا الشاعر اليوناني تثبت أنهما متشابهان تمامًا ، وأن شعرهما إنما هو مظهر من مظاهر التنافس لدى امرئ القيس بين القبائل العربية ، ولدى هوميروس بين المدن اليونانية . ويعد كل من العملين انتحالًا .

ثم كانت هناك قصة انتحال أخرى تنسب لامرئ القيس هي قصة ذهاب امرئ القيس إلى القسطنطينية وما تتصل بها من أشعار منتحلة لا تفسير لها ، ولا إجابة عنها في شعر امرئ القيس منها : كيف زار امرؤ القيس القسطنطينية وخالط قيصرها وفتن ابنته ورأى مظاهر الحضارة هناك ؟ ولماذا لم يصف لنا هذا الشعر القصر الذي خالط فيه القيصر ، أو حتى كنيسة من الكنائس أو ابنة القيصر التي فتنها كما تقول القصص ؟ ولماذا لم يصف أي شيء يمكن أن يكون روميًا حقًا ؟ لماذا لا نحس في هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس إلا الضعف والاضطراب والجهل بالطريق إلى القسطنطينية ؟

وينتهي الدكتور طه حسين من تساؤلاته إلى القول : مخاطبًا القارئ : «إذا رأيت أن كل هذا الشعر الذي يتصل بسيرة امرئ القيس وما يتصل بها من قصص .. إنما هو من عمل القصاص ، فقد يصح أن نقف وقفة قصيرة عند القسم الثاني من شعر امرئ القيس وهو الذي لا يفسر سيرته ولا يتصل أي اتصال . وفي هذا الشعر قصيدتان أحق بالعناية مطلع كل واحدة منهما :

- **الأولى** : قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ

- **والثانية** : أَلا انْعَم صَبَاحًا أيُّها الطللُ البَالي

وأما ما عدا هاتين القصيدتين فالضعف فيه ظاهر والاضطراب فيه واضح ، والإسفاف فيه بيِّن ، وقد يصح أن نلاحظ ملاحظة هي أن امرأ القيس - إن صحت أحاديث الرواة - يمني الجنسية ، وشعره قرشي اللغة ، لا فرق بينه وبين القرآن الكريم في لفظه وإعرابه، وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ، مع أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز الذي نزل فيه القرآن . فكيف نظم امرؤ القيس اليمني شعره في لغة أهل الحجاز ؟ بل في قريش خاصة ؟ إلى آخر هذه التساؤلات التي طرحها الدكتور طه حسين نتيجة شكه في أغلب شعر امرئ القيس ووصفه بأنه منتحل .

ويتبع ذلك ما يضاعف الشك في شعر امرئ القيس هو أن امرأ القيس ابن أخت مهلهل وكليب - كما تقول الروايات والقصص - وأن هناك قصة طويلة نسجت حول مهلهل وكليب - فيما يقول القصاص - وهي قصة حرب البسوس التي دامت أربعين عامًا ... لماذا لم يشر امرؤ القيس إلى هذه الحرب التي كانت سببها مقتل خاله كليب ؟ وبلاء خاله مهلهل الناتج عن أخذ الثأر ؟ .. إلى جانب هذه المحن التي أصابت أخواله من بني تغلب، وهذه المآثر التي كانت لأخواله على قبيلة بني بكر؟

إننا نجد شكًّا في كل ذلك . كما نجده في اللغة ، وفي النسب ، وفي الرحلة التي قام بها إلى القسطنطينية ، وكذا نجد شكًّا في وصف اللهو مع العذارى أشبه ما يكون من انتحال الفرزدق في العصر الإسلامي منه بأن يكون جاهليًّا ، أو شكًّا آخر في وصف امرئ القيس لخليلته وما يتعلق بذلك أشبه بشعر عمر بن أبي ربيعة في العصر الإسلامي . مما يرجح أن هذا النوع من الغزل الذي يعرف به الفرزدق وابن أبي ربيعة غنمًا أضيف إلى امرئ القيس، أضافه الرواة متأثرين بهذين الشاعرين الإسلاميين .

* * *

وعن الشاعرين «علقمة ، وعبيد» يسجل الدكتور طه حسين في كتابه أنه لا يذكر امرؤ القيس إلا ويذكر معه هذان الشاعران الجاهليان علقمة وعبيد .

فأما علقمة لا يكاد الرواة يذكرون عنه شيئًا إلا مفاخرته لامرئ القيس ، ومدحه ملك غسان ، وأنه كان يتردد على قريش يناشدها شعره ، وأنه مات بعد ظهور الإسلام ، أي في عصر متأخر بالقياس إلى امرئ القيس الذي عاش قبل القرن السادس ، وربما عاش قبل ذلك .

وأما عبيد بن الأبرص فقد التمس الدكتور طه حسين سيرته وما يضاف إليه من الشعر الذي يعني بإثبات شخصية امرئ القيس وشعره فكانت النتيجة محزنة . ذلك أنها انتهت إلى أن عبيد وشعره لا يمكن تصديقه ، فالرواة يحدثوننا عنه بشئ لا يقبل التصديق . فعبيد عندهم شخص من أصحاب الكرامات والخوارق ، وأنه كان صديقًا للجن والسماء معًا؟! وأنه عمّر عمرًا طويلًا يصل إلى ثلاثة قرون؟! ومات ميتة منكرة حيث قتله النعمان بن المنذر ... وهكذا كل ما يقرأ من أخبار عبيد لا يعطينا شخصيته ، ولا يبعث على الاطمئنان .

وأما شعره فليس أشد من شخصيته غموضًا ، فالراة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع ، وابن سلام يحدثنا في موضع من كتابه «طبقات فحول الشعراء» أنه لم يبق من شعر عبيد وطرفة بن العبد إلا قصائد تقدر بعشر ، ولا يعرف له إلا قوله :

أَقفَر من أَهلِه مَلْحوبُ　　　فَالقطبيات فالذنوب

ثم يقول ابن سلام : «ولا أدري ما بعد ذلك» ولكن الرواة يروون هذه القصيدة كاملة، ويروون له شعرًا آخر في هجاء امرئ القيس ومعارضته .. ويكفي أن تقرأ لهذا الشاعر الجاهلي عبيد قصيدة يقول فيها ما يثبت وحدانية الله عز وجل وعلمه على مايثبت القرآن في آياته .

واللـهُ ليسَ لهُ شَريكُ　　　عَلَّامُ ما أَخْفَتِ القلوبُ

وهكذا نجد بعد الإشارة إلى هؤلاء الشعراء الثلاثة : «امرؤ القيس - وعبيد - وعلقمة» أن الصحيح في شعرهم لا يكاد يذكر ، وأن الكثرة المطلقة من هذا الشعر مصنوعة لا تثبت شيئًا ولا تنفي شيئًا بالقياس إلى العصر الجاهلي الذي ينتسبون إليه .

* * *

ونتنقل إلى الفصل الثالث من باب أو كتاب «الشعر والشعراء» كما يسميه الدكتور طه حسين ، والذي يدور حول ثلاثة شعراء هم : عمرو بن قميئة ، ومهلهل ، وجليلة . ويبدو أن هؤلاء الشعراء الثلاثة تربطهم ببعض سمات متجانسة ، كما تربطهم بامرئ القيس صلة قرابة حيث إن مهلهل خاله ، وجليلة زوجة خاله كليب . كما تربط الشاعر عمرو بن قميئة بامرئ القيس علاقة صداقة ، ولهذا فنرى الدكتور طه حسين يبدأ هذا الفصل بذكر جانب من هذه الروابط والصلات حيث يقول : «وشاعران آخران يتصل ذكرهما بذكر امرئ القيس ، كان أحدهما – فيما يقول الرواة – صديقًا له ، صحبه في رحلته إلى القسطنطينية ، ولم يعد من هذه الرحلة كما لم يعد امرؤ القيس ، وهو عمرو بن قميئة ، وكان الآخر خال امرئ القيس – فيما يقول الرواة – وهو مهلهل بن ربيعة .. «شقيق كليب بن ربيعة» .

ويزيدنا الدكتور طه حسين توضيحًا بمعرفة الشاعر عمرو بن قميئة وصلته بامرئ القيس، فيرى أن هناك شبهًا بين الشاعرين فإذا كان امرؤ القيس يسمى بالملك الضليل فإن عمرو بن قميئة يسمى عمرو الضائع ، لأنه ضاع مع امرئ القيس فلم يرجعا من رحلتهما – على ما يروي الرواة – ولكن الدكتور طه حسين يعود فيقول : «ونرى أن عمرو بن قميئة ضاع كما ضاع امرؤ القيس من الذاكرة ، ولم يعرف من أمره شيء إلا اسمه هذا كما لم يعرف من أمر امرئ القيس ، ولا من أمر عبيد بن الأبرص إلا اسمهما، ووضعت له قصة – أي لابن قميئة – كما وضعت لكل من صاحبيه قصة ، وحمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضًا .

وقصة عمرو بن قميئة التي يرويها الرواة ليست قيمة ، وإنما هي من قبيل الحديث المرسل فهم يزعمون أن أباه توفي عنه طفلا فكفله عمه ، ونشأ عمرو شابًا جميلًا فأحبته زوجة عمه، ودعته إلى نفسها فامتنع وفاءً لعمه ، وامتناعًا عن منكر وانصرف عنها هاربًا . حتى إذا عاد عمه ادعت الزوجة على الفتى ما لم يفعله ، فغضب عليه عمه ، وكاد أن يقتله مما دعاه إلى الهروب إلى الحيرة ، وهذه تذكرنا بقصة يوسف عليه السلام في القرآن

الكريم. وفي هذا قيل أنه أنشأ قصيدة أشار فيها إلى هذه القصة قائلًا :

وإنْ ظَهَرَتْ مِنِّي قَوارِصُ جَمَّةٌ   وأَفْرَغَ مِنْ لُؤمِي مرارًا وأَصْعَدا

عَلَى غِيْرِ جُرم أَنْ أَكُونَ جَنَيْتُه   سِوى قَولِ باغٍ كَادِني فَتَجَهَّدا

ويرى الدكتور طه حسين أن في هذه القصيدة انتحال متكلف . بالضبط كما في قصيدته التي قالها عندما بلغ التسعين من عمره فيها يصف عجزه وضعفه ، وفيها يقول :

كَأَنِّيَ قَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِيْنَ حِجّة   خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِنَانَ لِجَامِي

عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى العَصَا   أَنُوءُ ثَلاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي

* * *

وهكذا يمكن إضافة عمرو بن قميئة إلى صاحبيه الضائعين (عبيد بن الأبرص وامرئ القيس) ، وأن ننتقل إلى الشاعر الثاني مهلهل بن ربيعة الذي ارتبطت قصته بحرب البسوس التي دامت أربعين عاما بين قبيلتي تغلب وبكر طلبًا لثأر أخيه كليب بن ربيعة. وقد استمرت قصة هذه الحرب وطالت وعظم أمرها بعد ذلك في الإسلام حين اشتد التنافس بين ربيعة بطل هذه القصة تلك التي عظمت فيها الخصومة التي حدثت في الجاهلية القديمة وانتقل صداها إلى العصر الإسلامي حين تناولها القصاص ، واستغلوها استغلالًا قويًا حيث وجدت قبيلتا بكر وتغلب حاجتهما من مجد وسؤدد كانت تبحث عنه القبائل في الإسلام فكل كان يزعم أنهم كانوا من سادة العرب من عدنان في الجاهلية، وإذا لاحظنا الخصومة بين بكر وتغلب من ناحية ، وربيعة ومضر من ناحية أخرى في عصر بني أمية، وما كان من الخصومة الأدبية بين جرير شاعر مضر ، والأخطل من ناحية أخرى .. إذا تصورنا هذه الخصومات الأدبية بين هذه القبائل بعد الإسلام لم يصعب علينا كثرة الانتحال في القصص والشعر ، مما يؤدي إلى الشك فيما كانت تتحدث به بكر وتغلب حول هذه الحرب وبطلها مهلهل وشخصيته التي تركت لنا حرب البسوس منه صورة هي إلى الأساطير أقرب منها إلى أي شيء آخر إلى درجة أن ابن سلام شك في الكثير من الشعر الذي نسب إليه فرأى أن العرب كانت ترى أن مهلهلًا كان يتكثر ويدعي في شعره أكثر مما يعمل . والحق أن مهلهلًا لم يتكثر ولم يدع شيئًا ، وإنما تكثرت تغلب

في الإسلام ونحلته ما لم يقله ، ولم تكتف بهذا الانتحال بل زعمت أنه أول من قصد القصيدة وأطال الشعر في معلقات . وقد تراجعت العرب عن ذلك حين رأت أن في هذا الشعر اضطرابًا واختلاطًا ، سمي بسببه مهلهل أي لأنه هلهل الشعر .

وفي هذا ينبه الدكتور طه حسين أن هذه الهلهلة لا ترجع إلى هذا الشاعر أو غيره من شعراء الجاهلية ، وإنما ترجع إلى الذين وضعوه من القصاص والمنتحلين وأصحاب التنافس والخصومات بعد الإسلام . عما ينتج عنه الشك في بعض أشعار هؤلاء الشعراء الجاهليين .

ويشير الدكتور طه حسين إلى بعض هذا الشك حين نقرأ قصيدة لمهلهل الذي قيل عنه إنه أول من قال الشعر وطوَّله في الجاهلية فيقول مخاطبًا القارئ : «أليس يقع في نفسك هذا موقع الدهشة حين نلاحظ معه سهولة اللفظ ولينه - وهو ما يتعارض مع الأساليب والألفاظ الجاهلية - وإسفاف الشاعر فيه ، إلى حيث لا تشك أنه رجل من الذين لا يقدرون إلاّ على متبذل اللفظ وسوقية» .

وأما جليلة فيسجل عنها الدكتور طه حسين رأيًا مؤداه أنها ورثت زوجها كليبًا شقيق مهلهل بشعر يقول عنه : «لا ندري أيستطيع شاعر أو شاعرة في هذا العصر الحديث - وليس الجاهلي - أن يأتي بأشد منه ابتذالًا وإسفافًا!؟ مع أننا نقرأ للخنساء وليلى الأخيلية شعرًا فيه من قوة المتن وشدة الأسر ما يعطينا صورة صادقة للمرأة العربية البدوية ، ولهذا يعرض عن شعر هذه الشاعرة ويراه مجرد سجع مصنوع متكلف .

* * *

وفي انتقالنا إلى الفصل الرابع من باب أو كتاب الشعر والشعراء ، والذي يضم شاعرين جاهليين هما عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فإننا لا نتجاوز هذين ألحيين من قبيلة ربيعة وهما (حي بكر وحي تغلب) وما حدث بينهما من حروب وخصومات - على ما رأينا سابقًا - فعمرو ابن كلثوم في الأصل تغلبي ، وهو في عرف الرواة لسان تغلب الناطق ، وهو الذي سجل مفاخرها وأشاد بذكرها ، أو بعبارة أدق هو في قصديته التي

تروى بين المعلقات ورث القوة وشدة البأس وإباء الضيم عن جده مهلهل ، فقد كانت أمه ليلى بنت مهلهل على ما يقرر الرواة والقصاص . وقد أحيط في مولده ونشأته ، بل في مولد أمه بطائفة من القصص والأساطير يقول عنها الدكتور طه حسين : «لا يشك أشد الناس سذاجة في أنها لون من ألوان العبث والانتحال» .

بل ويقرر - أي الدكتور طه حسين - أنه سواء كان عمرو بن كلثوم شخصًا من أشخاص التاريخ أو حتى بطلًا من أبطال القصص والأساطير ، فإن القصيدة التي تنسب إليه لا يمكن أن تكون جاهلية ، ويتساءل - أي الدكتور طه حسين - هل نستطيع أن نطمئن إلى ما يتحدث به الرواة من أن عمرو بن كلثوم قتل ملك الحيرة عمرو بن هند لمجرد أن أمه طلبت من أم عمرو بن كلثوم أن تناولها طبقًا . لتقول الأخيرة - أم عمرو بن كلثوم ليلى بنت مهلهل - : واذلاه يالتغلب . ليسمع ذلك ابنها عمرو بن كلثوم الذي كان جالسًا مع الملك عمرو بن هند ، فيتناول سيفا كان معلقا يضرب به عنق الملك عمرو ابن هند، ولتنهض قبيلة عمرو بن كلثوم من بني تغلب فتنهب فيه الملك - بعد قتله - ويعودون إلى باديتهم!!؟ هل من المعقول أن يحدث هذا؟ أليس هذا لونا من ألوان الأحاديث التي كان يتحدث بها القصاص حيث يستمدونها من حاجة العرب إلى الفخر والتنافس؟ بلى. وقصيدة عمرو بن كلثوم نفسها نوع من هذا الشعر الذي كان ينتحل مع هذه الأحاديث، وحين نقرأها فإننا نتذكر مهلهلا - جد عمرو بن كلثوم - وكيف ورث عنه حفيده التكثر والمبالغة . الأمر الذي جعل الرواة أنفسهم يشكون في بعض من أبياتها الأولى فيتساءلون : أقالها عمرو بن كلثوم أم قالها غيره من الشعراء ؟ وإننا نجد منها مبالغةً وسخفًا ينتهي إلى قوله - أي ابن كلثوم - :

إِذَا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطَامًا ... تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِيْنَا

كما نجد فيها تكرار الحروف إلى درجة مملة حيث يقول :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحد علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

* * *

إلى آخر هذه الملاحظات التي أبداها الدكتور طه حسين ، ومن مجموعها شك في بعض هذه القصيدة التي تنسب إلى عمرو بن كلثوم .

ولعل القصيدة التي تنسب إلى ثاني هذين الشاعرين وهو الحارث بن حِلِّزة أمتن وأرصن من قصيدة عمرو بن كلثوم على ما يرى الدكتور طه حسين في تقدمته للحارث بن حلزة قائلًا : «كان لسان بكر فيما يقول الرواة ، ومحاميها والذائد عنها في عصر عمرو بن هند . زعموا أن عمرو بن هند أصلح بين القبيلتين المختصمتين بكر وتغلب ، واتخذ منهما رهائن فتعرضت رهائن تغلب لبعض الشر وهلكت ، أو هلك أكثرها . فتجنت تغلب على بكر وطالبت بالدية ، وأبت بكر ، وكادت تستأنف الحرب بينهما ، واجتمع أشرافهما إلى عمرو بن هند ليحكم بينهما ، وأحس الحارث بميل الملك عمرو بن هند إلى تغلب فنهض فاعتمد على قوسه ، وارتجل هذه القصيدة – على ما يقول القصاص – التي يكفي أن تقرأها لترى أنها ليست مرتجلة ارتجالًا ، وإنما هي قصيدة نظمت وفكر فيها الشاعر تفكيرًا طويلًا ورتب أجزاءها ترتيبًا دقيقًا . وليس فيها من الارتجال إلا شيء واحد هو هذا الأقواء الذي تجده في قوله :

فَمَلَكْنـا بِذَلِـكَ النَّـاسَ حَتَّـى ... مُلْـكِ المُنْـذِرِ بْـنِ مـاءِ السَّـماءِ

هذا الإقواء كان شائعًا عند الشعراء الإسلاميين الذين لم يكونوا يرتجلون في كل وقت، ومع هذا فقصيدة الحارث بن حلزة أمتن وأرصن من قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقد نظمتا في عصر واحد إن صح ما يقول الرواة . لأنهما مسوقتان إلى عمرو بن هند : وذلك بمقارنة القصيدتين ببعضهما بعضًا ، حيث بينهما فروق عظيمة في جودة اللفظ ، وقوة المتن وشدة الأسر .

ومع ذلك ينتهي الدكتور طه حسين إلى نتيجة في قوله : «على أن هذا لا يغير رأينا في القصيدتين ، فنحن نرجح أنهما منتحلتان ، وكل ما في الأمر أن الذين كانوا ينتحلون الشعر كانوا كالشعراء أنفسهم يختلفون قوةً وضعفًا ، شدةً ولينًا . فالذي انتحل قصيدة الحارث بن حلزة كان من هؤلاء الرواة الأقوياء الذين يحسنون تخير اللفظ وتنسيقه ونظم القصيد

في رصانة ومتانة .. وأن هاتين القصيدتين وما يشبهُما مما يتصل بالخصومة بين بكر وتغلب ، إنما هو من آثار التنافس بين القبيلتين في الإسلام لا في الجاهلية» ، وتأسيسًا على ذلك فالدكتور طه حسين يشك في بعض ما جاء في هاتين القصيدتين من شعر كل من عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة .

* * *

ويبقى من موضوعات الشعر والشعراء ، موضوع يدور حول شاعرين جاهليين هما «طرفة بن العبد والمتلمس» وهو يمثل الفصل الخامس ، لتنتهي بذلك كتب أو أبواب كتاب : «في الشعر الجاهلي» وما يتفرع عنها من فصول وموضوعات .

وطرفة بن العبد والمتلمس شاعران من ربيعة ، يجمعهما من قبل - كما يرى الدكتور طه حسين - على ما زعم الرواة والقصص أن المتلمس كان خال طرفة ، بل لم يقف هذا الجمع بينهما عند هذا الحد ، وإنما جمعت بينهما أسطورة انتشرت في القرن الأول الهجري .

هذه الأسطورة تقول : إن هذين الشاعرين قد هجوا الملك عمرو بن هند حتى غضب منهما ، وحنق عليهما ، ثم وفدا عليه فتلقاهما لقاءً حسنًا ، وكتب لهما كتابين إلى عامله بالبحرين ، وأوهمهما أنه أوصى لهما بالجوائز ، فخرجا يقصدان هذا العامل ، لكن في الطريق شك المتلمس وارتاب في كتابه فأقرأه غلامًا من أهل الحيرة ، فإذا في الكتاب الأمر بقتله ، فألقى كتابه في النهر ، وطلب من طرفة أن يفعل مثله لكنه رفض .. وافترق الشاعران حيث مضى المتلمس إلى الشام فنجا ، وسافر طرفة بن العبد إلى البحرين فلقي مصرعه ، وكان - كما تقول الروايات - حديث السن ربما في العشرين أو لم يتجاوز السادسة والعشرين أو الثلاثين .

والرواة المحققون يعدون هذين الشاعرين من المقلين ، بل لم يسجل ابن سلام للمتلمس شيئًا ، ولم يسمِّ له قصيدة . وأما طرفة فقد قال ابن سلام عنه إنه وعبيد من أقدم الفحول ، ولم يبق لهما إلا قصائد عشر ، وفصل ابن سلام هذه القصائد العشر للشاعرين

وقال إنه حمل عليهما حملًا كثيرًا ، وقد رأيت أنه حين أراد أن يضع عبيدًا في طبقته لم يعرف له إلا بيتًا واحدًا ، فأما طرفة بن العبد فقد عرف له المطولة التي مطلعها:

لِخَولَـةَ أطـلالٌ بُبرقَـةِ ثَهْـمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْيم فِي ظَاهِرِ اليَدِ

كما عرف له قصائد أخرى لم يستدل عليها .. غير أنه لو قرأنا كل شعره لرأينا فيه ما نرى في شعر الجاهلية خاصةً المضريين منهم ، من متانة اللفظ وغرابته ، ومع ذلك فإن شعر طرفة قويي متنه ، واشتد أسره ، وآثر من الأغراب ما لم يؤثر أصحابه من الشعراء .

ويقول الدكتور طه حسين عن شعر طرفة بن العبد : «في هذا الشعر شخصية بارزة قوية لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منتحلة أو (مصنوعة) أو مستعارة ، وهذه الشخصية ظاهرة البداوة ، واضحة الإلحاد بينةَ الحزن واليأس والميل إلى الإباحة في قصد واعتدال . هذه الشخصية تمثل رجل فكر التمس الخير والهدى فلم يصل إلى شيء ، وهو صادق في يأسه ، صادق في حزنه ، صادق في ميله إلى اللذات التي يؤثرها.. هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا انتحال .. وأن هذا الشعر من الشعر النادر الذي نعثر عليه - أي في الشعر الجاهلي - من حين إلى حين في تضاعيف هذا الكلام الكثير الذي يضاف إلى الجاهليين ، فنحس حين نقرؤه أننا نقرأ شعرًا حقًّا فيه قوة وحياة وروح» .

إلى أن يقول : «فأما صاحب القصيدة فيقول الرواة إنه طرفة ، ولست أدري أهو طرفة أم غيره؟ بل لست أدري أجاهلي هو أم إسلامي ؟ وكل ما أعرفه هو أنه شاعر بدوي ملحد شاك ..» .

ونترك طرفة لنصل إلى المتلمس ، وأمر هذا الشاعر أيسر من أمر طرفة ، فشعره يعود بنا إلى شعر قبيلة ربيعة ، وما فيه من رقة وإسفاف وابتذال ، وتكلف في القافية ، وأكبر الظن أن كل ما يضاف إلى المتلمس من شعر مصنوع ، الغرض من صنعته تفسير طائفة من الأمثال والأخبار عن ملوك الحيرة وسيرتهم .. ولا يستبعد - كما يقرر الدكتور طه حسين أن يكون شخص المتلمس نفسه قد اخْتُرِعَ اخْتِراعًا ، كتفسير لهذا المثل الذي

كان يضرب بصحيفة المتلمس ، والذي لم يكن الناس يعرفون من أمره شيئًا . ففسره القصاص ، واستمدوا تفسيره من هذه القصص والأساطير الشعبية .

* * *

وتنتهي صفحات كتاب «في الشعر الجاهلي» إلى ملاحظتين :

الأولى : أن هذا العمل الذي قدمه الدكتور طه حسين ينتهي بنا إلى نتيجة إذا لم تكن تاريخية صحيحة ، فهي فرض يحسن أن يقف عنده الباحثون ويجتهدوا في تحقيقه وهي أن أقدم الشعراء فيما كانت تزعم العرب ، وفيما كان يزعم الرواة هم يمنيون أو ربعيون (نسبة إلى قبيلة ربيعة) وسواء أكانوا من أولئك أم من هؤلاء ، فما يروى من أخبارهم يدل على أن قبائلهم كانت تعيش في نجد والعراق والجزيرة ، أي في هذه البلاد التي تتصل بالفرس اتصالًا ظاهرًا ، والتي كان يهاجر إليها العرب من عدنان وقحطان على السواء .

والملاحظة الثانية هي أن الذين يقرأون كتاب «في الشعر الجاهلي» ، قد يفزعون من قراءته وفي نفوسهم شيء من الأثر المؤلم لهذا الشك الأدبي الذي تردد في صفحات الكتاب ، فيقول - أي الدكتور طه حسين - : «وقد يشعرون مخطئين أو مصيبين بأننا نتعمد الهدم أو نقصد إليه ، وقد يتخوفون عواقب هذا الهدم على الأدب العربي عامة ، وعلى القرآن الذي يتصل به هذا الأدب خاصة» .

ولهؤلاء وهؤلاء يقول : «إن الشك لا ضرر فيه ولا بأس به ، لا لأنه مصدر اليقين ، بل لأنه قد آن للأدب العربي وعلومه أن تقوم على أساس متين ، وخير للأدب العربي أن يزال منه - في غير رفق ولا لين - ما لا يستطيع الحياة ، ولا يصلح لها من أن يبقى مثقلًا بهذه الأثقال التي تضر أكثر مما تنفع» .

وبالنسبة للخوف على القرآن الذي يتصل به الأدب العربي يشدد الدكتور طه حسين التنبيه في آخر صفحتين من كتابه «في الشعر الجاهلي» وكأنه يؤكد على تقديره وتقديسه للقرآن الكريم فيقول : «ولسنا نخشى على القرآن من هذا النوع من الشك أو الهدم - يقصد كتاب في الشعر الجاهلي - فنحن نخالف أشد الخلاف أولئك الذين يعتقدون

أن القرآن في حاجة إلى الشعر الجاهلي لتصح عربيته وتثبت ألفاظه ، نخالفهم في ذلك أشد الخلاف ، لأن أحدًا لم ينكر عربية النبي ﷺ فيما يعرف ، ولأن أحدًا لم ينكر أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته ، وإذا لم ينكر أحد أن النبي عربي، وإذا لم ينكر أحد أن العرب فهموا القرآن حين سمعوه . فأي خوف على عربية القرآن من أن يبطل هذا الشعر الجاهلي ، أو هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين ؟ وليس هناك من يستطيع أن ينازع في أن المسلمين قد احتاطوا أشد الاحتياط في رواية القرآن وكتابته ودرسه وتفسيره حتى أصبح أصدق نص عربي قديم ، ويمكن الاعتماد عليه في تدوين اللغة العربية وفهمها . وفي المقابل لم يحفلوا برواية الشعر ولم يحتاطوا فيها ، بل انصرفوا عنها في بعض الأوقات طائعين أو كارهين ، ولم يراجعوها إلا بعد فترة من الدهر، وبعد أن عبث النسيان والزمان بما كان قد حفظ من شعر العرب في غير كتابة ولا تدوين وهنا أتساءل بعد قراءة ما كتبه الدكتور طه حسين . فأيهما أشد إكبارًا للقرآن وإجلالًا له وتقديسًا لنصوصه وإيمانًا بعربيته : ذلك الذي يراه وحده النص الصحيح الصادق الذي يستدل بعربيته القاطعة على تلك العربية المشكوك فيها في الشعر الجاهلي. أم ذلك الذي يستدل على عربية القرآن من شعر يرويه وينتحله رواة وقصاصون في غير احتياط ولا تحفظ قوم: منهم الكذاب ، ومنهم الفاسق ، ومنهم المأجور ، ومنهم صاحب اللهو والعبث.

والسؤال الآن بعد أن فرغنا من قراءة نص كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين في كتابه : هل الذي يحمل ويسجل كل هذا بالاحترام والتقدير والتقديس للقرآن الكريم يعتبر ملحدًا وكافرًا كما قيل عنه وقتئذ وبرأته من هذه التهمة النيابة كما سيأتي بعد ذلك.

الباب الثاني

نقد المفكرين والعلماء والنقاد لكتاب «في الشعر الجاهلي»

وطبيعي أن يكون لكتاب «في الشعر الجاهلي» صدى ودوي هائل قبل وبعد رحيل مؤلفه، فقد حرك وما زال يحرك الحياة الأدبية، فقام عدد من المفكرين والعلماء والنقاد بنقد وتقييم هذا الكتاب، وطبيعي أيضًا أن يختلف هذا النقد والتقييم. حيث اتخذ هذا النقد والتقييم أسلوبًا هادئًا ولفظًا عفًا، وبالغ فاتخذ أسلوبًا حادًا مندفعًا فاشتد واشتط، كذلك اتخذ هذا النقد والتقييم: طريق إصدار الكتب، وطريق نشر المقالات.. فصدرت عشرات الكتب كلها في نقد الكتاب والرد عليه ودحض آرائه، منها على سبيل المثال لا الحصر: «تحت راية القرآن» للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، و«الشهاب الراصد» للأستاذ محمد لطفي جمعة، و«نقد الشعر الجاهلي» للأستاذ محمد فريد وجدي، و«نقض كتاب في الشعر الجاهلي» للشيخ محمد الخضر حسين، و«النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي» للأستاذ محمد أحمد الغمراوي مع مقدمة ضافية للأمير شكيب أرسلان، و«محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي» للأستاذ محمد الخضري، و«مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» للدكتور ناصر الدين الأسد، و«مقدمة لكتاب المتنبي» للأستاذ محمود محمد شاكر، كنماذج وأمثلة.

كما نشر المفكرون والنقاد والأدباء مئات المقالات قبل وبعد رحيل طه حسين، ولا تزال دور النشر تصدر هذه المقالات إلى الآن.

■ 1 ■

النقد قبل رحيل طه حسين في كتب

في العديد من أوجه النقد التي استهدفت كتاب «في الشعر الجاهلي» لعلنا نبدأ بالإشارة إلى بعض الكتب التي ردت على طه حسين في حياته ، ومنها كتاب «تحت راية القرآن» للأستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي يقول فيه : «ما رأيت فئة يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعًا كهؤلاء المجدومين في العربية . فهم عند أنفسهم كالجمرة المتوقدة لا يشبعها حطب الدنيا.. ولقد كان أشدهم شراسة هو الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية في الجامعة المصرية. فكانت دروسه الأولى في الشعر الجاهلي كفرًا بالله وسخرية بالناس.. فكذب الأديان، وسفّه التواريخ وكثر غلطه وجهله ، فلم تكن في الطبيعة قوة تعينه على حمل كل ذلك والقيام به إلا المكابرة واللجاجة فهو يهذي في دروسه لا هو يثبت الحقيقة الخيالية ولا يترك الحقيقة الثابتة ، على أن أستاذ الجامعة إنما يقلد الهدامين من جبابرة العقول في أوروبا وأنه منهم . ولكن ما تكون هذه الكرة الجغرافية المدرسية التي تصور عليها القارات الخمس من كرة الأرض التي تحمل الخمس» .

ويقول الأستاذ الرافعي : «من أقبح ما في كتاب الدكتور طه حسين أنه يعلن في مقدمته تجرده من دينه عند البحث ، يريد أن يأخذ النشء بذلك اتباعًا لمذهب ديكارت الفلسفي الذي يفرض على الباحث التجرد من كل شيء عندما يبحث عن الحقيقة» . قال الأستاذ: «يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها وأن ننسى ديننا ، وكل ما يتصل به» .

وهذا لعمري هو منتهى الجهل ، فإن فرقا بين البحث عن حقيقة فلسفية عقلية محضة، والبحث عن حقيقة أدبية تاريخية قائمة على النص وقول فلان وفلان ، وإذا هو نسي دينه (وتأمل هذه العبارة) فماذا يكون من أثر هذا في التاريخ ما دامت المادة التاريخية لم تجتمع له كما أسلفنا ، وما دام الأستاذ مبتلى بالنقص من كل جهة؟»

ويستطرد الرافعي في كتابه قائلًا : إن طه حسين هذا مجموعة أخلاق مضطربة وأفكار متناقضة ، وطباع زائفة ، وما من عالم في الأرض إلا وأنت واجد آراءه قائمة بمجموع أخلاقه أكثر مما هي آتية من صفاته العقلية . ولذلك قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح : «**إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**»[1]. وطه رجل أرسلوا لسانه وقلبه إلى أوروبا فرجع بلسانه وترك قلبه هناك في خرائب روما . - للعلم طه حسين لم يسافر إلى إيطاليا دارسا وبعثته كانت في فرنسا[2] - فيجب أن يكون نفاقه وثرثرته مقصورين على نفسه ، وإذا كان طه حسين أستاذ الأدب لا يحسن من العربية شيئًا ولا يفقه من هذه المباحث شيئًا ولا هو من دين الأمة في شيء فماذا نقول في الأستاذ الأديب الذكي البليغ مدير الجامعة الذي اسمه أحمد لطفي السيد؟ ..

«والأمر الذي نخشاه من طه أنه (أداة) أوروبية استعمارية تعمل على إفساد أخلاق الأمة وحل عروتها الوثقى من دينها في أدبه ولغته وكتابه وتحقير كل ما يتسم بشيء من ذلك عالمًا أو متعلمًا أو متورعًا ، فهو دائب على إزالة ما وقر في نفوس المسلمين من تعظيم نبيهم وكتابه وإيثار دينهم وفضيلتهم وإحلال علمائهم وسلفهم ، مرة بالتكذيب، ومرة بالتهكم ، ومرة بالزيادة ، ومرة بإفساد التاريخ ، ومرة بنقل الأخلاق الفاحشة المتعهرة من مدينة الفرنسيين» .

ويقول الرافعي : «إن التاريخ الإسلامي إذا حمل على غير طريقته وتولاه غير أهله لم يأت منه إلا ما هو دخيل فيه ، وتقل الرواية ويكثر التكذيب ، ويحصل الخطأ ويقع الخلل، لأن الأشياء بما كانت عليه لا بما تتوهم أنت كانت عليه . وذلك هو السر في خلط المستشرقين والديكارتيين من أمثال طه حسين إذا هم تعاطوا الكلام في المصدر

(1) أخرجه الدار قطني ، وقال : يصل إلى درجة الصحة ، وزاد أحمد في مسنده : «يأمر بالمعروف ويعمل بالجور» .
(2) تعليق صاحب هذه الدراسة .

الأول أو ما يتصل به نوعًا من الاتصال في الأدب أو الشعر أو نحوهما ، وإذا كتبت الشياطين تاريخ الملائكة واتبعت مذهب ديكارت فتجردت من قوميتها ودينها ، فهل تراها تسلب طبيعتها وجنتها ؟ وهل يدخل عليها الخطأ إلا من ناحية هذه الطبيعة في تركيبها على غرائز وأوصاف لا تتحول - لو أننا أخذنا بما يقوله الرافعي من ثبات طريقة نظرتنا للتاريخ وقراءته . لا داعي من التطور ولا العلم . وكأن التاريخ الإنساني عمل غير إنساني يحتمل الخطأ والصواب -»(1) .

ويقول الرافعي في الكتاب نفسه وفي الطبعة الأولى منه عام 1926 - وبالتحديد في صفحتي 191 ، 192 - : «ولقد أخذ - أي طه حسين - فكرة الشك في شعر الجاهلية عن المستشرقين ، فقد كان (حدثنا الأستاذ العلامة الكبير صاحب مجلة المقتطف) في شهر سبتمبر من السنة الماضية أن مجلة الجمعية الأسيوية نشرت بحثًا للشيخ مرجيلوث المستشرق الإنجليزي المعروف ، أنكر فيه صحة الشعر الجاهلي ، ثم ساق لنا الأستاذ بعض أدلته فلم نجد فيها مقنعًا ولا رضًا ، وقلنا هو رأي في العلم لا علم ، ثم هو من مستشرق ، وذلك أوهن له ، وما كان لنا أن نأخذ عن القوم في الأدب العربي إلا بتمريض واحتراس .

ولما فتحت الجامعة إذا بمستر طه حسين ينتحل الفكرة ، ويدعيها ويبوب لها أبوابا، ويفصل لها فصولا ، ويدرِّس ذلك في الجامعة .. فباءت هذه الجامعة المسكينة من عمله بالخزي والفضيحة ، واستمتع هو بمنزلتها وأموالها ، والجامعة كما رأينا مريضة يتحامل بعضها على بعض حتى لو طنت عليها ذبابة انتقاد لفزعت وخافت . أما الشيخ طه حسين فلو قرضوا جلده بالمقاريض لما أحس شيئًا ، كأن الله تعالى خلق نصف دمه من الكلوروفورم .. فجلده مبنج في كل وقت..»(2)

* * *

أما الأستاذ محمد فريد وجدي فيرد في كتابه «نقد كتاب الشعر الجاهلي» على عبارات الدكتور طه حسين السابقة قائلًا : «أنا لا أملك نفسي من أن أقول صراحة إن هذا الكلام

(1) تعليق من صاحب هذه الدراسة .

(2) تأمل كيف أخذ الأستاذ الرافعي معرفته بقضية الشعر الجاهلي من مجرد السمع .

ثمين ، ولا أغالي إن قلت إنه أعرق في الإسلام من كل كلام قرأته قبل هذا ، ولا يعيبه إلا شيء واحد وهو أنه مفرغ في قالب الخروج على الجماعة على حين أنه مذهب القرآن الذي هو دستور هذه الجماعة . فلو كان قال إنه سيعالج البحث في الأدب العربي وتاريخه ناسيًا قوميته وكل مشخصاتها ، ودينه وكل ما يتصل به ، وغير متقيد بشيء ، ولا مذعن لشيء . إلا مناهج البحث الصحيح ، جاريًا بذلك على مذهب القرآن لكانت كلماته هذه عدت أجمل تفسير لآيات الكتاب التي وردت خاصة بمنهج البحث عن الحقائق» .

ثم يأتي بآيات من القرآن الكريم يضعها أمام الدكتور طه حسين ، مشيرًا إلى أن منهج القرآن لا يقل علمية عن منهج ديكارت الذي يعتنقه .

ثم يرد الأستاذ محمد فريد وجدي على عبارة الدكتور طه حسين أن ورود اسمي إبراهيم وإسماعيل في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة بها قائلًا : «ونحن نقول في قول الدكتور طه حسين أن ورود اسمي إبراهيم وإسماعيل في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، معناه أنه لا يمكن إثبات وجودهما إذا جرى التاريخ على أسلوبه في إثبات وجود الرجال وتحقيق الحوادث المعزوة إليهم، مستقلا عن نصوص الكتب السماوية . لأن التاريخ وسائر العلوم قد أعلنت استقلالها عن الأديان منذ نحو ثلاثة قرون ، فالتاريخ يطلب في إثبات وجود الرجال أدلة حسية ، وآثارًا مادية فوق ما تذكره عنهم الكتب الدينية وبخاصة بالنسبة للأفراد المتغلغلين في القدم كإبراهيم وإسماعيل .

«والقول بأن إبراهيم وإسماعيل لم يثبت وجودهما تاريخيًّا ليس معناه أن التاريخ قرر بأنهما لم يوجدا ، ولكن معناه أنه لا يستطيع إثبات وجودهما إثباتًا ينطق على أسلوبه الحسي ، وهذا العجز من العلم لا ينفي أنهما كانا موجودين وأنهما بنيا الكعبة . فنحن نحترم هذا العجز من العلم ، ونشجعه على الاعتراف به ، بل ولا نقبل منه أن يدعي علم ما لا ينطبق أسلوبه عليه وإدراك ما لا تصل وسائله إليه» .

* * *

أما الأستاذ محمد لطفي جمعة فقد علق في كتابه «الشهاب الراصد على الشعر الجاهلي»: قائلًا : «هذا المؤلف لم يترك فضيلة للعرب في علوم تاريخهم وآرائهم وعقائدهم دون أن يحاول هدمها بشدة وقسوة وتهكم واستهزاء . لم يعد له مثيل في كتب العلماء فيخيل للقارئ أن المؤلف يلعب ويلهو بأشرف الأشخاص وأسمى المبادئ التي خلفتها المدنية العربية الإسلامية منذ أربعة عشر قرنًا . وكنا نود أن نظن بكتابه خيرًا فلم نجد له في الخير محملًا . وحاولنا أن نلمح بصيصًا من نور ولكننا لم نلمح شيئًا في وسط هذه الظلمات المتكاثفة المتطالعة من أول الكتاب إلى آخره لأنه للأسف طافح بالأوهام. فهو سراب يحسبه الإنسان من بعيد ماء ، والحقيقة أن كتاب «في الشعر الجاهلي» عبارة عن بعض نصوص صحيحة أو مزورة ، وبعض أكاذيب وأساطير وشيء من التهويل ، وشيء من السياسة وشيء من الخرق..» .

ولم يترك المؤلف نبيًّا ولا صدِّيقًا أو عالمًا أو روايةً أو شاعرًا إلا ابترك في عرضه ابتراكا ، ونال من شرفه وسمعته[1] .

«يقول المؤلف إنه ليس لنا أن نتمسك بالقديم لمجرد قدمه ، وهو يعد أعظم مفاخر المدنية العربية في القوانين والأنظمة والعلوم والآداب قديمًا يجب تركه[2] . ولا يؤيد أقواله بدليل أو مرجع علمي صحيح . فيقول ليس لنا أن ننبذ القديم لمجرد قدمه فما كل قديم ينبذ ولا كل جديد يؤخذ ، والواجب على مَنْ رأى المصلحة في القديم ألَّا يتركه ما لم تقم الأدلة على صحة الجديد ، وهذا ما فعلته الأمم الأوروبية فلم تترك قديمها بل فتشت عنه وبعثته وأحيت العلوم والآداب التي كانت مفاخر لليونان ، واتخذتها أساسًا متينًا إلى الجديد في عهد إحياء العلوم . على أن معظم قديمهم أساطير وخرافات وأخبار لم يستطع أحد من علمائهم تحقيقها بيد أن قديمنا معظمه حقائق وشرائع وقوانين وآداب».

* * *

(1) تعليق صاحب الدراسة : لم يخض في شرف أو عرض أي نبي أو صدِّيق أو عالم .
(2) تعليق صاحب الدراسة : لم يقل الكتاب بالتمسك بالقديم بصورة مطلقة وإنما الشعر فقط .

وفي كتابه «النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي» رد الأستاذ محمد أحمد الغمراوي على نقطة نسيان القومية والدين كشرط من شروط البحث العلمي قائلًا :

«إن طه حسين ذهب إلى أن نسيان القومية والدين شرط أساسي من شروط البحث العلمي ، فإن كان أراد بذلك أن يقول إن على الباحث ألا يخفي بعض الحق أو يتراخى في استيفاء الدليل العلمي محاباة لقوميته أو إرضاء لعاطفته فقد أصاب . أما إذا أراد أن يقول إن الإنسان لا يستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية من غير أن يحابي أو يداجي في العلم فقد أخطأ ولم يصب . إن الإنسان يستطيع أن يراعي الدقة العلمية التامة في البحث متذكرًا دينه كل التذكر . إن التدين الصحيح يزيد الباحث المتدين إن أمكن حرصًا على الحق واستمساكًا به إذا وصل إليه . إن العلم الصحيح ، والتدين الصحيح ممكن اجتماعهما إذن . وكثيرًا ما اجتمعا ، كما أن العاطفة العلمية القوية والعاطفة الدينية القوية لا تتعارضان بل تتضافران في خدمة العلم» .

وفي مقدمة هذا الكتاب ، كتاب «النقد التحليلي للشعر الجاهلي» يقول الأستاذ شكيب أرسلان : «ليس طه حسين في هذا الرأي القائل والمنطق المقلوب إلا مقلدًا لمرجليوث أو لغيره من الأوروبيين بسابق عقيدة سخيفة فاشية - يا للأسف - في الشرق ، وهي أن الأوروبي لا يخطئ أبدًا . وأنه من حيث اختراع الأوروبي السكة الحديد والغواصة والطيارة والسيارة ، وما أشبه ذلك فلا شك أنه صار يفهم أحسن مما يفهمه سيبويه والخليل بن أحمد ، وليس في الدنيا خطأ أعظم من هذا ، ولا طيش يفوت هذا الطيش فكل علم له أربابه الذين هم أدرى به» .

«إننا لا ندعي كون الشرقيين أعلم من الغربيين - وحاشا أن نقول هذا بل أولئك اليوم على وجه الإجمال أعلم منا بلا جدال ، ولكن الحقيقة القاتلة هي أن الشرقي يتهم أخاه الشرقي في نقله ، ويسفه في عقله ، ويحتقر رأيه ، ولا يقبل قولًا لمجرد أنه شرقي حتى إذا اطلع على تأليف أوروبي ولو محشوًا بالهذيان تلقى ما فيه كأنه نازل من السماء ،

وعض عليه بالنواجذ وأبى أن يرتاب فيه أو يحاكمه . ومن هنا نشأ ما نحن فيه من الأزمة الأدبية والاجتماعية واللغوية والتخبط الذي ترانا نتخبطه لأن حقائقنا انقلبت ضلالات بلا سؤال، وضلالات الإفرنج انقلبت حقائق بلا جدال» . إلى أن يقول : «إني لا ألوم الدكتور طه حسين الذي قصاره أن يسرق رأيًا لمستشرق أوروبي خالف به جمهور المستشرقيين فضلًا عن علماء العرب ، وأن ينتحل هذا الرأي لنفسه متبجحًا به» . كلام مرسل لا حجة فيه ولا دليل على ما يوجهه من إتهامات .

* * *

أما الشيخ محمد الخضر حسين المدرس بالأزهر فيقول في كتابه «نقص كتاب الشعر الجاهلي» : «إن الباطل ما برح يحارب الحقيقة الإسلامية المغلولة بسيوفه وشبهاته الضئيلة ، ثم يرجع خائبًا بغير جدوى ، وقد عاد اليوم إلى جولة يدفعه إليها نفر من المتأثرين بكتب الداعين إلى معاداة دين سيد المرسلين ، سقطوا على ما فيها من تضليل فالتقطوا منها ما راق لهم وظلوا يفرضونه على أنظار قرائنا وأسماع الطلاب من أبنائنا ، زاعمين أنه بضاعة جديدة من تراث قرائحهم ونتاج أفكارهم ، محاولين بذلك تفويض بناء قامت فضائله الشامخة على أساس متين من الحقائق الراسخة ، فاستاء من عملهم هذا أهل العلم الصحيح والأدب الصريح ، ومن هذه الكتب رسالة عنوانها : (في الشعر الجاهلي) عرف صاحبها بالتعصب لكل ما فيه كيد للإسلام وحط من جلاله وفضائل عظمائه وآله» للأسف هو كلام مرسل يحتاج إلى أدلة وبراهين .

ويستطرد الشيخ محمد الخضر حسين في حديثه عن كتاب «في الشعر الجاهلي» فيقول : «وقع تحت نظري هذا الكتاب ، وكنت على خبري من حذق مؤلفه في فن التهكم ولو بالقمر إذا اتسق ، والتشكيك ولو في مطلع الشمس الضاربة بأشعتها في كل واد . فأخذت أقرؤه بنظر يزيح القشر عن لبابه ، وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه ، وما نفضت يدي من مطالعة فصوله ، حتى رأيتها شديدة الحاجة إلى قلم ينبه على علّاتها ، ويرد كل بضاعة على مستحقها ، وما هو إلا أن ندبت القلم لقضاء هذا المأرب وسداد هذا العوز.. فلم يتعاص عليَّ ..» .

ويستطرد الشيخ الخضر في حديثه عن كتاب في الشعر الجاهلي :

وقد ذهب بعض النقاد إلى أن الدكتور طه حسين قد جافي الطريقة العلمية ، ولم يؤسس لنظريته بالتثبت من الحقائق قبل أن يدخل دور الفرض ، فهو يبدأ بالفرض ، ثم يبني عليه فرضًا آخر ، ثم ينتهي بالقطع والجزم والثبوت ، وقدموا لذلك أمثلة كثيرة بعضها أنه يورد ثلاث جمل يبرهن على الأولى منها بقوله : «فليس ببعيد» ، وعلى الثانية بقوله : «فليس ما يمنع» وعلى الثالثة بقوله : «فما الذي يمنع!» . ويبني على هذه الكلمات الثلاث قوله: أمر هذه القصة إذًا واضح»[1] .

* * *

وقد عقب على الشيخ محمد الخضري في كتاب «محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب «في الشعر الجاهلي» قائلًا : «ما علمنا بمنطق في العالم يكتفي في إقامة البرهان على عدم صحة خبر من الأخبار بأنه لا يبعد ضده أو أنه لا مانع من ضده!» . ومن ذلك أن الدكتور طه حسين يحتج في نفي الشعر المستشهد به على القرآن بقوله : «أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد وضعت في تكلف وتصنع؟» ثم قال : «بل أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت في سذاجة وسهولة ويسر ، لا لشيء إلا لهذا الغرض التعليمي اليسير؟» وأجابه الخضري : «بلى ! هذا ممكن ، كما يمكن أن يكون الخبر صحيحًا ... كما يمكن أن يكون بعضه صحيحًا وبعضه غير صحيح ، كل ذلك ممكن . ولكن الذي يجب أن تجيب عنه هو : «بم ترجح عندك أن الخبر مكذوب كله؟ أهو غير معقول؟ أم هو مخالف لطبائع التعليم ؟ ..» ومن ذلك أيضًا أن الدكتور طه حسين قال : «وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين ، والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث من شبه قوي أو ضعيف» .

* * *

ويتساءل الدكتور ناصر الدين الأسد صاحب أول رسالة دكتوراه عن الشعر الجاهلي وموضوعها «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» في دراسة حول كتاب في الشعر

(1) تعليق صاحب الدراسة : لم يأت الشيخ الخضر بجديد وإنما كان رأيه مبنيًا على أقوال غيره .

الجاهلي بمجلة القضاة قائلا : «ما الذي أبقى كتاب في الشعر الجاهلي ؟» وما الذي جعله أعظم كتابات طه حسين أثرًا في الحياة العقلية وفي مناهج الدراسات الأدبية ؟

ويجيب عن هذا السؤال بأن نبدأ بأمرين نذكرهما لننحيهما جانبًا . **الأمر الأول:** إن تفصيلات مادة الكتاب في ذاتها ومن حيث هي تطبيقات على المنهج بتحقيقاته وتمحيصاته ، ليست عنصرًا من عناصر قيمة الكتاب وليست عاملًا من عوامل بقائه واستمرار تأثيره . ولنا على ذلك دليلان ، الأول : أن العلماء والأدباء الذين ردوا على هذا الكتاب في مقالات أو في كتب ، فصلوا القول في تفنيد آراء المؤلف وبيان ما فيها من غلو مسرف ، وبرهنوا على المخالفة بين نتائجه ومقدماته ، وإخفاقه في تطبيق منهجه نفسه . وكانوا في كل ذلك على حق واضح جلي لا تكتنفه أدنى مسحة من ارتياب . وقرأ الناس هذه الردود ، واقتنعوا بها دون شك . ولكن كل ذلك لم يكن ليعنيهم كثيرًا مثلما لم يعنهم أن يكون المؤلف مسبوقًا في آرائه وشواهده ، وأن يكون أخذ بعضها عن مرجوليوث وبعضها عن ماسينيون وبعضها عن جويدي ، على ما وضحه الذين ردوا عليه، كما لم يستوقفهم طويلًا حديثه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وعن وجودهما التاريخي، ولا حديثه عن قبائل العرب وعن نسب الرسول ﷺ . ولو كانت مادة الكتاب بتفصيلاتها أو آراء المؤلف وإشاراته الدينية موضع عناية الناس لسقط الكتاب وانقضى أثره بإثبات بطلان ما ورد به من مادة وجزيئات .

والدليل الثاني : أن المؤلف نفسه أعاد طبع كتابه في السنة التالية لصدوره بعد مصادرة طبعته الأولى ، واختصر بعض مادته ، ثم أضاف إليه ما بلغ به ضعفي حجمه الأصلي، ومع ذلك بقي الكتاب هو نفسه في جوهره الحقيقي الذي لفت الناس واستوقفهم وأثر فيهم . ولو كانت مادة الكتاب بتفصيلاتها ، أو آراء المؤلف وإشاراته الدينية التي حذفها في الطبعة الثانية وما تلاها من طبعات ، هي موضوع عناية الناس ، لذهبت قيمة الكتاب وانقطع تأثيره بما أحدث فيه المؤلف من تغيير . فضلًا عن رجوع المؤلف عن أكثر آرائه بما نشر - بعد عشر سنوات من صدور كتابه - في سلسلة مقالات بعنوان : «حديث الأربعاء» اتضح فيها دون لبس إثباته لوجود من درسهم من الشعراء الجاهليين ،

ولصحة نسبة شعرهم إليهم ، بكشفه عن الخصائص النفسية والفنية لهذا الشعر ووحدته الموضوعية .

أما **الأمر الثاني** : الذي لابد من ذكره لننحيه جانبًا ، فهو أن كل ما يقال عن أن هذا الكتاب هو مجرد خطوة أو مرحلة - مهما تكن أوسع من غيرها - سبقتها خطوات ومراحل قبلها في تطور الدراسة الحديثة ، هو قول مردود لا سند له من الواقع ، وقائلوه لم يتنبهوا لا إلى جانب المادة الأدبية التاريخية فيه وفي غيره ، وغفلوا عن جوهر الكتاب وغاية المؤلف منه ، وهذا غير مادته بتفصيلاتها على ذكرنا . وإلا فأي وجه للشبه بين هذا الكتاب وبين «الوسيلة الأدبية» للشيخ حسين المرصفي أو «المواهب الفتحية» للشيخ حمزة فتح الله، أو ما تلاهما من كتب التاريخ الأدبي ككتابي جورجي زيدان ومصطفى صادق الرافعي؟. إن كتاب «في الشعر الجاهلي» متفرد جاء على غير مثال يحتذيه ، لم يسبقه كتاب باللغة العربية يشبهه من قريب أو بعيد في جوهره . ومهما يبذل الدارسون للتاريخ الأدبي الحديث من جهود في تلمس خطي التأثر في التأليف والتفكير فإن منتهى ما ستبلغه جهودهم أن يجدوا منه بعض آراء مبثوثة في صحائف من تراثنا أو من بعض الكتب الحديثة التي سبقت هذا الكتاب : كفكرة الشك في الرواية ، واختلاف الرواة في بعض ما يروون ، ووجوب تمحيص النصوص ، ونفي نسبة أبيات أوقصائد جاهلية إلى أصحابها .

«كتاب في الشعر الجاهلي شيء غير هذه الآراء المتفرقة ، إنه دعوة ثورية إلى منهج متكامل في الدراسة الأدبية ، مهما يعتوره من عيوب التطبيق في المادة نفسها ، ومهما تكن بعض الآراء التي ضمتها صحائفه مستعارة أو مقتبسة . وكل صاحب دعوة ثورية لابد أن يجنح إلى الجموح ، وإلى الهدم ، وإلى إثارة الناس بالتعريض بما ألفوا وبالهجوم على ما يعتقدون ، حتى ينصع ذلك رأيًا عامًا ، ويستقبل جمهورًا من الأنصار يزيد عدده بما يخوض من معارك مع جمهور الخصوم والمخالفين .

الكتاب - إذن - دعوة ثورية إلى منهج متكامل في الدراسة الأدبية ، ألقاها صاحبها في الحرم الجامعي من على منبر التدريس ، ثم اتسع نطاقها في الصحف والمجلات والكتب

والأندية الخاصة والعامة وساحات النيابة والقضاء والجمعية التشريعية . ونلقفها تلاميذه في الجامعة وتحمسوا لها ، وأخذوا يدعون إليها ويطبقونها على أنفسهم وعلى تلامذتهم. ومن جامعة القاهرة وأساتذتها وطلابها انتقلت إلى الجامعات الأخرى في كل قطر من أقطار العروبة جيلًا بعد جيل .

ومع الزمن وانتشار الدعوة أخذت مادة الكتاب الجزئية تسقط شيئًا فشيئًا وتنسى ، وأخذ جوهر الكتاب ومنهجه المتكامل تتضح معالمهما وتعمق في العقول والنفوس فهمًا وتطبيقًا . وما كتب كاتب في تراثنا بعد ذلك إلا كان امتدادًا لما كتب طه حسين ، سواء خالفه في بعض آرائه أم وافقه ، وربما كانت المخالفة في هذا مساوية للموافقة في دلالتها على التأثر وعمقه . فطه حسين - في حكم النزاهة الموضوعية والتجرد - هو بحق رائد المنهج المتكامل في الدراسة الأدبية الحديثة ، لا يمتّ بسبب إلى ما قبله ، وكل ما بعده يمتّ إليه بأسباب .

ثم إن هذا الكتاب مثل صارخ على حرية الرأي وممارستها في الواقع العملي . لم يتردد صاحبه في أن يذكر فيه ما شاء أن يذكر - ولا أقول ما يعتقد ، فذاك أمر آخر ليس هذا مجال بحثه - هجم على موضوعه هجومًا وهو يعلم أن سخط الساخطين عليه سيكون أكثر من رضى الراضين ، فلم يصانع ولم يتستر وإنما جهر بالرأي في وضوح صاخب وكرره وأكده بأساليب شتى ، وعرض لأمور في العقيدة الدينية ولأمور أخرى في التاريخ والأنساب واللغة تتصل آخر الأمر بالعقيدة الدينية ، فأثار عليه الناس ، وكان يعلم أنهم سيثورون ، بل قصد إلى ذكرها قصدًا من أجل أن يثوروا ، وتحقق له ما أراد . فكان بنفسه وبكتابه نموذجًا حيًا رائعًا لأستاذ الجامعة وحريته في الجهر برأيه ، ونبراسًا ينير الطريق بشعاع الفكر الحر الذي يتحدى السكون والركود والظلام ، كلما ذكرناه ازددنا إعجابًا بهذه الشخصية الضخمة ، والإرادة الصلبة والطموح الشامخ ، والثورة المستمرة، وازددنا فهمًا لمعاني عبثه وسخريته ومحاوراته ومداوراته وصولاته وجولاته في معاركه التي لا تنتهي

* * *

وفي مقدمة كتابه «المتنبي» يسجل الأستاذ محمود محمد شاكر قصته مع الشعر الجاهلي ، وفيها أنه التقي بالأستاذ أحمد تيمور باشا ودار بينهما حديث عن الشعر الجاهلي .. ليقول : حدثته مرارًا ، ثم جاء يوم فالتقينا ، على عادتنا يومئذ (سنة 1925) ، في المكتبة السلفية عند أستاذنا محب الدين الخطيب ، فلم يكد يجلس حتى مدّ يده إليّ بعدد من مجلة إنجليزية ، (عدد يوليه 1925 من مجلة الجمعية الملكية الآسيوية) ، وقال لي وهو يبتسم : اقرأ هذه! فإذا فيها مقالة للأعجمي المستشرق مرجليوث ، تستغرق نحو اثنتين وثلاثين صفحة من هذه المجلة ، بعنوان : «نشأة الشعر العربي» . كنت خبيرًا بهذا الأعجمي التكوين ، التكوين البدني والعقلي ، منذ قرأت كتابه عن محمد رسول الله ﷺ. أخذت المجلة وانصرفت ، وقرأت المقالة ، وزاد الأعجمي سقوطًا على سقوطه. كان كل ما أراد أن يقوله : إنه يشك في صحة الشعر الجاهلي ، لا ، بل إن هذا الشعر الجاهلي الذي نعرفه ، إنما هو في الحقيقة شعر إسلامي وضعه الرواة المسلمون في الإسلام ، ونسبوه إلى أهل الجاهلية ، وسخفا في خلال ذلك كثيرًا . ولأني عرفت حقيقة الاستشراق ، لم ألق بالًا إلى هذا الذي قرأت ، وعندي الذي عندي من هذا الفرق الواضح بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي .

ثم بعد أيام لقيت أحمد تيمور باشا ، وأعدت إليه المجلة ، فسألني : ماذا رأيت ؟ قلت: رأيت أعجميًا باردًا شديد البرودة ، لا يستحي كعادته ! فابتسم وتلألأت عيناه ، فقلت له: أنا بلا شك أعرف من الإنجليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية أضعافًا مضاعفة، بل فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذل العمر ، وأستطيع أن أتلعب بنشأة الشعر الإنجليزي منذ شوسر إلى يومنا هذا تلعبًا هو أفضل في العقل من كل ما يدخل في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي ، ولكن ليس عندي من وقاحة التهجم وصفاقة الوجه ، ما يسوِّل لي أن أخطّ حرفًا واحدًا عن نشأة الشعر الإنجليزي . ولكن صروف الدهر التي ترفع قومًا وتخفض آخرين ، قد أنزلت بنا وبلغتنا وبأدبنا ، ما يبيح لمثل هذا المسكين وأشباهه من المستشرقين أن يتكلموا في شعرنا وأدبنا وتاريخنا وديننا ، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم وأن يجدوا أيضا من يختارهم أعضاءً في بعض مجامع اللغة العربية!! .. وأغضى البصر أحمد تيمور وهويبتسم .

ومرت الأيام ، وغاص كلام هذا الأعجمي في لجج النسيان ، لأن هذا الأعجمي وأشباهه يدرسون آدابنا وشعرنا وتاريخنا كأنه نقش على مقبرة عادية قديمة ، مكتوب بلغة ماتت وماتت أهلها وطمرها تراب القرون!! والأسباب الداعية لهم إلى ركوب هذا المنهج كثيرة ، أهونها شأنًا الأهواء والضغائن المتوارثة ، ولكن أوغلها أثرًا أن توجههم إلى هذا المسلك ، مسلك الاستشراق ، هو أن جمهرتهم غير قادرة أصلًا على تذوق الآداب تذوقًا يجعلها حية في نفوسهم قبل أن يكتبوا ، وهم أيضا مسلوبو القدرة على أن يبلغوا في لسانهم الذي ارتضعوه مع لبان أمهاتهم مبلغًا من التذوق ، يعينهم على التعبير عنه تعبيرًا يتيح لأحدهم أن يكون له شأن يذكر في آداب لسانه . ولهذا العجز آثروا أن يكون لهم ذكر بالكتابة في شأن لغات أخرى يجهلها أقوامهم ، وهذا الجهل يستر عوراتهم عند من يقرأ ما يكتبون من بني جلدتهم . ولأني خبرت ذلك فيما يكتبون، وفيما يقولونه بألسنتهم ، لم يكن لمثل هذه الآراء في الشعر الجاهلي وغيره وقع في نفسي يثيرني ، اللهم إلا ما يثير تقززي ، فما أسرع ما أسقط ما أقرأ من كلامهم جملة واحدة في يم النسيان .

كان ما كان ، ودخلنا الجامعة ، وبدأ الدكتور طه حسين يلقي محاضراته التي عرفت بكتاب «في الشعر الجاهلي» . ومحاضرة بعد محاضرة ، ومع كل واحدة يرتد إلى جانب من هذا الكلام الأعجمي الذي غاص في يم النسيان! وثارت نفسي ، وعندي الذي عندي من المعرفة بخبيئة هذا الذي يقوله الدكتور طه حسين وعندي الذي عندي من هذا الإحساس المتوهج بمذاق الشعر الجاهلي ، والذي استخرجته بالتذوق ، وبالمقارنة بينه وبين الشعر الأموي والعباسي . وأخذني ما أخذني من الغيظ ، وما هو أكبر وأشنع من الغيظ ، ولكني بقيت زمنًا لا أستطيع أن أتكلم .

تتابعت المحاضرات ، والغيظ يفور بي ، والأدب الذي أدبنا به آباؤنا وأساتذتنا يمسكني ، فكان أحدنا يهاب أن يكلم الأستاذ ، والهيبة معجزة ، وضاقت على المذاهب، ولكن لم تخل أيامي يومئذ في الجامعة من إثارة بعض ما أجد في نفسي ، في خفوت وتردد . وعرفت فيمن عرفت من زملائنا شابًا قليل الكلام ، هادئ الطباع ، جمّ التواضع وعلى أنه من أترابنا ، فقد جاء من الثانوية عارفًا بلغات كثيرة ، وكان واسع الاطلاع ، كثير القراءة، حسن الاستماع ، جيد الفهم ، ولكنه كان طالبًا في قسم الفلسفة ، لا في قسم

اللغة العربية. كان يحضر معنا محاضرات الدكتور، وكان صغوه وميله وهواه مع الدكتور طه، ذلك هو الأستاذ الجليل محمود الخضيري. نشأت بيني وبينه مودة، فصرت أحدثه بما عندي فكان يدافع بلين ورفق وفهم، ولكن حدتي وتوهجي وقسوتي كانت تجعله أحيانًا يستمع ويصمت فلا يتكلم. كنا نقرأ معًا، وفي خلال ذلك كنت أقرأ له من دواوين شعراء الجاهلية، وأكشف له عما أجد فيها، وعن الفروق التي تميز هذا الشعر الجاهلي من الشعر الأموي والعباسي. وجاء يوم ففاجأني الخضيري بأنه يحب أن يصارحني بشيء. وعلى عادته من الهدوء والأناة في الحديث، ومن توضيح رأيه مقسمًا مفصلًا، قال لي: إنه أصبح يوافقني على أربعة أشياء:

الأول: أن اتكاء الدكتور على «ديكارت» في محاضراته، اتكاء فيه كثير من المغالطة، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكارت الفيلسوف، وبما كتبه في كتابه «مقال عن المنهج»، وأن تطبيق الدكتور لهذا المنهج في محاضراته، ليس من منهج ديكارت في شيء.

الثاني: أن كل ما قاله الدكتور في محاضراته، كما كنت أقول له يومئذٍ، ليس إلا سطوًا مجردًا على مقالة مرجليوث، بعد حذف الحجج السخيفة، والأمثلة الدالة على الجهل بالعربية، التي كانت تتخلل كلام ذاك الأعجمي، وأن ما يقوله الدكتور لا يزيد على أن يكون «حاشية» وتعليقًا على هذه المقالة.

الثالث: أنه على حداثة عهده بالشعر، وقلة معرفته به كاد يتبين أن رأيي في الفروق الظاهرة بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام أصبح واضحًا له بعض الوضوح.

الرابع: أنه أصبح مقتنعًا معي أن الحديث عن صحة الشعر الجاهلي، قبل قراءة نصوصه قراءة متذوقة مستوعبة لغو باطل، وأن دراسته كما تدرس نقوش الأمم السائدة إنما هو عبث محض.

■ 2 ■

النقد قبل الرحيل في مقالات

إلى جانب هذه المؤلفات التي صدرت في كتب عام 1926 ، صدرت عشرات المقالات ، واشتركت أكثر من صحيفة ومجلة في هذه المعركة ، وكان واضحًا أن جريدة السياسة الأسبوعية ، تحمل لواء الدفاع عن طه حسين ، في حين حملت جريدة كوكب الشرق لواء الحملة ضد طه حسين ، وضمن هذه المقالات التي حملت لواء الهجوم على طه حسين مقال كتبه الأستاذ عبد ربه مفتاح بجريدة الأهرام انتهى فيه إلى القول : «تبرأ طه حسين بجواب أرسله إلى مدير الجامعة بعد أن قامت الأمة وقعدت لفعلته الشنيعة ، تبرأ الآن من الكفر والإلحاد بعد أن سجله في مؤلفه وأذاعه بين الناس وأفسد به عقول النابتة. ولكن فات دكتور أوروبا أن هذا ليس سبيل البراءة والخلاص ، وإنما السبيل أن يعلن رجوعه عن هذا الكفر الصريح ، وأن ينص في غير مواربة ولا لف ولا دوران أن مؤلفه باطل لا يعول عليه ، وبخاصة ما يمس منه الدين» .

ثم يقول الأستاذ عبد ربه مفتاح مخاطبًا الدكتور طه حسين : «خبرني أيها الدكتور ماذا في كتابك وما الجديد الذي أحدثته فيه ، أفكرة التغيير والتعديل في الشعر الخاص وقد رواها قبلك الرواة؟» .

* * *

وفي الصفحة الأولى من «الأهرام» بتاريخ 2 مايو عام 1926 مقال للأستاذ محمد عبد المطلب المدرس بدار العلوم بعنوان : «الشعر الجاهلي والأستاذ طه حسين» هذا بعض منه :

«وارحمتا للإسلام الذي يحرص على سعادة بني الإنسان ويحرصون على شقائه. ولئن كان قد شقي بأعدائه قديمًا فهو اليوم بأهله أشقى، فقد أصبحوا يعدون من مفاخرهم عقوقه والخروج عليه لا عن مصلحة ولا اجتهاد ولكن إرضاءًا لأعدائه وتقليدًا لأولي العزة والأيد منهم وشاع ذلك حتى صار من محاسن البدع «الموضات الجديدة»، وإذا جاز جدلًا أن يعذر جاهلهم بجهله لجواز يتضح فيثوب إلى الرشاد، فما عذر من ضل على علم فركب العثار وسلك طريق البوار.

وإذا ضلت العقول على علم فماذا تقوله النصحاء.

أليس الأستاذ من الذين هم أحق بأن يكونوا للدين لا عليه فيؤيدوه وينصروه، ولا يخذلوه فيضيعوه، وهل هو إلا «دم ضيعه أهله» ؟!، وهل يصل بنا الوهن في الحق والفوضى في الدين أن يجهر أهل الدين بالطعن على هذا الدين الحنيف ويغنموا بالنيل من كرامته والغض من شرفه وأولو الأمر منا يسمعون ويبصرون ثم يكون جزاؤهم على ذلك التعظيم والتبجيل؟!..

جهر الأستاذ في كتابه بأمور كثيرة يأباها الدين الصحيح، فمنها ما هو مخالفة صريحة، ومنها ما هو إيماء إلى المخالفة، ولا عذر له في جميعها، وسنعرفها أو ما بدا لنا منها على ترتيبها في الكتاب مبينين قيمة كل بعد مناقشته فيه:

1 - يقول الأستاذ في أمثاله من المجددين في بحثهم: «فهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها». والعبارة على إطلاقها أول ما تنصرف إليه تنصرف إلى الدين الصحيح، فهل إذا انتهى أحد إلى الشك فيه يكون مرضيًّا في نظر الأستاذ ؟! وعبارته فيما سيأتي تدل على أنه يرضاه».

2 - ويقول في منهج البحث ما نصه: «يجب حين نبحث عن تاريخ الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين» إلى أن قال: «ذلك أننا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف وسنغل عقولنا بما يلائم هذه

العواطف وهذا الدين» . ومعنى هذا الكلام عند أهل النظر الصحيح وهو الذي كان يبدو لنا في الأستاذ - أولًا ما قام من القرينة على خلافه - أنه سينسلخ في بحثه الأزلي هذا من جميع الاعتبارات وينطلق في النظر حرًا لا يلوي على أثر من المؤثرات التي يظهر لونها في النتيجة . فإذا جاءت النتيجة جاءت حقًا صراحًا لا يصادم دينًا ولا يناقض قومية. ولو أنه قصد إلى هذا لكان علينا أن نؤيده ونثني عليه ولم يكن مع ذلك جديدًا ، ولا من أنصار الجديد كما خيل إليه بل كان قديمًا على سنة المتقدمين من أسلافنا فإنه لا ينكر عليهم هذا المنهج في مباحثهم العلمية ، ولاسيما الفلسفية منها إلا جاهل قليل الإطلاع على ذلك العدد العديد من مؤلفاتهم ومقالاتهم ، ولاسيما في أصل العلوم وهو علم التوحيد . أفلم ير الأستاذ طريقتهم فيه؟! وهل هو بالحد الذي يخفى عليه ما قالوه بناء على ذلك في إيمان المقلدين؟! أم هو الهوى يأخذ القول عن «ديكارت» ويعده جديدًا ، وينبذه ويعده قديما إذا جاء عن فخر الدين وغير فخر الدين ، من السالفين؟!..

قامت القرينة على أن الأستاذ يفارقنا في النهاية بمعنى أنه ينطلق على قدم الحرية في البحث حتى يصل إلى النتيجة ، فإن طابقت الدين قبله من أجلها ، وإن عارضته نبذة اعتنقها غير معني بالملاءمة بينه وبينها ولا وجل مما تأباه عليه من ذلك عاطفة الدين،
تل الصحيح يخالف الأستاذ في هذا المقام ويقضي برد كل ما يعارض الدين من
ظر والاستدلال ».

نرد الأستاذ محمد عبد المطلب في مقاله حيث يقول: «ولن يستطيع الأستاذ أن
ي أن الدين الصحيح هو نهاية ما تبغي الإنسانية من الخير ويتلمس الناس من
وليت شعري ما هذه النتائج التي ينبذ المرء لها دينه أن عارضته ، وتطيح لها قوميته الفكرية إذا سنحت لها ، وهل ينكر الأستاذ أنه من هذا الفريق وهو الذي لمّا عرض لها الدين فيما سيأتي بقصة إبراهيم وإسماعيل وهي مما قالته الكتب السماوية كالقرآن والتوراة لم يبال أن أنكرها في الأساطير عنده وعند غيره من الأباطيل ؟! وهل يجهل الأستاذ حكم الدين فيمن يقول أن الكتب السماوية المقدسة من الأباطيل؟! وسنوفي ذلك حقه إذا وفينا عليه في موضعه إن شاء الله ..

«هذا وللأستاذ في هذا الموضوع مغامز عددناها إلى غيرها مما هو أهم منها خوف التطويل» .

ويستطرد أي محمد عبد المطلب مهاجمًا منهج ديكارت دون أن يقرأه فيقول – على حد قوله – بأنه لم يعرفه إلا مما كتبه طه حسين: «أنا لا أعرف مذهب ديكارت في أصله وإنما فهمته على قدر ما أشار إليه الأستاذ في الكتاب ، فأنا لا أرد على ديكارت ولكني أرد على ما سماه مذهب ديكارت . وإني لأخشى أن يكون الرجل مظلومًا بتصرف الأستاذ في تصوير مذهبه ويلوح لي أنه لا يخالف قواعدنا معاشر المسلمين في حرية النظر والبحث . غير أنه إن كان كما صوره الأستاذ فإنه لا يوافق من جميع الوجوه إلا الذين لا دين لهم ، وأما أهل الدين فقد يكون اعتناق أحدهم له فسوقًا عن الدين في بعض الأحيان .

فإن معناه إذن أن يمضي الإنسان في البحث طليقًا لا يتقيد بشيء سوى العقل ومتى ولد القياس على هذه السنة نتيجة كان لها الحكم المطلق على الدين وعلى غيره ما وافقها مقبول وما عارضها مردود ، وهذا سهل عند من لا يدينون . فأما أهل الدين الحق فإنهم يفارقون هذا المذهب في نتيجته . فعندهم أن المرء له أن يمضي في النظر للقياس من جميع القيود دينية وغير دينية حتى تولد النتيجة ، فإن جاءت مطابقة للدين حقًا وقبلت، وإلا نبذت لأنها لا تكون إذن نتاجًا لمقدمات صحيحة ..

«أن الدين هو نهاية السعادة ، والبشر مهما أوتوا من العقل وصدق الرأي ، فإن هناك فيما شرع من الآيتين أمورًا تخفى عليهم حكمتها وأعرض الشارع عن بيانها ولم يكلفهم الله علمها رفقًا بهم وحرصًا عليهم كالتفكير في كنه ذات الله مثلا وفي غير ذلك مما لا يدخل في طاعة العقول والبشر ، وإنما اعتمد الشارع في تقريره على البلاغ الذي يجيء بذلك عن الرسول الصادق الأمين وأمر الناس ألا ينازعوه فيما جاء به وإلا كانوا آثمين . قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(1)» .

(1) الحشر : آية 7 .

فالخلاصة أن الحكم الذي لا يسع المتدين أن يحيد عنه في هذا المذهب أنه إن أنتج ما يوافق الدين الحق فهو على العين والرأس مقبول ، وإن أنتج ما يخالف هذا الدين فالواجب اطِّراحه ونبذه بلا مبالاه ..

هذا ولأجل أن تعرف هل الأستاذ من الفريق الأول أو هو من الفريق الثاني فاقرأ ما قاله في مبحث الشعر الجاهلي ، وانظر كيف كان موقفه من التوراه والقرآن الكريم فقد عقد الأستاذ هذا المبحث ليثبت فيه تلك النظرة «الزائفة» وهي أن الأكثرية المطلقة للشعر الجاهلي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فسلك في النظر والاستدلال طريقًا سنعرف قيمتها إذا وقفنا معه الوقفة الفنية ، وإنما الذي نحاسبه عليه هنا هو الموقف الديني..»

تقرأ هذا البحث فلا ترى في نظم الاستهلال إلا أفكارًا مضطربة ومراوغة بلهاء ووعيًا شائنًا مهينًا ، وعبارة إذا قرأتها تتلوى بك طورا وتتحوى عليك آخر ويروق لك برق معناها تارة ، ويخبو عنك أخرى ، وليت شعري أيرى الأستاذ أن هذا طريق قويم في النظر وهل ما قدم من البحث ينتج مدعاة أم هي طوية في الصدر تساوره براعته لتظهر فتضطرب البراعة من ألم التعبير عنها . فلقد قرأت البحث ثم قرأته وقرأته ثم قرأته فلا عرفت ما يريد بل عرفت أنه يريد أن يقول كلمته في قصة إبراهيم وإسماعيل فسلك إليها هذا الطريق ، وهو أنه كانت بين اليهود والعرب في القديم حرب انتهت بالهدنة وأراد كل من العرب واليهود أن يتقرب بعضهم من بعض فاخترعت القصة لإيجاد هذه الصلة ، ثم وافق وضعها هوى في نفوس قريش ومصلحة لهم في أن يثبتوا لمكة مجدًا كمجد روما قديمًا فوافقوا على القصة ، لأن فيها أن الكعبة من بناء إبراهيم وإسماعيل فمجد مكة بهذا قديم ينفع قريشًا كما انتفعت روما بقبول الأسطورة القائلة أنها من بناء إيناس بن بريام صاحب طروادة ..

«ولما جاء الإسلام وقامت الوثنية تناهضه انتهز فرصة وجود هذه القصة في العرب فاستغلها لإثبات الصلة بينه وبين الدينين القديمين : دين النصارى ودين اليهود – وبإثبات هذه الصلة يقوى على الوثنية العربية .

فهل يا دكتور يلتقي هذا الكلام بعقلك في مسرح الدليل الذي تحاول أن تنصبه على أن الشعر الجاهلي منتحل مختلق أم هي طوية خروج على الدين طغت على ما في صدرك من الدليل الفني فكان كل ما بينها وبينه من الصلة هذا الطغيان؟!..

«أرأيت ماذا رأى الدكتور في القصة؟ رأيه : «أنها متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية ، ولو أنها وردت في التوراة والقرآن «خف ولو طار» وهي حيلة في إثبات تلك الصلات بين اليهودية والإسلام والنصرانية» ثم أوضح هذا الرأي فيما بعد بقوله :

«أمر هذه القصة إذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضًا .. وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف على أصل اللغة العربية الفصحى . وإلى هنا قد بان لك رأي الأستاذ في هذه القصة وهو الشك أو اليقين بأنها من أساطير الأولين، أي من أباطيلهم وحكم الله تعالى واضح قاطع في الشك أو التردد فيما جاء من الأخبار في كتبه الأربعة» .

«والقصة ثابتة باعتراف الأستاذ في هذه الكتب السماوية كما هي ثابتة في الحديث الصحيح بالسند الصحيح فليعترف الإنسان موقفه أمام حكم الله ، وليعلم أن الله تعالى يقول : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ «[1]» .

ويقول في مسألة القراءات باب الشعر الجاهلي واللهجات .

«وهو أن القرآن الذي تلي بلغة واحدة واحدة هي لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناول القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينًا كثيرًا جدًّا واختلف القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه» .

«وهذه غمزة من غمزات الأستاذ وما أغناه عن مثل هذا بعد ما تقدم وعبارته تشعر هنا أن القراءات من عمل البشر الذي اقتضته طبيعة الاختلاف في لهجاتهم وما أجرأ من

(1) الزمر : آية 7 .

يقول بمثل هذا ، إنما القراءات سنة متبعة عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن ربه الذي أنزله على وفق هذه اللهجات رفقًا بأولئك الذين قد لا يستطيعون من العرب أن يقوِّموا ألسنتهم على لغة قريش ، وهذا لا ينافي أنه نزل بلغة قريش أولًا لأن أول نزوله كان فيهم وهم أكثر الناس لزامًا للرسول صلوات الله عليه . ثم لما تدافعت القبائل المختلفة إلى الإسلام أنزل الله على رسوله القراءات رحمة بعبادة ، إنه الغفور الرحيم .. والأستاذ وإن غمز المشار إليها فإنه أراحنا بالانصراف من المقام تحت ستار أن المسألة معضلة ليس عنده من الوقت ولا عند غيره ما يقدر معه على إيضاحها . ولقد وجد غيره قبله من أئمتنا الوقت الذي لم يجده هو ، فالمسألة واضحة محققة في كتبهم فليرجع إليها منصفًا نفسه، والعهد به أنه من المنصفين» .

* * *

وفي الصفحة الأولى من الأهرام أيضًا بتاريخ 12 مايو 1926 مقالة للأستاذ عبد المتعال الصعيدي المدرس في الجامع الأحمدي بطنطا بعنوان : «في الشعر الجاهلي سرقات مؤلفة» هذا نصها :

«بين يدي الآن كتاب «مقالة في الإسلام» لجرجس صال الإنجليزي عربه عن الإنجليزية من يدعى هاشم العربي مطبوعة 1891 ، يرى فيما ما رأى الدكتور طه في قصة إبراهيم وإسماعيل وينسبه لنفسه على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة . وهو الذي أقام الدنيا وأقعدها على الأستاذ علام سلامه ، إذ نقل على لسان العرب ما نقل مما كتبه عن الأدب والأدباء في «السياسة» الأسبوعية ولم ينسبه إلى صاحبه» ..

«فلماذا استحل الدكتور طه حسين هذه السرقة الفظيعة ، وهو العالم الذي لا يباري ولا يليق أن يتهجم على الكتب فيسرق منها وينسب لنفسه؟»..

«يقول طه حسين : أمر هذه القصة (قصة إبراهيم وإسماعيل) إذن واضح ، فهي حديثه العهد ظهرت قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني وسياسي . وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى»..

«وليعذرني القارئ إذا لم أنقل له غير ذلك فيما جاء في كتابه عن هذه القصة التي يقول فيها على ما نقل إلى بعض الأفاضل إنها دسيسة يهودية فليس معي الكتاب الآن» .

«واسمع ما يقول هاشم العربي في ذيل كتاب (مقالة في الإسلام) بعد كلام كثير في قصة إبراهيم وإسماعيل والطعن في نسبة العرب المستعربة إليهما . وحقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقهاء قدماء اليهود للعرب تزلفًا إليهم وتذرعًا بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم في بلاد العرب يلجأون إليها فقالوا لهم نحن وأنتم إخوة وذرية أب واحد ، وهذا سنن مألوف في اليهود كأنهم متى رأوا المصلحة في التودد إلى قوم قالوا لهم أنتم إخوتنا ونحن وأنتم صنوان وقد حاولوا مرة أخرى أن يخدعوا اليونان بهذه الحيلة ليتعصبوا لهم مع العرب لما زحف عليهم «بتطميس» بجيش الروم ليجروهم إلى قتالهم فلم يظفروا بمرادهم ، ثم نكبوا فهاجر كثير منهم إلى جزيرة العرب وتوطد فيها أمرهم ولم يأل جهدًا منذ ذاك إلى ظهور الإسلام في أشراف العرب أن بينهم وبينهم قرابة حتى نجعت فيهم هذه الإكذوبة آخر الأمر ، لأنهم كانوا أجهل من أن يردوها - إلى أن قال - ولما ظهر محمد ﷺ رأى المصلحة في إقرارها فأقروها ، وقال للعرب إنه إنما يدعوهم إلى ملة إبراهيم الذي يعظمونه من غير أن يعرفوه»..

«أفليس هذا يا دكتور هو عين ما تقوله في كتابك وتنسبه لنفسك وأنت الذي ترى أن مثل هذا جرم ليس بعده جرم . وهل يليق بك يا دكتور أن تنقلب مبشرًا تنقل آراء المبشرين التي يمليها عليهم حقدهم في جامعة علمية يجب أن تكون بعيدة عن مثل هذا حتى تقبل عليها الأمة ولا تنأى بأبنائها عنها حرصًا على دينها فتصبح الجامعة خرابًا لا تجد من يأوى إليها وهذا سيكون بفضل دكتورنا ، الذي يريد أن يجعل الجامعة معهد تبشير مخالفًا بذلك إرادة الأمة والحكومة؟!» .

* * *

وهكذا يتوالى نشر المقالات والدراسات وكلها جعلت من الكتاب وصاحبه هدفًا لها. ولم يشأ الدكتور طه حسين أن يرد على كل هذا الهجوم في بادئ الأمر ، إلا أنه أجاب

على أسئلة حديث لمجلة «الأنفورمسيون» الفرنسية نشرته مجلة «السياسة» بعد ترجمته إلى العربية في عددها الصادر في 26 مايو عام 1926 ، وهذا نصه :

إن الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية هو «رجل اليوم» فقد أثار كتابه الأخير عن الشعر الجاهلي ضجة كبيرة : وكان فوق ذلك موضوعًا للتأويلات المتناقضة. ولما كانت خير وسيلة لمعرفة الغاية التي قصد إليها المؤلف وإدراك نياته الحقيقة هي مخاطبة الدكتور طه حسين نفسه فقد تقدمنا نحن إليه ، وقد استقبلنا الأستاذ النابه بظرف وافر ساحر وتفضل بإجابتنا إلى الحديث:

قلنا : أية عاصفة تلك التي أثرتها يا دكتور ؟

فأجابنا : ضجة كبيرة لأمر تافه ، إن الأستاذ الذي يلقى دروسه بأمانة كثيرًا ما تعرض له في المادة التي يدرسها ملاحظات ومباحث شخصية كما تعرض له في بعض الأحايين نظريات أيضًا . وطبيعي جدًا أن يجمع هذه الملاحظات ويصوغها في قالب تحليلي يعرضه مع شيء من التفصيل على زملائه .

قلنا : ولكن إذا صح ما فهمناه فليس زملاؤك الذين كتبت لهم هم الذين يجتمعون ؟

قال : أولئك الذين أعنيهم والذين فكرت فيهم حين الكتابة هم العلماء والعالم ينتقد ولكنه لا يرسل الصيحات عالية . إن هناك نقادًا بلا ريب انتظرهم ، وأؤمِّل أن أسمعهم ، أما الصيحات العالية فاعترف لك إني لم أكن أنتظرها .

قلنا : ومع ذلك فقد تعرضت لمسائل تعرف أنها شائكة .

قال : بلى ، ولكني طلبت مدفوعًا بشغف مهنتي إلى أولئك الذين لا يعرفون مناهج النقد الحديثة والبحث الحر ألا يقرأوا كتابًا لم يكتب لهم . إياك أن ترى في ذلك زهوًا. إن كتابي جدير بما هو جدير به وقد لا تكون له قيمة إلا في نزاهة بحثه . أقول لك هذا فقط لأبين لك إني لم أفكر لحظة في أن أنتهك معتقدات أحترمها بل لم أفكر قط في أني قد أستطيع انتهاكها .

قلنا : إذن فما الذي أثار خصومك إلى هذا الحد ؟

أجاب خصومي فريقان : رجال الدين ومعلمو الآداب في مدارس الحكومة . فلنتكلم عن رجال الدين أولًا إذا شئت . إنهم يرمونني بالالحاد . على أني أؤكد أن ثمانية وتسعين في المائة ممن يتهمونني لم يقرأوا كتابي ، ولست أقدم لك إلا دليلًا واحدًا : في هذا الصباح كتب لي شيخ من الزقازيق يطلب نسخة من الكتاب لكي يستطيع أن يقول فيه رأيه بصراحة . ومع ذلك فإن هذا الشيخ قد وقّع منذ اثني عشر يومًا عريضة يطالب موقعرها برفتي ! قيل لهؤلاء البسطاء إني أطعن في الإسلام فأشهروا الحرب عليَّ جميعها على أني أقول عاليًا أنْ ليس في كتابي كلمة يمكن أن تؤول ضد الدين . والعبارة الوحيدة التي يمكن أن أنتقد من أجلها تضع النصوص المقدسة بعيدة عن قسوة المباحث التاريخية : قلت إنه يكفي لكي تثبت من الوجهة العلمية وجود إبراهيم وابنه إسماعيل في التاريخ أن يكون اسماهما قد ذكرا في التوارة وفي القرآن ، وليس معنى ذلك أن إبراهيم لم يوجد قط كما نسب إلى القول بذلك كاتب في جريدة «البورص إجيبسيان» لم يقرأ كتابي أيضًا .

قلنا : وما الذي دعا إلى أن تتحدث عن إبراهيم ؟

أجاب : ما يقال إن عرب الحجاز ينتسبون إلى إبراهيم وإنهم لم يتلقوا لغتهم من اليمنيين ، ولغة الحجاز . والنظرية التي أطرحها هي في الواقع ما يأتي : يعتقدون أن هنالك آدابا جاهلية (قبل الإسلام) . أما أنا وإن لم أقل إنه لم توجد آداب جاهلية ، فأعتقد أن النصوص التي لدينا والتي يقال إنها جاهلية ترجع إلى عصر أحدث من العصر الذي تنسب إليه . وترجع شكوكي في الواقع إلى أن هذه النصوص مكتوبة كلها بلغة القرآن ذاته في حين أنه لا يبدو لي من الوجهة الفلسفية والتاريخية أنه من الممكن أن لغة القرآن هذه كانت قبل النبي هي لغة العرب العامة .

وما دمنا قد تعرضنا لذكر الآداب فسوف أحاول أن أبسط لك مزاعم خصومي الآخرين. إن الآداب تعتبر لدينا حتى اليوم علمًا تابعا للدين . فأي بلد في العالم تتهم في القرن العشرين بالإلحاد استاذًا يريد أن يدرس الآداب في ذاتها؟ على أن ذلك هو ما حدث لي .

ولتلاحظ أني أفهم تمامًا - لو كنت مصيبًا في بحثي - مدى خيبة الأمل التي تلحق أولئك الأساتذة الذين يرون الشك يتسرب إلى نصوص يعتقدون صحتها دائما ، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل في هذا الموضوع ؟

ثم لنعد إلى التهمة الأساسية وهي تلك التي تتعلق بالقرآن . إني أقرر لك إني فضلًا عن كوني بعيدًا جدًا عن أن أسيء إلى «كتابنا» وأن أنتقص من قدره ولو من الوجهة الأدبية ، فإني قد صرحت وكتبت مرارًا أن القرآن هو أقدم وثائقنا الصحيحة ، وأنه يقدم لنا صورة صحيحة من الحياة العربية ، وأنه أجمل أثر في لغتنا يحتوي كل ضروب الجمال وكل عظمة في الأدب والفكر .

ثم إني أكرر لك أنه لم يكن لي نية سوى تمحيص الحقيقة في موضوع أشغف به لأني أحب آدابنا ولغتنا الحب الجم . وإني لأقدر بمعيار الجد مهمتي كأستاذ في جامعة نريد جميعًا أن تكون خليقة بهذا الوصف: هاتان العاطفتان تجعلاني أسير في طريقي دون أن أعبأ بوشايات منها ما يرجع إلى البغض أكثر منها إلى القبول . فعلى أولئك الذين يؤمنون بالخطر أن يفتحوا أعينهم لمسائل خطيرة غير هذه! أما هذه ... فمسألة أخرى!

* * *

وبعد هذا التزمت جريدة «السياسة» الصمت فترة من بعدها صرحت في مقال بعنوان: «رجال الدين وحركاتهم السياسية» بتاريخ 7 يوليو 1926 قالت فيه : «عندما صدر كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين ، وتناوله حضرات رجال الدين بالنقد لم نرد أن ندخل في جدل أو مناقشة لنؤيد حرية الرأي أو البحث العلمي ، ولو كان صاحبه مخطئًا. وآثرنا أن يتلاقى أولو الأمر الخلاف بالحكمة والأناة .

فلما طلب بعض المشايخ محاكمة الدكتزر طه حسين وإخراجه من الجامعة ومصادرة كتابه أفهمهم من بيدهم الأمر أن ليس في الكتاب ما يحاكم عليه ، وأعلن الدكتور طه حسين للناس أنه يؤمن بالله وكتبه واليوم الآخر . وأُتفق على أن تشتري الجامعة الكتاب فلا تتداوله أيدي الناس .

ولم يكن أحد يتوقع أن تثور مسألة الدكتور طه حسين وكتابه من جديد . ولكن حضرات العلماء الذين تحركوا في المرة الأولى لم يدعوا الوزارة تطمئن إلى مجالها في الحكم ثلاثة أيام حتى قدموا عرائض يطلبون فيها فصل الدكتور طه حسين من الجامعة ومصادرة كتابه وإحالته إلى المحاكمة .

وكنا نود أن تكون الوزارة قوية غاية القوة ، مؤيدة أشد التأييد ، وأن محاولتهم إخراجها على هذه الصورة لن تصل بهم إلى أي نتيجة . وأنهم يقصدون لغايات خاصة أو فساد الجو السياسي ، مما لم يستطيعوا الوصول إليه ، وإنا لنود مخلصين أن يذر المشايخ هذه السياسة التي لا تفيدهم ، ولا تفيد أحد والتي تحرجهم ولا تحرج أحدًا ، وأن ينصرفوا إلى التفكير في إصلاح حال المسلمين الدينية» .

وهذا المقال الذي نشرته «السياسة» اعتبر بيانًا عن موقف عام يؤيد طه حسين . في هذه المعركة التي اتسعت فشملت البرلمان والقضاء ، بالإضافة إلى مناقشتها على صفحات الجرائد والكتب داخل أروقة الأزهر ويبدو أن هذه الصورة وضحت للدكتور طه حسين الذي كان في الخارج بعد وصول هذا العدد من جريدة «السياسة» حيث كتب للدكتور هيكل رئيس التحرير مقالًا بعنوان : «خطران» نشرته «السياسة» في 16 / 7 / 1926 فيه يقدم مشروعًا لإصلاح الأزهر ، ويتضمن في نفس الوقت الدفاع عن نفسه ضد من هاجموه . والملاحظة أن هذا المقال أرسله الدكتور طه حسين من سان جرفيه بأوروبا عندما علم بالمعركة الدائرة حول كتابه ، وهذا نصه بعد العنوان السابق :

خطران أولهما الجهل وثانيهما الجمود وكلاهما عقبة كؤود في سبيل الحياة الدستورية الصالحة من حيث هي .

وأؤكد لك أني لا أكتب هذه السطور لأعيد أو أكرر ما يعرفه الناس جميعًا ويرددونه في كل يوم ، وهو أن الجهل ظلمة ، والعلم نور ، والجمود عدو الرقي وخصم الحرية، بل أؤكد لك أني ما كنت أفكر في أن أكتب لولا أن وصلت إلى «السياسة» فقرأت فيها ما قرأت من أخبار البرلمان ومناقشات الكتاب حول العلم والدين وأخبار المدارس والتعليم .

وقد أصبحنا اليوم وإن السماء لتصب الماء على الأرض صبًا في غير انقطاع فاضطررنا إلى أن نلزم بيوتنا وحيل بيننا وبين الحركة التي تصرفني بنوع خاص عن التفكير فيما أريد أن أستريح منه .

قرأت «السياسة» إذن واضطررت إلى أن أفكر فيما قرأت . ولأمر ما فكرت في مسألة لا أكاد أنصرف عن التفكير فيها كلما قرئت على الصحف ، ولأمر ما أردت أن أكتب في هذه المسألة بعد أن كتبت فيها فأكثرت وبعد. أن عرفت أن الكتابة فيها لا تغني ولا تفيد. أكاد أعرف السبب الخفي الذي دفعني إلى التفكير والكتابة في هذا الموضوع وهو أننا قد استأنفنا حياتنا البرلمانية واستأنفناها في شيء من الأمل قوي . وأخذ كل واحد يحدث نفسه بأن وقوف الحركة البرلمانية في مصر لا يمكن أن يمر دون أن ينتفع به المصريون جميعًا ، ودون أن ينتفع به البرلمان نفسه بنوع خاص . وأول فائدة ينبغي أن نجنيها وعلى أن تكون النفس المصرية دستورية حقًا أو مفطورة على حب الدستور إن صح هذا التعبير. فأما البرلمانيون ورجال السياسة فيسعون إلى هذا من طرقهم السياسية الخاصة : سيشرِّعون القوانين ويتخذون ما يرون اتخاذه من الوسائل المختلفة ، فندعهم وما هم فيه وما سيعرضون له من أمورهم السياسية . ولكن مع ملاحظة أن ما سيشرِّعون من قانون وما سيتخذون من وسيلة سيظل ضعيف الأثر حتى يكون له في النفوس المصرية صدًى، وحتى يعتمد المصريون على حب صحيح للحرية يجري مع دمائهم ، ولن يكون هذا إلا بزوال هذين الخطرين اللذين ذكرتهما في أول هذا الفصل .

فأما أولهما وهو الجهل فالدستور نفسه يعد لإزالته حين يجعل التعليم الأولي عامًا إجباريًا ، وحياتنا كلها تعد لإزالته حين تدفعنا إلى ترقية التعليم وإصلاحه وتقويته على اختلاف فروعه ودرجاته ، فلست أخاف الجهل لأني أعلم أنه سيزول أو سيقل وتخف وطأته شيئًا فشيئًا .

ولكن الدستور لم يحتط للخطر الثاني وهو الجمود وليس في حياتنا كلها ما يدل على أننا نريد أن نتقي الجمود حقًا ، ومع ذلك فلست أدري أيهما شر : الجهل أم الجمود؟

ولست أدري الذي يحارب لأنه لا يعلم ، أم هذا الجامد الذي يحارب عن علم أو عما يتخيل أنه علم؟ وبعبارة واضحة لست أدري أيهما أشد خطرًا على الحرية : جهل الرجل الساذج الأمي أم تعصب الرجل الجامد الذي يؤمن لنفسه بالعصمة أو ما يشبه العصمة؟

احتاط الدستور - إذن - لإزالة الجهل ولم يحتط لإزالة الجمود . ولكن البرلمان قادر بحمد الله على أن يحتاط لإزالة الجمود احتياطًا خصيبًا منتجًا ، فيه يقع المتعلمون المستنيرون والجاهلون الأميون والجامدون المتعصبون جميعًا .

أحب ألا يغضب صاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ومن حوله من الشيوخ فلست أعلم بهم وبتلاميذهم إلّا خيرًا . ولكن من يريد الخير مضطر إلى أن يحاول إزالة الشر . وأول ذلك أن يدل عليه وأنا أريد أن أصارح البرلمانيين والذين إليهم أمور مصر في هذه الأيام بأن في مصر شرّا عظيمًا هو جمود الشيوخ ، وأريد أن أصارحهم بأن واجبهم الوطني يقضي عليهم بأمرين : الأول مؤقت لابد منه وهو أن يتخذوا من الوسائل التشريعية والسياسية ما يحول بين الشيوخ وبين التسلط على الحياة العقلية والعلمية والسياسية . فليس من الممكن أن نغير أخلاقهم ونخرجهم من جمودهم فقد صدق ابن دريد حين قال :

والشيخُ إنْ قَوَّمَتُه مِنْ زَيْغِه لَمْ يُقِمِ التَّثْقِيفُ مِنْهُ مَا الْتَوَى

والأمر الثاني ليس مؤقتًا ولكنه واجب محتوم أشد وجوبًا من الأمر الأول ولا يستطيع أن يفر منه من يقدر تبعته الوطنية حقّا ، ومن يستمتع بشيء من بعد النظر ونفاذ البصيرة ، وهو استئصال هذا الجمود ووقاية الأجيال الحاضرة والمقبلة من شره .

والبرلمان لا يخدم مصر حقّا إلا إذا جنبها ما تتعرض له الآن من الشر ، ولم يحتط بينهما وبين الشر وما استطاع في أيامها المقبلة .

وأؤكد للبرلمان أن الشر مستمر متضاعف مادام الأزهر قائمًا كما هو وما دامت ملحقاته في الأقاليم قائمة كما هي لا يشملها الإصلاح ولا يتغلغل في أعماقها نور الحياة الراقية

والعلم الصحيح . وهنا نعرض لهذه المسألة الشائكة العقيمة التي عرض لها الناس من قبل فأفسدوا ولم يصلحوا وهي مسألة إصلاح الأزهر . وأنا أعلن منذ الآن أني لا أريد أن أمس هذه المسألة ، ولا أن أدخل في شئون الأزهر بخير ولا بشر ، فذلك شيء لا أحبه ولا أرى فيه نفعًا ولو صرحت برأيي فيه لحكم الشيوخ عليّ بالكفر - إنما أريد أن ألفت نظر وزير المعارف خاصة والبرلمانيين عامة إلى أن حياتنا العقلية والعلمية لن تصلح ولن تنتهي إلى خير ما دام في مصر نوعان من التعليم يقف كلاهما في وجه صاحبه عدوّا مبينًا وخصمًا عنيدًا : التعليم المدني في مدارس الحكومة وما إليها والتعليم الديني في الأزهر وملحقاته . هذان النوعان من التعليم يخرجان لمصر في كل عام جيشين مستعدين للخصام أحدهما جيش المتعلمين المستنيرين الطامحين إلى المثل الأعلى الراغبين في الاتصال بحياة العالم الحديث والآخر جيش الجامدين المتعبين الذين ركبت رؤوسهم إلى الوراء فهم ينظرون إلى أمس بينما ينظر خصومهم إلى غد . وسيظل هذان الجيشان في خصومة وحرب حتى يظفر أحدهما . وليس من شك في أن جيش التعليم المدني هو المنتصر . ولكن انتصاره سيكون بعيدًا وسيكون عنيفًا وسيكلف مصر ضروبًا من الضحايا إذا تركت الأمور في مصر بحيث هي الآن ونحن بين أمرين : إما أن ندع الأزهر كما هو والمدارس المدنية كما هي وأن ندع مصر تعاني هذه الخصومة المنكرة بين فريقين من أبنائها لكل منهما عقلية خاصة وفهم للحياة خاص وأن نتحمل ما يستتبعه هذا الإهمال الأثيم من النتائج التي أقل ما توصف به أنها ستشبه ما وقع في أوروبا بين رجال الدين وأنصار الحياة الجديدة . وإما أن نحتاط لحماية مصر من هذه النتائج ، ولنا إلى ذلك سبيلان إحداهما إصلاح الأزهر (وليس إليه فيما أعتقد من سبيل) والأخرى وهي التي ألمح فيها تقريب المسافة بين طلاب الأزهر والمدارس المدنية بحيث يستطيع من شاء فيهم أن يدع الأزهر إلى هذه المدارس أو أن يجمع بين التعليمين المدني والديني إن أراد. ولقد كانت محاولات من هذا النحو ولكنها لم تنتج لأن الذين حاولوها لم يبرأوا من التردد والاشفاق والخوف .

أنشئت (دار العلوم) وكان إنشاؤها اعترافًا صريحًا بعجز الأزهر وقصوره عن أن يقوم خريجوه بمناصب التعليم بل لمناصب أشد أنواع التعليم اتصالًا بالأزهر وهو تعليم اللغة العربية . ثم أنشئت مدرسة القضاء ، وكان إنشاؤها اعترافًا صريحًا بعجز الأزهر وقصوره عن أن ينهض خريجوه بمناصب القضاء الشرعي . وأنشئت مدارس المعلمين الأولية ، وكان إنشاؤها اعترافًا صريحًا بعجز الأزهر حتى أن يقوم أهله بالتعليم في الكتاتيب .

ولكن الذين حاولوا هذه المحاولات كانوا كمن قلت مشفقين مترددين يحشون الرجعية وأنصارها الأقوياء ، فلم يستطيعوا أن يجعلوا هذه المدارس مدنية خالصة ، وإنما جعلوها شيئًا بين بين ... وقد نفعت هذه المدارس بعض النفع ولكن كل شيء يدل الآن على أنها أصبحت لا تغني ولا تفيد . نفعت لأن حظ البلاد من التعليم الحر كان قليلًا وكان كل جديد فيها مفيدًا . أما الآن وقد عظم حظ هذه البلاد من التعليم الحر وسيزداد من يوم إلى يوم فقد سقطت هذه المدارس أو سقط ما لا يزال قائمًا منها بين كرسين كما يقول الفرنسيون . وأصبحت لا هي بالجديدة فتشجع ، ولا هي بالقديمة فتنتقي ، وإنما هي كالغراب .

حَسَدَ القَطَاةَ فَرَامَ يَمْشِي مَشْيَهَا فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ العقَّالِ

ويكفي أن نفكر في هذا التناقض الشنيع الذي وقع في دار العلوم منذ أشهر ، فلقد أراد تلاميذها المندفعون إلى الجديد أن يفارقوا زيهم إلى زي أخوانهم تلاميذ المدارس المدنية وأبى عليهم شيوخ الأزهر هذا ، وانضمت الحكومة إلى الشيوخ ، وكان هذا الجهاد العنيف السخيف الذي ضحكنا منه وغضبنا له .

وأؤكد أن هذه الخصومة حول الزي على عنفها وسخفها ليست شيئًا بالقياس إلى خصومة أخرى في دار العلوم بين الطلاب وشيوخهم . خصومة في العلم ، وخصومة في التفكير ، وخصومة في فهم الحياة ، ولم تقع هذه الخصومة . وهؤلاء الطلاب يخضعون لشيوخ من أنصار القديم كما يخضعون لأساتذة من أنصار الجديد . يعلمهم الشيوخ الأدب واللغة والدين شر تعليم وأسوأه . ويعلمهم الآخرون الجغرافيا والتاريخ والرياضة

ومقدمات الطبيعة والكيمياء والتربية وما إليها من العلوم الحديثة . ويجدون بين قبول هؤلاء الأساتذة وأولئك الشيوخ من التناقض ما يوقفهم موقف الحيرة ، ثم موقف السأم، ثم موقف السخط حتى إذا خرجوا من المدرسة لم يكونوا مجددين ولا مقدمين ، وإنما كانوا شيئًا بين بين لا إلى هؤلاء ولا هؤلاء .

ولو أن لي من الأمر شيئًا لطلبت إلى وزير المعارف إلغاء دار العلوم وتحويل تعليم اللغة العربية إلى مدرسة المعلمين العليا ، فأنا أقسم أن اللغة العربية تدرس في مدرسة المعلمين العليا درسًا أقل نفعًا ولا أقل قيمةً من درسها في دار العلوم . ذلك إلى ماضي هذه المدرسة من اللون المدني الصريح الذي لا تردد فيه ولا تذبذب .

أما مدرسة القضاء فقد انتصرت عليها الرجعية انتصارًا منكرًا فمحتها محوًا على أن هذه الرجعية نفسها قد انتصرت في دار العلوم فألحقتها بالأزهر دون أن تفصلها عن المعارف وجعلتها شيئًا عجبًا لا يخلص للتعليم الديني ولا التعليم المدني .. يشرف عليه الأزهر وتنفق عليه وزارة المعارف ويريد شيوخها وأستاذتها بين إرضاء الأزهر وإرضاء الوزارة فتتألف حياتهم من المتناقضات .

هذه المحاولات إذن أفادت في أول الأمر ، ولكنها الآن عقبة لا تجدي بل هي الآن أقرب إلى الضرر منها إلى النفع . ونحن الآن كما كنا قبل إنشاء دار العلوم ومدرسة القضاء أمام عقليتين لابد من التوفيق بينهما ، فأين السبيل إلى هذا التوفيق؟

يجب أن نلاحظ أن طلاب الأزهر وملحقاته ويحصون بالآلاف أو بعشرات الآلاف، فهم في حقيقة الأمر قوة لا يستهان بها في حياة الأمة . وإن نحن تركناهم كما هم أضفنا إلى الأمة عددًا ضخمًا من أبنائها وأعددنا في الوقت نفسه جيشًا ضخمًا يحارب العمل ويحارب الحرية ويحارب الرقي ويحارب العلم نفسه .

ولا ينبغي أن نفكر في صرف الناس عن الأزهر وملحقاته فليس في هذا من الحرية ومن العدل ولا من الإنصاف الدستوري في شيء ، وإنما ينبغي أن نمهد السبيل لطلاب الأزهر وملحقاته حتى يستطيعوا كما قلت – أن يتحولوا إلى التعليم المدني أو يجمعوا

بينه وبين التعليم الديني إن أرادوا . وفي سبيل ذلك أمران : الأول أن يحال بين مناصب الدولة وبين الذين لا يحصلون على الشهادات المدنية مهما تكن هذه المناصب بحيث لا ينهض للقضاء الشرعي إلا من حصل على الليسانس ولا للتعليم إلا من حصل على دبلوم المعلمين العليا وهلم جرا .

الثاني أن يتاح للأزهريين الحصول على الشهادات المدنية كغيرهم من المصريين وذلك أن تنشأ لهم مدارس متوسطة خاصة يتمون فيها ما ينقصهم من العلم ليظفروا بالشهادة الثانوية (المدنية) ، ويستطيعوا الاتصال بالجامعة وغيرها من المدارس الخاصة. وبهذا النحو تتحقق المساواة بين المصريين جميعًا أمام مناصب الحكم وأمام العمل على اختلاف فروعه ، وبهذا النحو تتحقق الوحدة العقلية في مصر ، ولا يوجد هذان الجيشان المختصمان .

وبهذا النحو تفتح أبواب الحياة أمام الأزهريين فيندفعون فيها حيث يشاءون ، يكون منهم الطبيب ، ويكون منهم القاضي ، ويكون منهم المعلم ، المهندس ومن يقضي حياته على العلم الخالص .

وبهذا النحو يتحقق التعاون الصحيح المفيد بين العلم والدين ، يتعلم الأزهريون اللغات الأجنبية والعلم الحديث ويتصلون بالحياة والحركة ، فتتأثر بذلك عقولهم ، ويتسع بذلك فهمهم للدين .

ثم بهذا النحو يصبح الأزهريون قوة عاملة لا مهملة ولا مضيعة .

وهل يفكر القارئ في نتائج هذا النوع من الإصلاح . هل يفكر القارئ قليلًا في أن هذا الإصلاح متى استطاع المصريون جميعًا أن يستقبلوا الحياة متحدين حقّا .. مؤتلفين حقّا.. متضامنين حقّا ؟ هل يفكر القارئ في أن هذا الإصلاح إذا تم خفف خطر الرجعية إن لم يزله إزالة تامةً ، وجعل الحياة الدستورية بمأمن من العواصف؟ هل يفكر القارئ في هذا أن الإصلاح متى استطاع الأجنبي أن ينظر إلى مصر كما ينظر إلى أي بلد آخر دون أن يعجب لما فيها من افتراق الأهواء والآراء والأزياء ؟

أما القارئ فلا أشك في أنه يفكر في هذا كله . ويطمع فيه ويسمو إليه الأزهريون خاصةً ويحرصون عليه .

ولكن الذين يكرهون هذا وينفرون منه نفورًا شديدًا هم الشيوخ .

والذين يترددون في هذا وينفرون منه نفورًا شديدًا هم الشيوخ .

نعم أخشى أن يتردد البرلمانيون ويشفقون .. ومع ذلك فأنا أقسم لهم أن ليس إلى صيانة الدستور من سبيل إلا هذا الإصلاح ، وأقسم لهم أن هذا واقع لا محالة ، وأن الفضل لمن سبق إليه ، واتمنى أن يكونوا هم السابقين لا لشيء لأن الإسراع في تحقيق هذا الإصلاح خير من الإبطاء لأنه يريح مصر من آلام كثيرة ويحتفظ لها بعدد ضخم من أبنائها يضيع كلما أبطأنا في هذا الإصلاح . فليس التعليم كغيره من المرافق العامة يمكن الانتظار في إصلاحه وإنما إضاعة الوقت في إصلاح التعليم إضاعة لأجيال كاملة من أبناء الأمة .

«فليفكر البرلمانيون وأمامهم الصيف فيه سعة للتفكير» .

* * *

وفي الجانب الآخر تزداد حملة الهجوم على الدكتور طه حسين حتى تصل إلى القيام بمظاهرات تتوجه إلى البرلمان ليخرج سعد زغلول زعيم الوفد حزب الأغلبية ليقول : «إن مسألة كهذة لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها . هبوا أن رجلًا مجنونًا يهذي في الطريق فهل يغير العقلاء شيئًا من ذلك؟ إن هذا الدين متين وليس الذي شك فيه زعيمًا ولا إمامًا حتى نخشى من شكه على العامة . فليشك ما شاء ، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟!» .

ولم تقف المعركة عند هذه الردود الصحفية أو الأدبية أو تنظيم المظاهرات ضد مؤلف كتاب «في الشعر الجاهلي» وإنما دخلتها الأحزاب أيضًا . ولنترك الأهرام الصادر يوم 12 سبتمبر عام 1926 يصور لنا الموقف قائلًا : «من المسائل التي ثارت حولها الإشاعات

كتاب «في الشعر الجاهلي» واستنكر كبار العلماء بعض ما احتواه من عبارات ، فإن كثيرين من النواب يستنكرون بقاء الدكتور طه حسين أستاذًا بالجامعة ، وكان صاحب الفضيلة الشيخ القاياتي قد أعلن عن عزمه استجواب رئيس الوزراء «عدلي يكن باشا» في هذا الشأن ، ثم بذلت مساع حميدة لحمله على العدول على أن يبدل الاستجواب بسؤال يكون الرد عليه كتابة . ولم يرد رئيس الوزراء ، وأشيع أن كثيرًا من النواب سيعرضون هذه المسألة على المجلس أثناء بحثه الميزانية . وحدث أن ثارت المناقشة في مجلس النواب في شأن الكتاب ومؤلفه وألقيت الخطب مما يراه القراء بنصه في محضر جلسة المجلس، وقدم النائب المحترم عبد الحميد البنان اقتراحًا من ثلاثة أقسام هي : إبادة الكتاب ، وإحالة المؤلف إلى النيابة ، وإلغاء وظيفته . وقد سلم معالي علي باشا الشمسي وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح ووافق عليه ، وتكلم دولة عدلي باشا يكن رئيس الوزراء عن القسم الثاني ، وجرت بينه وبين رئيس المجلس دولة سعد زغلول باشا مناقشة اشترك فيها وزيرا المعارف والحقانية انتهت بأن ذكر عدلي باشا أن قرار المجلس بإحالة المؤلف إلى النيابة يكون اعتراضًا على تصرفات الحكومة وطرح الثقة بالوزارة ، وكان جو المجلس مكهربًا فاقترح النائب المحترم الدكتور أحمد ماهر باشا رفع الجلسة عشر دقائق للاستراحة ولما رفعت الجلسة ذهب دولة سعد باشا إلى مكتبه وتبعه إليه عدلي باشا وحسين رشدي باشا ، وقالت الأهرام أنه في جلسة يوم الثلاثاء قال عبد الحميد البنان إنه قدم بلاغًا إلى النيابة العمومية للتحقيق مع الدكتور طه حسين عما كتبه طعنًا على الدين» .

وبالفعل قُدم الدكتور طه حسين للتحقيق أمام محمد نور بك رئيس نيابة مصر في ذلك الحين .

وقال النائب في تقريره إن الدكتور طه حسين أدلى بردود وأدلة على الاتهامات الموجهة ضده ، وأجاب ردًا عما إذا كان قد استنتج هذا الكلام أم نقله «إن هذا فرض فرضته دون أن أطلع عليه في كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب أن شيئًا مثل هذا الفرض يوجد في بعض كتب المبشرين ، ولكني لم أفكر فيه حتى بعد ظهور كتابي .

وقد قال إن كلامه ليس فيه طعن في نسب النبي ، وإن أورده بشكل غير لائق ، ولم يكن في بحثه ما يدعوه إلى إيراده بهذا الشكل .

وقال إنه لا ينكر أن الإسلام دين إبراهيم ، ولا أن له أولية في بلاد العرب ، وأن ما ذكره هو رأي القصاص ، فقد أنشأوا حوله كثيرًا من الشعر والأخبار .

وقال عن القراءات السبع المجمع عليها : إن القرآن نزل بلغة قريش ، ولكن القراء من القبائل لم يكادوا يتناولونه بلهجاتهم حتى أمالوا فيه حيث لم تمل قريش .

وأنكر المؤلف في التحقيق أنه يقصد الطعن على هذا الدين ، وذكر أنه ورد في كتابه على سبيل البحث العلمي من غير تقيد بشيء وأنه كمسلم لا يرتاب في وجود إبراهيم وإسماعيل ولا فيما جاء عنهما في القرآن . ولكنه كعالم مضطر إلى أن يذعن لمناهج البحث فلا يسلم بالوجود العلمي التاريخي لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ؟

ورأى رئيس النيابة أن العقاب على الخطأ في الرأى مكروه ، ومن ثمّ حفظت القضية.

وبعد قرار النيابة سكت طه حسين على مضض ، فلم يرد على خصومه ، وكان في سكوته مضطرًا ، خشية أن يكون نزوله للميدان والرد على معارضيه سببًا يمهد للرجعية أن تعبث أولًا بحرية الفكر والمفكرين ، ولخوفه ثانيًا أن تنال هذه الثورة المغرضة من الجامعة المصرية وهي لم نزل حديثه العهد بالبلاد . فضلًا عن طلب عبد الخالق باشا ثروت عضو مجلس إدارة الجامعة ووزير الخارجية من الدكتور طه حسين أن يثبت وأن يترك العاصفة تمر بسلام . فلا يجيب على من يهاجموه احتفاظًا بكرامة أستاذيته بالجامعة وكرامة العلم الذي يمثله ، وحتى لا يهزم أنصاره أمام الرأي العام . ونزولًا عند هذه الرغبة سكت ، بينما ظلت الصحف الحزبية والرجعية تهاجمه هجومًا عنيفًا حتى انزعج والده. فكان يرسل إليه خطابات حزينة ينبع منها – كما يقول الدكتور زكي مبارك في وصفه لها – الدمع في الصخر الجلمود وبأنها تقطع نياط القلوب . ورد الدكتور طه حسين على والده قائلًا : أبي أنت أوصيتني بألا أصدق كل ما أسمع وأنا أوصيك بألا تصدق كل ما تقرأ . لك من زوجتي ومني أطيب التحيات – ابنك طه حسين» .

ويصور الدكتور طه حسين موقفه من المعركة فيما بعد فيقول في كتابه «في الصيف» إنه سافر في ذلك العام على كره من قوم لو استطاعوا لأمسكوني في مصر . وأنا الآن أسافر رغم هذا الشيخ الذي ينهض في مجلس الشيوخ ليستصرخ المسلمين ، ويستغيث برئيس الوزراء عليّ لأني فيما زعم مسخروه عرضت الدين للخطر .

نعم وزعم هؤلاء الشيوخ الأزهريون الذين أبرقوا إلى رئيس الوزراء من أقصى الصعيد يستغيثون به لأن الصحف نقلت أنيّ عرَّضت الدين للخطر .

وقال إنه سافر «مغيظًا محنقًا على هؤلاء الناس الذين يتخذون الدين والسياسة وسيلة للكيد وبث الفساد في الأرض ، ليعلموا أن الدين أثبت وأمكن من أن يعرضه للخطر رجل كائنًا من كان» .

وقال : «إنني أكون جاحدًا منكرًا للجميل أن نسيت موقف علي باشا الشمسي أمام النواب والشيوخ وأمام هؤلاء وأولئك ، لا يضطرب ولا يتردد ولا يفرط» .

وقال أيضًا : «أأذكر عدلي يكن باشا وموقفه يوم ثارت الثائرة ؟ كلا فما كنت انتظر من عدلي غير هذا . أأذكر ثروت وموقفه يوم استقلت فرفض الاستقالة ، ويوم سعى إليه الساعون وكاد عنده الكائدون فأبى إلا أن يكون وفيًا شريفًا» .

* * *

وتتجدد معركة الشعر الجاهلي مرة ثانية ، ويصادر الكتاب ، كان ذلك عام 1932 ولذلك أسباب ، منها القديم القائم ، ومنها الجديد الذي ظهر في هذا العام بالذات .. الأسباب القديمة معروفة . أما الجديدة فمنها موقف للدكتور طه حسين يذكره قائلًا :

«موقف لي مع وزير المعارف العمومية حينذاك حلمي عيسى باشا . لقد طلب مني أن أزوره في مكتبه . ذهبت إليه ومعي عبد الوهاب عزام رحمه الله وفي أثناء الزيارة قال لي: يا طه ، باعتبارك عميدًا لكلية الآداب نريد منك أن تقدم اقتراحًا للجامعة بمنح الدكتوراة

الفخرية لعدد من كبار الأعيان «يحيى إبراهيم، علي ماهر ، عبد الحميد بدوي، عبد العزيز فهمي» .

ولكني على الفور قلت لوزير المعارف : «يا باشا .. عميد كلية الآداب ليس عمدة .. تصدر إليه الأوامر من الوزير أنا لا أوافق على إعطاء الدكتوراه الفخرية لأحد ، لمجرد أنه من الأعيان ، لا أوافق ، ولا أستطيع حتى أن أعرض هذا الأمر على مجلس كلية الآداب. لأن المجلس لن يوافق» .

يضاف إلى هذا السبب سبب آخر يذكره الدكتور طه حسين قائلًا : «جاء الملك فؤاد بعد هذه الحادثة بقليل لكي يزور الجامعة وكلياتها ، وقبل وصوله سألني زملائي - باعتباري عميد الكلية - هل نلقي محاضرات خاصة بمناسبة زيارة الملك ؟ قلت لا . وحينما وصل الملك ودخل أول قاعة للمحاضرات فوجئ بالطلبة يستمعون إلى محاضرة عن النظام الدستوري ، وهنا غضب الملك ، وغضب مرة ثانية حينما دخل عدلي باشا - رئيس مجلس الشيوخ حينذاك - فصفق له الطلبة أشد مما صفقوا للملك . وهنا قال الملك : كيف يصفق الطلبة لعدلي ولا يصفقون لي ؟ هذا عمل من تدبير المعلون طه» .

لهذه الأسباب قديمها وحديثها أو عزت الحكومة - حكومة إسماعيل صدقي باشا - إلى أحد نوابها في البرلمان بإعادة فتح موضوع كتاب «في الشعر الجاهلي» من جديد.. وبدأ سيل الهجوم عليه في البرلمان وخارجه حيث يشن عليه بعض الكتّاب هجومًا عنيفًا ونذكر ما كتبه الدكتور عبد الحميد سعيد في الأهرام الصادر في 17 / 3 / 1932 : «لقد قضت على بلادنا موجة من التقليد الغربي ، موجة الخروج عن الدين والآداب وقد قام بالتبشير بها جماعة لم يصل نور الإسلام إلى قلوبهم ، وقد اشتهر الدكتور طه حسين في كتبه ومحاضراته بتلك النزعة اللادينية» .

واستطرد في نفس المقال : «إننا نشاهد الرجل عدوًا للدين وتعاليمه يشوِّه كل ما هو منسوب إليه ، ومن يتتبع سلسلة حياته العلمية يجده يذهب في كل مسألة تتعلق بالدين

الإسلامي مذهب أعداء الدين وخصومه الألداء ، وهناك نقطة ضعف في حياته أعلنها صديقه الأستاذ المازني في كتابه «قبض الريح» . وتلك هي كونه ضريرًا قد أثّر على آرائه وحكمه على الأشياء» .

ويقول في الأهرام الصادر في 29/ 3/ 1932 : « إن ضرر الدكتور طه حسين بعقول الناشئة لم يقف عند الجامعة أو مصر ، بل جاوزها إلى البلاد العربية المجاورة وكيف كلف طلبته أن ينتقدوا القرآن ويسجلوا آراهم في كراسة فيذكروا أن هذه آية ضعيفة ، وتلك آية ركيكة وتلا فصولًا من نوتة لأحد الطلاب استملاها من محاضرات الدكتور طه حسين على الطلبة في القرآن ، وفيها يحث الطلبة على نقده ، ويذكر لهم أن في القرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف : أسلوب جاف وهو مستمد من البيئة التي نزل بها في مكة . ففي هذا الأسلوب تهديد وزجر ووعيد ، وأسلوب غير جاف فيه رحمة ورفق، وحث الدكتور طه حسين طلبته على أن ينظروا إلى القرآن كأي كتاب عادي يجري عليه من النقد العلمي ما يجري عليها ، وأن يغضوا النظر عن البحث فيه عن قدسيته وعرض طه لفواتح السور وذكر عدة آراء فيها قصد العمية ، ومنها أنها كانت في الأصل علامات لمصاحف الصحابة» .. إلى آخر هذه الآراء التي كان القصد منها تأليب الرأي العام والثقافي إلى جانب الحكومة على طه حسين .

وقال في الأهرام الصادر يوم 6/ 3/ 1933 : «عُرف هذا الرجل بمصادمة آرائه لنصوص القرآن الكريم والعقائد الدينية ، وقد ظهرت عداوته للإسلام في كثير من تعاليمه وآثاره منها كتاب : «في الشعر الجاهلي» الذي ما زال يدرس في الجامعة تحت اسم «الأدب الجاهلي» ولكن تغيير العنوان لم يغير شيئًا من روحه اللادينية ، فإن السموم التي أراد الدكتور طه حسين أن ينفثها في كتابه لا تزال ماثلة في كثير من فصوله ومباحثه ، كما وأنه قد زين للشبان وسائل المجون والفجور في مؤلفه (حديث الأربعاء) . ولا يمكن للأمة أن تطمئن إلى وعوده المتكررة بالعدول عن هذا السبيل المعوج فسوابقه لا تشجع

على تصديقه ، وهذه جامعة حكومية مصرية في دولة دينها الرسمي الإسلام ، ولا نريد مطلقا أن تخفي حركة التعليم بين جدرانها أغراضًا شبيهة بتلك الأغراض المخزية التي بدت للأمة عيانًا من بعض المذاهب الأجنبية التي تتخذ العلم ستارًا للتضليل ، فكيف سكتت وزارة المعارف عن ذلك كله ولم تحرك ساكنًا ، وكيف تسمح أن يكون ذلك الرجل عميدًا لكلية الآداب بالجامعة المصرية بعد أن افتضح أمره وضجت البلاد من خطر تعاليمه وآرائه» .

* * *

وهناك مقالات أخرى أراد بها إسماعيل صدقي باشا وحكومته تأليب الرأي العام على طه حسين ، ولذلك سبب خاص هو أن صدقي باشا أراد أن يشغل الدكتور طه حسين وظيفة رئيس تحرير صحيفة حزبه «الشعب» ولكن الدكتور طه حسين رفض رفضًا قاطعًا مفضلًا العمل بالجامعة عن أي وظيفة أخرى . وهو في حقيقة الأمر كان يرفض التعاون مع صدقي باشا تحت أي مسمى حتى ولو كان مسمى رئاسة التحرير .. ولهذا السبب وغيره توالى الهجوم عليه من أعوان صدقي والملك والرجعية والأزهر ولم يكتفوا بمجرد الهجوم عليه في البرلمان أو على صفحات المجلات والجرائد ، وإنما أوعزوا إلى الأزهر وشيخه الأكبر الشيخ الظواهري بأن يعلن إدانة طه حسين من جديد ، وبأنه لا يصلح لأن يكون مربيًا لجيل في الجامعة . حتى وصلت الحكومة ومن خلفها الملك إلى ما يريدون ، فقد نقل طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف ، ثم تم فصله بعد ذلك من وزارة المعارف .

وعند هذه النتيجة .. النقل ثم الفصل .. انقلبت الآية فوقف الشعب إلى جانب طه حسين، ولاسيما حين علم أن سياسة الحكومة تريد أن تستخدم أدبه وقلمه في مقاصدها الخاصة، وكان لحرمان الجامعة من عمله وهو عميد الأدب العربي أثره في نفوس الطلاب ونفوس المفكرين على السواء .. فقامت المظاهرات التي لم تكن ضد طه حسين، وإنما

كانت تطالب بعودة طه حسين أستاذًا وعميدًا بالجامعة .. لا لسبب إلا لكونه ذلك المفكر الحر والباحث الجاد الذي أراد أن يستحدث شرعة جديدة في تقييم التراث العربي مؤكدًا أنه ينبغي أن يكون القرآن الكريم والحديث الشريف هما المصدرين اللذين لا يرقى إليهما أي شك وأن نرجع إليهما في أبحاثنا عن هذا التراث الجاهلي لا أن يكون الشعر الجاهلي على هذا النحو المصدر في دراسة الحياة الجاهلية .

■ 3 ■

النقد بعد رحيل طه حسين في كتب ومقالات

أما صدى كتاب «في الشعر الجاهلي» بعد وفاة مؤلفه الدكتور طه حسين في 28 أكتوبر عام 1973 ، فقد كان في العديد من الكتب والمقالات والدراسات الأدبية والنقدية في داخل الجامعة وخارجها منها على سبيل المثال لا الحصر : «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» للدكتور عبد الرحمن بدوي، وكل من كتابي «بين القديم والجديد» و«الشعر الجاهلي وقضاياه الفنية والموضوعية» للدكتور إبراهيم عبد الرحمن، و«قضايا الأدب الجاهلي والدرس الأدبي المعاصر» للدكتور محمد أبو الأنوار، و«طه حسين في ميزان الإسلام» للأستاذ أنور الجندي ، و«طه حسين في ميزان العلماء والأدباء» للأستاذ محمود مهدي الأستانبولي ، و«طه حسين الجريمة والعقاب» للأستاذ جابر رزق، و«الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها» للدكتور سعيد ناصر الغامدي ، إلى جانب كتابات متفرقة بالصحف والمجلات نكتفي بواحدة منها نشرت في واحدة من الصحف الخليجية .

* * *

في كتاب «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» يسجل الدكتور عبد الرحمن بدوي دهشته قائلًا : «كلما أتذكر الحملة الشعواء الهوجاء التي أثيرت حول كتاب «في الشعر الجاهلي» سنة 1926 ، وبديله كتاب «الأدب الجاهلي» سنة 1927 للدكتور طه حسين فإن عجبي لا ينقضي ، ثم يدلل على دهشته فيرى أولًا : لأن ما قاله عن انتحال الشعر الجاهلي ، وفساد رواته ورواياته ، وما أضيف إليه أو حذف منه – هو

كلام سبق أن قاله ، وأشبع القول فيه علماء الأدب واللغة من العرب القدماء منذ القرن الثاني للهجرة وخصوصًا في القرنين الثالث والرابع ، ويكفي المرء أن يفتح الصفحات الأولى من كتاب «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي (134 - 231 هـ) ليقرأ فيها :

أ - «وفي الشعر مصنوع مفتعل ، وموضوع كثير لا خير فيه» (جـ1 ص4 س1 ، نشرة محمود محمد شاكر ، القاهرة سنة 1974) .

ب- «وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غُثاء منه : محمد بن إسحق بن يسار... فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أتينا به فاحمله، ولم يكن ذلك له عذرًا ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط ، وأشعار النساء فضلًا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارًا كثيرةً .. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف من السنين» (جـ1 ص7 - 8) . وقال بعد ذلك : «نحن لا نقيم في النسب ما فوق عدنان ، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرًا ، فكيف بعاد وثمود؟ فهذا الكلام الواهن الخبيث .. وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك : ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا ، فكيف على عهد عاد وثمود ، مع تداعيه ووهنه ؟ فلو كان الشعر مثل ما وضع ابن اسحق ومثل ما روى الصحفيون ، ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم» .

جـ- «خلف بن حيان أبي محرز» ، وهو خلف الأحمر ، اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدق لسانًا . كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبرًا أو أنشدنا شعرًا ، أن لا نسمعه من صاحبه» . وإن كانت العبارة الأخيرة غامضة ، وربما محرفة .

د - «فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه (أي الشعر) العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب

عليهم منه كثير ... قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير» .

هـ - «قال ابن سلام : فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي قيلت» .

و - «أخبرني أبو عبيدة أن ابن داوود بن متمم بن نويرة قدم البصرة .. فأتيته أنا وابن نوح العطاردي ، فسألناه عن شعر أبيه : متمم ، وقمنا له بحاجته وكفيناه صنيعته . فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصفها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها . فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله .

ز - «وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الأشعار» . ويورد مثالًا على ذلك قصيدة نسبها إلى الحطيئة في مدح أبي موسى الأشعري ، وهي من صنع حماد . ثم يقول : وسمعت يونس يقول: «أتعجب ممن يأخذ عن حماد ، وكان يكذب ويلحن ويكسر» .

ح - «وروي عن : الشعبي شيء على لبيد ... ولا اختلاف في أن هذا مصنوع تكثر به الأحاديث ، ويستعان به على السهر عند الملوك ، والملوك لا تستقصى» .

ط - «وعدي بن زيد كان يسكن الحيرة ، ويراكن الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد ، واضطراب فيه خلف (الأحمر) ، وخلط فيه المفضل فأكثر» .

ي - «وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل (أي: الضبي) يقول: لـ(الأسود بن يعفر) ثلاثون ومائة قصيدة. ونحن (أي ابن سلام) لا نعرف له ذلك ولا قريبا منه. وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي، ويتجوزون في ذلك بأكثر من تجوزنا».

ك - «أشعرهم (أي شعراء المدينة) حسان بن ثابت. وهو كثير الشعر جيده، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد. لما تعاضهت قريش (أي أتت بالشتائم والإفك) واستبت، وضعوا عليه أشعارًا كثيرة لا تنقى» - أي يصعب تمييز الصحيح فيها من الزائف المنحول عليه.

ل - «وكان أبو طالب شاعرًا جيد الكلام، أبرع ما قال (قصيدته) التي مدح فيها النبي ﷺ... وقد زيد فيها وطولت. ورأيت في كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة: وقد علمت أن قد زاد الناس فيها، ولا أدري أين منتهاها». (ص244 - ص245 من كتاب فحول الشعراء). انتهى نص ابن سلام الجمحي.

وواضح كل الوضوح من هذه النصوص التي نقلناها عن ابن سلام الجمحي أنه استطاع - هو وغيره من علماء الأدب واللغة في القرنين الثاني والثالث للهجرة - أن يضع قواعد النقد الفيلولوجي السليم للشعر الجاهلي، وأنه استخدم في ذلك منهجًا علميًا ممتازًا توصل بواسطته إلى النتائج التالية:

1. أن ما ينسب إلى عاد وثمود وما سبق قحطان وما أورده ابن اسحق - كله شعر منحول مزيف.
2. أن ما ينسب إلى حمير وجنوب اليمن من أشعار باللغة العربية القرشية كله منحول مزيف، لأن «لسان حمير وأقاصي اليمن» ليس اللسان العربي المعروف ولا عربيتهم بالعربية التي ورد الشعر الجاهلي كما لاحظ أبو عمرو بن علاء.
3. أن الفتوحات الإسلامية قد أدت إلى التشاغل بالجهاد عن العناية بالشعر، وإلى هلاك من هلك بالموت والقتل، فذهب الكثير جدًا من الشعر العربي الجاهلي، ولم يبق منه إلا أقله.

4. وأن الكثير من الرواة – وعلى رأسهم حماد الرواية وخلف الأحمر – ، وقد كانوا يصنعون الشعر وينسبونه إلى كبار الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام ، أو كانوا ينحلون : «شعر الرجل غيره» أو ينحلون «الرجل غير شعره» ويزيدون في الأشعار من عندهم . فحماد الرواية «كان غير موثوق به وكان يكذب ويلحن ويكسر» .

5. وأن شعراء الجاهلية حُمل عليهم – أي نُسب إليهم كذبًا – الكثير من الشعر ، وأصبح تخليص الصحيح من الزائف شديدًا عسيرًا ، حتى «اضطرب فيه خلف الأحمر» ، وخلط فيه المفضل (الضبي) فأكثر» من أشعارهم المنحولة ، حتى أن المفضل ادعى أن للأسود بن يعفر ثلاثين ومائة قصيدة ، بينما لا يعرف له ذلك ابن سلام وأصحابه ، ولا قريبًا من هذا العدد ، وأهل الكوفة يتجوزون في ذلك أكثر مما يتجوز ابن سلام وأصحابه .

6. ويذكر ابن سلام أسبابًا عديدة لانتحال الشعر والتكثر من الزائف منه :

أ – منها كذب الرواة للتكسب بالرواية .

ب – ووضع الشعر على لسان الشعراء الكبار مدحًا في الأجداد تملقًا لذوي السلطان من المعاصرين طمعًا في نيل عطائهم ، كما حدث لحماد في تأليفه قصيدة في مدح أبي موسى الأشعري ونسبتها إلى الحطيئة ، طمعًا في نوال بلال بن أبي بردة .

جـ- انتحال القصائد للتفاخر القبلي : «وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار التي قيلت» .

د – انتحال القصائد لأسباب دينية كما حدث بالنسبة إلى حسان بن ثابت «لما تعاضهت قريش واستبت ، وضعوا عليه أشعارًا كثيرة لا تنقى» ، وبالنسبة إلى أبي طالب في القصيدة المنسوبة إليه في مدح النبي ﷺ فقد «زيد فيها وطولت» ولا يعرف أحد أين منتهاها .

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي تلك هي النتائج التي انتهى إليها ابن سلام الجمحي، والأسباب التي ساقها لبيان منشأ الانتحال والتزييف والزيادة في الشعر الجاهلي وهي هي عينها النتائج والأسباب التي أوردها الدكتور طه حسين في كتابه : «في الشعر الجاهلي» و«في الأدب الجاهلي» أو كتابه الواحد المعدل هذا .

ثم يتساءل أي الدكتور بدوي : فعلام إذن كل هذه الضجة الزائفة التي أثيرت حول هذا الكتاب ، حتى نعتوا صاحبه بما شاءوا من النعوت ؟ فاتهموه بالمروق والتهجم على التراث العربي العريق والرغبة في تحطيم أمجاد العرب والانسياق وراء «مؤامرات» المستشرقين (ولهذه الكلمة في ذهن كل أو جل «المشتغلين بالأدب العربي» معان غريبة ممعنة في التضليل والإيهام والتهاويل)؟ فهل كان ابن سلام الجمحي (139 - 231هـ) مستشرقا هو الآخر و«متآمرًا» على التراث العربي القومي؟! إننا لم نجد لأي واحد من الكتّاب القدماء ابتداء من القرن الثالث الهجري طعنًا في الرجل بأي معنى من هذه المعاني. إنما كان عالمًا وناقدًا ممتازًا أوتي البصيرة النافذة في النقد التاريخي فاستطاع أن يصل إلى النتائج التي أتينا على ذكرها .

وكان ذلك في أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وأوائل الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فكيف ينكر على رجل في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) الوصول إلى نفس النتائج ، وأن يزيد عليها كما يقتضيه تقدم البحث العلمي؟

هذه واحدة .

والثانية : إن الدكتور طه حسين في كتابه لم يكن أول باحث في العصر الحديث بحث في صحة الشعر الجاهلي ، وأسباب الانتحال فيه - بل كان على العكس من ذلك تمامًا: آخرهم . ويذكر الدكتور بدوي : «فكما سيتبين هذا كان أول الباحثين المحدثين الذين تناولوا هذا الموضوع بالتفصيل هو شيخ المستشرقين الألمان ، تيودور نيلدكه ، في سنة 1861 في البحث الذي نستهل بترجمته كتابنا هذا ، أي قبل الدكتور طه حسين بخمسة وستين عامًا . فاستعان بنتائج البحث في اللغات السامية وما كشفت عنه النقوش الحميرية

والسبأية وفي اليمن الجنوبية عمومًا ، وبالمقارنة بما حدث في الآداب الأخرى : الأدب اليوناني ، وخصوصًا بالنسبة إلى هوميروس ، وفي الأدب الألماني ليسوق الأسباب الدقيقة التي تؤيد وتوسع من نطاق النتائج التي وصل إليها ابن سلام الجمحي بنظرة ثاقبة لكنها غير مؤيدة بالأسانيد التاريخية . وأضاف إلى دواعي الانتحال الاهتمام بالداعي الديني ، الذي لم يمسسه ابن سلام الجمحي إلا مسّا خفيفًا . وهو الداعي الذي سيعزو إليه مرجليوث أهمية ربما كان مبالغًا فيها .

ونيلدكه تلاه أفرث في سنة 1872 أي بعده بإحدى عشرة سنة فأشبع القول المفصل في قصائد من هذا الشعر الجاهلي الذي نشر قبل ذلك بثلاثة أعوام (سنة 1869) غير مجموعة نشرت حتى الآن منه بعنوان : «العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين»، وانتهى إلى تحديد أدق للأبيات والقصائد التي عدها ، أو رجح أنها ، منحولة في هذه المجموعة . وكذلك استقصى أخبار ونقد الرواة ، وخص «خلف الأحمر» ببحث مفرد. وهكذا تقدم كثيرًا بالبحث في هذا الميدان .

وتطرق إلى الموضوع - ولكن بمناسبة خاصة ، هي نشر ديوان «الحطئية» - المستشرق الشهير إجنتس جولد تسيهر ، لكنه لم يزد على ما جاء به نيلدكه وألفرث بشيء يذكر - وكان ذلك في سنة 1893 .

كما تناوله - بصورة عابرة موجزة - سير تشارلز ليال في مقدمة الجزء الثاني من نشرته لكتاب «المفضليات» للمفضل الضبي (لندن) ، لكن بحثه تعوزه الروح النقدية ، لهذا لم نترجمه هنا .

وأخيرًا خطا البحث خطوة جبارة بمقال كتبه ديف صمويل مرجليوث في عدد يوليو سنة 1925 من «مجلة الجمعية الآسيوية الملكية» ، استغل فيه نتائج النقوش الحميرية والعربية الجنوبية ، وركز خصوصًا على الدوافع الدينية في انتحال الشعر الجاهلي والتغيير في روايته زيادةً أو نقصًا أو تحريفًا . وقد رد عليه برونليش Braunlish في السنة التالية (سنة 1926) بمقال ستجده مترجمًا ها هنا بعد مقال مرجليوث مباشرة .

ومن هذا الاستعراض يتبين أن موضوع صحة الشعر الجاهلي قد شغل الباحثين الأوروبيين منذ سنة 1861 على أقل تقدير، ووصلوا فيه إلى نتائج لا تزيد كثيرًا عما وصل إليه ابن سلام الجمحي قبل ذلك بأكثر من عشرة قرون. إنما امتازت أبحاثهم بالاستناد إلى الأسانيذ التاريخية الموثقة، ونتائج اكتشاف لغات جنوب شبه الجزيرة العربية بفضل ما جمع من نقوشها، وما أدى إليه البحث المقارن في تاريخ أوليات الآداب في الأمم المختلفة، كما امتازت باستعمال النقد التاريخي والفيلولوجي الدقيق على النحو الذي سبقهم إليه في الأدب اليوناني علماء اليونانيات.

ويختم الدكتور عبد الرحمن بدوي تصديره لكتابه بالقول: والشيء المؤسف حقًا هو أن كل هذه الأبحاث قد بدأت في الستينيات من القرن الماضي - أي التاسع عشر - ونمت واتسعت، بينما ظل المشتغلون: بالأدب العربي في العالم العربي والإسلامي بمعزل تام عنها، وفي جهل فاحش بها. وربما كان في هذا التفسير للدهشة الحمقاء التي قوبل بها كتاب الدكتور طه حسين. ولو كانوا على علم بما كتبه القدماء من علماء العربية مثل الجمحي، وأقصد بالعلم هنا: الفهم الدقيق والتبصر، لا مجرد الاطلاع - ثم لو كانوا اطلعوا على أبحاث المحدثين من المستشرقين التي بدأت قبل ذلك بأكثر من خمسة وستين عامًا - لما رأوا في كتاب «في الشعر الجاهلي» شيئًا غريبًا أو مستنكرًا - لو خلصت نياتهم! ولرحبوا به بوصفه إسهامًا عربيًا له قيمته في هذا المجال، ولواصلوا السير في هذا الطريق الواعد بالنتائج العظيمة. لكن ما حدث في مصر والعالم العربي كان على النقيض تمامًا: فلم يقتصر الأمر على الردود الممنعة في الجهل والادعاء التي نشرت في سنوات 1926، 1927 وما تلاها، بل كان الأدهى هو ما كتبه «أساتذة» الأدب العربي من كتب، وما حضره تلاميذهم من «رسائل جامعية» لنيل الدكتوراه وكلها تكشف عن جهل هؤلاء وأولئك التام بكل ما نشر قبل ذلك بمائة عام أو يزيد من أبحاث ودراسات نضرت وجه البحث في الشعر الجاهلي وتقدمت به خطوات هائلة، هم عنها جميعا غافلون! ولا أريد أن أذكر أسماءً لأني لا أستثنسي منهم أحدًا.

* * *

وفي كتاب «بين القديم والجديد دراسات في الأدب والنقد للدكتور إبراهيم عبد الرحمن صفحات طوال ، لتطور البحث حول كتاب في الشعر الجاهلي كسابقة الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه الذي أشرنا إليه ، حيث يقول :

«بصرف النظر عن رأينا في هذا المنهج الذي أحدث ضجة واسعة عند نشر كتاب «في الشعر الجاهلي» عام 1926 كان لها صداها في اتهام الكثيرين له في عقيدته وثقافته، فإننا نتساءل : ما نصيب آراء طه حسين من الأصالة العلمية؟ أو في عبارة أخرى ، ما صلة هذه الآراء عن رواية الشعر الجاهلي وزيف نصوصه بما كتبه المستشرق الإنجليزي «مرجليوث» في دراسته المعروفة : أصول الشعر العربي القديم؟

نحتاج للفصل في هذه القضية على نحو يرضي ويريح إلى أن نسجل بعض الملاحظات العامة عن بحث «مرجليوث» وكتاب طه حسين :

الأولى : إنه من الثابت أن «مرجليوث» قد نشر بحثه عن نشأة الشعر الجاهلي في يولية 1925 ، ونشر طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي بعد ذلك بشهور في أوائل 1926 ، وليس هناك من شك في أن تأليف طه حسين لهذا الكتاب قد مر ، مثل أي كتاب يؤلفه أي كاتب ، بمراحل معينة لها أهميتها في الكشف عن طبيعة الصلة بين كتابه وبحث مرجليوث ، فقد بدأ بتدريسه ، كما يقول الأستاذ محمود محمد شاكر للطلاب في شكل محاضرات ظل يرددها على مسامعهم عامًا بعد عام حتى إذا ثبت له صحة ما انتهى إليه في رواية هذا الشعر أذاعة على الناس في شكل كتاب .

والثانية : أن كلّا من مرجليوث وطه حسين قد صدرا عن منهج واحد في دراسة الشعر وتقويمه كان سائدًا في أوروبا في أوائل القرن العشرين يتلخص في أن الأديب ثمرة البيئة التي ينشأ فيها بظروفها المختلفة : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، وأن الأدب ثمرة الأديب الذي أنتجته البيئة . وهو منهج يفرض على صاحبه أن يرى في الأديب وما ينشئه من شعر ونثر مرآة تنعكس عليها ظروف حياته وظواهر بيئته ، وقد أخلص طه

حسين ، كما أخلص مرجليوث في تطبيق هذا المنهج في دراسة الشعر الجاهلي . ومن هنا تشابهت آراؤهما ، وإن لم تتطابق تمامًا .

والثالثة : أن الشك في رواية الشعر القديم عامة والجاهلي خاصة قضية قديمة أكثر القدماء من اللغويين ورواة الأخبار في الحديث عنها في كلام لم يقف عند حد التنبيه على زيف كثير من نصوص الشعر القديم واختلاط روايته ، وإنما اتسع ليشكك في أمانة كثير من الرواة المشهورين من أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر وغيرهما من رواة الشعر ، ولولا خشية الإطالة لذكرنا هنا من هذه الأقوال ما يؤكد هذه الحقيقة . وقد جمع الدكتور ناصر الأسد في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» .. كمًّا عظيمًا منها . ومعنى ذلك أن مرجليوث وطه حسين وغيرهما من المحدثين مستشرقين وغير مستشرقين لم يبتدعوا هذه القضية ، وإنما تابعوا القدماء فيها ، وتوسعوا في دراستها على أسس علمية حديثة. واكتفى هنا بخبر واحد من هذه الأخبار التي تزخر بها كتب الأدب القديم هو ما يقوله ابن سلام عن حماد الراوية .

«وكان حماد أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها.. وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار .. وكان يونس بن حبيب يقول عنه : العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر»..

«وكان خلف الأحمر كما كان حماد ، هدفًا لهذه الاتهامات ، ومما قيل في الطعن عليه: «كان خلف .. يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه..» وكما قيل عن الرواة فقد قيل عن شعر الشعراء .

والرابعة : أن طه حسين لم ينكر صحة الشعر الجاهلي كما رأينا في تلخيص مباحث كتابه ، ولكنه أراد أن يصفي هذا الشعر من الزائف الذي دخل إليه عن طريق الرواة وغيرهم ، فاصطنع لذلك مقياسًا ، وخصص المبحث الأخير لتصحيح شعر زهير ومن تبعه في طريقته من الشعراء الذين نسجوا على منواله عن طريق هذا المقياس ، على عكس مرجليوث الذي ينكر وجود شيء اسمه الشعر الجاهلي .

* * *

وفي كتاب للدكتور محمد أبو الأنوار عنوانه : «حديث الوثائق بين إنصاف البحث العلمي وإنصاف طه حسين» ضمّن فصول كتابه : «قضايا الأدب الجاهلي والدرس الأدبي المعاصر . يرى الدكتور أبو الأنوار إما إنصاف البحث العلمي فيتضح في حقيقة الأمر أن ما قاله العلامة طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» ليس مسلمًا لديه ، لكنها كانت وقفة وتجربة بحثية لها أسبابها وعواملها وآثارها .

وإما إنصاف طه حسين فيتضح في أنه رجع رجوعًا صريحًا في كتابه «مرآة الإسلام» عما قاله عن الشعر الجاهلي . وسوف نعتمد أكثر ما نعتمد على مقابلة النصوص بين الكتابين .

ثم يستطرد الدكتور محمد أبو الأنوار شارحًا وجهة نظره قائلًا : «ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن منهج طه حسين في حياته الفكرية وطاقته الإبداعية يقوم على أنه يكتب ما يفكر فيه وما يقتنع به ، فإذا انتهى منه كره ورفض الرجوع إليه ، لأنه مشغول بقطع جسور الفكر والإبداع في رسالته التي حملها لنفسه ، ولا وقت لديه للرجوع إلى الذي انتهى منه. يقول هو نفسه أي الدكتور طه : «وليس من عادتي أن أفكر فيما أريد أن أكتب قبل البدء في الكتابة مباشرة ، ولكنني عندما أُملي لا أفكر في شيء على الإطلاق سوى الموضوع الذي يعنيني ، وإني لأكره أشد الكره أن أعود إلى قراءة ما أمليت ، فأنا أشعر عندما أنتهي من كتابة مقالة أو كتاب بأنني تخلصت من عبء يشق عليّ أن أتحمله مرة أخرى» .

هكذا كان طه حسين كالإعصار الذي يعصف بصورة غير متوقعة ؛ إنه يدمر ليعيد تشكيل الطبيعة من حوله في رؤى وأبعاد جديدة ، غير عابئ بما كان لها من وجود سابق، وليس هذا غريبًا على طه حسين فقد رسم ملامح حادة لهذا الفهم في شرحه لمفهوم النقد، ورسالة ومهمة الناقد التي كان طه حسين يعد فيها نفسه للصعوبات التي تعرض لها فيما بعد في الأدوار التي قام بها فعلًا ، وكان ذلك في سن باكرة له عام 1911 .

ولا عجب فهو يكتب في بداية سفره إلى فرنسا في مطالع الحرب العالمية الأولى إلى صديقه بالقاهرة محمد حسين هيكل ويدعوه للمحاورة في موضوع حدده له هو :

«الحرب والحضارة» واختار طه حسين أن يدافع عن الحرب لفوائدها فهي ليست شرًّا محضًا ؛ لأنها تهب الحياة خصوبةً ونماءً ؛ إذ بعد توقفها تهب الإنسان ثورةً في حياته المادية والعقلية كالديمة الغزيرة تُرسلها السماء فتتفرق لها الجموع ، ولكن السماء لا تكاد تُقلع حتى تكتسي الأرض بخيرات هذه الديمة .

وهذا الموقف من جانبه يدل أبلغ دلالة على أنه تواق للجديد رافض للوقوف عند القائم الموروث المألوف مهما يكن عزيزًا على النفس ومريحًا لمتعوديه ، ومهما يكن الخطر وراء تغييره ، وجرثومة ذلك كله عنده غرامه بالتجديد والشغف بالبحث عنه ، والاستهانة بكل ما يقف في سبيله .

وإذن فطه حسين ليس على شاكله كثير من المؤلفين والكتّاب والمفكرين الذين يبدو للواحد منهم أن يعود إلى فكره بالتمحيص والتنقيح ، وقد يضيف إليه أو يحذف منه أو يغيّر فيه ، وقد يعلن تغيير موقفه من فكرة سابقة كان قد عرض لها من قبل بالمعالجة ، ولذا فإنه من الضروري لدارس طه حسين أن يعاود النظر وأن يمحص الآراء والأفكار لديه ، وأن يجيد مقابلات أقواله وتتبعها في المصادر المختلفة عنده ، ومن حسن الحظ أنني عكفت مع طلابي على دراسة الفكر الديني في أدبه ، وسجلت موضوعا فيه لطالب جاد ، وبمراجعة الدراسة معه سوف يكون البحث ذا شأن في قضيته ، ولذا فإن صلتي بتراث طه حسين ممتدة دائمًا .

وبحثي هنا (حديث الوثائق) أقدمه للنشر للمرة الأولى ، ولا أعلم أن أحدًا قد سبقني إلى فكرته وموضوعه ، وقد عشت مع هذا البحث وقتًا غير قصير بين طلابي في الدراسات العليا ، أبحث وأراجع وأحرضهم على التدقيق وأصل إلى ما أصل إليه ، وأحملهم على الوصول بأنفسهم فرادى ومجتمعين بعد تمهيد الطريق بالمناقشة والتوجيه ، ووافتني اليوم فرصة لتقديم الطبعة الثانية من هذا الكتاب فآثرتها بهذا البحث .

ويورد الدكتور أبو الأنوار عناصر مهمة تؤكد بحثه نكتفي بتسجيل عناوينها : «العرب قديمًا بين التحضر والتخلف» و«العرب والدين» و«الاستشهاد بالشعر الجاهلي على حياة الجاهليين» و«مكانة النبي ﷺ وبني هاشم» و«شخصيتا إسماعيل وإبراهيم وهجرة

إسماعيل القرآنية» و«الجهاد بين النبي ﷺ وقريش في العهد المكي» و«الجهاد بين النبي ﷺ وقريش في العهد المدني» .

* * *

وفي مقدمته لكتاب «طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام» الصادر في عام 1977 أي بعد وفاة طه حسين بثلاث سنوات يسجل مؤلفه الأستاذ أنور الجندي أنه قد لمع اسم الدكتور طه حسين لمعانًا حاطفًا في الثلاثينيات عندما أصدر كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي حمل معه مجموعة من الآراء الخطيرة التي تعارضت مع أصول الإسلام ومفاهيمه فأحدثت ضجة ضخمة واسعة المدى في الجامعة والأزهر والصحافة . ثم والى الدكتور طه حسين مهاجمته للرأي العام عن طريق الشك الفلسفي وإثارة قضايا الدين والحضارة والفكر على نحو بدا معارضًا للأصالة العربية الإسلامية من خلال دعوة جريئة إلى طرح نظريات الفكر الغربي في مختلف المجالات . وقد سار الدكتور طه حسين في طريقه ذاك لم يتخلف عنه حتى نهاية حياته فترك ركامًا من الأبحاث والدراسات هي في حاجة إلى إعادة النظر فيها على ضوء الإسلام . ذلك أن الدكتور طه قد ألح الحاحًا شديدًا على أنه يصدر عن الفكر الإسلامي ، ويشارك فيه بأبحاثه عن القرآن وهامش السيرة وتاريخ الصحابة والفتنة الكبرى .

وقد جرى في أبحاثه المختلفة مجرى كتاب الغرب واعتمد أساليبهم ومناهجهم في دراسة أدب العرب وتاريخ الإسلام .

والحق أن الدكتور طه حسين قد اكتسب شهرة واسعة وأنتج انتاجًا غزيرًا وكان له نشاطه الواسع في مجال الجامعة ووزارة المعارف ، بالإضافة إلى مجاله في الصحافة والتأليف . ولا نريد أن نتعجل الحكم على الرجل وآثاره وإنما نود أن نضيء الطريق إلى فهمه بتقديم الوقائع والوثائق المتصلة بحياته وفكره على النحو العلمي الصحيح حتى يجيء الحكم عليه منصفًا عادلًا غير مشوب بشيء من التحامل أو التحيز .

وقد أشرنا إلى هذا الكتاب في الأهرام عام 1982 بفقرة ضمن دراسة بمناسبة الذكرى التاسعة لوفاة الدكتور طه حسين تحت عنوان «طه حسين المظلوم من خصومه ومريديه» نصها : أما سلسلة الاتهامات التي جاءت من خلال عرض كتاب «طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام» للأستاذ أنور الجندي . والتي يمكن أن تستوقفنا ملاحظة بماسبتها . فالذي يقرأ هذا الكتاب الذي نشر بعد وفاة طه حسين . ثم يقرأ الدراسة المفيدة التي كتبها نفس المؤلف في عدد الهلال الخاص بطه حسين في فبراير عام 1966 ، أي قبل وفاة عميد أدبنا العربي يرى أن كاتب الدراسة يختلف في حكمه على طه حسين عن كاتب الكتاب . وإنني أندهش أن يكون هذا من أستاذ نقدره وكتبه تعتبر مراجع في المكتبة العربية . ففي الكتاب يحرص على وضع طه حسين في قفص الاتهام باتهامات كثيرة لعل أقلها بعده عن الإسلام . مع أن الثابت أن طه حسين قام بعمل جليل لخدمة الإسلام حين دعي إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي . بعد أن استهدف لعدد من الهجمات في ثلاثينيات القرن الماضي يومها اتفق مع صديقيه أحمد أمين ليكتب عن الجانب الفكري في الإسلام ، وعبد الحميد العبادي ليكتب الجانب السياسي في الإسلام . ويتولى هو كتابة جانب الحياة الأدبية في الإسلام . وقد أثمر هذا المشروع عددًا ضخمًا من الكتب الإسلامية!

وغير ذلك من خدمات قدمها طه حسين للإسلام ربما عجز عنها زملاء الأستاذ الجندي من الإخوان المسلمين . حيث كان سيادته مديرًا لمكتب الأستاذ حسن البنا .

وقد رد الأستاذ الجندي على هذه الفقرة بمقال حرصنا على نشره كاملًا في الأهرام بتاريخ 5 / 11 / 1982 مع تعقيبنا عليه ، في الصفحة نفسها ، وهذا نص رد أو رأي الأستاذ الجندي : أمران أوردهما الأستاذ سامح كريم في مقاله عن الدكتور طه حسين فيما يتصل بما كتبته عنه .. الأمر (الأول) أن هناك تناقضا بين ما كتبت في عدد الهلال 1986 ، وما ورد في كتابي «طه حسين في ميزان الإسلام» . والحقيقة أن ما كتب في الهلال كان محكومًا بموضوع محدد هو (طه حسين قبل سفره إلى أوروبا) ، وهي مرحلة لم تكن

قد أثيرت فيها مسائل الخلاف بين وجهات النظر في موضوعات التراث أو التعليم أو التاريخ الإسلامي .

وكان المقال لعدد تذكاري والدكتور طه حسين حي ، وهو في مرضه الأخير مما لا يحتاج معه القول إلى إثارة المسائل التي كتبنا عنها فيما بعد ، حيث أصبح الكاتب في ذمة التاريخ .. ومن حق الأجيال أن تعرف ما أثير معه وعنه في قضايا ووجهات نظر، مع العلم بأنني أصدرت في الفترة من 1959 إلى 1971 ثلاثة كتب بسطت فيها الرأي في مختلف هذه القضايا التي تضمنها كتابي من بعده ، وكان الدكتور طه حسين حيّا ، وأعتقد أنه ألمّ بهذه الموضوعات ، وهي كتب : «النثر العربي في مائة عام» و«الصحافة السياسية في مصر» و«المعارك الأدبية» التي تناولت القضايا التي تضمنتها مؤلفات الدكتور طه حسين وهي : «الشعر الجاهلي» و«المتنبي» و«على هامش السيرة والفتنة الكبرى» و«مستقبل الثقافة» و«حديث الأربعاء» . ومع ذلك فإنه من يمعن النظر في مقال الهلال الذي أشار إليه الأستاذ سامح كريم يستطيع أن يجد في وضوح نقاط على النحو التالي : **أولًا** : الإشارة إلى تجاهل الدكتور طه حسين موجهه الرائد الذي قدمه في مجال الصحافة والخطابة ، وأعده للسفر إلى أوروبا الشيخ عبد العزيز ، وهي وجهة الوطنية الإسلامية وعقوقه ، واختيار جانب لطفي السيد ووجهته السياسية الداعية إلى الإقليمية. **ثانيًا** : الإشارة إلى أن طه حسين حارب الزواج بالأجنبيات في مقالات صريحة قبل سفره إلى أوروبا وتغيير الزي الشرقي بالزي الأجنبي ، وقال في صراحة تامة إنه من أشد الناس عقوقًا للأمة وبغيًا عليها .. ذلك المصري الذي لا يكاد يعدو ثغرًا من ثغور مصر مبحرًا إلى أوروبا حتى يقطع أسبابا ويصل أسبابا ، فيترك لنا أزياءنا ولغتنا وأدبنا وينتحل مثلها من أزياء أوروبا ولغاتها وآدابها ، ولا بأس إن قلت إنه الآن حرام ممقوت . وأشرت إلى ما فعل طه حسين من ذلك. **ثالثًا** : أشرت إلى معركته قبل السفر إلى أوروبا مع جرجي زيدان ومع المنفلوطي وإيمانه بالريادة للأساتذة : محمد عبده وأحمد زكي باشا شيخ العروبة والشيخ المهدي والشيخ الخضري . وكيف خالف منهجه هذا بعد عودته ، فأثنى على جرجي زيدان ، واعتذر عن هجاء المنفلوطي ، وانتقد مواقف محمد عيده وأحمد زكي باشا والشيخين المهدي والخضري في عنف شديد .

ومن جملة هذا يتبين أنه لا تناقض بين ما كتبناه في حياة طه حسين وما كتب بعد وفاته إلا في أسلوب العرض ، الذي تغير تبعًا للظروف التاريخية بين مقال محدد في مناسبة خاصة وبين عمل كامل لدراسة شخصية أفضت إلى ما قدمت ، ولكل مقام مقال ولكل قول أوانه وزمانه .

الأمر (الثاني) إشارته إلى أن طه حسين خدم الإسلام بكتاباته ، وهذا أمر أبرز مؤلفات طه حسين نقد صديقه ورفيق حياته (الدكتور محمد حسين هيكل) ، الذي قال إنه عمل خطير ، لأنه أدخل الأساطير إلى سيرة النبي ﷺ مرة أخرى بعد أن ظل كتّاب الإسلام ينقونها منها طوال التاريخ ، وكذلك وجه إلى ما كتب عن (الشيخان) ومرآة الإسلام والوعد الحق انتقادات كثيرة وأكثرها إلى كتاب (الفتنة الكبرى) ، بل إن بعض هذه الكتب منعت من النشر حتى أزال الدكتور طه حسين سطورًا أنكرت معلومات من الدين بالضرورة . وقد أجمع الباحثون على أن كتب طه حسين الإسلامية أذاعت أولا (التفسير المادي للتاريخ) . (ثانيا) انتقاص الصحابة والنظر إليهم كسياسيين محترفين . (ثالثًا) التشكيك في قيمة البطولة الإسلامية . (رابعًا) إثارة الشك في وجود عبد الله بن سبأ اليهودي والتوهين من شأن الروايات التاريخية الثابتة بإيراد الروايات الضعيفة . ومن هنا فإن القول بأن كتب طه حسين خدمت الإسلام هو قول في حاجة إلى مراجعة كبيرة وإلى تصحيح واسع .

نص تعقيبي على هذا الرأي :

منذ البداية .. ينبغي الإشادة بهذا الإصرار الدؤوب للأستاذ الكبير أنور الجندي الذي قلما نجده عند شباب الفكر .. بعد ذلك يكون التعقيب على الأمرين :

الأمر الأول : أستميح الأستاذ الجندي عذرًا في تصحيح تاريخ عدد الهلال الخاص عن طه حسين ، وقد كان في فبراير 1966 وليس في عام 1986، والذي قال في بدايته عن دخول طه حسين الأزهر والجامعة : «قد صورت أروع تصوير في الجزء الثاني من كتاب الأيام ، ولا يهمنا هنا إلا أن نسجل بذور اتجاهه الأدبي والشعري واتصاله بالصحافة وولادة شخصيته المفكرة النافذة» ، وأما ما سمّاه الأستاذ الجندي في رده تناقضًا .

فأعترف مخلصًا أنني لم أقتنع حتى الآن بالرد رغم تقديري له . فمن الذي يملك أن يغيِّر لك رأيًا قد اقتنعت به وصدرت الحكم فيه مسبقًا ؟ وهل يمنع كون العدد تذكاريًا أن تقول ما تراه أنه الحق؟ وحتى لو رفض القائمون على تحريره ، أليس من حقك أن ترفض أيضًا ما يخالف ضميرك ؟ وهل يغير وجه الحقيقة عند الكاتب الموضوعي كون طه حسين حيًا أو ميتًا ؟

وقد نبهني الأستاذ الجندي مشكورًا إلى ثلاث إدانات سجلها في هذا المقال بالذات. **أولاها** : تجاهل طه حسين للشيخ عبد العزيز (يقصد عبد العزيز جاويش) واختياره جانب لطفي السيد ووجهته السياسية الداعية إلى الإقليمية . وهنا أحيل الأستاذ الجندي إلى كتاب عن لطفي السيد للدكتور حسين فوزي النجار ، فربما يقتنع مثلي بأن لطفي السيد كان استاذًا للجيل حقًا ، وليس رجلًا إقليميًّا محدودًا .

ثانيتهما : وهي الخاصة بزواج الأجنبيات والزي ، ولنترك للأستاذ الجندي مهمة الدفاع عن طه حسين في نفس مقال الهلال ، حيث يقول : «ولا شك كانت تلك عبارات الحماسة المطلقة في سن العشرين تريد أن تؤكد ذاتها ، ولما تتسع بعد آفاقها الفكرية وترحب وتتصل بالفكر الإنساني» .

وثالثتهما : تلك التي تخص موقف طه حسين من جرجي زيدان والمنفلوطي . لندع الأستاذ الجندي يبرر هذا الموقف أيضًا في نفس المقال : «ومهما يكن الأمر ، فإن طه حسين في هذه المرحلة كان يرد حقلًا جديدا تحدوه فيه رغبة في تأكيد الذات والتبرير وإثارة الضجيج . وقد أنكر هذا اللون من النقد فيما بعد» .

الأمر الثاني : كنت أود الاقتناع برأي الأستاذ الجندي الخاص بنقد إسلاميات طه حسين ، ولا أدري ما هي حكمته حين يذكر نصًا للدكتور هيكل لا يحيلنا إلى مرجعه؟ ويتحامل الأستاذ الجندي على عميد أدبنا إلى درجة تضيع معها الدقة المطلوبة حين يقول عن كتب طه حسين التي تقررت على مدارسنا بأنها منعت من النشر ، وأسأله : متى؟ وأين؟ وكيف؟ ثم أي هذه الكتب ؟ ثم تعلو نغمة التحامل عند الأستاذ الجندي

حين يقول : «وقد أجمع الباحثون» يالله!! من هم هؤلاء الباحثون ؟ هل من العلمانيين؟ أشك في ذلك!

لأن أي زيارة لإحدى المكتبات العامة أو لواحدة من مكتبات جامعاتنا .. تدحض ذلك وتقدم عددًا من الرسالات الجامعية وآخر من الكتب عن إسلاميات العميد هل هؤلاء الباحثون من علمائنا بالأزهر؟ ربما . ولكن حتى لا نعمم ، والتعميم في الحكم داء أغبر . هناك من الأزهريين من أنصف إسلاميات طه حسين ، وها هو مفخرة زماننا الشيخ الشعراوي يثني عليها في مذكرات «ما بعد الأيام» المنشور بالمصور للدكتور محمد حسن الزيات . وهذا أيضًا شيخنا الأستاذ الباقوري يثني على هذه الإسلاميات وغيرهما .

ورأينا على هذه الفرعيات ، وأولها : إن إسلاميات طه حسين أذاعت التفسير المادي للتاريخ .. هكذا لو صدق هذا الرأي ، فإن طه حسين يصبح شيوعيًا ، وتهمته هي الترويج للمنهج الماركسي . وأين ؟ في الدين! وكيف؟ بجعل الوقائع الاقتصادية أساس كل الظواهر من تاريخية إلى اجتماعية ، وأن هذه الوقائع الاقتصادية هي المحددة لها . باختصار طه حسين - في رأي الأستاذ الجندي - يدخل التاريخ الإسلامي من خلال إنجلز وماركس ، مع أن الرجل كان متأثرًا بأوجست كونت ودور كايم وقبلهما ابن خلدون في تفسيره للتاريخ .

ثانيهما : من قال إن طه حسين انتقص من قدر الصحابة رضوان الله عليهم! .. وحتى إن حدث ونظر إليهم كسياسيين ، فهل هذا معيب بعد انقطاع الوحي بوفاة الرسول ﷺ؟!

وثالثهما ورابعهما : التشكيك في البطولات والروايات التاريخية ... أمور يجانبها الواقع .

* * *

أما كتاب «حضرات الزملاء المحترمين» الذي استحل الكرامة والأعراض والأموال والأسرار للكاتب الفلسطيني ناصر الدين النشاشيبي ، الذي عرفناه صحفيًا كبيرًا ورئيس تحرير جريدة الجمهورية في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات . وهذه من الأخطاء التي تمت في المرحلة الناصرية والتي تنبهوا لها فأعفوه من موقعه – هذا الكتاب فيه غمز ولمز ، وتهجم وتطاول على عدد كبير من كتّابنا الكبار ، الذين شاء حظهم العاثر أن يكونوا زملاء له في مهنة الصحافة ، حيث يتهم بعضهم بالعمالة لأجهزة المخابرات الأجنبية والعربية ، والبعض الآخر بالدس والوقيعة وسوء الخلق مثل : ملازمة الراقصات والمطربات وبنات الليل .. سامحًا لنفسه بالهجوم بغير دليل أو شهود . اللهم إلا إذا اعتبر نفسه هو الدليل الذي ليس بعده دليل وشاهد العيان الوحيد في الحياة .. ولعله أدرك أن اتهاماته مردوة من أساسها حين سارع قائلًا في مقدمة كتابه وكأنه يصادر حق الآخرين في الرد : «إنني لن أرد سلبًا أو إيجابًا ، ولن أكترث لمن ينوي أن يسدد معي حسابات قديمة، أو يفتح معي حسابًا جديدًا . ثم يهاجم زملاء المهنة جملةً وتفصيلًا ، وكأنه ليس واحد منهم ، حيث يذكر في مقدمته أن هبت على الميدان الصحفي في أكثر من عاصمة عربية رياح سمومية ، يقصد مسمومة دمغت الصحفي العربي بأكثر من صفة.. تتعلق بحدود ثقافته ، ونشأته وميوله في الغيرة والدس والحسد ، وحبه للمال والشهرة والأضواء وخضوعه للمشي في ركاب الحكام ، والمصاريف السرية ، والتطاول على أصحاب الأقلام والصحف ، واختلاق الأخبار والمواقف ، والانحناء المذل أمام إغراء المال .. وغيرها من أسباب أقنعت الزعيم عبد الناصر بتأميم الصحافة المصرية .

ثم يسرد عددًا من الأسماء اللامعة في سماء حياتنا الصحفية يفرد لكل منهم فصلًا في مقدمتهم : مصطفى وعلي أمين وإحسان عبد القدوس ومحمد التابعي وأحمد بهاء الدين وكامل الشناوي وموسى صبري ، وأنيس منصور .. وأخيرًا طه حسين .. ويستخدم مع بعضهم الغمز واللمز ، ومع البعض الآخر التطاول والاجتراء والاتهامات التي ينقصها الدليل. ومع أن ما كتبه من خطايا وأخطاء البعض يكفي ويزيد .. لتدمير أي منهم أمام الأجيال ... إلا أنه مع ذلك يعلن أنه لم يكتب كل ما عرف عن كل من عرف ، وإنما اكتفى بسرد بعض الخفايا والخطايا ..

والحق أن هذه الخفايا التي يذكرها النشاشيبي بشعة بكل المقاييس ، إلا أن الذي يقلل من بشاعتها أن المرء إذا تأملها بموضوعية وحياد اكتشف أنها لا تستند إلى حجة أو دليل... وإن كاتبها يريد التنفيس عن دفين غضبه .

ولن تتعرض هذه السطور لما قاله صاحب الكتاب عن زملائه الذين قد استحلوا الكرامة والأعراض والأموال والأسرار ، كما يصفهم في وقت يقول فيه عن نفسه إنه : «مقدسي الأصول ، فلسطيني الهوى ، عربي الميول ، قومي النزعة ، صميمي المبدأ»، وأنه في شبابه تفوق في مسابقات الكتابة الصحفية على كبار مثل : الأستاذين هيكل وإحسان عبد القدوس لينتزع منهما ومن غيره جائزة الملك ، لتنهال عليه بعد ذلك عروض العمل في الصحافة المصرية .. الكل منبهر بهذا الصحفي الشامي . الذي جاء ليتقدم الجميع! في حين يصف زملاءه بصفات ونعوت يعف عن ذكرها القلم .. ونكتفي بمناقشة رأيه في عميد الأدب العربي طه حسين .. بصرف النظر عما يتسم به كتابه بوجه عام من تفكك، وتناقض وتكرار ممل .

منذ البداية لا يعترف النشاشيبي بطه حسين عميدًا للأدب ، حيث يذكر في السطور الأولى من الفصل السادس عشر الذي خصصه عنه وعنوانه : «عميد الأدب .. أي أدب؟».. قائلًا : «كان طه حسين ... ويسمونه عميد الأدب العربي زميلًا لنا في رئاسة تحرير جريدة الجمهورية بالقاهرة ، وكان يتقاضى راتب رئيس التحرير - وقتئذ - الذي لم يكن يقل عن خمسمائة جنيه مصري في الشهر ، ولكنه وعلى مدى السنوات التي تزاملنا خلالها في دار التحرير ، لم يكتب على صفحات الجمهورية مقالًا واحدًا ، كان يأخذ الراتب مقابل وضع اسمه على ترويسة الجريدة كأحد رؤساء التحرير ، جنبًا إلى جنب مع صلاح سالم وكامل الشناوي وموسى صبري وأنا - أي النشاشيبي - وذلك على الرغم من أن معظم قراء جريدة الجمهورية ليسوا من خريجي الجامعات ، ولم يقرأوا الأدب الجاهلي - يقصد كتاب «في الشعر الجاهلي» ، ولم يسمعوا باسم طه حسين...»!

هذه سطور «مخففة» مما كتبه النشاشيبي عن عميد الأدب العربي طه حسين .. الذي شاء سوء حظه أن يتزامل معه في رئاسة التحرير أو يعيش في زمانه - يمكن مناقشتها بهدوء في هذه النقاط ..

أولًا : الأحقية في عمادة طه حسين للأدب هذا أمر صدر الحكم فيه من الرأي العام الثقافي بمصر وغيرها من بلدان الأمة العربية . ولعلنا نحيله إلى عشرات الدراسات التي أقرت أحقيته بعمادة الأدب العربي بلا منازع .

وثانيا : بالنسبة لعدم معرفة الناس بطه حسين كما يدعي النشاشيبي فنترك هذا للناس، حيث إن النشاشيبي لم يجر استفتاءًا بذلك ، مع التأكيد على أن طه حسين أصبح رمزًا شعبيًا واسمه أصبح له معنًى جماهيريًا .. طه حسين يعرفه القاصي والداني لا في العواصم والمدن المصرية ، وإنما أيضًا في القرى والنجوع لأسباب كثيرة منها معاركه الأدبية والفكرية والسياسية التي استمرت طوال حياته ، ومنها أيضًا أنه صاحب نظرية: «التعليم حقٌّ لكل مواطن كحقه في الماء والهواء» . هذه النظرية تحولت إلى سياسة تعليمية يوم أن كان وزيرًا للمعارف ، ولا شك أن الكثيرين قد استفادوا منها ، ولابد أنهم يعرفون صاحب هذه النظرية ومطبقها .

ثالثًا : عن تهكم النشاشيبي على كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» ، فلا ألومه على ذلك حيث لا يقدر قيمة هذا الكتاب إلا أهل العلم الذين يدركون كيف أوجد شرعة جديدة لنقد الأدب قديمه وحديثه على أسس علمية ، وهي أمور يعرفها طلاب المدارس. ولا لوم على النشاشيبي ولا عتاب .. ففاقد الشيء لا يعطيه .

رابعًا : عن تقاضي طه حسين لأجر دون أن يقدم عملًا أو كما يقول : «لم يكتب مقالًا واحدًا . هنا أحيل القارئ إلى أعداد جريدة الجمهورية ليرى هذا العدد الضخم من المقالات التي كتبها طه حسين ، وإذا استحال هذا الأمر على القارئ فأحيله إلى هذه الدراسة العلمية التي قامت بها الجامعة الأمريكية تحت عنوان : «أعلام الأدب المعاصر في مصر» ، والتي أشرف عليها الدكتور حمدي السكوت ، والدكتور مارسدن جونز ..

بالتحديد في مصر في المجلد الأول الذي خصص لأعماله طه حسين ، ومنها أعماله في جريدة الجمهورية .. من هذا المجلد نكتشف أن طه حسين كتب أكثر من 220 مقالًا منذ بداية إصدار هذه الصحيفة حتى آخر حياته ، وأنه كتب ما يزيد على الستين مقالًا في فترة رئاسته للتحرير الممتدة من أكتوبر 1959 حتى سبتمبر 1964 ، وإذا استحال على القارئ الاطلاع على هذا المجلد ، فقد أعاد الدكتور طه حسين نشر هذه المقالات بكتبه مع الإشارة إلى مكان نشرها بجريدة الجمهورية .

إذن من الظلم البيِّن أن يقال عن طه حسين إنه كان يتقاضى أجرا دون عمل ، ومن المهانة أن نرميه بهذا الاتهام العاري عن الصحة والدليل ، والذي لا يبرره شيء سوى كراهية النشاشيبي للدكتور طه حسين ، والتي اعترف بها في أكثر من موضع في هذا الكتاب .. هذا إذا تناسينا أنه طه حسين الذي يعتبر رمزًا للمثقفين الحقيقيين وليس المزيفين مثل هذا النشاشيبي .

هذه الكراهية - التي يعلنها النشاشيبي بسبب وبغير سبب - والتي جعلته يتجاهل حقائق التاريخ حين يصف طه حسين بأنه الخصم العنيد لحزب الوفد متجاهلا أن طه حسين اختاره حزب الوفد عام 1950 وزيرًا للمعارف العمومية ، أو في اتهام طه حسين بعلاقاته بالصهيونية واليهود في واقعتين ... **الأولى** : كانت عام 1943 - كما يذكر في كتابه - حين ألقى طه حسين محاضرة بدار المدارس اليهودية بالإسكندرية يوم 1943/12/23 عن اليهود والأدب اليهودي عام 1944 - وفات هذا الكاتب الهمام - كما يقول هو متهكمًا على الدكتور طه حسين أن الأدب العربي لم يتجاهل الأدب اليهودي، وأن أحد مؤسسي هذا الأدب والفكر موسى بن ميمون .. معترفًا به في فكرنا العربي ، إلى جانب أنه أضاف الكثير للبناء الفلسفي ، وأنه مدفون بمصر على ما يقرر الأستاذ العقاد . وأن هناك فارقًا كبيرًا بين خصائص ومقومات الأدب اليهودي القائم على الديانة اليهودية ، والأدب الإسرائيلي القائم على أهداف مختلفة ، والأهم أن ما حدث كان قبل عام 1948 قبل قيام دولة إسرائيل .

والواقعة الثانية : التي يراها النشاشيبي ذريعة للهجوم على طه حسين والتطاول عليه هي في قبوله رئاسة تحرير مجلة الكاتب المصري عام 1945 ، التي كانت تمولها شركة الكاتب المصري للورق والأدوات الكتابية المملوكة لأسرة هراري اليهودية المصرية ، التي كان رأس أسرتها فيكتور هراري باشا مسئولا عن إدارة الخزانة المصرية في عهد الخديوي إسماعيل ، أي بمثابة وزير الخزانة ، وهو أمر حدث بعد ذلك حين كان من بين الوزراء المصريين وزير يهودي هو يوسف قطاوي للمالية في وزارتي أحمد زيوار باشا عامي 1924 و 1925 ، أو كما حدث من قبل حين كان يعقوب ابن كابس اليهودي الذي تقلب في المناصب حتى وصل إلى الوزارة في عهد كافور الأخشيدي . والأهم أن رئاسة طه حسين لتحرير مجلة الكاتب المصري .. كانت قبل قيام دولة إسرائيل فليست جريمة ارتكبها طه حسين حين ترأس مجلة أثرت الثقافة المصرية وأفادتها؟! والأهم أنه تخلى عن رئاسة تحريرها قبل الصراع العربي الإسرائيلي بعديد من السنين .

وإمعانًا في كراهية طه حسين التي لا يخفيها النشاشيبي يذكر وقائع لا شهود لها إلا هو، ولا أدلة عليها إلا منه ، وفي مقدمتها القول باعتراض طه حسين على أغنية «لا تكذبي» للشاعر الكبير كامل الشناوي ووصف طه حسين لها بالخلاعه والمجون ، وبأن المغنية ترقص أثناء أدائها للأغنية ، ونسى النشاشيبي أن طه حسين لا يرى حتى يحكم بخلاعة ومجون ورقص المغنية . إنه في هذه الحالة لا يهاجم طه حسين وحده ، وإنما يهاجم كاتب الأغنية كامل الشناوي حين ينقل رأيًا ليس له شهود . ومنها أيضًا واقعة أخرى خلاصتها مشادة تليفونية عنيفة بين طه حسين وجمال سالم الذي كان على فراش الموت، وكيف انتهت هذه المكالمة من جانب جمال سالم موجهًا هذه العبارة لطه حسين : «يا أخي روح اتلهي روح في داهية .. الله يخرب بيتك» .. هل هذا معقول؟! وهل يحدث ذلك مع أي إنسان وليس طه حسين الذي يستفسر عن صحة مريض يرد عليه بالسب والشتائم! .. إن هذه الواقعة - إن كانت قد حدثت - لا تدين طه حسين بقدر ما تدين جمال سالم .. وقد يكون الاثنان أبرياء منها ، والمتهم الكاذب هو هذا النشاشيبي .

ووقائع أخرى حول كبار كتابنا يعف عن ذكرها القلم ، لا تدين أحدًا سوى قائلها وكأنه في واقع الأمر لا يصف إلا نفسه بالعمالة والدس والتطاول على الكبار ، والمشي في ركاب أصحاب السلطان بغية الشهرة والمال وغيرها .. وعلى هذا النحو جرى قلم النشاشيبي – الذي ابتليت بوجوده مصر على أرضها ، وابتليت به الصحافة حين كان واحدًا من كتّابها – مهاجمًا كبار كتّاب مصر متهمًا إياهم بأبشع الاتهامات ، وليس هناك ما يبرر له ذلك سوى الرغبة في التطاول على أصحابها .

وبعد فإنني أتصور رد طه حسين لو كان حيًا وقرئ عليه هذا الفصل الذي كتبه عنه ناصر الدين النشاشيبي .. لما كان رده عليه بأكثر من كلمات عبارته المشهورة : «رجل رضي بجهله ، وجهله رضي به ..» فهو بهذا الوصف يليق!

* * *

ويصدر كتاب أسود في السعودية عنوانه : «طه حسين في ميزان العلماء والأدباء» يجتهد معده الأستاذ / محمود مهدي الأستانبولي في جمع كل الاتهامات التي وجهت للرجل على مدى نصف قرن .. ليقدمها في ذكراه!

وواضح أن الكتاب يختار من العلماء والأدباء هذا الجانب المعارض تمامًا لفكر طه حسين ، وكأن الجانب المؤيد لطه حسين لا يتشرف بكرامة العلم والأدب ، مع أنه كان ينبغي أن يشتمل الكتاب على الجانبين معًا . ولكن ماذا يفيد؟ والنية مضمرة للنيل من طه حسين وتشويه تاريخه بأكثر مما يمكن . ومتى؟ في ذكراه وتقدمه منذ أيام قليلة صحيفة «المدينة المنورة» السعودية على صفحتين جاحظتين من ملحقها ، مؤكدة أنه بهذا الكتاب ومعده محمود مهدي الأستابنولي – الذي لا يعرفه أحد في أي قطر من الأقطار العربية وربما في السعودية نفسها ، واهتمامنا به في الأصل هو اهتمام بمن وراءه – حتى يتبين الرشد من الغي ، وحتى لا تصل سموم وأباطيل تنسب إلى طه حسين متداولة ومثبتة في هذا الكتاب ، على حين الحق متوار ومهجور .. هكذا على ما يزعمون!!

وبالطبع الكتاب مليء بالاتهامات التي أقلها أن طه حسين جاهل وكافر وسارق ، وأنه تلميذ للمستشرقين ، وصديق للمبشرين ، وداع للإباحية ، وعدو للعربية ، وهادم للغتنا ، ومخرب لثقافتنا .. إلخ ... مما لا يحتاج الدفاع بعد أن تولى ذلك فكر طه حسين وكتابات تلاميذه ومريدوه .. فقط هناك أمور لا يحسن السكوت عليها ، ومنها :

أولًا : تكفير الدكتور طه حسين ورميه بالإلحاد والخروج على الإسلام بمناسبة ومن غير مناسبة ، أمر أصبح غير مستساغ من مسلمين يعرفون أمر دينهم . هذا الدين الذي يعلمنا احترام عقيدة أي إنسان ما دام يوجد دليل واحد على صدقها ضد تسعة وتسعين دليلًا على الكفر ، وإن أكبر جرم هو أن يحكم إنسان على عقيدة إنسان آخر لاختلاف في الرأي . فإذا كان الرجل مسلما كما يعلن ذلك ، فمن الذي يستطيع الحكم بكفره؟ والأغرب من ذلك أن مسألة تكفير طه حسين قد انسحبت أيضًا على أسرته ، فأصبحنا نقرأ أن طه حسين «عمّد أبناءه على نحو ما يفعله المسيحيون» . وليت أسرته ، وليت هذه الكتابات تدرك أن أبناء طه حسين لهم مكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، ومن حقهم رفع هذا الأمر للقضاء إذا كان المقصود منه الإساءة إليهم .

ثانيًا : القول بأن طه حسين قد سرق آراء المستشرفين في كتابه «في الشعر الجاهلي» قول يتهافت أمام الدراسات الجادة . وقد أشار الدكتور عبد الرحمن بدوي إشارة إضافية في تقديمه لكتاب «دراسات المسشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» إلى أن الدكتور طه حسين قد تأثر في ذلك بأجدادنا العرب ، وفي مقدمتهم ابن سلام الجمحي . ونؤكد إشارة الدكتور بدوي مراجعتنا لما جاء في كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، وكتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام ، حيث يتبين وجه تأثير الثاني في الأول . فمثلًا يقول الدكتور طه حسين في ص 66 من كتابه : «ولابن سلام مذهب الاستدلال لإثبات أن أكثر الشعر قد شاع ولا بأس أن نلم به ، فهو يرى أن طرفه بن العبد وعبيد بن الأبرص من أشهر الشعراء الجاهليين وأشدهم تقدمًا ، وهو يرى أن الرواة والمصححين لم يحفظوا لهذين الشاعرين إلا قصائد بقدر عشر .. ونجد أن ابن سلام يقول في كتابه:

وما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي في أيدي الرواة والمصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدم ..» .

ويقول طه حسين في كتابه : «وقد رأيت أن القدماء العرب قد سبقونا إلى هذه النتيجة (يقصد وضع الشعر ونسبته إلى الجاهلية) ، وأريد أن نرى أنهم قد شقوا بها شقاءً كثيرًا. فابن سلام يحدثنا بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذي ينتحله الرواة في سهولة . ولكنهم يجدون مشقةً وعسرًا في تمييز الشعر الذي ينتحله العرب أنفسهم» .. والفكرة نفسها قالها ابن سلام في كتابه : «ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون . وإنما عضل بينهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال ...» .

وهكذا نجد طه حسين قد تأثر فيما كتب في كتابه الأشهر «في الشعر الجاهلي» بأجداده العرب ، وفي مقدمتهم ابن سلام الجمحي لا أن نقول عنه سارقًا من المستشرقين أو الأجانب .

ثالثًا : اتهام طه حسين بأنه كان يعمل على هدم لغتنا العربية ، وأنه كان يريد أن يكتبها بحروف لاتينية معلنًا ذلك في للمستشرقين ، والرد على ذلك أننا جميعا نعلم كم كان طه حسين يقدس لغته العربية الفصحى ، ومن كلماته التي عاشت : «لا أدب إلا أدب اللغة الفصحى ، والذين يستخدمون العامية ليسوا واقعيين وإنما هم عاجزون» . هذه واحدة. والثانية خاصة بكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية .. والتاريخ يحدثنا بأن المنادي بهذا المشروع هو الأستاذ عبد العزيز فهمي وليس طه حسين ، وكانت معركة بينه وبين أساتذة في مقدمتهم : طه حسين والعقاد وكرد علي ومحمود شاكر في يناير عام 1954 .

يبقى البحث الذي أشار إليه صاحب هذا الكتاب من أن طه حسين ألقاه أمام مؤتمر المستشرقين .. ولعلنا هنا نرجوه أن يدلنا على مؤتمر المستشرقين .. أين هو؟ فربما يسدي خدمة لعدد من الباحثين الذين أضناهم التنقيب عن هذا البحث .

رابعًا : الادعاء بأن طه حسين قد نشر الإباحية من خلال نشره للشعر والقصص الفرنسي.. وهكذا . هل نسمي رسالته لتقديم عيون الأدب العالمي نشرًا للإباحية والفجور؟! إن هذا العمل من الإنجازات التي تحسب لطه حسين وليس عليه ، وبنفس الطريقة اتهامه بأنه صبغ فكرنا الإسلامي بالصبغة الرومانية اليونانية . هل توصف محاولته الرائدة في فتح نوافذ على الفكر العالمي بأنه أساء إلى فكرنا الإسلامي؟! ثم ماذا أراد طه حسين من تقديمه لهذا اليوناني؟ إنه أراد أن ينقلنا في كتاب «قادة الفكر» إلى الشاعر هوميروس.. وإلى الفلاسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .. إلى الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر . وليقول لنا في النهاية : إن المجتمعات في تطورها تحتاج أولا إلى قيادة الشعراء والفلاسفة ، ثم الحكام المفكرين ، وإنه أراد أن يقدم في كتاب ترجمة عن أرسطو هو «نظام الاثينيين» فائدة للمشتغلين بالتاريخ والنظم السياسية والإدارية والقضائية ، حيث سجل نظام أمة قادت حركة الفكر زمنًا طويلًا . إن اعتراض معد هذا الكتاب الأسود على اهتمام طه حسين بالفكر اليوناني والروماني شبيه باعتراض أحد السطحيين على الكتاب الذي قال : إن الأدب اليوناني أدب عفاريت ، فكان رد طه حسين عليه بأنه رجل رضي بجهله ، وجهله رضي به ، فالأمران متشابهان .

إلى آخر هذه الادعاءات التي بالقطع تسيء إلينا جميعًا في مصر والسعودية وبقية الأقطار العربية حين تشوِّه تاريخ كبارنا ، ونفعل هذا والأمم من حولنا تكرم كبارها . فهذه مثلًا فرنسا تكرم شاعرها فيكتور هوجو في عيد مبلاده الثمانين ، ويعتبر ذلك اليوم عيدًا قوميًا أقيمت فيه أقواس النصر ، واحتشدت الجماهير أمام بيت هوجو ، وتوجه رئيس الوزراء «جول فيرن» مع حكومته لتحية هذا الشاعر العظيم في بيته . وفي نفس اليوم يدخل هوجو البرلمان الفرنسي ليهب رئيسه «ليون سي» واقفًا ومعلنًا : «لنقف جميعًا تحيةً لهذا العبقري الذي يشرف مجلسنا اليوم». وفي ألمانيا يكرمون شاعرهم جيتي ، ويجعلون بيته قبلة للزائرين من كل صوب وحدب . وتطوف في حجرات البيت بعد أن تخلع نعليك قبل أن تدخل حتى لا يمحو وقع الخطى معالم الأرض الخشبية التي كان يمشي عليها جيتي! . وفي إنجلترا يصرون على تقديم شكسبير إلى أطفالهم قبل شبابهم حين يبسطون أعمال هذا العبقري بشكل يستوعبها طفل المرحلة الأولى .

وفي روسيا يقدرون دستوفيسكي وبوشكين ، حيث يقيمون لهما متحفين عظيمين يقصدهما زوار هذا البلد ليشموا رائحة الحياة التي كان يحياها هذان العظيمان . وحتى في البلاد التي ليس فيها كبار يصطنعون الروايات الخيالية والأساطير التي يشحنونها بالمبادئ والقيم التي يريدون أن يغرسوها في نفوس النشء وعقول الشباب .

أما نحن ، فلدينا التاريخ ولدينا الكبار ، ولكن لدينا أيضًا هدامين مثل معد هذا الكتاب الأسود يصرون على هدم هؤلاء الكبار وتشويه تاريخهم!

* * *

أما كتاب «طه حسين الجريمة والإدانة» للعضو الإخواني الأستاذ / جابر رزق ، والذي كان يعمل محررًا بمجلة الإذاعة والتليفزيون فهو من عنوانه يدل على عدم دقته أو موضوعيته ، وإنما صفحات لا تخرج عن كونها تصفية حسابات بين الدكتور طه حسين وهذا التيار الذي ينتمي إليه معد هذا الكتاب الذي يحتوي على مجرد ترديد لآراء سبق الرد عليها ولا مجال للرد على معد هذا الكتاب ، ولعله تجاهل هذه الحقيقة ، حقيقة أن ما كتبه لا يخرج عن كونه ترديد لما سبق أن نشر وتم الرد عليه في حينه ، ولا حاجة للذين ردوا من قبل إلى تكرار ما كانوا قد كتبوه .

وربما كان الأكرم لمعد هذا الكتاب أن يتبين ذلك حتى لا يتورط في سب وشتم نقاد وأدباء ومفكرين وأساتذة بالجامعة قيموا فكر طه حسين . لكن ما العمل وقد صدق على معد هذا الكتاب القول : «فاقد الشيء لا يعطيه» ، حيث لم يُعرف عن هذا المعد أنه كتب موضوعًا أدبيًا واحدًا في حياته إلى وفاته (رحمه الله) حتى يتصدى لنقد قامة مثل قامة الدكتور طه حسين ، ولولا أنه ردد أقوال غيره في أحاديثه معهم التي هي نص الكتاب التي تجعلنا نقول بأن ما كتبه هو بعينه الجريمة التي تستحق الإدانة .. ومع هذا فنشر صفحة من هذا الكتاب حتى نرى أسلوبه الذي لم يرد عليه أحد حتى بعد اتصاله بهم - على حد قوله - لم يجرؤ أحد منهم على الرد بسبب الأسلوب المتدني لهذا المعد ، ولعلنا نقرأ سطورًا منه .

«ولكن أمام الحملة المسعورة على مجلة الإذاعة وعلى رئيس تحريرها .. واستجابة لأمر المسئولين أوقف النشر .. واستمر النباح على صفحات الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية .

وكنت في غاية السعادة لأنني استطعت بتوفيق من الله أن أسهم في تعرية واحدة من الذين تآمروا على العقل المصري المسلم وعملوا على تدميره وتفريغه من مقوماته الإسلامية استجابة لمخطط استعماري .. وهذا ما شهد به كل الذين عرضت لكتاباتهم في هذا الكتاب كالزعيم الوطني المرحوم أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة الذي يقول: «... أرفض كل ما كان يمثله طه حسين ويرمز إليه وينطق به حتى صار وزيرًا، وأشهد أن كل كلمة نطق بها طه حسين أو كتبها إلا وقد قصد بها التخريب والتدمير لمقوماتنا كشرقيين مسلمين ، وأدهش أنه بعد هذا التحوّل الذي انتهى إليه طه حسين في شيخوخته فلم يقل حرفًا واحدًا عن آرائه السابقة مما يدلنا نحن شخصيًا على أنه كان مرتبطًا مع آخرين لقول ما قال ورغبة في (إبقاء الطابق مستورًا) . لم يتعرض لهذه الأقوال بحرف واحد ، وهو أمر شاذ وغير طبيعي بالنسبة لكاتب كبير والله تعالى أعلم» . إذن فكيف يمكن الرد على هذا الكلام المرسل المتداخل؟!

* * *

وإذا ما انتقلنا إلى ما كتب عن طه حسين من مقالات فبها نشير إلى نموذج للعدوانية في الكتابة ، وذلك في مقال كتبه من كان يتستر وراء اسم «أبو حيان» كصورة لا تقل عدوانيةً وتهجمًا عن مثيلاتها عند الذين كانوا يعاصرون الدكتور طه حسين ويعارضون آراءه في الشعر الجاهلي ، ونختار من هذه الكتابات العدوانية التي تكشف عن أسلوب يجتاح الحياة الثقافية العربية .. هذه الفقرة التي نشرت مع غيرها من فقرات لا تقل سوءًا عنها لأبي حيان في القبس الكويتية عام 1980 .

«بودنا أن نطرف بشيء من أدب طه حسين ، لا أراكم الله شرّا ، ذلك الأدب الذي يبعث على الغثيان والقرف» كما يقول هذا الكاتب المتستر وراء اسم رمزي : «إن غايتنا

في هذا المقال أن نحطم أسطورة، ونصحح خطأ شائعًا، أصبح كالعادة لا يسهل التخلص منها، وبصراحة خطأ نريد أن نثبت أن طه حسين ليس عميدًا للأدب العربي، بل هو ليس أديبًا، وأما كونه غير أديب فإن الدارس له يلاحظ أنه قد درس الآداب الغربية بينما فاتته الفصاحة والبلاغة العربية، ثم هو مؤرخ وليس أديبًا، وأسلوبه ضعيف ركيك، وخياله سقيم وفكره عقيم» .

إلى آخر ما قاله هذا المتستر وراء «أبو حيان» من كلام يتهم فيه عميد الأدب العربي في دينه، وعقله وعلمه .. وهو كلام لا قيمة له من الناحية العلمية، فضلًا عن اضطرابه وتفككه، ومثل هذا الكلام وغيره سوف يمضي كما مضى غيره من النقد العدواني إلى النسيان، ويبقى ذكر طه حسين وأدبه وفكره وأسلوبه الأدبي المتميز، وثقافته العميقة، وقدرته على الكشف عن حقائق الأمور لهذا المتستر أو غيره من الجاحدين المنكرين لفضل الذين سبقوا .

إن هناك أساتذة وأدباء لهذا المتستر وراء «أبو حيان» حادوا قبله عن الموضوعية والدقة، واتبعوا أسلوبًا آخر في مناقشاتهم لقضية «الشعر الجاهلي» كما طرحها طه حسين، ويتقدم هؤلاء الدكتور محمد محمد حسين والدكتور نجيب البهبيتي .. ترى، أين هم الآن ؟ .. لقد نسيتهم حياتنا الثقافية، في الوقت الذي لا يزال فيه فكر طه حسين باقيًا حيًا مستمرًا .

■ 4 ■

تحليل الكتابات النقدية قبل الرحيل وبعده

وقبل بلورة وتحليل آراء الأدباء والنقاد والمفكرين في كتبهم ومقالاتهم لما جاء بكتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين قبل رحيله وبعده، نسجل جانبًا من تقدير طه حسين نفسه للقرآن الكرين كما جاء في صلب صفحات كتابه، وذلك على امتداد مادة هذا الكتاب من أول صفحاته إلى آخرها مما يدل على أن طه حسين كان حريصًا أشد الحرص على احترام القرآن الكريم وتقديره، كأدق وأهم مصدر وأصدقه في تسجيل جوانب الحياة العربية في الجاهلية، وأنه أي القرآن الكريم أفضل من الشعر الجاهلي كمصدر لذلك، وقد يعذرني القارئ إذا لاحظ تكرارًا مقصودًا في هذا الشأن بالذات، ذلك لأن هذا الجانب الديني لدى الدكتور طه حسين مستهدف دائمًا، للهجوم إلى درجة الطعن في دينه، ومن حقه علينا أن نوضح ذلك ونؤكده.

فالدكتور طه حسين يرى أنه لا ينبغي أن نستشهد بالشعر الجاهلي على تفسير القرآن الكريم، أو تأويل الحديث النبوي الشريف، وإنما ينبغي أن يكون العكس هو الصحيح، أن نستشهد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف على تفسير هذا الشعر الجاهلي وتأويله.

ويسجل تقديره وإعزازه بل وتقديسه للقرآن الكريم كمصدر علمي لا يرقى إليه أي شك، موجهًا حديثه للذين يحبون الشعر الجاهلي، ويستمتعون به، مكتشفًا طريقًا سهلة يصلون منها إلى هذه الحياة الجاهلية التي ينكر أن يمثلها الشعر الجاهلي، بمعنى أنه لا ينكر هذه الحياة الجاهلية، ولكنه ينكر أن يكون الشعر الجاهلي وسيلة لمعرفتها. فالقرآن الكريم كما يقول نصٌّ ثابتٌ لا سبيل إلى الشك فيه.

والدليل على أن القرآن الكريم كان أصدق مرآة للحياة الجاهلية . أنه كان من اليسير على العرب في الجاهلية أن يفهموه ويعجبوا به حين تليت عليهم آياته ، ولا يحدث هذا إلا بعد أن تكون بينهم وبين هذا الكتاب المبين صلة .. هي نفسها الصلة التي توحّد بين الأثر الفني البديع وبين المتلقي الذي يعجب به ويستمتع ، كذلك ليس من اليسير أن يفهم العرب القرآن ويقاوموه ويناهضوه ويجادلوا النبي فيه إلا أن يكونوا قد وقفوا على أسراره ودقائقه ، أو كما يقول الدكتور طه حسين : «القرآن كان جديدًا في أسلوبه ، جديدًا فيما يدعو إليه ، جديدًا فيما شرع للناس من دين وقانون ، وكانت لغته – كما نعرف جميعًا – هي اللغة العربية الأدبية التي كان يصطنعها الناس في وقت نزوله أي في العصر الجاهلي ، ولهذا ولغيره فالحياة الجاهلية بكل جوانبها تلتمس فيه أكثر مما تلتمس فيما يسمى بالشعر الجاهلي» .

وهناك دليل آخر على أن القرآن كان أصدق مرآة للحياة الجاهلية ، أو كما يرى الدكتور طه حسين : «أن في القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية ، وفيه رد على اليهود ، وفيه رد على النصارى ، وفيه رد على الصابئة والمجوس، وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا نصارى الروم أو مجوس الفرس أو صابئة الجزيرة.. وحدهم ، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها ، أي أنه كان يرد على العرب ، وضحوا في سبيل معارضته أو تأييده بالأموال والحياة» .

ودليل ثالث في رأي الدكتور طه حسين أن القرآن كان أصدق وأوثق المصادر التي تكشف الحياة الجاهلية ، إذ إن الشعر الجاهلي يظهر لنا الحياة في الجاهلية جافة خالية من الشعور الديني القوي في الجاهلية ، والغريب أن يعجز هذا الشعر الجاهلي كله عن تصوير هذه الحياة الدينية التي تبدو واضحة جلية عند دراسة حياة أي قوم من الأقوام ، وهو ما لم نجده في الشعر الجاهلي ، وإنما نجد ذلك واضحًا جليًا في القرآن الكريم .

كذلك يدلل على أن القرآن كان مرآة للحياة العقلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية فيما نجد في آياته تسجيلًا واضحًا ، وهو ما يندر أن نجده في الشعر الجاهلي

الذي يسجل بأن العرب كانوا منعزلين ، وهذا غير صحيح علميّا واجتماعيّا وسياسيّا .. ليجيء القرآن بعد ذلك ليؤكد أن العرب لم يكونوا كذلك بدليل صلتهم السياسية بالروم حربًا أو سلامًا ، وصلاتهم التجارية بما حولهم من البلدان في رحلات الشتاء والصيف التي كانوا يقومون بها كما تحدث عنها القرآن .

ثم يتساءل الدكتور طه حسين : أرأيت أن التماس الحياة الجاهلية في القرآن الكريم كانت أجدى وأنفع من التماسها في هذا الشعر الذي يسمونه جاهليّا ؟ وأرأيت أن الرجوع إلى القرآن الكريم ، وليس فيما ترك الجاهليون من أشعار حتى ولو كانت على لسان امرئ القيس أو طرفة بن العبد أو عنترة بن شداد . كانت أدق وأوثق ؟

ويسجل الدكتور طه حسين في كتابه أن القرآن الكريم وحده هو النص العربي الموثوق به ، الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ويعتبره مشخصًا للعصر الذي تلي فيه أي العصر الجاهلي ، وأما شعر هؤلاء الشعراء الجاهليين فلا سبيل إلى الثقة به ، ولا الاطمئنان إليه ، بعد ما رأينا من تكلف وانتحال وغير ذلك مما أدخله الرواة والقصاصون . وهنا يضع الدكتور طه حسين أسلوبين أمام مؤرخ الآداب : أسلوب – أو طريق – الأساطير والأسماء والحكايات التي تروى عن العصر الجاهلي وما يدخلها من مبالغات وتهويل ، وأسلوب – أو طريق – النصوص التاريخية الصحيحة التي تعتمد على القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف . ومن جانبه يفضل الأسلوب أو الطريق الثاني الذي لا يعادله أسلوب أو طريق آخر في دقته وصحته وموضوعيته ، وهو الطريق المعتمد على الكتاب والسنة ، لبحث ودراسة الآداب العربية في العصر الجاهلي أو غيره .

وفي آخر صفحات كتابه «في الشعر الجاهلي» يعلن صراحة موقفه في أنه يخالف أشد الخلاف أولئك الذين يعتقدون أن القرآن في حاجة إلى الشعر الجاهلي لتصحيح عربيته، وتثبيت ألفاظه ، يخالفهم في ذلك أشد الخلاف لأن أحدًا لم ينكر عربية النبي ﷺ ، ولأن أحدًا لم ينكر أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته . كذلك ليس هناك من ينازع في أن رواية القرآن وكتابته ودرسه وتفسيره احتاط لها المسلمون الأوائل

أشد الاحتياط حتى أصبح أوثق نص عربي وأصدقه يمكن الاعتماد عليه في تدوين اللغة العربية وفهمها . وفي المقابل لم يحفلوا برواية الشعر ، ولم يحتاطوا فيها ، بل انصرفوا عنها طائعين أو كارهين ، ولم يراجعوها إلا بعد حين من الدهر ، بعد أن عبس النسيان بما كان قد حفظ من شعر العرب في غير كتابة أو تدوين .

وهكذا كان رأي الدكتور طه حسين في القرآن الكريم من أول صفحات كتابه إلى آخر صفحاته .

* * *

وإذا ما انتقلنا إلى بلورة آراء الأدباء والنقاد والمفكرين قبل وبعد رحيل الدكتور طه حسين نجد الكثير منها تجانبه الموضوعية ، هذا إلى جانب عدم تحري الدقة في مسألة الاتهام بالسطو . فقد كان ذلك يستتبع مقارنة النصين بعضهما ببعض .. مقالة المستشرق الإنجليزي صمويل مرجليوث عن نشأة الشعر العربي ، وكتاب الدكتور طه حسين «في الشعر الجاهلي» ومضاهاة أحدهما بالآخر حتى نخرج بنتيجة ضد طه حسين أو معه . إلا أن هذا لم يحدث في الكثير من الآراء التي تعرضت للحديث عن كتاب «في الشعر الجاهلي» الأمر الذي تحوَّلت أساليبهم من النقد الموضوعي المشروع ، إلى الهجوم الشخصي غير المبرر .

* * *

فمثلًا يرد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي على الكتاب بعنف في كتابه تحت راية القرآن يجعله يجانب المنهج العلمي ويبعد عنه ، خاصة إذا علمنا أن رده مبني على السمع وليس على القراءة كما ستعرف بعد قليل ، والأهم من ذلك هو أنه حين يهاجم منهج الدكتور طه حسين في الشك في بعض الشعر الجاهلي ، نراه هو نفسه يشك في بعض هذا الشعر الذي يتأثر بالقصص والأساطير في الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العربية . وهنا يصدق عليه القول : «أنه يحلل لنفسه ما يحرمه لغيره» .

* * *

والأستاذ محمد لطفي جمعة يرد في كتابه «الشهاب الراصد» بكلام مرسل ليس على مستوى القضية ، فيصادر كل رأي للدكتور طه حسين بما يخالفه ، وبأسلوب لا يقنع ولا يفيد ، ويبدو أن الصبغة الحزبية لديه كأحد نجوم الحزب الوطني قد طغت على تفكيره على الرغم من أن الدكتور طه حسين لم ينتسب إلى أي حزب من الأحزاب ، حتى وإن كان متعاطفًا مع رجالات حزب الأحرار الدستوريين . إلا أن الأستاذ جمعة كان يتعامل مع ما جاء بكتاب «في الشعر الجاهلي» كما لو كان يرد على منافس له في قضية تتصل بالأحزاب .

فنراه – أي الأستاذ جمعة – ينقد أشياء في الأصل – يرفضها طه حسين جملة وتفصيلًا مثل : استخدام الخرافات والأساطير ، وهو ما لم نره في كتاب في «الشعر الجاهلي» إلا مرفوضًا . ثم إنه يتصور أن الدكتور طه حسين يتجاوز حدوده مع الأنبياء أو العلماء أو حتى الشعراء الحقيقيين وهو ما لم يحدث من طه حسين . وباختصار : إن ما كتبه الأستاذ جمعة لا يدل على أنه قرأ الكتاب الذي ينقده قراءة كاملة ، بل هو أقرب من أن يكون قد سمع به دون أن يراه مثل الرافعي تمامًا ، الفرق أن الرافعي اعترف بذلك بقصد أو بغير قصد . أما الأستاذ جمعة فإنه لم يعترف ولم يشعرنا بأنه يلتزم حدود المنهج العلمي على ما يدعي .

والأستاذ محمد فريد وجدي في رده على الدكتور طه حسين في كتاب «نقد كتاب في الشعر الجاهلي» كان موضوعيًا نوعا ما ، حيث لم يشغل رده بكم من السخريات والشتائم كما فعل سابقاه الرافعي او جمعة ، ولم يضمِّن رده بالاتهامات التي بدون دليل، ولذلك جاء رده مقبولًا ومعقولًا .

* * *

والأستاذ محمد أحمد الغمراوي يرد في كتابه «النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي» على التنكر للدين والقومية كشرط من شروط البحث العلمي . مع أن الكتاب من أوله إلى آخره يقدس كتاب الإسلام (القرآن الكريم) على ما رأينا ، ولا يتنكر للعروبة كقومية وإنما يدافع عنها ويراها لا تقل بثقافتها عن أي قومية أو ثقافة من الثقافات القديمة،

ولهذا يمكن القول بأن الأستاذ الغمراوي لم يقرأ الكتاب قراءة ملتزمة تبرر له نقد صاحبه بهذا الشكل .

وفي مقدمة هذا الكتاب النقد التحليلي لكتاب «في الشعر الجاهلي» يكتب الأستاذ شكيب أرسلان قائلًا بأن الدكتور طه حسين نقل كتابه عن مقالة المستشرق الإنجليزي مرجليوث . بالضبط كما كتب من قبل الأستاذ الرافعي . ولو أن الأستاذ شكيب قد قرأ كتاب طه حسين ثم مقالة مرجليوث لكان رأيه أكثر دقة ، ولما تورط في هذا الرأي الذي يكشف أنه لم يقرأ المصدرين أو حتى أحدهما حتى يدلي برأي فيه اتهام خطير بالسرقة.

* * *

وأما الشيخ محمد الخضر حسين فيقول في كتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» فيبدأ باتهام الدكتور طه حسين بأنه متعصب لكل ما يكيد للإسلام ، والحط من جلاله وفضائله وعظمائه ورجاله!! هكذا دون تسويغ أو دليل يسمح له بإطلاق هذه الأحكام المتسرعة ، وكأنه دخل قلبه وفتش فيه عن ذلك . مع أن ذلك ينهانا عنه نبينا ﷺ ، ولو كان قد قرأ الكتاب بعين مخلصة ، وأخرى واعية لتردد كثيرًا فيما قال ، خاصة وأنه كان مشهودًا له بالفضل والعلم ، الأمر الذي جعله شيخًا للأزهر .

ولعل شيخنا الخضر - رحمه الله - كان ظالمًا لطه حسين حين قال عنه أن كتابه جافى الطريقة العلمية حيث يبدأ بالفرض ، ثم يبني عليه فرَضًا آخر ، ثم ينتهي بالقطع والجزم والثبوت !! وباختبار هذا القول على ما جاء بكتاب في الشعر الجاهلي نجد الكتاب على العكس متماشيا مع المنهج العلمي وشروطه وليس كما يقول الشيخ الخضر حسين ، وأن من يقرأ هذا الكتاب فإنه لا يملك إلا أن يحكم بأن مؤلفه كان يطبق المنهج العلمي بصرامة واضحة . ولعل هذه الدقة والموضوعية التي استخدمها الدكتور طه حسين في كتابه هي الجوانب التي جرَّت عليه الكثير من المشاكل والمتاعب بعد نشره .

* * *

أما محاضرات الشيخ محمد الخضري حول كتاب «في الشعر الجاهلي» فهي غير مفهومة ، ولا ندري هل كانت بالفعل محاضرات مرتجلة جُمعت بعد ذلك في صفحات، أم أنها مكتوبة بالفعل ولكن بشكل متسرع أو غير مدقق فيما جاء عن كتاب طه حسين . أو إنه ساير الأسلوب الذي كان متبعًا في الرد على الكتاب وصاحبه بصورة عنيفة أفقدت هذه الكتابات الكثير من الدقة والموضوعية ، وجعلت ما جاء في صفحاتها مادة شبيهة بالكلام المرسل .

وحتى في منارناته لم نجد فيها ما يقنع أو يفيد ، مع أننا كنا ننتظر من رجل على علم الشيخ محمد الخضري غير ذلك . كنا ننتظر منه عدلًا وإنصافًا لصاحب كتاب في الشعر الجاهلي إن كان يستحق ، لا مسايرة لهؤلاء المهاجمين للكتاب ممن كان وراء هجومهم أهداف شخصية وسياسية لا علاقة لها بالأدب أو بالنقد .

* * *

والدكتور ناصر الدين الأسد صاحب رسالة الدكتوارة المعروفة بعنوان : «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» التي تكاد تكون الرسالة العلمية الأولى بعد ضجة كتاب في الشعر الجاهلي» . يرى في دراسة ضافية بمجلة القضاة عنوانها : «حول كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين» أن العلماء والأدباء الذين تصدوا لكتاب «في الشعر الجاهلي» وفندوه . كان بعضهم على حق والبعض على غير حق فيما أوردوه من إتهامات لا مبرر لها . هذا الرأي وقبله الرسالة التي كان يأسف لها الدكتور طه حسين ويردد ذلك حزينًا لتلميذه الذي تأثر بآخرين في مقدمتهم الأستاذ محمود شاكر إلى درجة أنه كان يقول عن تلميذه الأسد أمام عدد من المثقفين : إن الأسد كتب رسالته في بيت محمود شاكر وتأثر بآرائه على الرغم من أنه كان على علم أكثر من غيره» .

وفي هذه الدراسة المطولة التي كتبها الدكتور الأسد بمجلة القضاة كنا نود أن يعقد مقارنة علمية بين كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين ، ومقالة «نشأة الشعر الجاهلي» للمستشرق الإنجليزي مرجليوث . لكن ربما حال بينه وبين هذا المطلب

أمران أولهما أنه اعتمد في دراسته على كتاب «في الأدب الجاهلي» وليس كتاب «في الشعر الجاهلي» حيث ترجع أغلب الأقوال التي سجلها كتاب «في الأدب الجاهلي» المعدل لكتاب «في الشعر الجاهلي» هذه واحدة، وأما الثانية فربما يكون لم يطلع كغيره على مقالة مرجليوث اطلاعًا علميًا دقيقًا .. ورغم ذلك فإنني أرى أن رأي الدكتور الأسد في كتاب «في الشعر الجاهلي» أكثر الآراء التزاما بالمنهج العلمي سواء في الرسالة التي نال عليها الدكتوراه أو في المقالة التي كتبها بمجلة القضاة. ففيه الكثير من التقدير لمجهود أستاذه الدكتور طه حسين حيث يعود فيؤكد أن كتاب «في الشعر الجاهلي» كان دعوة ثورية إلى منهج متكامل في الدراسة الأدبية ألقاها صاحبها في الحرم الجامعي، ثم اتسع نطاقها في الصحف والمجلات، وساحات النيابة والمجالس النيابية .. هذه الدعوة تلقفها تلاميذه بجامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - لتنتقل إلى بقية الجامعات العربية في كل قطر عربي.

ويقول - أي الأسد - : إن جوهر كتاب «في الشعر الجاهلي» ومنهجه المتكامل تتضح معالمهما وتتعمق في العقول والنفوس فهمًا وتطبيقًا، وما كتب أديب أو كاتب بعد ذلك إلا كان امتدادا لما كتب طه حسين سواء خالفه في بعض آرائه أو أيده، وهذه المخالفة مساوية لذلك التأييد، وهو ما يدل على عمق الكتاب وبُعد تأثيره في الدراسات الأدبية. ويضيف : «إن الكتاب مثل صارخ على حرية الرأي، إنه يقدم نموذجًا حيًا ورائعًا لأستاذ الجامعة الذي يتحدى السكون والركود في الحياة الأدبية في الجامعة أو في خارجها.

وإذا كان رأي الدكتور ناصر الدين الأسد أقرب إلى الموضوعية في جوانب كثيرة إلا أن رأي العلامة محمود محمد شاكر كان حادًا وعنيفًا .. وهو ما تراجع عنه بعد وفاة طه حسين حيث نقرأ مقدمة كتاب المتنبي وتحت عنوان : «قصتي مع الشعر الجاهلي». يعترف بأن الذي فتح عينيه على سطو الدكتور طه حسين على مقالة مرجليوث هو أحمد باشا تيمور، كما يعترف بأن الذي نبهه إلى أن الدكتور طه حسين لم يتأثر بمنهج ديكارت في كتاب «في الشعر الجاهلي» هو زميل له بالسنة الأولى فلسفة وهو الأستاذ محمود محمد الخضيري، مؤكدًا هذا الأخير أن ما يقوله الدكتور طه حسين عن هذا المنهج كذب وافتراء، ولا يكتفي

هذا الطالب – أي الخضيري – بذلك ، وإنما يتهم طه حسين في كتابه بأنه سطا على مقالة المستشرق الإنجليزي مرجليوث وكأنه رجع إلى الكتاب والمقال وقارن أحدهما بالآخر !! وهو ما لم يحدث وإنما اعتمد على ما يقوله الأستاذ شاكر .

ولا عجب أن يشارك شاب في هذه الضجة ابتغاء الشهرة ، لكن العجيب والغريب أن يتأثر الأستاذ شاكر بذلك ، بالضبط كما تأثر من قبل برأي أحمد باشا تيمور حيث إن منهج شاكر في البحث يختلف كثيرا عن أساليب طالبي الشهرة على حساب طه حسين. وفي كل من الأمرين معرفة مبنية على السمع وليس القراءة والتمحيص ولعل هذا هو سبب العجب . وربما يكون ذلك سببًا في قوله بأنه أعرف الناس بعلم وفكر وإخلاص طه حسين، وحرصه الشديد على لسانه العربي وثقافته العربية القديمة ، وهو ما اعترف به بعد وفاة طه حسين بعام واحد ، وذلك في عام 1974 في مقال له بمجلة الكاتب المصرية.

* * *

وفي تصديره لكتاب «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» يبدي المفكر العربي الكبير عبد الرحمن بدوي الكثير من الدهشة لهذه الحملة الشعواء التي أثيرت حول هذا الكتاب وليس لها من داع أو سبب ، ثم يأتي بأدلة جديدة تدحض أقوال الذين كتبوا عن هذا الكتاب ، هذه الأدلة تخطو خطوات بالبحث العلمي كما سنرى بعد ذلك ، معتمدًا في ذلك على ما قام به من ترجمة لمقالة مرجليوث عن نشأة الشعر العربي» ضمن ترجمته لبقية مقالات المستشرقين حول هذا الشعر ، حيث رأى – أي الدكتور بدوي – أن الدكتور طه حسين تأثر بالثقافة العربية لنقاد العرب الأقدمين وأدبائهم في الشك في صحة الشعر الجاهلي ، وفي مقدمتهم محمد بن سلام الجمحي ، وعقد مقارنة علمية بين شك طه حسين وشك الجمحي ، نتج عنها أن طه حسين كان متأثرًا كغيره ممن تناولوا الشعر الجاهلي عربًا كانوا أو أجانب بمن فيهم مرجليوث وغيره من المستشرقين الذين تصدوا لقضية في الشعر الجاهلي .. جميعهم تأثروا بابن سلام الجمحي ، مؤكدًا أن المنبع واحد وهو ما سنراه بعد قليل .

* * *

وفي كتابه «بين القديم والجديد .. دراسات في الأدب والنقد» يذهب الدكتور إبراهيم عبد الرحمن إلى أنه أتى بخطوه جديدة على طريق تطوير قضية البحث في الشعر الجاهلي حين نبه إلى أن طه حسين قام بفرز الشعر الزائف الذي دخل إليه عن طريق الرواة والقصاصين وغيرهم من الشعر الأصيل ، بمعنى أن الدكتور طه حسين لم ينكر الشعر كله كما فعل مرجليوث الذي أنكر الشعر الجاهلي جملة وتفصيلًا ، وإنما أنكر جزءًا كبيرًا منه . وحتى لو كان هذا الجزء الملغي أو الزائف كبيرًا والآخر قليلًا.. إلا أن ذلك يثبت بصورة أو بأخرى اختلاف وجهة نظر مرجليوث عن وجهة نظر الدكتور طه حسين . وهذا هو الفارق بين مقالة مرجليوث وكتاب طه حسين . هذا إلى جانب استحداثه مقياسًا به يمكنه من الكشف عن الشعر الحقيقي من الشعر الزائف .

كذلك يشير الدكتور إبراهيم عبد الرحمن في صفحات كتابه عن اكتشاف مقالة لمرجليوث نفسه كتبها عام 1927 مندهشًا لهذه الضجة المثارة بالقاهرة ضد كتاب «في الشعر الجاهلي» وصاحبه طه حسين هذه المقالة كان قد عثر عليها الباحث الكويتي عبد الله المهنا . والتي تعتبر أهم خطوة لتبرئة طه حسين من تهمة السطو والسرقة كما سنرى بعد ذلك .

وفي كتاب «قضايا الأدب الجاهلي والدرس الأدبي المعاصر» يكتب الدكتور محمد أبو الأنوار بعنوان : «حديث الوثائق بين إنصاف البحث العلمي وإنصاف طه حسين» فيه جوانب جديدة تطور البحث في قضية الشعر الجاهلي . داعيًا الباحث لفكر طه حسين أن يعيد النظر في آرائه وبقية مقالاته . بل وما كتبه عن الشعر الجاهلي قبل كتابه الأشهر بأكثر من عشر سنوات حول وجود الخنساء مما يمكن أن يكون تمهيدا أو تقدمة لما كتبه عن الشعر الجاهلي ، وعلى هذا فربما نبه الدكتور أبو الأنوار إلى سمة من سمات البحث عند الدكتور طه حسين لم يتنبه إليها غيره من المهتمين بقضية الشعر الجاهلي ، وهي أنه إذا ما كتب عن شيء لا يرد إليه بعد كتابته وإنما ينصرف إلى غيره من الأبحاث . وفي قضية الشعر الجاهلي كتب بعض الكتابات والمؤلفات التي تعدل من موقفه في كتابه .

«في الشعر الجاهلي» خاصة في كتابي «مرآة الإسلام» و«حديث الأربعاء» ولذلك فإن من يريد بحثًا متكاملًا عن طه حسين عليه أن يقرأ إلى جانب الكتاب موضوع القضية كتبًا ومؤلفات أخرى لطه حسين . ولو فعل الباحث ذلك فسوف يكتشف جوانب كثيرة في قضية الشعر الجاهلي ، وهو ما نلمحه في الصفحات التالية وربما أشار إلى ذلك كل من الأستاذ محمود شاكر والأستاذ رشدي صالح في مجلة الكاتب عام 1974 .

* * *

وفي كتاب «طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام» للأستاذ أنور الجندي ، والذي تمت مناقشته على صفحات الأهرام في عام 1982 ، وهو ما سجلناه في الصفحات السابقة. إلا أن ما يندهش له المرء أن ينصب المؤلف من نفسه قيمًا يزن حسنات وسيئات طه حسين في ميزان الإسلام . إنني أفهم أن هذا الميزان قد يصلح في مجال الأدب أو النقد أو الثقافة أو حتى الفكر بوجه عام . ولكن أن يستخدم في تقييم عمل الإنسان فيما يخص دينه وعقيدته فهذا أمر صعب ، وربما مستحيل ، فقد يبدو الإنسان على غير ما يضمر ، ولا يعلم ذلك إلا الله سبحانه تعالى . أما نحن البشر فليس مسموحًا لنا أن ندخل قلوب البشر ونفتش فيها عن الإيمان أو غيره .

* * *

وأما كتاب «حضرات الزملاء المحترمين» للأستاذ ناصر الدين النشاشيبي ، فقد يأخذ المرء عليه أنه يعتبر طه حسين من حضرات زملائه من الصحفيين ، وهذا خطأ بيِّن وواضح، إذ إن طه حسين وجيله يعتبر من الأجيال السابقة على النشاشيبي وأمثاله ، وربما كان يقصد أنه كرئيس تحرير للجمهورية في وقت كان طه حسين يتقدم كل رؤساء هذه الصحيفة!! ولكن هذا لا يسمح له بأن يعتبره من حضرات زملائه . فطه حسين يحسب على طائفتي الأدباء والنقاد ، وعلاقته بالصحافة هي علاقة الأديب أو الناقد بالصحف يكتب مقاله ويذهب وربما يكتب في أكثر من صحيفة ولا يحاسب على ذلك ، فهو كاتب حر لا تلزمه الصحيفة التي يكتب فيها بأن لا يكتب في غيرها على سبيل الاحتكار لفكره..

فهذا لا يحدث مع طائفة الأدباء والنقاد أو الكتّاب من الخارج، لأن هؤلاء لهم مسمى في العمل الصحفي هو «مصاحف» أو يعمل في أكثر من صحيفة هذه واحدة.

أما الثانية فكيف ينصِّب الأستاذ النشاشيبي من نفسه قاضيًا ومهاجما، يقضي ويهاجم طه حسين ويتهمه في أدبه وفكره ونقده!؟ وهو - أي النشاشيبي - ما لم يحدث أن رأينا له عملًا نقديًا طوال عمله الصحفي. إن عذر الأستاذ النشاشيبي هو أنه لا يستطيع أن يتحكم فيما يكتب فنراه في هذا الكتاب لا يخص طه حسين بالتهجم وحده، وإنما خص غيره من عمالقة الصحافة والأدب والنقد والفكر .. فخصهم جميعًا بهذه الشتائم والسخائم. التي ليس ما يبررها إلا أنهم كانوا يتعاملون أو يعملون في المهنة التي ابتليت بأمثال هذا النشاشيبي.

* * *

وأما كتاب «طه حسين في ميزان العلماء والأدباء» للأستاذ محمود مهدي الاستانبولي فأكبر خطأ وقع فيه أنه حين وضع طه حسين في ميزان عدد من الأدباء والعلماء كي يقيِّموا فكره وعلمه وأدبه، حيث اختار الجانب المعارض تمامًا لفكر وأدب طه حسين، وكأن غير هذا الجانب لا يتشرف بكرامة العلم والأدب. مع أنه كان ينبغي أن يختار الجانبين معًا - المعارض والمؤيد - حتى يكون الحكم على فكر وعلم وأدب طه حسين حكمًا موضوعيًا.

وإذا كان الأساس في منهجه على هذا النحو المتحيز فلا يندهش المرء بعد ذلك من الأحكام التي تطلق في هذا الكتاب، وكأنه لا يريد أن يترك نقيصة إلا ولصقها بطه حسين وعلمه وأدبه. مع أن هذا النوع من الكتابات المتحيزة لجانب ضد آخر تكون عادة في صالح المستهدف لها. ولذلك لا نستغرب من أن طه حسين أحرز ما أحرز من علو شأن في وجود مثل هذه الكتابات التي ارتفع عليها.

* * *

وكتاب «طه حسين الجريمة والإدانة» للأستاذ جابر رزق. الذي كان محررًا بمجلة الإذاعة والتليفزيون والذي لم يعرف عنه اهتمامه بالأدب والنقد حتى يجعل من كتابه

محكمة تدين طه حسين على ما تصوره من جرائم . هذا إلى جانب أن الكتاب لا يتسم بمنهج يفيد ويوضح له ما يريده الكاتب ، وإنما هو عبارة عن مجموعة أعمال صحفية مثل الأحاديث والمقالات لا يجمعها رابط سوى أنها تهاجم طه حسين وتتهمه بأبشع الاتهامات التي أقلها اتهامه بالسطو والسرقة ، وأكبرها اتهامه بالكفر والإلحاد . والأخيرة لابد أن يهتم بها صاحب هذا الكتاب (الأستاذ جابر رزق) كصحفي فني بمجلة الإذاعة والتليفزيون . فهو يخوِّل لنفسه الحكم على عقائد الآخرين وكأنه دخل قلوبهم وفتش فيها عن الإيمان .. وهو أسلوب تعودناه من الجماعات الدينية المتطرفة أن يتصور الواحد منهم أن بحوزته مفاتيح الجنة ، يدخل فيها من يريد ، ويمنعها عمن يريد .

كان الأكرم لمعد هذا الكتاب «الأستاذ جابر رزق» أن يلتزم بمنهج موضوعي دقيق، وأن يكون محايدًا في نقله لآراء وأحاديث ومقالات الآخرين . وأن لا يعتدي بالقول الجارح على كتّاب هم بمثابة الأساتذة له فيصف كتاباتهم بنباح الكلام . فهل هذا هو الإسلام الذي ننتمي إليه جميعًا؟! ، وأن لا يكثر من مغازلة رئيس تحريره في إطار عمل المفترض فيه أن يكون جادا منزها .

* * *

تأتي بعد ذلك المقالات بالصحف والمجلات ، مهاجمة كتاب «في الشعر الجاهلي»، بأسلوب لا يختلف كثيرًا عما جاء في الكتب التي تعرضنا لنماذج وأمثلة منها . فأغلب أصحاب هذه المقالات لم يقرأ نص كتاب طه حسين بل اعتمد في كتابته على هذا الكتاب بما ورد في تعليقات الكتب من آراء حول الكتاب دون قراءة الكتاب نفسه ، وهو ما صرح به الدكتور طه حسين لمجلة الأنفورمسيون الفرنسية بالقول بأن 98 ٪ من الذين يهاجمونه لم يقرأوا كتابه ، وضرب مثلًا بذلك هو هذا الشيخ الذي يطلب منه نسخة من الكتاب ليقرأه ، على الرغم من أنه سبق أن وقع على وثيقة تدين طه حسين وتطالب باستبعاده من التدريس الجامعي ، بل والحياة العلمية بصفة عامة بسبب هذا الكتاب الذي لم يقرأه حتى يحكم عليه بذلك .

ومثل آخر هو أنه حين قام الشيخ عبد المتعال الصعيدي باتهام الدكتور طه حسين بالسطو والسرقة من المستشرق الإنجليزي جرجس صال وما كتبه عن النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام دون أن يكون قد قرأ النص الأجنبي للكتاب أو حتى النص المترجم كاملًا ، وإنما اكتفى بعبارة غير موصولة بما قبلها أو بما بعدها ، ومثل في ذلك كمثل الذي يتلو الآية الكريمة ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [(1)] ، ثم يصمت .

ومثل ثالث نعتذر للأستاذ عبد المتعال الصعيدي كأحد علماء الأزهر أو غيره من الكتّاب والأدباء والمفكرين أن نجعله معهم في سلة واحدة . وهو هذا المتستر باسم «أبو حيان» الذي يسمح لنفسه أن يتهكم على قامة فكرية وأدبية مثل طه حسين ، حيث يتهجم عليه ويصفه بأسوأ الأوصاف مما لا يكون مكانه في مجالات الأدب والفكر والثقافة ، وإنما في ساحات المحاكم . لأن ما كتبه في صحيفة القبس الكويتية لا يمكن وصفه إلا بأنه سب وقذف ، وقد أوردنا سطورا منه ، حتى يقف القارئ على أمثلة له تجاوزناها حيث إنها تحت مستوى النقد ، ولكننا لا نلغيها من حياتنا الثقافية في الأقطار العربية. هؤلاء لا تعنيهم الكتابة الموضوعية بقدر ما يعنيهم التشهير بالكبار تحقيقًا للشهرة والمال. ووجودهم وما يكتبونه بالتأكيد يعلي من شأن القمم الموجودة في حياتنا ، وعلى صفحات ما يكتبونها يرتفع الدكتور طه حسين ويخلد .

(1) سورة النساء : آية 43 .

الباب الثالث

تطورات البحث في قضية الشعر الجاهلي ونتائجها

وبعد أن عرضنا كتاب «في الشعر الجاهلي» وتعرفنا على نظرية مؤلفه الدكتور طه حسين في الشك، ومنهجه في البحث، ودوافع شكه في شعر وشعراء العصر الجاهلي وأسباب الانتحال في الشعر العالمي بصفة عامة، والشعر الجاهلي بضفة خاصة، والصدى الذي أحدثه هذا الكتاب منذ نشره عام 1926، متمثلًا في نقد العلماء والأدباء والنقاد والمفكرين، وانتقال هذا الصدى من مجالات النقد والأدب والعلم، إلى المجالات السياسية سواء على مستوى الأحزاب أو في تناول الصحافة والهيئة التشريعية ممثلة في مجلس النواب قبل رحيل طه حسين عام 1973 ثم استمرار هذا الصدى بعد رحيله إلى اليوم، وتسجيل هذه الردود ومناقشتها .. نصل الآن إلى أن البحث في هذه القضية قد تطور، وأن تطور هذا البحث كان في صالح طه حسين كما سنرى. أما كيف كان ذلك فعلينا أن نتتبع مراحل هذه القضية من بدايتها منذ أكثر من ثمانين عامًا إلى اليوم، وما اتصل بها من تداعيات وملابسات، أخذ ورد، قبول ورفض، تأييد ومعارضة.. وغير ذلك من أحداث صنعت من هذا الكتاب وما يتضمنه أكبر قضية أدبية في القرن العشرين، بل أكثر من ذلك وأهم فقد أحدث هزة في الفكر العربي لا مبالغة إن قلنا إنه قد تسبب في إحداث ثورة ثقافية، وحيث وضع حجر الأساس لما يعرف بالنقد الفيلولوجي في حياتنا الثقافية والعلمية بادئًا بالدراسات الأدبية والفنية والإبداعات الشعرية حيث يتم تقويمها وفقًا للنظرية التي استحدثها هذا الكتاب، والمنهج الذي استخدمه في البحث والذي يستمر العمل بهذه النظرية وذلك المنهج إلى اليوم. ولهذا ولغيره من أسباب نقول إن هذا الكتاب وما جاء به قد أحدث ثورة في ثقافتنا أوجدت حركة هائلة في ركودها وسكونها.

■ 1 ■

تحليل أفكار كتاب في الشعر الجاهلي ومناقشتها

ولعل نقطة البدء في ذلك تكون عند عام 1926 .. فماذا نرى ؟

نرى الحياة في مصر غير مستقرة ، أحزاب تتنافس وتتصارع ، ووزارات تقال وتستقيل، البلاد تمر بأزمات طاحنة ، سيطرة دكتاتورية الأقليات السياسية ، انتهاء ثورة 1919 بتصريحات شكلية حول الجلاء والاستقلال ، والأكثر اكتفاء الحركة الوطنية بهذه الشكليات ، وما جسدته من نكسة كبيرة لهذه الحركة التي راح ضحيتها المئات ، ونتيجة لذلك تسير البلاد في حالة خضوع للاستعمار والسراي وأعوانهما ، فترة يعطل فيها الدستور ، ويضيّق على الحريات ، هذا إلى جانب أزمة شكلية طارئة مصدرها الخلاف بين الزعيمين «سعد زغلول وعدلي يكن»، وكيف أن هذه الأزمة سيطرت على الحياة السياسية ، وجرفت القضية الأساسية إلى غمار من المنازعات والخصومات الشخصية، وطبعت الأحزاب بطابع المهاترات اللفظية التي لا تستند إلى فكر واضح أو رؤية مستنيرة. ويزداد الأمر تردِّيًا حين يتمسك كل من زعيمي الأمة سعد زغلول وعدلي يكن بحقه في رئاسة وفد المفاوضات مع الإنجليز .. سعد زغلول يرى أنه الأحق كزعيم للأمة، وعدلي يكن يرى أنه الأحق كرئيس للوزراء .

وفي الجانب الآخر .. الحياة العلمية بمصر .. لم تزل بعد ، تتلمس خطواتها ، فسنة واحدة مضت على تحويل الجامعة من أهلية إلى حكومية عام 1925 ، لا تقدم ثمرة ناضجة من العلم ، ولا تفرز وجهات نظر تستطيع من خلالها مواجهة مثيلاتها خارج أسوار الجامعة .

وطبيعي أن يشعر الدكتور طه حسين بما يدور حوله ، ولكنه كأستاذ جامعي ، يلتزم الصمت ، إيثارًا للسلامة ، وبعدًا عن المتاعب ، خاصةً وأنه كان من غير المرغوب فيهم لدى بعض الأوساط الحزبية والسياسية ، فينصرف إلى العلم الذي من أجله سافر ودرس واستفاد وعاد ليفيد . وتقتضيه مهمة التدريس أن يحاضر في جانب من جوانب الأدب العربي وهو الشعر الجاهلي . وأن يستخدم في سبيل ذلك أسلوب التساؤل الذي عرفت به كتاباته النقدية قبل السفر ، إلى جانب ما تعلمه من مناهج حديثة للبحث بعد السفر ، والتي بفضلها تقدمت الأبحاث في الأمم الأخرى . ومن هذه المناهج ، منهج الشك الديكارتي الذي يقتضيه أن يشك فيما يصله من آثار أدبية في العصور القديمة ، ومنها العصر الجاهلي ، حتى يصل إلى حالة من اليقين لا يكون بعدها أي شك . أو حتى على الأقل الوصول إلى حالة من الرجحان .

يضاعف من إيمانه بهذا المنهج ، ما استخدمه سلفنا الصالح من المسلمين الأقدمين في أمور غاية في الأهمية ، كالأحاديث النبوية الشريفة ، حيث بحثوا في هذا الكم الهائل منها ، ليستخرجوا الصحيح من غير الصحيح أو المشكوك فيه . ولعل ملامح هذا المنهج العربي الإسلامي قد بدت فيما كتبه طه حسين بمجلة السفور عام 1915 في صفحات مطولة أنكر فيها شخصية الخنساء وشعرها متسائلًا : هل هذه السيدة شخص تاريخي نستطيع تبين شعرها في حينه؟ ويجيب لا . لأن أشعارها وأخبارها ، وحوادث حياتها لم تدون إلا بعد أن قضى على وجودها أكثر من قرن ، ومعنى هذا أن منهج الشك في الشعر بدأ عند طه حسين قبل كتابة محاضراته أو تأليف كتاب «في الشعر الجاهلي» بأكثر من عشر سنوات .

ويزيد من حماس طه حسين لدراسة الشعر الجاهلي وفق هذا المنهج .. اعتقاده أن الجامعة قلعة نقدية تقود المجتمع – على الأقل – في الدراسة والبحث ، وأن من تقاليدها أن تتخذ البحوث فيها طابع الحرية في التفكير ، كما تعلم من جامعات أوروبا .

وتأسيسًا على ذلك بدأ في دراسة نصوص الشعر الجاهلي بأسلوب خلاصته أن يكون عقله مجردًا من كل المؤثرات ، شاكًا في كل ما يصله عن هذه الآثار الأدبية . حتى يصل

إلى نتائج يقرها العقل ، وتثمر دراساته المحاضرات التي جمعها في صفحات كتاب «في الشعر الجاهلي» الذي يستهله بالإشارة إلى صلب منهجه قائلًا : «أريد ألا نقبل شيئًا مما قاله القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت ، إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان» .

وكان من بين الطلاب الذين يتلقون هذه المحضارات في العام الدراسي (1925 – 1926) طالب في السنة الأولى قسم اللغة العربية بكلية الآداب / محمود محمد شاكر، ابن الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر الشريف . هذا الطالب كان قارئًا للشعر متذوقًا له . أمرًا جعله يلتحق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب . رغم أنه كان مؤهلًا للالتحاق بإحدى الكليات العلمية . هذا إلى جانب أن هذا الطالب كان على اتصال دائم بشيوخ زمانه ومنهم أحمد تيمور باشا ، الذي كان يشجعه على القراءة ويثني على تذوقه للشعر . وفي ذات يوم كما يروي الأستاذ محمود شاكر بمقدمة كتاب« المتنبي قائلًا : «التقينا على عادتنا سنة 1925 في المكتبة السفلية ، فلم يكد يجلس – أي أحمد تيمور – حتى مد يده إليَّ بعدد من مجلة إنجليزية (عدد يوليو 1925 من مجلة الجمعية الملكية الأسيوية) وقال لي وهو يبتسم : اقرأ هذه ! فإذا فيها مقالة للأعجمي المستشرق مرجليوث ، تستغرق نحو اثنتين وثلاثين صفحة من هذه المجلة ، بعنوان : نشأة الشعر الجاهلي . يشك فيها في صحة الشعر الجاهلي ، بل إن الشعر الجاهلي الذي نعرفه ، إنما هو في الحقيقة شعر إسلامي ، وضعه الرواة المسلمون ، ونسبوه إلى أهل الجاهلية» .

ولأمر ما وقر في نفس هذا الشاب المتحمس الذي عرفناه فيما بعد بالعلامة محمود محمد شاكر ، بإيعاز من أحمد تيمور باشا جعله يعتقد أن طه حسين سرق نظرته في الشعر الجاهلي التي كان يحاضرهم فيها بقسم اللغة العربية بكلية الآداب من مرجليوث . هذا المستشرق الإنجليزي ومقالته بمجلة الجمعية الملكية الأسيوية .

وبدأ محمود شاكر – رحمه الله – في التشكيك بما جاء به طه حسين من بحث حول هذه القضية ، سواء بمواجهة طه حسين نفسه ، عن طريق الأسئلة داخل قاعات الدرس، أو في إبلاغ الأساتذة والزملاء داخل الجامعة وخارجها .

وكان يمكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحد في حدود قاعات كلية الآداب أو حتى داخل أسوار الجامعة . إلا أنه انتقل إلى خارج الجامعة ، حين عرف به الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، الذي كان على خلاف دائم مع طه حسين ، لأسباب شخصية منها نقد طه حسين لكتب الرافعي وعدم الاعتراف بها ، ومنها أن الرافعي كان يستكثر على الدكتور طه حسين أستاذيته للأدب العربي بالجامعة المصرية الجديدة ، ويرى أنه هو الأحق ، ومنها أيضًا أن الاثنين كانا على طرفي نقيض . طه حسين كان ممثلًا للجديد ، بينما الرافعي كان ممثلًا للقديم . وشتان بين الفكرين .. وغير ذلك من أسباب أغرت الرافعي وقتئذ أن يهاجم طه حسين ويتهمه بشتى التهم تصفية لحسابات قديمة ؟!

وما هي إلا أيام قلائل ، بعدها يعلن الأستاذ / الرافعي أن صاحب المتقطف أبلغه (وتحت كلمة أبلغه أريد أن أضع عشرات الخطوط لأهميتها كما سنرى) أن أحمد تيمور باشا لديه مجلة إنجليزية بها مقال للمستشرق الإنجليزي مرجليوث ، سرقه طه حسين. ومعنى هذا أن المصدر واحد هو أحمد تيمور الذي أوعز لمحمود شاكر لكي ينشره داخل الجامعة ، ثم للرافعي ليروجه خارج أسوار الجامعة . وقد كان المجتمع الثقافي محدودًا بمصر في ذلك الوقت ، وأي شيء يحدث فيه يتضح ويظهر ، وليس كالمجتمع الآن ، والذي تتوه فيه الأحداث خاصة لو كانت أدبية .

وهكذا يتحول الاهتمام بما جاء في محاضرات عن الشعر الجاهلي يلقيها الدكتور طه حسين على ما يقرب من مائتي طالب في قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، كعمل علمي يناقش داخل قاعات الدرس ، إلى قضية تثير الجدل بين الأوساط الثقافية وقتئذ، وتكون الطامة الكبرى حيث ينشر طه حسين هذه المحاضرات في كتاب عنوانه : «في الشعر الجاهلي» وقبل مناقشة هذا الرأي للأستاذ الرافعي وعلاقته بالمعرفة السماعية ينبغي أن نتفق على أن المعرفة بالسماع شر بكل ما تعني هذه الكلمة من معانٍ ، يكفي شر هذه المعرفة أن يصورها صاحبها على أنها معرفة حقيقة تنتقل من شخص إلى آخر دون العودة إلى الأصول ، والأكثر أن تبنى على هذه المعرفة السماعية أحكام خاطئة ، والأخطر أن تمثل هذه المعرفة خداعًا بالنسبة للقارئ العادي الذي لا يملك استعدادًا

ثقافيًا يؤهله لفرز الأصيل من الدخيل . وتكون النتيجة حمله على تصديق ما تتضمنه هذه المعارف السماعية من أحكام ظالمة مرة باسم الدين والغيرة عليه ، ومرة باسم العلم والدفاع عنه ، ومرة باسم القومية والانتماء إليها .. وهكذا تنتقل هذه المعرفة من شخص إلى آخر ، بل وتتجاوز الحدود حين تصبح - وهي في الأصل خداع ووهم - مصدرًا يرجع إليه الباحث .

وقد أضير الكثيرون من مفكرينا بسبب شيوع هذا النوع من المعارف ، وفي مقدمة من أضيروا عميد الأدب العربي طه حسين ، فكان لا يكتب شيئًا ، إلا ويحملِّه البعض أكثر مما يحتمل ، ثم تنتقل هذه المعرفة في شكلها الجديد من مصدر لآخر ، حتى تنتشر وتصبح كالحقائق .

ومن أمثلة هذا الأسلوب مع كتابات الدكتور طه حسين ، ما حدث لكتابه «في الشعر الجاهلي» ، حيث عامل البعض هذا الكتاب بشكل يجانب كل ما تعارف عليه العلم من موضوعية في الحكم أو حتى دقة في النقل . واتهم صاحبه باتهامات ظالمة منها السطو والإلحاد . ولقد كان الكاتب الأشهر مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - أول من تولى كبر هذا الهجوم المكثف على الدكتور طه حسين في كتابه «تحت راية القرآن»، الذي صدر عام 1926 ، حيث تقرأ في صفحتي 190 ، 191 ، مثالًا صارخًا للمعرفة بالسماع حين يقول : «لقد أخذ - يقصد طه حسين - فكرة الشك في شعر الجاهلية عن المستشرقين أيضًا . فقد كان قد حدثنا (مجرد حديث) الأستاذ العلامة صاحب مجلة المقتطف - يقصد فؤاد صروف - نقلًا عن أحمد تيمور باشا - في شهر سبتمبر من السنة الماضية أن مجلة الجمعية الآسيوية نشرت بحثًا للشيخ مرجليوث المستشرق الإنجليزي المعروف ذكر فيه عدم صحه الشعر الجاهلي (معرفة بالسماع) ، ثم ساق لنا الأستاذ بعض أدلته فلم نجد فيها مقنعًا ولا رضًا ، وقلنا : رأى في العلم لا علم .. ولما فتحت الجامعة، إذ المستر طه حسين ينتحل الفكرة ويدعيها (معرفة بالسماع) ويبوِّب لها أبوابا ، ويفصِّل فصولًا ، ويدرِّس ذلك في الجامعة» .

ويستطرد الأستاذ الرافعي في حديثه فنقرأ بعد سطور قليلة شغلها بسيل من الهجوم على الجامعة المصرية الجديدة التي تختار طه حسين أستاذًا بها ولا تختاره هو . ونسي في هذه السطور وما بعدها القضية الخطيرة التي كان قد فجَّرها ، وهي قضية سطو طه حسين على مقالة مرجليوث لينتقل فجأة إلى عقد مقارنة بين نظرة طه حسين للشعر الجاهلي ونظرة ابن سلام الجمحي (134 – 231 هـ) ، وتستغرق هذه المقارنة صفحات من بعدها تبدو حقيقة مر عليها الكثيرون من أنصار طه حسين ومعارضيه مرور الكرام ، وهي أنه أي طه حسين متأثر في نظرته للشعر الجاهلي بابن سلام ، وليس بهذا المستشرق الإنجليزي باعتراف الرافعي نفسه .

ثم يسجل الأستاذ الرافعي بعض العبارات من كتاب «في الشعر الجاهلي» ولا نعرف هل رجع إلى الكتاب أم أن أحمد تيمور باشا أوعز فيها لهم بجعلها – عن قصد – غير مرتبطة بما قبلها أو ما بعدها . حتى تحمل المعنى الذي يريده على طريقة «لا تقربوا الصلاة» أو يذكر ما تتضمنه عبارات الكتاب بالصورة التي يريدها هو ، حتى يكون هناك تبرير للهجوم المكثف على الكتاب وصاحبه .

والغريب أن هذه العبارات .. تنقل عن الرافعي نقلًا حرفيًا على أنها عبارات من صلب كتاب طه حسين . في الكثير من الكتابات القديمة والمعاصرة التي يحلو لها التهجم على طه حسين ، دون الرجوع إلى كتابه الأصلي أو إلى مقالة مرجليوث . إما استنادًا إلى أن هذه العبارات حذفت مع غيرها في الطبعة الثانية ويتعذر الرجوع إليها ، أو قصدًا للهجوم على الكتاب وصاحبه بنفس أسلوب الرافعي ، أو تقاعسًا وكسلًا عن مواصلة البحث عن المعرفة في مظانها الأولى مهما كانت المشقة .

لكن الأغرب من ذلك أن يسجل الأستاذ الرافعي ما يشكك في اتهامه لطه حسين بالسطو ففي ص 229 من الكتاب نفسه «تحت راية القرآن» حيث يقول : «قبل أن يجري القلم في هذه الكلمة نصحح قولًا جئنا به في بعض ما كتبناه ، فقد ظننا أن أستاذ الجامعة – يقصد طه حسين – أخذ فكرة الشك في شعر الجاهلية عن المستشرق مرجليوث .

ولكن أحد الفضلاء نبهنا (معرفة بالسماع) إلى أن هذه الفكرة من آراء مستشرقي الألمان، وهي مبسوطة بكثير من أدلة طه حسين ..» . وهذه حقيقة أخرى لم يتنبه إليها الكثيرون ممن ناقشوا الكتاب .

وانظر عزيزي القارئ إلى اتهامات كهذه تلصق بأستاذ جامعي كطه حسين ، لمجرد أن كاتبها الرافعي قد سمع بها من صاحب صحيفة المتقطف ، الذي سمع بها من ثالث هو أحمد تيمور باشا . ألا تقتضي من هؤلاء استقصاءًا ، أُولىَ خطواته مطابقة ما كتبه كل من طه حسين ومرجليوث ، ودراسة نظرة طه حسين للشعر الجاهلي في إطار الثقافة العربية، وهل هو حقا متأثر بابن سلام ؟ وتوكيد مسألة الشك في الشعر الجاهلي ، وهل هي في الأصل من أعمال العرب الأقدمين ، أم أنها كانت من أعمال غيرهم ؟ وهل المستشرقون كانوا عالة على العرب ، أم أنهم كانوا مكتشفين مبتكرين لهذه النظرية النقدية؟ إلى آخر هذه التساؤلات .

والسؤال الآن : لماذا تحامل الأستاذ الرافعي كل هذا التحامل على طه حسين؟ لدوافع شخصية أفلت سرها من الأستاذ الرافعي نفسه فذكر في ص 108 من كتابه «تحت راية القرآن» أن طه حسين هاجم ثلاثة من كتبه هي : «رسائل الأحزان» و«حديث القمر» و«الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب» الذي هاجمه طه حسين بقوله : «وهذا الكتاب كسابقيه نشهد الله على أننا لم نفهمه أيضًا» . وبديهي أن يمثل هجوم طه حسين على الرافعي إلى جانب خيبة أمل الرافعي في أن تضمه الجامعة الوليدة إلى هيئة تدريسها حيث لم يكن مؤهلًا علميًا لأستاذية الجامعة كما هو معروف إذ على الأقل يكون صاحب شهادة عالية حيث كان رحمه الله لم ينل أي قسط من التعليم سوى في المدارس الابتدائية واختيارها لطه حسين المؤهل لذلك لحصوله على الدكتوراه مرتين مرة بمصر والأخرى في فرنسا . كل ذلك وغيره أوجد لدى الرافعي أسبابًا ومبررات ودوافع للهجوم على طه حسين .

وإذا كان للرافعي وهو كاتب ما أشبهه بالقلعة المحصنة - التي تخرج منها قذائف الهجوم ولا تدخل إليها أي أسلحة للدفاع - دوافعه ومبرراته .. فكيف ينطبق ذلك على من تأثر به من الكتاب والنقاد والأدباء المعاصرين ونقل هذه الأقوال عنه؟ كيف يهاجمون طه حسين في عقيدته ويرمونه بالكفر والإلحاد لمجرد معرفة بالسماع ؟

وحتى حين يعلن طه حسين - في خطاب للجامعة - بأنه لم يرد بما كتبه إهانة الدين أو الخروج عليه لا يصدقه الأستاذ الرافعي ويهاجمه قائلًا : «هو تراجع المضطر المستذل». وينتقل ذلك الأسلوب إلى غيره من الكاتبين وكأنهم قد دخلوا في قلبه وفتشوا فيه عن الإيمان أو غير الإيمان ، ومن ذا الذي يملك أن يفتش في القلوب ويعرف أسرارها غير الله سبحانه وتعالى؟!

أقول وإذا كان للأستاذ الرافعي عذره غير المقبول في أنه لم يقارن ما كتبه طه حسين بما كتبه مرجليوث بالإنجليزية لسبب أو لآخر ، فما هو عذر الناقلين عنه؟! ما عذرهم وقد تقدم البحث العلمي خطوات في هذا الموضوع بشكل أثبت براءة طه حسين من تهمة السطو التي قال بها الأستاذ الرافعي ؟! وما عذرهمْ وقد صدرت في هذا الشأن كتابات لعلماء ومفكرين عرب لا يشك أحد في دفاعهم عن الإسلام وانتماءاتهم للعروبة، ومنهم الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي أصدر كتاب «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» فيه ترجمة كاملة لمقالة مرجليوث وتعليق منه ينفي هذا الاتهام ؟! ثم ما عذرهم بعد ظهور الدليل الحاسم فيما كتبه مرجليوث نفسه عام 1927 بالمجلة التي نشر فيها مقاله عن الشعر الجاهلي مؤكدًا عدم وجود أية صلة بين ما كتبه طه حسين وما يكتبه هو عن هذا الشعر؟!

ليت ما حدث لكتاب «في الشعر الجاهلي» يكون درسًا مفيدًا للذين يستخدمون المعرفة بالسماع في أعمالهم يقول لهم : «خذوا المعرفة من مظانها ومصادرها الأولى».

وليتنا ندرك خطورة هذا النوع من المعرفة التي تعتمد على السماع وليست المعرفة الموثقة ، وأعتقد أن هناك ضحايا كثيرين لهذه المعرفة التي أصبحت كالآفة في كل حياتنا وليست الثقافية فحسب ، بل والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

أقول وهكذا تتجاوز هذه القضية معناها الحقيقي وهو العلمي والثقافي لتكون قضية فكرية وسياسية تثير الجدل في طول البلاد وعرضها ، وأن تقوم الدنيا ولا تقعد كلما أثيرت هذه القضية فيستغل خصوم طه حسين ، ما يسمعونه عن الكتاب - من الرافعي وغيره - للهجوم عليه وعلى الجامعة ، وعلى أسلوب البحث العلمي لهذه الجامعة الوليدة . ويتزعم هذا الهجوم ويتولى كبره ، جماعة من المناوئين لقيام جامعة بمصر تقود المجتمع إلى التقدم . وتستغله أحزاب منافسة لحزب الأحرار الدستوريين الذي كان طه حسين يرتبط ببعض رجالاته فحسب ولا ينتسب إليه للهجوم على الحكومة التي كان يرأسها وقتئذ عدلي يكن باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين ، ويستغله رجال الأزهر ممن كانوا يضمرون لطه حسين كرهًا دفينًا ، منذ خرج عليهم ، وهاجم أساليبهم في التدريس ، وتستغله طائفة من صنّاع الكلمة ممن وجدوا في طه حسين منافسًا عنيدًا يكشف أخطاءهم ، وتستغله طائفة أخرى من المحافظين المتمسكين بالأساليب القديمة في البحث ، والمعارضين لكل جديد واعد ، حين رأوا في طبيعة طه حسين المتحركة خطرًا يهدد وجودهم .

الكتاب في رأي كل هؤلاء عمل غير صالح ، ومؤلفه متهم بهدم ثقافتنا ، لحساب المستشرقين الذين جاءوا به أستاذًا للجامعة؟!

والجميع ثائرون ضد طه حسين ، ويطالبون بحرق كتابه ، واستبعاده من هيئة تدريس الجامعة ، تمهيدًا لمحاكمته لاجترائه على مسلماتنا كما يزعمون؟!

وتنتقل المناقشة من الصحف والمجلات إلى البرلمان ، وتحدث مواجهة بين رئيس الحكومة عدلي يكن ، وزعيم الوفد سعد زغلول الذي كان رئيسًا للبرلمان . وينتهي الأمر بمساءلة طه حسين أمام النيابة ، التي تبرئه من تهمة الاجتراء على الدين . إلا أن النيابة تصادر الكتاب ويظل مصادرًا زمنا طويلًا حتى تنشره دور النشر العربية في تونس خاصة بدار المعارف في سوسه ضمن مكتبة طه حسين ، وفي بغداد بالعراق ، ويظل مصادرًا زمنًا طويلًا في مصر وغيرها من الأقطار العربية.

وعلى الرغم من أن طه حسين قد برأته النيابة من تهمة الكفر والإلحاد ، وأن كتابه «في الشعر الجاهلي» قد صودر ، وأن مؤلفه قد نشره في طبعة جديدة تحت عنوان : «في الأدب الجاهلي» حذفت منها العبارات التي اعترض عليها المهاجمون والتي جاءت استطرادًا في سياق البحث ، بالرغم من كل ذلك .. فإن الهجوم على طه حسين ظل مستمرًا .. مما يفسر أن الهجوم لم يكن يستهدف الكتاب وما جاء فيه من مادة تناقش مناقشة علمية هادئة . وإنما كان يستهدف طه حسين نفسه حيًا أو ميتًا .

ومن بين صور هذا الهجوم ما قام على اتهام ظالم لأنه في الأصل بُنِيَ على افتراض خاطئ ، فنتج عنه بالتالي حكم خاطئ ، وهو الخاص بمسألة سطو طه حسين على المستشرق الإنجليزي مرجليوث . حين افترض هذا الاتهام أن طه حسين سرق كل ما كتبه عن الشعر الجاهلي من هذا المستشرق ، هكذا دون بحث أو تمحيص أو حتى قراءة كتاب طه حسين ومقارنته بهذه المقالة التي كتبها مرجليوث ، أو ترجمتها لتكون مع كتاب طه حسين بين يدي قراء العربية كما نفعل في هذا السفر الذي بين يدي القارئ الآن ولأول مرة .. هذا لم يحدث وإلا فما معنى أن يتحدى طه حسين كل مهاجميه في حديث له بمجلة الإنفرمسيون الفرنسية ترجم إلى العربية ، ونشر بمجلة السياسة في عددها الصادر في 26 مايو عام 1926 ، من جملة ما قاله فيه : «إن 98 ٪ من مهاجميه لم يقرأوا الكتاب ، والأكثر أن مقالة مرجليوث الإنجليزية لم يقرأها أحد ممن يهاجمونه لسبب بسيط هو أن معظم الذين كانوا يهاجمونه لا يعرفون الإنجليزية ولم تكن قد ترجمت بعد إلى العربية » أو أن الذين يعرفون الإنجليزية لم يتيسر لهم الحصول على هذه المقالة .

وربما يكون هذا الرأي صحيحًا شكلًا ومضمونًا . إذ إن معرفة هؤلاء المهاجمين – لطه حسين – بما جاء في المقال كانت عن طريق السماع ، وكل مصدرهم الوحيد هو أحمد تيمور باشا أول من أشار إلى سطو طه حسين من مقالة هذا المستشرق الإنجليزي، سواء لمحمود محمد شاكر أو لصاحب صحيفة المقتطف الثقافية .

ولنتأمل هذا الاتهام بالسطو الذي يعلنه الرافعي ، لمجرد أنه سمع به ، نجده اتهامًا بغير دليل . وإلا فأين هذا الدليل ؟

إن أمانة البحث العلمي كانت تقتضي من الأستاذ الرافعي وغيره أن يتبع خطوات علمية محددة أولها مقارنة كتاب طه حسين ومضاهاته بمقال مرجليوث . وثانيهما : مقارنة شك كل منهما في هذا الشعر ، بمعنى هل كان يشك فيه جملة مثلما فعل مرجليوث أم أنه كان يشك في بعض هذا الشعر كما فعل طه حسين ؟ وثالثها : مطابقة نظرة طه حسين بنظرة ابن سلام الجمحي إلى الشعر الجاهلي وأي الاثنين : ابن سلام أم مرجليوث أكثر تأثيرًا في طه حسين . والأهم إثبات أن الاثنين مرجليوث وطه حسين كانا ينهلان من منبع واحد هو الثقافة العربية ، ورابعها : تأصيل مسألة الشك في صحة الشعر الجاهلي وهل هي في الأصل من أعمال المستشرقين الأجانب أم أنها من أعمال العرب الأقدمين .. وغيرها من الخطوات التي كانت تؤكد صحة السطو من عدمه . إلا أن الرافعي للأسف لم يُقدم هو أو أي من المهاجمين على اتباع واحدة من هذه الخطوات .

وإلى جانب الاتهام بالسطو والسرقة القائم بغير دليل ، كان اتهام طه حسين بالتغريب. حيث بلغ الغلو من أصحاب هذا الاتهام مبلغًا جعلهم يعتبرون طه حسين صنيعة للاستعمار ممثلًا للاستشراق على اعتبار أنه وجه لهذا الاستعمار .. إلى آخر هذه الاتهامات التي لم تكن لوجه الحقيقة ، وإنما لأسباب أخرى تتعلق بحسابات شخصية قديمة أراد المهاجمون تصفيتها .

وأما عن أن هذه العبارات التي جاءت استطرادًا في سياق البحث ، والتي هاجمها البعض ورأوا فيها خروجًا على الدين ، واعتبروا صاحبها كافرًا ومارقًا ، والتي برأته النيابة منها ، وحذفها طه حسين في طبعة الكتاب الثانية عام 1927 ، والتي لا يتوقف عندها البحث العلمي المحايد نظرًا للأسباب السابقة . فإن هناك من يراها مع طه حسين وليست ضده ، إذا نوقشت بموضوعية . وأضرب مثلًا برأي الدكتور محمد أبو الأنوار أستاذ ورئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية الأسبق بكلية دار العلوم في كتاب عنوانه: «قضايا الأدب الجاهلي والدرس الأدبي المعاصر» وقبل النعرض لما جاء في هذا الكتاب من جديد ، لنا أن نتعرف أولًا على صاحبه الدكتور «أبو الأنوار» الذي يعرفه الجميع باحثًا مثقفًا ومدققا إلى أبعد الحدود ، كما أنه ليس من تلاميذ طه حسين حيث

كانت دراساته في الليسانس والماجستير والدكتوراه بكلية دار العلوم التي لها أسلوبها العلمي الذي يختلف عن أسلوب كليات الآداب بالجامعة التي يسيطر عليها طه حسين على ما يتصور البعض. وأما إسهامات الدكتور «أبو الأنوار» فهي كثيرة متعددة ، أخص بالذكر منها ما كتبه عن المنفلوطي في ثلاثة مجلدات من القطع الكبير كلها إنصاف لهذا الأديب واعترافًا بما له من فضل على الثقافة العربية ، الأمر الذي تنبهت إليه مؤسسة الملك فيصل فوجهت إليه جائزتها العالمية في الأدب . ولهذا ولغيره أقول : إن إنصاف طه حسين من أستاذ در عمي – أي من خريجي كلية دار العلوم – تعتبر شهادة جديد للعمل الذي قام به طه حسين منذ ثلاثة أرباع قرن ، كما أنه يعتبر إنصافًا للبحث العلمي، وهذا هو الأهم . لقد تجرد هذا الباحث من كل ما يشين البحث العلمي من غرض أو هوى ليعامل المادة الأدبية معاملة الباحث في معامل للكيمياء أو الفيزياء ، بوضعها تحت مجهر البحث ليرى دقائقها وتفصيلاتها ، ليخرج في النهاية بنتيجة .. إما لهذه المادة أو عليها ، لا أن يصنع منها عملًا غير صالح كما صنع البعض عندما بحثوها مستخدمين المعارف السمعية وليست المقروءة .

إن الدكتور أبو الأنوار يمهد لحديثه عن الشعر الجاهلي بطَرق موضوعات متصلة بهذا الشعر ، فيعقد فصولًا ممتعةً حول معنى كلمة «الأدب» في العصر الجاهلي بين الكتابة والرواية ، وعندما يتطرق إلى قضية الشك في الشعر الجاهلي ومفهوم الشعر فيه، ليطوف بنا في موضوعات لا تقل أهمية حول المعلقات والشعر الجاهلي بين الكتابة والرواية ، وعندما يتطرق إلى قضية الشك في الشعر الجاهلي لا يند عن ذاكرته كتابات للعرب الأقدمين وأخرى للمستشرقين وثالثة للعرب المحدثين ، متخذًا أديبين كبيرين هما مصطفى صادق الرافعي وعباس محمود العقاد كمثالين حتى يصل إلى أفكار طه حسين في قضية الشعر الجاهلي ، ليناقشها من منظورات مختلفة منها : السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، ليصل إلى معركة الشعر الجاهلي عام 1926 غير مستغرق في تفصيلات دارت حول هذه المعركة ، ليقدم لنا بعد كل ذلك الجديد الذي يميزه عن غيره من الباحثين حيث يخطو بالبحث العلمي – في هذا المجال – خطوات جديدة ، وهو الجزء الخاص «بحديث الوثائق بين إنصاف البحث العلمي وإنصاف طه حسين»، وفيه

يرى (أي الدكتور أبو الأنوار) أن إنصاف طه حسين يتضح في أنه رجع رجوعًا صريحًا في كتابه «مرآة الإسلام» عما قاله بكتابه «في الشعر الجاهلي» .. وطبيعي أن يعتمد في ذلك على مقابلة النصوص بين الكتابين .

ويدلل الدكتور أبو الأنوار على أسباب هذا الرجوع بالقول : «ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن منهج طه حسين في حياته الفكرية وطاقته الإبداعية يقوم على أنه يكتب ما يفكر فيه وما يقتنع به ، فإذا انتهى منه كره ورفض الرجوع إليه ، لأنه مشغول بقطع جسور الفكر والإبداع في رسالته التي حملها لنفسه ولا وقت لديه للرجوع إلى الذي انتهى منه. فهكذا طه حسين كالإعصار الذي يعصف بصورة غير متوقعة إنه يدمر ليعيد تشكيل الطبيعة حوله في رؤى وأبعاد جديدة غير عابئ بما كان لها من وجود سابق إلى أن يقول : «وإذن فطه حسين ليس على شاكلة كثير من المؤلفين والكتّاب والمفكرين إذ يندر أن يعود إلى فكره بالتمحيص والتنقيح ، وقد يضيف إليه أو يحذف منه أو يغيّر فبه ، وقد يعلن تغيير موقفه من فكرة سابقة كان قد عرض لها من قبل بالمعالجة . ولذا فإنه من الضروري لدارس طه حسين أن يعاود النظر في كتاباته وأن يمحص مجمل الآراء والأفكار لديه ، وأن يجيد مقابلات أقواله وتتبعها في المصادر المختلفة» .

ثم يقابل بين نصوص الكتابين : «في الشعر الجاهلي» و«مرآة الإسلام» في موضوعات مختلفة عددها اثنا عشر موضوعًا منتهيًا إلى نتيجة يعبر عنها قائلاً : «وهكذا يتبين لنا من هذا العرض المهم الذي يمثل مرآة عاكسة دقيقة التحديد لطبيعة رجوع طه حسين عن آرائه وتصوراته في الشعر الجاهلي التي قوبلت بمعارضة بالغة الشدة» .

ثم يقول : «وبهذا العرض العلمي الموثق يتم إنصاف البحث العلمي في حقيقة ما قاله طه حسين من قبل في كتابه «في الشعر الجاهلي» ، وإنصاف العلامة طه حسين الذي أثرى حياتنا الفكرية والثقافية في كل أوقات الاتفاق والاختلاف معه» .

ثم يدافع عن هذه العبارات التي جاءت استطرادًا قائلًا : «وجاء في الشعر الجاهلي بعض عبارات تتسم بالحدة في عرض الجديد والدفاع عنه صفحة (26) من الكتاب ، دفع إليها

الحماس الشديد في طلب الجديد ، وكان ذلك يمثل الطابع العام لحركات التجديد عند طه حسين أو غيره من الكتّاب ، ولكنك ترى في الكتاب أن فكر طه حسين يقوم على أصل ينتصف فيه للقرآن . فهو يقرر أن القرآن الكريم هو الذي يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها . والشعر يصور ذلك ، والقرآن وحده هو النص العربي القديم الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ، ويعتبره مشخصًا للعصر الذي تُلي فيه .

وأهم من هذا إثارة طه حسين في كتابه لاعتراض هام طالما حورب به فيما بعد ، وقد عني هو بالرد عليه ، حيث يقول في صفحتي (182 – 183) : «ولسنا نخشى على القرآن من هذا النوع من الشك والهدم بأسًا ، فنحن نخالف أشد الخلاف أولئك الذين يعتقدون أن القرآن في حاجة إلى الشعر الجاهلي لتصحيح عربيته وتثبت ألفاظه . نخالفهم في ذلك أشد الخلاف لأن أحدًا من الجاهليين لم ينكر القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته، وليس بين أنصار القديم أنفسهم من يستطيع أن يتنازع في أن المسلمين قد احتاطوا أشد الاحتياط في رواية القرآن وكتابته ودرسه وتفسيره . حتى أصبح أصدق نص عربي قديم يمكن الاعتماد عليه في تدوين العربية وفهمها» .. فأيهما أشد إكبارًا للقرآن ، وإجلالًا له وتقديسًا لنصوصه ، وإيمانًا بعربيته ، ذلك الذي يراه وحده النص الصحيح الصادق الذي يستدل بعربيته القاطعة على تلك العربية المشكوك فيها ، أم ذلك الذي يستدل على عربية القرآن بشعر كان يرويه وينتحله الرواة في غير احتياط؟؟ أو في غير احتراس ؟؟ إذا لم يكن بدّا من الاستدلال بنص على نص . إنما هو الاستدلال بنصوص القرآن على عربية هذا الشعر ، لا بهذا الشعر على عربية القرآن» . انتهى رأي الدكتور أبو الأنوار واستشهادنا به .

* * *

وهذا الذي قام ببحثه الدكتور محمد أبو الأنوار بدقة وموضوعية فائقتين ، انتهى إليه – تقريبًا – الأستاذ محمود محمد شاكر نفسه أشد الناس خصومة لطه حسين بعد الرافعي في مقاله بمجلة الكاتب عدد مارس رقم 168 بتاريخ 1975 ، وهو ما سجله بعد ذلك كاتب هذه السطور في مقالاته عن الدكتور طه حسين بالأهرام وفي حياة الأستاذ شاكر ،

وقد قرأ ذلك أكثر من مرة . لقد قال الأستاذ شاكر وهو من أعنف المهاجمين لطه حسين وكتابه ما نسجله بالنص : «لقد لقي طه حسين ما لقي ، ونسب إليه ما أقطع بأنه بريء منه، والدليل على براءته عندي هو أنه منذ عرفته في سنة 1924 إلى أن توفي في 28 أكتوبر عام 1973 ، كان محبّا للسانه العربي أشد الحب حريصًا على سلامته أشد الحرص ، متذوقًا لروائعه أحسن التذوق .. فهو لم يكن يريد قط باللسان العربي شرّا ، بل كان أكبر المدافعين عنه ، المنافحين عن تراثه كله ، ومحال أن يحشر من كانت هذه خصاله في زمرة الخبثاء ذوي الأحقاد من ضعاف العقول والنفوس الذين ظهروا في الحياة العربية لذلك العهد» .

وفي موضع آخر من هذا المقال نفسه يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : «ودليل آخر أنه أي طه حسين انجلى غبار ما أثاره كتابيه (في الشعر الجاهلي) و(مستقبل الثقافة في مصر) .. انجلت بعد ذلك نفسه وناقضه به ما كتبه وما قاله في هذين الكتابين ، ومرد ذلك إلى هذه الخصال التي كانت في نفسه ، وفي حبه للعربية وحرصه على سلامتها ، وما هداه الله إليه من حسن التذوق لروائع البيان» .

ويستطرد الأستاذ شاكر إلى أن يقول : «لم تكد تمضي عشر سنوات على ظهور كتاب «في الشعر الجاهلي» حتى أدرك طه حسين إدراكًا واضحًا جدّا أن اللسان العربي قد صار في محنة لا في نفسه ، بل في هذه الأعداد الهائلة من المثقفين الذين رفضوا الأدب العربي كله ورفضوا القديم كله شعره ونثره ، وأن أعدادهم إلى تكاثر كلما تقدمت الأيام، فأخذ يعبر عن ذلك بألفاظ محزنة باكية ، وحاول أن يتألف - بكتاباته بعد ذلك - هؤلاء النافرين ويردهم إلى الطريق القويم إلى أدبهم القديم» .

كذلك يسجل الأستاذ شاكر بمقدمة كتاب «المتنبي» ص 30 ، رجوع طه حسين عن بعض ما قاله بكتاب «في الشعر الجاهلي» عندما أدرك الخطر الذي يحيق بالثقافة العربية ويهدد بناء المجتمع قائلًا : «بدأ الدكتور طه حسين - رحمه الله - ينشر في جريدة الجهاد مقالات انتهى منها في 22 مايو 1935 . وكانت ملخصها رجوعًا صريحًا عن بعض ما قاله في الشعر الجاهلي عام 1926» .

ثم يورد الأستاذ شاكر أمثلة تدل على هذا التراجع . ومعنى هذا أن طه حسين فزع للانصراف عن الثقافة العربية الأصيلة للأجيال التالية ، وكان عليه أن يعدل عن آرائه .

وأما الدرس المفيد الذي يجب أن نتدبره من تأمل هذه القضية حسبما رآها اثنان من كبار علمائنا المتخصصين في الأدب واللغة والنقد العلامة محمود شاكر والدكتور محمد أبو الأنوار ، فهو أنه بحق للأديب المبدع أن يرجع عن رأي اتخذه واكتشف فيه خطرًا على مجتمعه على اعتبار أن ما يكتبه ليس كلامًا منزّلًا من السماء أو قانونًا كونيًا لا يجوز الرجوع عنه من الناحية العلمية البحتة . وقد تكون علة الأديب في ذلك هي التجديد والتطور الذي ينبغي أن يواكب عصره وزمانه ، والأهم أن يتمشى مع الصالح العام انطلاقًا من أن حرية الرأي التي لا تقترن بالمسئولية تتحول إلى تحرر ينتهي إلى الفوضى والعبث بقيم المجتمع . وفي المقابل فإن المتلقي لإنتاج الأديب حتى لو كان مسئولًا ثقافيًا عليه أن يعي ذلك جيدًا ، وأن يدرك في ممارساته شهادات التاريخ القائلة بأن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة ، وأن سلطة بلا حدود تؤدي إلى استبداد غير محدود، هذا الدرس وغيره من دروس ينبغي أن نعيها جميعًا - مبدعين ومسئولين - حتى نتقي الله في مجتمع يعيد بناء نفسه بعد محنٍ كثيرة مرّ بها طوال تاريخه الحديث وهذا ما يفسر حذف طه حسين ما جاء في كتابه «في الشعر الجاهلي» عام 1926 من عبارات حادة فلا تجدها بكتابه «في الأدب الجاهلي» عام 1927 .

ثم إن رجوع طه حسين عن ما قاله سابقا بكتابه «في الشعر الجاهلي» راجع إلى منهج إسلامي بحت . ذلك إن أئمة الفتوى كانوا يراجعون أنفسهم ، بل ويغيرون بعض آرائهم كلما احتاج الأمر إلى التغيير ، عملا بأن الضرورات تبيح المحظورات ، وقد كان ذلك أقوم لهم ، وأرشد للإمة . مثلما كان الإمام أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي يقول أحيانًا لتلميذه أبي يوسف : «لا تكتب عني شيئًا ، فإني أرى اليوم ما قد أغيره غدا، كذلك كان الحكماء يقولون رأينا صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب» .

ذلك لأن الدكتور طه حسين - في رأينا - منذ بداياته ، وكلمته المحملة بفكره ، لا تستقر لتتجمد في جانب واحد ، أو في موقع واحد من هذا الجانب ، أو من الجوانب الأخرى وإنما هي كلمة محملة برأي لا يستقر ، كما لو كان جنينًا يبحث باستمرار عن لحظة المخاض .

وقد يأخذ عليه خصومه أنه رجل - أحيانًا - متقلب الرأي ، يقول الفكرة ، وما يلبث أن يلتزم بنقيضها ، ويدعو الدعوة ، وما يلبث أن يتحوّل عنها ، ويبدي الرأي وما يلبث أن ينقضه إذا رأى ذلك أنه للصالح العام .

وهو - أي الدكتور طه حسين - يحدثنا عن هذه الخاصية التي يعترف بوجودها في تكوينه ، ويبرر أسبابها بطريقته الخاصة ، فيدعو قارئه إلى أن يقبل منه ما يقوله هذا اليوم، وألا يغضب منه إذا طالع عكسه غدا برأي آخر» .

وقد رأينا كما يقرر ناقدو كتاب في الشعر الجاهلي أنه تراجع عن كثير من الآراء بعد ذلك سواء في أجزاء «حديث الأربعاء» أو في كتاب «مرآة الإسلام» ، فقد يسرف في إبداء رأيه حتى يخيل لنا أنه يطرح موقفه من زاوية الرفض وحده ، أو أنه يسحب حماسته لنوازع إصلاحية معينة كما حدث في الشعر الجاهلي حين حذف بعض الآراء التي نالت الكثير من الاعتراض رغم تبرئة النيابة له .

* * *

وتأسيسًا على ذلك فقد تقدم البحث في قضية كتاب «في الشعر الجاهلي» ، وكان تقدمه وتطوره في صالح الدكتور طه حسين . وتكون البداية في مطابقة مقال «نشأة الشعر الجاهلي» لمرجليوث الذي نشره بمجلة الجمعية الملكية الأسيوية في يوليو 1925 بكتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» . الذي ألقي كمحاضرات على طلاب الجامعة منذ أكتوبر 1925 ، وإعداده للنشر لتظهر في كتاب في أول عام 1926 بالعنوان نفسه . ومعنى هذا أنه في الوقت الذي كان فيه مرجليوث يفكر في إعداد مقال من (32 صفحة، اثنتين وثلاثين صفحة ، كان طه حسين يفكر أيضًا في إعداد محاضرات لألقائها على

طلابه عامًا كاملًا في العام الدراسي (1925 - 1926)وأنه كان يمكن أن تظهر نتيجة بحث طه حسين قبل مرجليوث لو أن الجامعة كانت قد فتحت أبوابها قبل يوليو وليس كما هو متبع حتى الآن في أكتوبر أو لو كان مقال مرجليوث تأخر عن النشر فظهر في نوفمبر أو ديسمبر بدلًا من ظهوره في يوليو .

هذه واحدة . أما الثانية حيث خرج الباحثون بنتيجة تكاد تكون واحدة بعد المطابقة وهي أن عملية السطو بمعناه العلمي الدقيق لم تحدث ، وأنه كان هناك تشابه في بعض ما جاء به طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» ببعض ما كتبه مرجليوث أو من سبقه من المستشرقين فلأن الجميع ينهلون من منبع واحد ، هو ما كتبه نقاد العرب الأقدمون منذ أكثر من ألف عام . حيث وصلوا إلى نتائج مبكرة في بحث صحة الشعر الجاهلي، وفي مقدمتهم ابن سلام الجمحي (134 - 231هـ) : هذا المنهج تأثر به طه حسين وكتب على ضوئه مقالات كان أبرزها مقالة نشرها بمجلة السفور سنة 1915 أنكر فيها شخصية الخنساء وشَكَّ في الشعر الجاهلي ، وهو ما حدث قبل نشر مرجليوث لمقالته بعشر أعوام على الأقل .

* * *

ولذلك نجد أساتذة لهم وزنهم العلمي داخل الجامعة ينفون هذه التهمة من أساسها أو يتجاهلونها عمدًا لعدم وجودها وثبوتها أصلًا . فنجد على سبيل المثال الدكتور شوقي ضيف يرى في كتابه «العصر الجاهلي» أن طه حسين ، وعددًا من المستشرقين بما فيهم مرجليوث نفسه متأثرون بالعرب الأقدمين ، ولا يجد حدوث سطو للدكتور طه حسين على مرجليوث من قريب أو من بعيد .

ونجد الدكتور حسين نصار يرى الرأي نفسه حيث يستبعد مسألة السطو على مرجليوث الذي كتب مقالته بالإنجليزية ، ذلك لأن طه حسين ثقافته فرنسية ، ولم يعرف عنه أنه يتقن الإنجليزية ، حتى يقرأ فيها مثل هذه المقالة ، ثم ينهض لإلقائها على طلابه كنظرية للشك في الشعر الجاهلي ، ثم يعدها في كتاب ينشره بنفس العنوان ، ويتم هذا في شهور قليلة!!

وكذلك نجد الدكتور إبراهيم عبد الرحمن في كتابه «الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية» يفرق بين بحث مرجليوث في نشأة الشعر العربي ، وكتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» فالأول ينكر الشعر الجاهلي كله ، ويدلل على ذلك بينما طه حسين يشك في رواية بعض هذا الشعر . بمعنى أنه لا ينكر الشعر الجاهلي جملة ، وإنما ينكر بعضه ويبقى على البعض الآخر . مرجليوث ينكر الكل ، وطه حسين يشك في الجزء ، وبين الاثنين فروق .

* * *

ثم يأتي دليل آخر ، يعين الدارسين على البحث داخل الجامعة كما يساعد المهتمين بفكر طه حسين خارج أسوار الجامعة ويسهم في الوصول إلى المعارف في مظانها الأولى وبلغات غير العربية . هذا الدليل يأتي في صفحات كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي عنوانه : «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» عام 1979 . جمع فيه عددًا من دراسات هؤلاء المستشرقين بعد ترجمتها عن الألمانية والفرنسية والإنجليزية بما فيها مقال مرجليوث نفسه «نشأة الشعر العربي» ، وهو ما حرصنا على إضافته كوثيقة في داخل هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الآن حتى يتسنى لكل دارس أو مهتم بهذه القضية ولا يعرف إحدى هذه اللغات ، المقارنة بما جاء به هذا المستشرق الإنجليزي وما كتبه طه حسين بكتابه في الشعر الجاهلي . ويقدم الدكتور بدوي هذا الكتاب بتصدير غاية في الأهمية . لأنه خطا بالبحث خطوات جديدة . وكشف النقاب عن أمور شاء البعض أن يجعلها مستترة خافية . حتى يظل الهجوم على طه حسين مستمرًا دون انقطاع .

يقول الدكتور بدوي : «كلما أتذكر الحملة الشعواء الهوجاء التي أثيرت حول كتاب «في الشعر الجاهلي» سنة 1926 أو بديله كتاب «في الأدب الجاهلي» عام 1927 للدكتور طه حسين . فإن عجبي لا ينقضي أولًا لأن ما قاله طه حسين عن انتحال الشعر الجاهلي وفساد رواته ورواياته ، وما أضيف إليه أو حُذف منه هو كلام سبق أن قاله ، وأشبع القول فيه ، علماء الأدب واللغة من العرب القدماء منذ القرن الثاني للهجرة وخصوصًا في القرنين الثالث والرابع ، ويكفي أن يفتح المرء الصفحات الأولى من كتاب «طبقات

فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي ليقرأ في الصفحة الرابعة السطر الأول بالجزء الأول تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة 1974 أحد خصوم طه حسين الأساسيين : «وفي الشعر مصنوع مفتعل ، وموضوع كثير لا خير فيه» .

ثم يسجل الدكتور بدوي ما كتبه ابن سلام في الشك في صحة الشعر الجاهلي نقلًا عن كتابه «طبقات فحول الشعراء» فيما يقرب من اثنتي عشرة فقرة . توضح منهجه في الشك في صحة الشعر الجاهلي ، وذلك في تصديره .

ثم ينتقل الدكتور بدوي في تصديره العلمي المفيد قائلًا : «ثانيًا إن الدكتور طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي لم يكن أول باحث في العصر بحث في مسألة صحة الشعر الجاهلي ، وأسباب الانتحال فيه ، بل كان على العكس من ذلك تمامًا .. كان آخرهم» .

ثم يورد ثبتًا علميًا بأسماء هؤلاء السابقين ، وفي مقدمتهم تيودور ندلكه الذي كتب مؤلفه في سنة 1861 ، والفرت سنة 1872 ، وجولد تسيهر سنة 1893 ، ومرجليوث سنة 1925 ، ورد برونليش على مرجليوث في السنة التالية 1926 ليبين أن موضوع صحة الشعر الجاهلي قد شغل الباحثين الأوروبيين منذ سنة 1861 على أقل تقدير . ووصلوا إلى نتائج كثيرة لا تزيد كثيرًا عما وصل إليه ابن سلام الجمحي قبل ذلك بعشرة قرون» .

ويقول الدكتور بدوي : «والشيء المؤسف حقًّا هو أن كل هذه الأبحاث قد بدأت في الستينيات من القرن الماضي (التاسع عشر) ، ونمت واتسعت بينما ظل المنشغلون بالأدب العربي والإسلامي في العصر الحديث بمعزل عنها . وفي جهل فاحش ، وربما كان في هذا : التفسير للدهشة الحمقاء التي قوبل بها كتاب الدكتور طه حسين ، ولو كانوا على علم بما كتبه القدماء من علماء العربية مثل ابن سلام الجمحي - وأقصد بالعلم هنا الفهم الدقيق ، والتبصر لا مجرد الاطلاع - ثم لو كانوا اطلعوا على أبحاث المحدثين من المستشرقين التي بدأت قبل كتاب طه حسين بخمسة وستين عامًا ، لما رأوا في الكتاب شيئًا غريبًا مستنكرًا ، ولو خلصت نياتهم لرحبوا به بوصفه إسهامًا عربيًا له قيمته في هذا المجال ، ولواصلوا السير في هذا الطريق الواعد بالنتائج العلمية العظيمة... لكن ما

حدث في مصر والعالم العربي كان على النقيض تمامًا . فلم يقتصر الأمر على الردود الممعنة في الجهل والإدعاء التي نشرت في عام 1926 وما تلاها ، بل كان الأدهى هو ما كتبه بعد ذلك أساتذة الأدب العربي من كتب ، وما أعده تلاميذهم من رسائل جامعية لنيل درجة الدكتوراه ، وكلها تكشف عن جهل هؤلاء وأولئك . بكل ما نشر قبل ذلك بمائة عام أو تزيد من أبحاث ودراسات ، نضرت وجه البحث العلمي في الشعر الجاهلي. وتقدمت به خطوات هائلة هم عنها غافلون ، ولا أريد أن أذكر أسماء .. لأني لا أستثني منهم أحدًا ..» .

هذا التصدير للدكتور عبد الرحمن بدوي بما اشتمل عليه من آراء جديدة غاية في الأهمية . يجعلنا نقوم بعملين :

أولهما : الرجوع إلى كتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي للتأكد من حقيقة سبقه هو أو غيره من العرب الأقدمين لجماعة المستشرقين في الشك في صحة الشعر الجاهلي .

وثانيهما : أن نعرض في إيجاز لكل من مضمون مقالة مرجليوث التي كان قد كتبها بالمجلة الإنجليزية ، ثم لمضمون كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين ، لمعرفة الفرق بين ما جاء به طه حسين في كتابه ، وما أتى به مرجليوث في مقالته .

وبالرجوع إلى سفري كتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي شرح وتحقيق محمود محمد شاكر طبعة 1974 . تتأكد لنا حقيقة تأثر طه حسين بابن سلام . تلك التي أشار إليها الدكتور بدوي في تصديره . حيث نجد في صفحة (4) هذه العبارة التي أشار إليها : «وفي الشعر مصنوع مفتعل ، وموضوع لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح زائغ ، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب ، ولا نسيب متطرف .. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا جمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ، أن يقبل من صحيفة ، ولا يروي عن صحفي».

كذلك يقول ابن سلام في ص (46 ، 47) : «فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استغل بعض العشائر شعراءهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي قيلت ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بينهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال» .

ويقول ابن سلام في ص (215) : «أشعرهم – أي أشعر شعراء المدينة – حسان بن ثابت ، وهو كثير الشعر جيده ، وقد حُمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت – أي تناقشوا ورمى بعضهم بعضا بالعضيهة أي الإفك والبهتان ، وأستبت – أي زادت الشتائم– وضعوا عليه أشعارًا كثيرة لا تنقى» .

ويقول ابن سلام في ص 244 ، ص 245 : «وكان أبو طالب شاعرًا جيد الكلام ، أبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ ، وقد زيدت فيها ، وطولت كما رأيت في كتاب يوسف بن سعد منذ أكثر من مائة سنة ، وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ، ولا أدري أين منتهاها ، وسألني الأصمعي عنها فقلت صحيحة جيدة . فقال : «أتدري أين منتهاها؟ قلت : لا» .

وغير ذلك صفحات طوال بكتاب ابن سلام الجمحي . أولًا : تقدم منهجه في الشك في صحة الشعر الجاهلي . وثانيًا : تؤكد سبقه على المستشرقين بأكثر من ألف عام .

كذلك يذكر ابن سلام أسبابًا كثيرةً لانتحال الشعر على لسان الشعراء الكبار ، مدحًا في الأجداد ، أو تملقًا لذوي السلطان من المعاصرين طمعًا في نيل عطاياهم ، أو تحريف القصائد للتفاخر القبلي ، أو انتحالها لأسباب دينية ، كما حدث بالنسبة للشاعر حسان بن ثابت .

وقد صنع ابن سلام ذلك بالشعر الجاهلي منذ ألف سنة ، ولم يتهمه أحد بأنه هدم الثقافة العربية ، أو خدم المستعمرين ، أو خرج على العقيدة والدين .. صنع ذلك في

أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين . فكيف نستكثره على طه حسين في النصف الثاني من القرن الرابع عشر للهجرة؟ فنصفه بشتى الأوصاف والنعوت ، من سرقة وسطو ، من تخريب وتدمير ، من كفر وإلحاد ، من خيانه وعمالة . إلى آخر هذه الأوصاف التي لا فائدة منها . اللهم إلا إذا كان القصد منها تضليل الشبيبة العربية بتشويه رموز الاستنارة فيها ممن يمثلون وجهها الثقافي ، ومنهم طه حسين .

أقول لقد صنع ابن سلام وغيره من العرب الأقدمين ذلك بالشعر الجاهلي ، ولم يتهمهم أحد بالكفر والإلحاد كما اتهموا طه حسين . وهذا لا يفسر إلا أمرًا مؤسفًا هو أن العرب الأقدمين كانوا أكثر استنارة منا الآن ، حيث أدركوا أنه من الاستحالة أن يدخل المرء قلب أحد ويفتش فيه عن صدق إيمانه .

هذه النتائج التي توصل إليها ابن سلام وغيره من العرب الأقدمين في الشك في صحة الشعر الجاهلي .. كانت هي الأساس الذي بنى عليه المستشرقون نظرياتهم ، ومرجليوث كان كغيره من المستشرقين مهتم بالشعر الجاهلي ، فلابد أن يكون قد تأثر بطريق مباشر أو غير مباشر بالعرب الأقدمين ، وهو ما كشف عنه المستشرق «برونليش» في السنة التالية لنشر مرجليوث مقاله . إلا أن الفرق بين نظرة كل من مرجليوث ، ونظرة ابن سلام إلى الشعر الجاهلي .. هي تعصب هذا المستشرق وعنصريته تلك التي جعلته ينكر الشعر الجاهلي كله ، كأساس للثقافة العربية الإسلامية .. لسبب في نفس يعقوب !!

* * *

وبعد أن وضح لنا سبق ابن سلام ، وغيره من العرب الأقدمين في الشك في صحة الشعر الجاهلي .. نعقد مقارنة بين كتاب طه حسين « في الشعر الجاهلي» ومقالة مرجليوث ونشأة الشعر الجاهلي لنتأمل نظرة كل منهما إلى هذا الشعر .

يعمد مرجليوث في مقاله إلى نوعين من الأدلة على ضوئهما يثبت أن كل ما وصل من شعر جاهلي هو من صنع المسلمين الذين اشتقوه من لغة القرآن الكريم . وأول هذه الأدلة هو ما يسميه بالأدلة الخارجية المتصلة بمفهوم الفن الشعري . فذهب إلى

أن الوسيلة التي وصل عن طريقها الشعر الجاهلي - على فرض وجوده ، لا تخرج عن سبيلين . الأول : الرواية الشفاهية كحرفة كانت موجودة في الجاهلية ، والثاني : الكتابة التي لم يعرفها عرب الجاهلية على هذا النطاق الواسع الذي يجعل الكتابة أداة للحفظ والتعلم والتأريخ . ويدلل على ذلك بأن النقوش الجاهلية قد خلت تمامًا من نصوص لأشعار القبائل ..

ومعنى ذلك إنكار تام من مرجليوث لوصول الشعر الجاهلي إلى ما بعده من عصور.

والنوع الثاني من الأدلة على الشك في صحة الشعر الجاهلي عند مرجليوث هو الخاص بالأدلة الداخلية . حيث لاحظ أن لغة الشعر الجاهلي تطابق تمامًا لغة القرآن على الرغم من وجود لهجات كثيرة في الجاهلية ، وعدم وجود لغة مشتركة واحدة بين القبائل الجاهلية ، ولم تعرف هذه اللغة الواحدة المشتركة إلا بعد الإسلام .

كذلك يرى مرجليوث أن معاني الشعر وألفاظه هي معاني وألفاظ إسلامية فرغم أن النقوش الجاهلية المكتشفة في العصر الحديث تتحدث عن آلهة الوثنيين ، وشعائر عباداتهم .. فإن الشعر الجاهلي يصمت تمامًا عن ذكر شيء منها . هذا عن المعاني ، أما عن الألفاظ يلاحظ مرجليوث تردد ألفاظ إسلامية كالحياة الدنيا ، ويوم القيامة ، والحساب وغيرها في نصوص الشعر الجاهلي ، مما يجعل مرجليوث يزداد يقينًا بأن هذا الشعر كان من صنع المسلمين ، وأنه لم يكن للجاهليين . ولا يمكن أن ينكر أن مثل هذا الألفاظ (الحياة الدنيا ، ويوم القيامة ، والحساب) قد سجلتها الكتب السماوية قبل القرآن كالتوراة والإنجيل .

وهكذا استطاع مرجليوث بإيراد أمثلة فردية وخاصة .. الحكم بإنكار الشعر الجاهلي كله جملةً وتفصيلًا .

أما ما يتضمنه كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين . فإنه باختصار يضم ثلاثة أجزاء رئيسية يتفرع كل منها إلى عدد من الموضوعات :

ففي الجزء الأول الذي يعد مدخلًا إلى نظرية طه حسين في الشعر الجاهلي ، يبدأ بنقد مناهج الدراسات الأدبية في مصر ببيئاتها الثلاث : «الأزهر» ، و«دار العلوم» و«القضاء

الشرعي» ومقارنتها بالمناهج التي تستخدثها الجامعة المصرية الجديدة في عام 1925، والقائمة على المناهج الحديثة التي تطورت بسببها الأمم ، وفي هذا تصور طه حسين، أن إصلاح هذه المناهج ، في اتباع سبيلين أولهما : الاجتهاد في أن نحبب إلى طلاب العلم في المدارس العالية والثانوية والابتدائية .. قراءة الشعر القديم وتفهمه وتذوقه مع الإيمان بأن الأدب العربي القديم ليس جافًا عسير الهضم ، وثاني هذين السبيلين هو في إعداد المعلمين بحيث يصبحون قادرين على تدريس اللغة العربية .

والجزء الثاني من الكتاب خصصه لدراسة مشكلة الوضع والنحل في الشعر الجاهلي، ومن أجل ذلك اشتمل على أربعة أقسام :

أولها خاص بتحديد طبيعة المنهج الذي اتبعه في دراسة الشعر ، وهو منهج ديكارت.. أما بقية الأقسام فقد خصصها لدراسة الأسباب المختلفة لنحل الشعر . وحصرها في دوافع مختلفة منها : السياسة والدين والقصص والشعوبية والقبلية وعمل الرواة متأثرًا في ذلك بالعرب الأقدمين ، وختم هذه الأبحاث بدراسة لطبيعة شعراء اليمن .

والجزء الثالث خصصه لاستخلاص ما أسماه بالمنهج المركب ، وهو ميزان للنقد يستخدم للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح من الشعر الجاهلي . وقد سلك في ذلك طريقتين أولهما : إثبات زيف هذه الخصائص الشائعة عن طبيعة الشعر الجاهلي من حيث اللغة والمعنى والصور . وثانيهما : دراسة شعر طائفة من شعراء الجاهلية دراسة نقدية تحليلية لاستخلاص الخصائص المشتركة لأشعارهم . فيما أسماه بمدرسة زهير كمثل حاول فيه أن يستخلص لشعر جماعة هذه المدرسة طابعًا فنيًا تتسم به أشعارهم .

وبتأمل نظرة مرجليوث للشعر في مقالته ، ونظرة طه حسين في كتابه ومن قبلهما ابن سلام نجد اختلافًا واضحًا بين طه حسين ومرجليوث بصرف النظر عن تلك المشابهة التي نجدها بين النظريتين ، والتي ترجع إلى سببين . الأول : تأثرهما بتراث واحد هو تراث الشعر الجاهلي والثاني : اتباعهما لمنهج واحد استقاه كل منهما من السابقين عليهما من العلماء العرب الأقدمين أو العلماء المحدثين . ومن المقارنة يتضح الآتي :

1 - يخصص طه حسين الجزء الأول من كتابه لنقد مناهج الدراسات الأدبية والنقدية في الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعي كما رأينا ، ولا نجد مثيلًا لذلك عند مرجليوث .

2 - نبه طه حسين إلى أنه سيتبع المنهج الديكارتي في تقييم الشعر الجاهلي ، وهو أمر فرضته عليه ثقافته الفرنسية ، بينما لا نجد ذلك عند مرجليوث .

3 - الجزء الثالث من كتاب طه حسين يختلف اختلافًا واضحًا يهدم نظرية مرجليوث من أساسها ، حيث خصص هذا الجزء لما أسماه بالمنهج المركب للفصل بين الصحيح وغير الصحيح في الشعر ، واعترافه بوجود بعض الشعر .. بينما لا يعترف مرجليوث بكل الشعر الجاهلي أصلًا . فلا نجد ذلك عنده بالطبع .

وغير ذلك من صور الاختلاف والتباين يستطيع حصرها عدد من المفكرين والكتّاب والنقاد المستنيرين ، وهو أمر أصبح ميسورًا الآن بعد ظهور مقالة هذا المستشرق الإنجليزي وترجمتها ، وإمكانية الرجوع إلى كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين . إن أبسط مراجعة للعملين تكشف إلى أي مدى كان طه حسين أكثر شمولًا من مرجليوث، وأكثر حرصًا على تراث أمته من هذا المستشرق المتعصب الذي لا يعترف أصلًا بثقافتنا، والدليل أنه يهدم أساسها حين ينكر الشعر الجاهلي جملةً وتفصيلًا . ولكن ما العمل وقد شاء البعض أن يجعلوا منه شيئًا مذكورًا في ثقافتنا .

إلى جانب هذه الأدلة على براءة طه حسين من تهمة السطو التي حققها تطور البحث العلمي . هناك دليل آخر على البراءة يقدمه مرجليوث نفسه ذلك الذي اكتشفه الدكتور عبد الله المهنا عميد كلية الآداب الأسبق بجامعة الكويت والذي نَضَّرَ بحق وجه البحث في هذه القضية . حيث اكتشف مقالة لمرجليوث كان قد كتبها بمجلة الجمعية الملكية الأسيوية في العدد الرابع في عام 1927 وقد نشرها صاحب هذه الصفحات بالأهرام عام 1987 . فيها يعلن مرجليوث أنه وطه حسين بحثا بالفعل موضوع الشعر الجاهلي لكن كل على حدة ، وليس هناك أية علاقة بين الاثنين وأنه لا صلة بين ما كتبه هو أي مرجليوث في

مقاله ، وما كتبه طه حسين في كتابه . ولو أن هذا المستشرق المتعصب كان لديه ما يقوله ضد طه حسين لكان قد قاله حتى على سبيل الفخر والزهو أمام بني جنسه، وحتى إن كان قد حدث وامتنع هذا المستشرق عن ذلك لقاله غيره وأعلنه . على الأقل خدمة للبحث الذي ينبغي أن يعطي لكل ذي حق حقه حتى يصل الجميع إلى نتائج محددة .

ولتعميم الفائدة بالنسبة للدارسين والباحثين ننشر بعضًا من الترجمة الحرفية لنص مقالة مرجليوث - على أن ننشرها كاملة في الجزء الخاص بالوثائق- التي عثر عليها وترجمها الباحث الكويتي الدكتور عبد الله المهنا هذه المقالة التي نشرها بمجلة الجمعية الأسيوية الملكية ضمن باب «تعليقات الكتب» من ص 902 إلى ص 904 : «هذه طبعة موسعة من كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي الذي نشره في العام الماضي 1926 ، وكان موضوعًا لكثير من المقالات والدراسات في الصحافة بالقاهرة . ومن المؤكد أن طبعة الكتاب الأولى كانت قد سحبت من التداول لاحتوائها على بعض الفقرات التي يظن أن فيها مساسًا بالدين . وفكرة الكتاب إن كانت مماثلة للفكرة التي أدرت حولها بحثي عن نشأة الشعر الجاهلي الذي نشرته في هذه المجلة في الوقت نفسه تقريبًا الذي ظهرت فيه طبعة الكتاب الأولى إلا أن كلًّا منا يختلف عن الآخر . ولذلك توصل كل منا مستقلًا عن الآخر تمامًا إلى نتائج غير متشابهة .

وتتلخص هذه الفكرة في أن بعض النصوص الشعرية التي يفترض أنها من عمل شعراء جاهليين مشكوك في صحتها . وهو ما يجعل منها نصوصًا لا يصح اتخاذها وثائق تاريخية أو لغوية .

ولقد أثبت الأستاذ القاهري بحق أن الشكل اللغوي صيغت فيه هذه الأشعار يؤكد أن لغة القرآن كانت تعم سائر أجزاء الجزيرة العربية في الوقت الذي تؤكد فيه شواهد أخرى عديدة من النقوش أنه كانت هناك لهجات أو بالأحرى لغات أخرى مستخدمة في الجزيرة العربية . وإذا كان طه حسين ، قد استطاع بمهارة فائقة أن يرصد الدوافع المختلفة لتحريف الشعر في العصور الإسلامية ونسبته إلى شعراء الجاهلية فإنه لم يكن مستعدًا لأن يؤكد أو ينفي الوجود الحقيقي لامرئ القيس الذي يتصدر اسمه قائمة شعراء الجاهلية .

والقسم الأخير من كتاب طه حسين قسم بناء خصصه المؤلف للتدليل على وجود مدارس شعرية قرب ظهور الإسلام ، وذكر منها واحدة تبتدأ بزهير فالحطيئة فكعب فجميل وتنتهي بكثير عزة . ولكن قيمة هذه النظرية قد اهتزت إلى حد ما بتأكيد طه حسين نفسه من أن بعضًا من الشعر المنسوب إليها أغلبه مصنوع ، وأن الرواة الذين وصل عن طريقهم خبر هذه الصلة الفنية بين شعراء هذه المدرسة يفصل بينهم وبين آخرهم زمن طويل . ولذلك فإن الجزء الهدام من نظرية طه حسين لا يزال أقوى أجزاء الكتاب ، وأكثرها تأثيرًا في الدراسات الأدبية في العالم العربي . تلك التي سلكت بفضله طرقًا جديدة . ومن الحقائق الثابتة أن نقوش المقابر في المجتمعات الجاهلية التي كانت تستخدم الخط الحميري تؤكد لنا عدم وجود أي أثر للشعر . وأن صعوبات خطيرة تواجه الزعم القائل بأن هذه المجموعات الشعرية أو جزءًا منها قد تم حفظه عن طريق الكتابة أو الرواية الشعرية . كما أن هناك شكوكًا عميقة تهدم النظرية القائلة بأن الصناعة الشعرية من عمل شعراء جاهليين . نحن – إذن – في ظلام دامس ، ويجب قبل أن نقرر أية حقيقة أن نبدأ بتبديد الشكوك حولها . وهو ما أنجز منه طه حسين كثيرًا ذا قيمة» .

وبعد هذا الدليل الحاسم وما سبقه من أدلة قدمها علماؤنا المستنيرون وفي مقدمتهم المفكر العربي الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوي لا يبقى هناك مجال لاتهام طه حسين بالتغريب أو التخريب ، بالسرقة أو السطو ، بالكفر أو الإلحاد .. هذه الاتهامات التي وجهت إليه حيًا وميتًا . ودارت بسببها المعارك منذ صدور كتابه إلى اليوم فأهدرت قوًى كنا في حاجة إليها لتطوير خطوات البحث حتى يمكن تحقيق نتائج أفضل ، إلى جانب أنه استفادت منها طائفة من الكتاب الذين لا يبحثون عن المعرفة في مظانها الأولى ، وإنما يكتفون بتعليقات من سبقوهم أو بما يسمعونه حول هذه القضايا من ملابسات وتداعيات فيملئون الصفحات بالتهجم والإدعاء والتطاول على قامة مثل طه حسين لم يرد لهم أو لغيرهم أو لأمته العربية الإسلامية إلا الخير الذي يعنيه ، وهو مواكبة حركة التطور والتقدم في تناول الآداب القديمة .. لكن ما العمل وهناك في هذه الفئة من تدفعهم الشهرة الزائفة وطلب المال على حساب طه حسين حيًا أو ميتًا؟!

■ 2 ■

شك طه حسين في الشعر الجاهلي
منهج عربي أصيل

والآن بعد أن وصلنا مع كتاب «في الشعر الجاهلي» عرضًا وتقديمًا ، تحليلًا وتقييمًا .. هل نحن في حاجة إلى تبيان المنهج الذي التزم به الدكتور طه حسين .. وهل هذا المنهج عربي أصيل ، أم أنه ينتسب إلى مناهج غير عربية كما يدعي خصومه .

فكلما قرأت اتهاما ظالمًا ، موجهًا إلى الدكتور طه حسين حيّا كان أو ميتًا ، فإن المرء يدهش ويتعجب ، ومصدر العجب والدهشة هنا أن هذه الاتهامات لا تقوم على أساس علمي ، بما فيه من أدلة وبراهين .. ولو أن أصحاب هذه الاتهامات أجهدوا أنفسهم في البحث والتقصي ، وقرأوا تداعيات وملابسات قضية الشعر الجاهلي بعد تطور البحث فيها ، لاكتشفوا أن طه حسين بريء من كل هذه الاتهامات ، والأكثر والأهم لاكتشفوا أن شك طه حسين في صحة الشعر الجاهلي منهج عربي إسلامي أصيل سبق منهج مرجليوث (1858 - 1940) إن كان له منهج ، وغيره من المستشرقين الإنجليز أو الألمان أو الفرنسيين حيث سبق منهج ديكارت (1956 - 1650) في الشك بمئات السنين ، حين كان الأدباء والعلماء العرب أسبق من ديكارت ، بل وكان لهم دور في تفكير هذا الفيلسوف وغيره من فلاسفة وأدباء عصر النهضة الأوروبية الحديثة .

ولهذا أقول : إن ما يحزن المرء ويؤسفه هو أن ننسب في حواراتنا الثقافية العربية جهود أجدادنا العرب الأقدمين إلى غيرهم من الأجانب والمستشرقين ، سواء كان هذا المرجليوث - الذي يريد البعض أن يصنع منه شيئًا مذكورًا في تاريخنا الثقافي ، أو حين

يتهم بعضنا البعض دون برهان أو دليل ، مع أن أبسط مراجعة لتاريخنا الثقافي تدلنا على أن الشك عامة ، والشك في صحة الشعر الجاهلي خاصة ، منهج عرفه العرب الأقدمون قبل أن يعرفه الأوروبيون بما فيهم ديكارت نفسه بمئات السنين معرفة علم ودراسة .

فمثلًا في الأدب ، الشعر منه خاصة ، شك علماؤه ونقاده في صحة هذا الشعر الجاهلي، وكان أبرز هؤلاء العلماء والنقاد محمد بن سلام الجمحي (134 - 231 هـ)، وهو ما سجله في كتابه «طبقات فحول الشعراء» العلامة الراحل محمود محمد شاكر عام 1974 وما نكرره للتأكيد ، فنجده أي ابن سلام .. يقول في جزئه الأول ص (4) السطر الأول : «وفي الشعر مصنوع مفتعل ، وموضوع كثير لا خير فيه» .

وهنا قمة الشك في الشعر الجاهلي إذ قرر ابن سلام أن في هذا الشعر الكثير الموضوع المصنوع المفتعل .

كما يقول في ص (7 ، 8) من الجزء الأول : «وكان ممن أفسد الشعر وهجنه ، وعمل كل غثاء فيه : محمد بن اسحق بن يسار . فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر عنها قائلًا: لا علم لي بالشعر ، آتينا به فاحمله ، ولم يكن له عذر ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارًا كثيرة». بلى ووصل الأمر أن يجعلوا آدم عليه السلام يقول الشعر وبالعربية»!!

وهنا يشير ابن سلام إلى كثيرين زيفوا الشعر الجاهلي وأفسدوه ووضعوا فيه ما لم يقله أصحابه من الرجال أو ما لم تقله عاد أو ثمود . أو ما لم يقله آدم عليه السلام .

ويقول ابن سلام في ص (46) : «فكما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم شعرًا ، ثم كانت الرواة في الأشعار التي قيلت» .

ويقول ابن سلام في ص (48) : «وكان أول من جمع أشعار العرب ، وساق احاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار» .

وهنا يضرب ابن سلام مثلًا آخر لرواية أخرى لراوٍ غير موثوق به هو حماد الراوية .

ويقول ابن سلام في ص (215) : «وكان أشعرهم - يقصد شعراء المدينة المنورة - حسان بن ثابت ، وهو كثير الشعر جيدة ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش - أي لما اتت قريش بالشتائم واستبت ، وضعوا عليه - أي علي حسان بن ثابت - أشعارًا كثيرة لا تنقى - أي يصعب تمييز الصحيح فيها عن الزائف المنحول عليه» .

ويقول ابن سلام ص (244) : «وكان أبو طالب شاعرًا جيد الكلام ، أبرع ما قال (قصيدته) التي مدح فيها النبي ﷺ .. وقد زيد فيها وطولت ..» .

إلى آخر هذه الأقوال لابن سلام التي تؤكد الشك في الشعر الجاهلي قبل غيره من أجانب أو مستشرقين بمئات السنين . ويذكر أسباب تزييف الشعر في كتابه قائلًا : «أسباب عديدة لانتحال الشعر والتزيد من الزائف فيه ، ومن هذه الأسباب : كذب الرواة للتكسب بالرواية ، ومنها وضع الشعر على ألسنة الشعراء الكبار مدحًا في الأجداد ، وتملقًا لذوي السلطان من المعاصرين طمعًا في نيل عطاياهم . ومنها انتحال القصائد للتفاخر بين القبائل ، أو انتحالهم لأسباب دينية ، كما رأينا عند حسان بن ثابت وأبو طالب» .

ومن هنا نرى اتفاقا مع الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» - أن طه حسين في شكه في صحة الشعر الجاهلي قد تأثر بعلماء الأدب ونقاده العرب ، وفي مقدمتهم ابن سلام الجمحي ، هؤلاء العلماء والنقاد العرب الذين وضعوا قواعد للنقد الفيولوجي السليم للشعر الجاهلي قبل ألف عام من ظهور مرجليوث أو غيره .

وعن الشك نفسه في تناول الروايات والأخبار ما أورده الجاحظ (775 – 868) في حكاياته وأخباره حيث خاطب القارئ لكتابه «الحيوان» قائلًا : «ولم أكتب هذا – يقصد الخبر – لتقربه – أي لتسربه – ولكنها رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الإنكار له . ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل ، وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم أيها القارئ الشك في المشكوك فيه تعلمًا ، فلو لم يكن في ذلك إلا أن تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه» .

ومعنى ذلك تنبيه الجاحظ لقارئه أن يشك فيما يعرض عليه من أخبار وروايات قيلت من قبل حتى يصل إلى حالة من اليقين لا يكون بعدها أي شك . أو كما قال الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه : «نحن والعصر مفاهيم ومصطلحات إسلامية» تعليقًا على قول الجاحظ : «إنه يعني الشك في الأمور إلى أن يقوم عليها الدليل» .

وفي العلم كان العرب الأقدمون لا يسلمون بصحة ما كتبه السابقون ، إلا بعد نظر وفحص وتثبت وتمحيص نتيجة للشك عندهم فيما قاله السابقون . حتى يصلوا إلى حالة من اليقين لا يكون بعدها أي شك ، أو كما قال الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد في المصدر السابق: «حتى يمكن التثبت من الآراء الواردة فيها حتى يستبين صوابها أو بطلانها بالحجة والبرهان» .

ومن أوضح ما قيل في هذا الصدد عن العرب الأقدمين ما عبر عنه الحسن بن الهيثم (965 – 1069) في مجال شكوكه في كتابات بطليموس في كتاب بعنوان : «الشكوك على بطليموس» لابن الهيثم تحقيق الدكتور عبد الحميد صبره والدكتور نبيل الشهابي، حيث قال : «فالحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده ، ووجود الحق صعب ، والطريق إليه وعر ، والحقائق منغمسة في الشبهات ، وحسن الظن بالعلماء في اتباع جميع الناس ، وما عصم الله العلماء من الزلل ، ولا حمى علمهم من التقصير

والخلل ، ولو كان ذلك كذلك ، لما اختلف العلماء في شيء من العلوم ، ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور ، فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب الأقدمين ، المسترسل مع طبعه في حسن الظن بهم ، بل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم، المتوقف فيما يفهمه عنهم المتبع الحجة والبرهان ، لا قول القائل الذي هو إنسان، المخصوص في جبلته بضروب الخلل والنقصان إلى أن يقول : «فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق ، وظهر ما عساه وقع في كلام من تقدمه من التقصير والشبه» .

ويعلق على ذلك الدكتور ناصر الدين الأسد قائلًا : «إن ما قاله ابن الهيثم طبقة في كتبه، وطبقه غيره من علماء العرب ، حين لم يكتفوا بقراءة كتب الأقدمين والتسليم بصحة ما فيها وتكراره ، وإنما نظروا فيها بعين الفحص والتمحيص ، ونقدوها ، وردوا على كل ما يحتاج منها إلى رد ، وقبلوا منها ما رجحت أو ثبتت عندهم صحته .. وهو بعينه الشك فيما قاله السابقون» .

ولعلنا نستنير بما كتبه الدكتور / ناصر الدين الأسد بكتابه «نحن والعصر مفاهيم ومصطلحات إسلامية» عن خصائص الثقافة العربية، تلك التي تعرف بها .. شأنها شأن كل الثقافات الأخرى، ولنطبق ذلك ونختبره على أسلوب الدكتور طه حسين في نظراته النقدية، وأولها تقييمه للتراث الشعري في الجاهلية، وهو ما نعني به تبين منهجه النقدي، ومن هذه الأساليب التي اتبعها العرب المسلمون، واستفاد منها وتأثر بها الدكتور طه حسين أسلوب إطلاق العقل من أغلال الخرافات ، وتحريره من الأوهام والأساطير والأباطيل بنواميس ثابتة، وتجري بحساب دقيق، وعلى المسلمين أن يتدبروها فيغوصوا في أعماقها، وينقبوا ويبحثوا ويكشفوا أسرارها وأسبابها ونتائجها. مثلما قيل كُسفت الشمس يوم موت إبراهيم بن محمد رسول الله ﷺ فقال الناس وقتئذٍ : كُسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال النبى ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما:»ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله . ومعنى هذا أن الإسلام لا يقر وقوع العقل في أغلال الخرافات. وهو ما نتبينه في صفحات كتاب « في الشعر الجاهلي» من أولى هذه الصفحات إلى آخرها والمؤلف

يرفض الخرافات والأساطير ويندد بها وينتقد العاملين بها نقدًا مرّا ، وكأنه يطبق أسلوب من أساليب الثقافة العربية الإسلامية .

ومن هذه الأساليب أسلوب الفهم الصحيح للنصوص، وعدم الاكتفاء بحفظها وتردادها، وربط العلم بالعمل والفهم بالتطبيق وهو الأسلوب الذي اتبعه رسول الله ﷺ في تعليم صحابته، وإفهامهم آيات القرآن الكريم ودراستها وتطبيق ما ورد فيها على حياتهم اليومية، بحيث لا ينتقلون إلى آية أو سورة إلا بعد الانتهاء من فهم الآية أو السورة السابقة عليها،وهو أسلوب سجلته الآثار والأخبار عن الصحابة ومنهم ابن مسعود رضى الله عنه يقول : كان الرجل منا إذا عرف عشر آيات من القرآن الكريم لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» عملًا بما أمر به النبى ﷺ .

وقد استفاد من ذلك الدكتور طه حسين فكان يدعو دائمًا في كل صفحات كتابه «في الشعر الجاهلي» إلى الفهم الصحيح للقصائد وحتى يمكن استخراج الأصيل من الدخيل. ويكون نتاج ذلك شعرًا جاهليًا صحيحًا لا انتحال فيه . وأما أن نقرأ هذه الأشعار دون تأملها أو الاعتناء بمفرداتها وهل هى تمثل العصر الجاهلي أم العصر الإسلامي ، فهذا ما كان يرفضه ، وهو الأساس الذي قام عليه منهجه في تبين صحة الشعر الجاهلي.

هذا إلى جانب أسلوب كل من الجاحظ وابن الهيثم في الشك اللذين تمت الإشارة اليهما منذ قليل واستخراج الأحاديث النبوية الصحيحة من غير الصحيحة ، وغير ذلك من الأساليب العربية الإسلامية ، مما يؤكد أن العرب الأقدمين كانت لثقافتهم خصائص متميزة نقلها وتأثر بها الخلف عن السلف حتى وصلت طه حسين وغيره من الرواد العرب في كل الأقطار العربية والإسلامية.

وهكذا نجد العرب الأقدمين كانوا أسبق من غيرهم في الشك وغيره من الأساليب التي تؤكد صحة النص. ولهذا نقول إن المعين الذي استقى منه طه حسين نظريته في الشك في الشعر الجاهلي كان عربيًا أصيلًا، وليس أجنبيًا دخيلًا ، بل إن هؤلاء الأوروبيين بمن فيهم المستشرقون استقوا معلوماتهم من الشك في صحة الشعر الجاهلي- كما أسلفنا القول – من علماء العرب أنفسهم .

■ 3 ■

طه حسين متهمًا تدافع عنه مؤلفاته وأعماله

والدكتور طه حسين الذي عرفناه مزيجًا قويًا بين حضارتين متغايرتين هما الشرق والغرب، وعصارة طيبة بين معهدين مختلفين هما الجامع الأزهر وجامعة باريس. فأصوله ما برحت راسخة في حضارة الشرق تستخلص منها الغذاء، وفروعه سامقة في حضارة الغرب تستمد منها النور .

طه حسين الذي عرفناه ناقدًا، ومستحدثًا لموازين جديدة للنقد، وأديبًا وموجهًا للدراسات الأدبية، وكاتبًا أضاء تاريخ صدر الإسلام بلوامع وضاءة، ومفكرًا محيطًا بشتى فروع الثقافة العربية والعالمية ، وداعية لتعميم التعليم وجعله حقًا مشروعًا لكل مواطن كحقه في الماء والهواء.

طه حسين الذي عرفناه موقفًا باهرًا ضد كل ما في الحياة من ضعف وعجز، وشعورًا كاملًا بالإنصاف الإنسانى ، ورغبةً قويةً في العدل الاجتماعى، وأملًا عزيزًا في التضامن بين إخوة الإسلام والعروبة، وميلًا عظيما للتحرر من التقاليد البالية، وإيمانًا راسخًا بسيادة الإنسان العربي على أرضه ومصيره .

طه حسين الذي عرفناه كاتبًا كبيرًا لا تستوعب الحكم عليه هذه السطور.. يحاكم وممن؟ من أبنائه وأحفاده على امتداد العالم العربي ! وكيف ؟ بأسلوب محاكم التفتيش في العصور الوسطى، فبدلًا من محاكمة كلمته المطبوعة المحملة بفكره يحاكمون ضميره بحثًا عن الذي كان يقصده ولم يكتبه أو يسجله أو يقله !

وإلا فما ظنك عزيزي القارئ بكتابة فريق أصبحت عقولهم عند أطراف أصابعهم.. تلك التي تجمع الدراهم والدنانير على حساب مفكر مثل طه حسين؟! وما ظنك بكتابة فريق آخر ممن يلهثون جريًا وراء الشهرة الخادعة والارتفاع الزائف حتى ولو كان على جثة رجل ميت مثل طه حسين ؟!

وما ظنك بكتابة فريق ثالث ممن يعلنونها مدوية أنه آن الأوان اليوم لتصفية الحسابات القديمة مع كاتب مثل طه حسين الذي توفي عام 1973 ؟!

ما ظنك عزيزي القارئ بكتابات هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء إلّا أن تكون كتابات بعيدة عن الحق، مجافية للدقة، معادية للموضوعية ؟!

هل نحن في حاجة إلى مثال للمناهج التي يتناولون بها أعمال طه حسين ومواقفه؟! إن بين أيدينا الآن عشرات من الأمثلة لهذه الأساليب التي يستخدمونها في كتاباتهم .

فيها نقتصر على رصد اتجاهاتها وخطوطها ومحاورها، دون الإشارة إلى مسمياتها.. فربما لا ترضى عزيزي القارئ على طه حسين أن يكون طرفًا في نزاع مع الأبناء والأحفاد خصوصًا هؤلاء الذين ضاع منهم الصواب! أو الذين في حاجة إلى نعمة اسمها الخجل والكسوف!!

هناك كتابات لا تهتم مثلًا بأحداث التاريخ فيقع صاحبها نتيجة لذلك في خطأ، كأن يرى ماركس متأثرًا في نظريته بمدرسة دور كايم مع أن الثابت أن ماركس ونظريته وجدت قبل دوركايم ومدرسته، وأخرى ترى التهجم على طه حسين أقصر طريق للربح، فهي مادة مثيرة تخطف انتباه القارئ، وثالثة لا تفرق بين التأليف عن طه حسين » والتوليف بين كتابات الآخرين وكل ما يفعله صاحبها هو ربط بعضها ببعض مستخدما قاموس الشتائم المعروف، ورابعة لا تهتم بتوثيق مادتها عن طه حسين بالمراجع وحين يذكر صاحبها مرجعًا لا يهتم بكتابة اسم صاحبه .. وحين ينقل يخطئ في النقل، ويخلط بين ما يكتبه وما يرجع إليه، وخامسة تقتصر في تقييمها لطه حسين على وجهات نظر خصومه، خصوصًا في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، مع أن هناك وجهات نظر جديدة،

وأن النظرة في الثمانينيات والتسعينيات تختلف عنها في الثلاثينيات ، وسادسة لا تهتم بالرجوع إلى المصادر الأساسية فحين يرجع صاحبها إلى التحقيق مع طه حسين وقرار النيابة بتبرئته يكتفي بالتعليقات ولا يهمه النص، وسابعة لا يحسن صاحبها القراءة.. فيقرأ مثلا عبارة طه حسين « خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب» بلسان المتكلم، مع أنها في الأصل بلسان الغائب حيث تعني أنه : إن كانت الأخلاق قد خسرت بما جاء في شعر ابي نواس، فإن الأدب ربح شاعرًا فحلًا فيقرأها .. على أن طه حسين نفسه خسر الأخلاق وبنى نتائج على ذلك !!

إلى آخر هذه الأخطاء المذلة التي لا تخلو منها واحدة من هذه الكتابات، والمرء يندهش لهؤلاء .. فكيف يتصدى للكتابة عن « مفكر كبير مثل طه حسين» من لم يكن مؤهلًا لها ؟!

أما الاتهامات وفي مقدمتها اتهام طه حسين بتغريب ثقافتنا وهدم عقيدتنا ، فهي اتهامات ظالمة يتفرع الواحد منها إلى عدة اتهامات ظالمة. فعن تغريب الثقافة يتفرع إلى أنه تغريبي، وبأنه يعمل على الترويج للفكر الوثني اليوناني والحضارة الغربية، وأنه يعاون الغزو الفكري الأجنبي في العالم العربي !

مع أن إطلاق كلمة تغريبي على فريق، وإسلامي على فريق آخر.. نوع من الأحكام العامة الخاطئة مثلها كمثل أن تقول هذا قديم وذاك جديد، إلى جانب أن هذه التقسيمات تقوم في النفوس - كما يقولون - على الكره والبغض والاحتقار والازدراء والطرح والرفض بلا أسباب واضحة تعتمد على العقل .

وأما عن اتهامه بالتشيع للحضارة الغربية فيكفي أن نقرأ رأيه في هذه الحضارة، حيث يقول : « والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرًا خالصًا يخطئون، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرًا غير قليل ..» ويقول عن الشاب الذي يتمسك بهذه الحضارة دون حضارته العربية : « .. هذا الشاب ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشره ليس مقصورًا عليه ، وإنما يتجاوزه

إلى غيره من الناس . فهو يتحدث وهو يعلم وهو يكتب وهو في هذا كله ينفث السم ويفسد العقول .. « إلى أن يقول : « لا حياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامي عنايتها بما يمس حياتها من ألوان الحضارة الحديثة» .

ويُتهم طه حسين بالتشيع للفكر الوثني اليوناني حيث كتب عنه. وإذا كنا نتهمه بهذه التهمة، فبماذا نتهم فلاسفة المسلمين، وفى مقدمتهم « ابن رشد وابن سينا والفارابي» ممن تأثروا بالفكر اليوناني وكان دورهم مزدوجًا : دور الرسول الحامل لأوروبا رسالة اليونان، ودور الفاعل بما ابتكر وأنتج ؟ هل نتهمهم بالترويج للفكر الوثني أم ترانا نقول عنهم إنهم كانوا يعبرون عن أشواق عصر واحتياجات حضارة وقيم مجتمع، وإنهم أضاءوا بفكرهم ظلام العصور الوسطى في أوروبا ؟

ويُتهم طه حسين بأنه كان عاملًا مساعدًا للغزو الفكري، حتى أصبحنا عن طريقه تابعين للفكر الغربي. والمرء يعجب للذين يرددون عبارة الغزو الفكري ، وكأن الفكر أمامه جيش جرار يقوم بغزوه ، وهذا لا يحدث مطلقًا.

وللرد على تهمة تغريب ثقافتنا بوجه عام نذهب مع الدكتور محمد كامل حسين في قوله: «إن طه حسين على قدر ما علم من الثقافة الغربية لم يدع تفكيره يفني فيها ولو فني لما حفل به أحد» .

وفى إطار هدم العقيدة تتهم هذه الكتابات طه حسين بأنه هاجم الإسلام والأزهر وشوَّه تاريخنا الإسلامي بكتابته، حيث استخدم المنهج المادي في التاريخ .

يقولون هذا عن طه حسين في الوقت الذي نقرأ مقدمته لكتاب « الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة » حيث يقول :

« الأزهر لم يكن مشرق النور في عصورنا القديمة وحدها، وإنما هو مشرق النور في العصر الحديث، هو الذي تلقى الحضارة الأوروبية، وهو الذي أذاعها في مصر، ثم في الشرق».

وأما عن الهجوم على مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي الذي دعي إليه طه حسين واشترك فيه فليس هناك أبلغ من رد الداعية الإسلامي الراحل الشيخ محمد متولي الشعراوي في قصيدة قوامها 110 ابيات منها قوله :

هَامِشُ السِّيرةِ الحَبيبةِ فِيه تَتَغَنَّى سَمَاحَةُ الأنْبِيَاءِ
هُو عَنْ نِعمَةِ البيَانِ زكَاةٌ وَلِهذَا أدركت سِرَّ النَّمَاءِ
وَجَمالُ الإِسْلَامِ في وَعْدِكَ الحَقّ تَجَلى فِيهِ جَلَالُ الفِداءِ

وتبقى اتهامات أخرى لطه حسين أقلها أنه ليس أديبًا أو ناقدًا أو مفكرًا أو رائدًا، وأنه أفسد التعليم والثقافة ، ونشر العامية للقضاء على الفصحى .

ولا شك أن هجوم هذه القلة من الأبناء والأحفاد على كبيرهم طه حسين يعد - في حد ذاته- دفاعًا مجيدًا عنه.. يدركه الأذكياء من القراء الذين ينشدون التوجه إلى الكتابات الموثقة. كما يعتبر نوعًا من الخلود لطه حسين ، حيث استطاع في جانب أن يحرِّك أجيالًا من القراء إلى أن يناقشوه أو يخاصموه أو يهاجموه أو حتي يسلكوا معه نفس أسلوب محاكم التفتيش، على حين استطاع في الجانب الآخر أن يهذِّب أجيالًا من الأدباء والكتّاب والمفكرين، حين يقفون منه موقف الناقد الذي يحترم خصمه ويستعد للاشتباك معه في معركة سلاحها العلم، ووسيلتها البحث، وغايتها الحقيقة .

ولقد استطاع طه حسين أن ينقل الجدل بين الطرفين من مستواه الضيق إلى مستوى أرحب وأشمل، وأن يجعله جزءًا لا غنى عنه من التكوين الفكري لهذه الأمة. إلى جانب ذلك أيضًا طبيعة فكر طه حسين .. وهل هذا الفكر إلا ما عرفناه ووصفناه بأنه تيارات من التساؤل وبحرًا من القلق وعاصفةً من التجديد . وقد صدق صاحبه طه حسين حين قال عن نفسه : «أكره الطريق المطروقة ولا أشرب من الحوض المباح» !

وفي إطار الوعي بحدود الجدل بين الطرفين والفهم لطبيعة طه حسين يمكن مواصلة الإشارة إلى هذه الاتهامات، مستعينين في الرد عليها بكلمة طه حسين المكتوبة وكتابات عشرات المفكرين المستنيرين .

تتهمه بعض الكتابات بالكفر مستندة إلى ما كتبه في كتاب « الشعر الجاهلي» وبرأته منه النيابة ورجع عنه بحذفه. لكنهم لا يقبلون ، وإنما يصرون على رميه بالكفر بمناسبة او بغير مناسبة. ولا أدرى كيف يسمح إنسان مسلم لنفسه أن يكفر مسلما يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقف أمام الكعبة داعيًا ربه بما يسجله بعد ذلك في كتاباته وما تنقله عنه الأقلام: ومنها قلم الشاعر الكبير كامل الشناوي حيث ردد أي طه حسين هذه العبارة في خشوع وخضوع : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، اغفر لى ما قدمت وما أعلنت وما أسررت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت»، ثم كيف يتهمونه بهذه التهمة في الوقت الذي نراه يرد على الكاتب الفرنسي «اندريه جيد» الذي اعتقد أن الفكر الإسلامي يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من الأسئلة قائلًا: «لم تخطئ أنت وإنما دفعت إلى الخطأ دفعًا. لقد خالطت كثيرًا من المسلمين، ولكنك لم تخالط الإسلام. ولم يكن من اليسير أن يظهرك الذين لقيتهم من المسلمين على حقائق الإسلام. فلو قد تعمقوا الدين تعمقًا دقيقًا لأظهروك على ما يثيره القرآن الكريم من مسائل ، وما يعرض لها من إجابات» .

ويتهمونه بالعمل ضد الإسلام والعروبة، حيث يروج للفكر غير الإسلامي متجاهلين رأيه في هذا الفكر غير الإسلامي، وبأن شره أكثر من خيره. وأن اهتمامه به للعلم الذي به ينفع أمته، عملًا بتعاليم ديننا (الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها هو أحق الناس بها)، ودعوة رسولنا عليه الصلاة والسلام إلى طلب العلم ولو في الصين ، وأن (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم) وأن (من تعلم بابًا من العلم يعلم به الناس أعطى ثواب سبعين صِدِّيقا)، ثم لماذا لا نقرأ طه حسين حين يرى أن قوميتنا كعرب أساسها الإسلام ؟.. الدين الإسلامي مقوِّم من مقوِّمات قوميتنا العربية حيث يقول « أنبهكم إلى أن من الواجب أن يكون هذا المفهوم الدينى مصاحبًا لكم في كل لحظة من لحظات حياتكم والذين يقصِّرون في ذاته يقصِّرون في ذات أنفسهم» .

ويتهمونه بالولاء للصهاينة واليهود مع أنه هو القائل : « هل صحيح أن اليهود الذين يعيشون في فلسطين هم بنو إسرائيل ؟ الذي أؤكده هو أن اليهود يتحدثون عن التوراة ، ولا أعرف كتابًا ذكر اليهود بالشر مثلما ذكرتهم التوراة » !

ويتهمونه في لسانه العربي بأنه يروِّج للعامية وللأدب الشعبى للقضاء على الفصحى لغة القرآن والأدب العربي القديم، مع أن القارئ لكتابات طه حسين يرى غير ذلك تمامًا. يراه في دفاعه عن أدبنا القديم يقول : « ليس الأدب العربي القديم بأقل من الآداب الأجنبية مهما تكن، وليس الأدب العربي أقل صلاحًا للبقاء واستحقاقًا للعناية من الآداب الأجنبية . وكل عيب الأدب العربي أنه مجهول لا يحسنه أصحابه ».

ويؤمن بالفصحى حيث يقول : « عامة الناس يفهمون القرآن، لأن لغته هي لغة الفصحى». ويقول : « لا أدب إلا أدب الفصحى، والذين يستخدمون العامية ليسوا واقعيين، وإنما هم عاجزون ».

ويخشى على أدبنا العربي من انتشار الأدب الشعبي فينبه قائلًا : « ليس من الضروري أن ينحط الأدب ليصبح شعبيّا، وليس من الضروري أن يبقى الشعب حيث هو جاهل غافل».

ثم لماذا لا نقرأ حرص طه حسين على لسانه العربي في شهادة عالمين كبيرين أذكرك بأولهما العلامة محمود محمد شاكر الذي يقول : « لقد لقي طه حسين ما لقي، ونسب إليه ما أقطع أنه بريء منه، والدليل على براءته أنه منذ عرفته عام 1924 إلى أن توفي كان محبّا للسانه العربي أشد الحب، حريصًا على سلامته أشد الحرص متذوقًا لروائعه أحسن التذوق فهو لم يكن يريد قط باللسان العربي شرّا، بل كان من أكبر المدافعين عنه المنافحين عن تراثه كله إلى آخر حياته. ومحال أن يحشر من كانت هذه خصاله في زمرة الخبثاء ».

وثانيهما الدكتور حسني سبح رئيس المجمع اللغوي بدمشق الذي يقول : « لقد أنكر طه حسين واستنكر كل الاستنكار ترويج العامية وتشجيعها واستعمالها، لأن الدعوى

إلى العامية وتشجيعها واستعمالها كانت في رأيه فكًا لأواصر الصلة بين أفكار العروبة والعالم الإسلامي».

وتحكم هذه الكتابات المدهشة على طه حسين بأنه ليس مفكرًا.. وللرد نستعين بشهادتين الأولى للعالم الأديب الدكتور محمد كامل حسين الذي يقول : طه حسين – يصح أن نقول عن فكره أنه اخترق حاجز الصوت في المجال الفكري. فبلغ فيه آفاقًا أوسع وأصبح بينه وبين الفكر الوسط فرق شاسع . والشهادة الأخرى للدكتور فؤاد زكريا: « طه حسين كان يمثل في شخصه وفي فكره تجسيدًا حيًا لقيم النهضة الفكرية على نحو لم يستطع أى من السابقين عليه أن يحققه. والحق أن تكوين طه حسين الاجتماعي والفكري كان يؤهله لكي يقوم بهذا الدور خير قيام».

وبجرة قلم واحدة تحكم هذه الكتابات العجيبة على طه حسين بأنه ليس كاتبًا ولا أديبًا ولا ناقدًا ، ولنقرأ ثلاثة من أئمة الفكر والأدب والنقد وكأنها ترد على هذا الهراء مضطرة.. الأولى لرئيس مجمع الخالدين الأسبق الدكتور إبراهيم مدكور : « طه حسين استن في الكتابة والتعبير لونا من ألوان الأداء الفني حاكاه فيه كثير من الكتّاب وأضحى عميد الأدب بغير منازع..» والثانية لوزير الثقافة الأسبق الدكتور أحمد هيكل أحد خريجي وأساتذة كلية دار العلوم : « لقد تأصل منهج الدراسات الأدبية عن طريق طه حسين ، سواء في تلك الأسس والأفكار التي راد هو الدراسات الأدبية إليها لأول مرة ، أو تلك المبادئ والآراء التي سبقه غيره إليها، ولكنه هو الذي يتبناها».

والثالثة لرئيس أكاديمية الفنون ورئيس هيئة الكتاب الأسبق الناقد والشاعر الراحل الدكتور عز الدين إسماعيل : « كل من يتأمل الخطوط العامة التي تمثل هيكل فكر طه حسين النقدي يدرك أنها متكاملة، تعكس لنا عقلًا متوازنًا وروحًا حيًا. هو عقل الرائد الذي لا يكذب أهله، وروح الثوري الذي ينشد التغيير والتطور » .

ويتهمون طه حسين بنشر الإباحية والفجور في كتابه « حديث الأربعاء » ، حيث كتب عن ابي نواس وغيره من شعراء الغزل مستعينًا بكتاب فاسد هو « الأغانى » لمؤلف

فاجر هو الأصفهاني ، وهنا نتساءل : هل كان طه حسين أول من درس أبا نواس وشعر الغزل؟ المعروف أن هناك عددًا من الكتّاب ممن اهتموا بابي نواس .. العقاد أفرد له كتابا. وأن الغزل فن من فنون الشعر يبحثه الدارسون المجيدون . وهل كتاب « الأغانى» مرجع سيئ السمعة؟ المعروف أن العقاد أيضًا أثنى عليه ووصفه بأنه « مكتبة ثقافية تمثل الثقافة العباسية ». وهل اشتمل كتاب « حديث الأربعاء » لطه حسين على ابي نواس والغَزِليْنَ فقط ؟ المعروف أن الحديث عن ابي نواس والغَزِليْنَ استوعب فصل من الجزء الثاني لهذا الكتاب . وأما بقية أجزاء الكتاب الثلاثة فقد عنيت بالتأريخ للعصور الأدبية المتعارف عليها « الجاهلي والإسلامي فالأموي فالعباسي إلى العصر الحديث ». لكن ما العمل إذا كان أصحاب هذه الكتابات لا يقرأون حتى فهارس الكتب ؟!

ثم يتهمونه بسرقة نظريته في الشعر الجاهلي من المستشرق مرجليوث، وللرد نكتفي بشهادة الفيلسوف العربي الدكتور عبد الرحمن بدوي، حيث نذكّر القارئ بها : « كلما أتذكر الحملة الهوجاء التي أثيرت حول كتاب «في الشعر الجاهلي» ، فإن عجبي لا ينقضي لأن ما قاله طه حسين عن انتحال الشعر الجاهلي قاله علماء الأدب واللغة من العرب .. خصوصًا في القرنين الثالث والرابع للهجرة. ويكفي أن يفتح المرء الصفحات الأولى من كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ليقرأ فيه ما يلى « وفى الشعر مصنوع مفتعل وموضوع كثير لا خير فيه».. ثم يدلل الدكتور بدوي على براءة طه حسين وبأصالته العربية وبسبق نظره على معاصريه الذين كانوا بمعزل عن الأدب القديم وفي جهل فاحش به . ويرى أنه ليس هناك سرقة من طه حسين وإنما سوء نية من الآخرين.

وكذلك تشكك هذه الكتابات المغرضة في ريادة طه حسين وتطالب بها للآخرين ولا يعلنون عن أسمائهم، وكأن الريادة عمل يصنع تحت الأرض، أو كأن روادهم كما العفاريت نسمع عنهم ولا نراهم !! في حين نجد الإجماع على ريادة طه حسين في العالم العربي.. مثلًا نقرأ المفكر الإسلامي السوري محمد كرد علي : « من تحصيل الحاصل

الإشادة ببلاء طه حسين في خدمة الآداب العربية وأثره المحسوس في إدخالها في طور جديد .. مما صنع ريادته » ، أو قصيدة الدكتور عبد الرازق محيي الدين رئيس المجمع العلمى العراقي الأسبق في ريادة طه حسين التي يستهلها بهذا البيت :

حَيٌّ مَعَ الناسِ أَحياء بِما شَعروا لا الرَّأيُ يَبْلَى وَلا ذُو الرَّأْيِ يَنْدَثِرُ

وبعد فحين يملأ طه حسين الدنيا ويشغل الناس أكثر من نصف قرن.. يتحتم على الذين يريدونه مادة للتاريخ أن يرقوا إلى هذا المستوى، وليس هذا من أجل طه حسين، وإنما من أجل أمة يمثل طه حسين أحد حصونها الثقافية أمام العالم .. ولهذا نقول لأصحاب هذه الكتابات : كفوا أيديكم عن العبث في تاريخنا ولا تقربوه، إن لم تملكوا مقومات الكتابة عنه .

ختـــام

وبعد .. فهذا الكتاب الذي بين يديك – عزيزي القارئ – بكل ما يشتمل عليه من دراسة وتحليل ووثائق، ربما يجيىء في وقته، أقول ربما يجيىء في وقته ليوجه انتباه طائفة من المثقفين المهمومين بالثقافة العربية الأصيلة، أو يناغم طائفة أخرى من المهتمين بالثقافة الأجنبية.. هؤلاء وهؤلاء ينبههم إلى قيمة قضية هامة عمرها أكثر من ثمانين عامًا، حيث بدأت منذ عام 1926، ولم ينته الحديث فيها إلى اليوم. وهي قضية طه حسين والشعر الجاهلي .

ولقد تعوَّد المثقفون معارضون ومؤيدون أن يتحدثوا في هذه القضية عن هذا الكتاب ومؤلفه، بحيث ينتقدون ويهاجمون تارة، أو يمتدحون ويجلون تارة أخرى، أو يجرحون ويتطاولون في أحيان كثيرة .

وهذه الصفحات التي تضمنت عرضًا لمحتويات هذا الكتاب من ردود للكتّاب والأدباء والمفكرين قبل رحيل طه حسين أو بعده، ودراسة وتحليل لما جاء فيه، إضافة إلى وثائق هامة تتعلق به، وتمثل الجانب الآخر من الكتاب .

وعلى هذا فالكتاب يتضمن جانبين مهمين أولهما التقديم والدراسة والتحليل، والثاني الوثائق الخاصة التي تنير لنا الطريق، ولا أنصح أحدًا أن يقرأ أحدهما ويدع الآخر.. فإن فعل فسيظل إدراكه لوجهة النظر المبسوطة في كلا الجانبين إدراكًا ناقصًا ومبتورًا، كما لا أنصح أحدًا بأن يتواثب بين الصفحات مختطفًا كلماتها وعباراتها، اختطاف المتسرع العجل. لأنني إذا كنت قد كتبت هذا الكتاب صفحة وراء صفحة، فإنني أرجو من قارئها أن يتأملها ويناقشها سطرًا سطرًا .. أقول ذلك لأن فكر طه حسين يهمنا جميعًا مؤيدين ومعارضين ، ذلك لأنه فكر رائد من حقه على الأبناء والأحفاد، الأساتذة والتلاميذ،

الاهتمام والمناقشة والتأمل، وقبل ذلك كله القراءة الجادة بعين مخلصة، وأخرى واعية، فقد ينتج عن ذلك إنصاف طه حسين وكتابه أو عدم إنصافه.

لذلك أقول للجميع عن هذا الكتاب بمادته ووثائقه : اقرءوه كله أو اتركوه كله، ومن لم يفعل ، فلست أحمل معه مسئولية الأحكام المبتسرة التي تجهضها هذه القراءات المتسرعة الناقصة.

ثم ماذا يبقى لكي أقوله لكم قبل أن أغادر هذه الخاتمة، بل ذاك الكتاب كله ؟

عبارة أخيرة أرجو أن تأخذوها مشكورين : هذا الكتاب الذي كتبته لا يزعم بأي حال من الأحوال، أنه قطف نجوم السماء، أو أتى بما لم يأت به الأوائل !! لكنه مع ذلك يرجو بما أبلى- كاتبه – من جهد أسعفه عون من الله وفضله، مع أزمة صحية حادة كادت تسبب له مفارقة الحياة لولا مشيئة الله في أن أعيش برعاية فريق الأطباء بإشراف العالم الجليل الدكتور حازم الجندي كما أشرت في المقدمة ، وما رجوت من وراء ذلك إلا أن أسهم بنصيب في توضيح الحقيقة مدعمة بالحجة والمنطق، مصحوبة بالأدلة والوثائق حول تلك القضية التي دامت أكثر من ثمانين عامًا ، حتى وصفها بعض مؤرخي الأدب ونقاده بأنها قضية القرن العشرين الأدبية..

ولذلك أقول : من كان معه كلمة تزيد الحقيقة توضيحًا، سواء بالسلب أو الإيجاب، بالمعارضة أو التأييد فليقلها ، حتى ينير لنا وللأجيال طريقًا شاء البعض أن يكتنف بالغموض والإبهام أحيانًا ، الادعاء والاتهام أحيانًا أخرى.. وفي كلتا الحالتين عمّ اللبس غير الموفق في كل الأحيان فلست وحدي أو أحد غيري يملك الحقيقة كلها . ولكن باستخدام المنطق السليم، والدليل القاطع وقبلهما الوثائق، ربما يستطيع المرء الوصول إليها.

والله أسأل أن يوفقنا جميعًا إلى ما فيه توضيح هذه الحقيقة ....

سامح كريم

القاهرة الجديدة

15 فبراير 2008

الجزء الثاني : الوثائق

- نص كتاب في الشعر الجاهلي الصادر في مارس 1926.
- نص الترجمة العربية لمقالة مرجليوث الإنجليزية «نشأة الشعر العربي» .
- نص مقالة مرجليوث في براءة طه حسين

في الشعر الجاهلي

تـأليف

طه حسين

الطبعة الأولى

عام 1926

الاهـــداء

إلى حضرة صاحب الدولة
عبد الخالق ثروت

الكتاب الأوّل

١

تمهيـــــــد

هـذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربى جديد، لم يألفه الناس عندنا من قبل. وأكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا. ولكنى على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث، أو بعبارة أصح أريد أن أقيده، فقد أذعته قبل اليوم حين تحدّثت به الى طلابى فى الجامعة. وليس سرا ما تحدّث به الى أكثر من مائتين.

ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ماأعرف أنى شعرت بمثله فى تلك المواقف المختلفة التى وقفتها من تاريخ الأدب العربى. وهذا الاقتناع القوى هو الذى يحملنى على تقييد هـذا البحث ونشره فى هذه الفصول، غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بازورار المزوّر. وأنا مطمئن الى أن هـذا البحث وإن أسخط قوما وشق على آخرين، فسيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم فى حقيقة الأمر عدّة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد.

(١)

— ٢ —

ولقد تناول الناس منذ حين مسألة القديم والجديد، واشتد فيها اللجاج بينهم، وخيل الى بعضهم أنه يستطيع أن يقضى فيها بين المختصمين. ولكني أعتقد أن المختصمين أنفسهم لم يتناولوا المسألة من جميع أطرافها، فهم لم يكادوا يتجاوزون فنون الأدب التي يتعاطاها الناس من نثر وشعر، والأساليب التي تصطنع في هذه الفنون والمعانى، والألفاظ التي يعمد اليها الكاتب أو الشاعر حين يريد أن يتحدث الى الناس بعواطف نفسه أو نتائج عقله. ولكن للمسألة وجها آخر لا يتناول الفن الكتابي أو الشعرى، وإنما يتناول البحث العلمى عن الأدب وتاريخ فنونه.

نحن بين اثنين: إما أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء، لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذى لا يخلو منه كل بحث والذى يتيح لنا أن نقول: أخطأ الأصمعى أو أصاب، ووفق أبو عبيدة أو لم يوفق، واهتدى الكسائى أو ضل الطريق؛ وإما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث. لقد أنسيت، فلست أريد أن أقول البحث وإنما أريد أن أقول الشك. أريد ألا نقبل شيئا مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت إن لم ينتهيا الى اليقين فقد ينتهيان الى الرجحان.

والفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم، فهو الفرق بين الإيمان الذى يبعث على الاطمئنان والرضا، والشك الذى يبعث على القلق والاضطراب وينتهى في كثير من الأحيان الى الإنكار والجحود.

— ٣ —

المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القــدماء لا يناله بتغيير ولا تبديل ولا يمسه فى جملته وتفصيله إلا مسا رفيقا . أما المذهب الثانى فيقلب العلم القديم رأسا على عقب . وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئا كثيرا .

ولندع هذا النحو من الكلام العام ولنوضح ما نريد أن نقوله بشىء من الأمثلة :

بين يدينا مسألة الشــعر الجاهلى نريد أن ندرسها ونتهى فيها الى الحق . فأما أنصار القــديم فالطريق أمامهم واضحة معبّدة ، والأمر عليهم سهل يسير . أليس قد أجمع القدماء من علماء الأمصار فى العراق والشام وفارس ومصر والأندلس على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الإسلام وقالت كثيرا من الشعر؟ أليس قد أجمع هؤلاء العلماء أنفسهم على أن لهؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة مضبوطة يتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها ؟ أليس قــد أجمع هؤلاء العلماء على أن لهؤلاء الشعراء مقدارا من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم رواتهم وتناقله عنهــم الناس ، حتى جاء عصر التــدوين فدوّن فى الكتب وبقى منه ما شاء الله أن يبقى الى أيامنا ؟ واذا كان العلماء قد أجمعوا على هــذا كله فرووا لنا أسماء الشعراء وضبطوها ونقلوا الينا آثار الشعراء وفسروها ، فلم يبق إلا أن نأخذ عنهم ما قالوا راضين به مطمئنين اليــه . فاذا لم يكن لأحدنا بدّ من أن يبحث وينقد ويحقق فهو يستطيع هذا دون أن يجاوز مذهب أنصار القديم . فالعلماء قد

— ٤ —

اختلفوا فى الرواية بعض الاختلاف وتفاوتوا فى الضبط بعض التفاوت . فلنوازن بينهم ولنرجح رواية على رواية ولنؤثر ضبطا على ضبط ، ولنقل : أصاب البصريون وأخطأ الكوفيون ، أو وفق المبرّد ولم يوفق ثعلب . لنذهب فى الأدب وفنونه مذهب الفقهاء فى الفقه بعد أن أُغلق باب الاجتهاد : هذا مذهب أنصار القديم ، وهو المذهب الذائع فى مصر ، وهو المذهب الرسمى أيضا ، مضت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومناهجها على ما بينها من تفاوت واختلاف .

ولا ينبغى أن تخدعك هذه الألفاظ المستحدثة فى الأدب ، ولا هذا النحو من التأليف الذى يقسم التاريخ الأدبى الى عصور ، ويحاول أن يدخل فيه شيئا من الترتيب والتنظيم ؛ فذلك كله عناية بالقشور والأشكال لا يمس اللباب ولا الموضوع . فما زال العرب ينقسمون الى بائدة وباقية ، والى عاربة ومستعربة . وما زال أولئك من جُرْهُم ، وهؤلاء من ولد إسماعيل . ومازال امرؤ القيس صاحب "قفا نبك ..." وطَرَفة صاحب "لخَوْلَةَ أطلالٌ ..." وعمرو بن كُلثوم صاحب "أَلَا هُبِّي ..." ، وما زال كلام العرب فى جاهليتها وإسلامها ينقسم الى شعر ونثر . والنثر ينقسم الى مرسل ومسجوع ، الى آخر هذا الكلام الكثير الذى يُفرغه أنصار القديم فيما يضعون من كتب وما يلقون على التلاميذ والطلاب من دروس .

هم لم يغيّروا فى الأدب شيئا . وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئا وقد أخذوا أنفسهم بالاطمئنان الى ما قال القدماء وأغلقوا على أنفسهم

— ٥ —

فى الأدب باب الاجتهاد كما أغلقــه الفقهاء فى الفقه والمتكلمون فى الكلام .

وأما أنصار الجديد، فالطريق أمامهم معوجّة ملتوية، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى . وهم لا يكادون يمضون إلا فى أناة وريث هما الى البطء أقرب منهـما الى السرعة . ذلك أنهـم لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا آطمئنان، أو هم لم يرزقوا هذا الإيمان والاطمئنان . فقد خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة وفى القلق والاضطراب رضا . وهم لا يريدون أن يخطوا فى تاريخ الأدب خطوة حتى يتبينوا موضعها . وسواء عليهم وافقوا القدماء وأنصار القديم أم كان بينهم و بينهم أشدّ الخــلاف .

هم لا يطمئنون الى ما قال القدماء، وإنما يلقونه بالتحفّظ والشك . ولعل أشدّ ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئنانا . هم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلى فيتجاهلون إجماع القدماء على ما أجمعوا عليه، و يتساءلون : أهناك شعر جاهلى؟ فإن كان هناك شعر جاهلى فما السبيل الى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز من غيره ؟ ويمضون فى طائفة من الأسئلة يحتاج حلها الى روية وأناة والى جهود الجماعات العلمية لا الى جهود الأفراد . هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون الى باقية وبائدة، وعاربة ومستعربة، ولا أن أولئك من جرهم، وهؤلاء من ولد إسماعيل، ولا أن امرأ القيس وطرفة

— ٦ —

وابن كلثوم قالوا هـذه المطولات؛ ولكنهم يعرفون أن القدماء كانوا يرون ذلك . ويريدون أن يتبينوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين ؟

والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذى يذهبه المجددون عظيمة جليلة الخطر، فهى الى الثورة الأدبيـة أقرب منهـا الى أى شيء آخر . وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينا ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه .

وليس حظ هذا المذهب منتهيا عند هذا الحد ، بل هو يجاوزه الى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثرا . فهم قد ينتهون الى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ . وهم قد ينتهون الى الشـك فى أشـياء لم يكن يباح الشك فيها . وهم بين اثنتين : إما أن يجحدوا أنفسهم ويجحدوا العلم وحقوقه فيريحوا ويستريحوا ؛ وإما أن يعرفوا لأنفسهم حقها ويؤدوا للعلم واجبه ، فيتعرضوا لمـا ينبغى أن يتعرض له العلماء من الأذى ويحتملوا ما ينبغى أن يحتمله العلماء من سخط الساخطين .

ولست أزعم أنى من العلماء . ولست أتمدح بأنى أحب أن أتعرض للأذى . وربمـا كان الحق أنى أحب الحياة الهادئة المطمئنة وأريد أن أتذوق لذات العيش فى دعة ورضا . ولكنى مع ذلك أحب أن أفكر ، وأحب أن أبحث ، وأحب أن أعلن الى النـاس ما أنتهى اليه بعد البحث والتفكير ؛ ولا أكره أن آخذ نصيبى من رضا الناس

— ٨ —

وأنا أزعم مع هـذا كله أن العصر الجاهلى القريب من الإسـلام لم يضع، وأنا نستطيع أن نتصوره تصورا واضحا قويا صحيحا . ولكن بشرط ألا نعتمد على الشـعر، بل على القرآن من ناحيـة، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى .

وستسألنى كيف انتهى بى البحث الى هذه النظرية الخطرة؟ ولست أكره أن أجيبك على هذا السؤال؛ بل أنا لا أكتب ما أكتب إلا لأجيبك عليـه . ولأجل أن أجيبك عليـه إجابة مقنعة يجب أن أتحدث اليك فى طائفة مختلفة من المسائل . وسترى أن هذه الطائفة المختلفة من المسائل تنتهى كلها الى نتيجة واحدة هى هذه النظرية التى ذكرتهـا منذ حين . يجب أن أحدثك عن الحياة السياسية الداخليـة للأمة العربية بعد ظهور الإسلام ووقوف حركة الفتح، وما بين هذه الحياة وبين الشعر من صـلة . ويجب أن أحدثك عن حال أولئـك الناس الذين غُلبوا على أمرهم بعـد الفتح فى بلاد الفرس وفى الشأم والجزيرة والعراق ومصر، وما بين هذه الحال وبين لغـة العرب وآدابهـم من صلة . ويجب أن أحدثك عن نشأة العلوم الدينيـة واللغوية وما بينها وبين اللغة والأدب من صلة . ثم يجب أن أحدثك عن اليهود فى بلاد العرب قبل الإسلام وبعده، وما بين اليهود هؤلاء وبين الأدب العربى من صلة . ويجب أن أحدثك بعد هذا عن المسيحية وما كان لهـا من الانتشار فى بلاد العـرب قبل الإسـلام وما أحدثت من تأثير فى حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية

— ٧ —

عنى أو سخطهم علىّ حين أعلن اليهم ما يحبون أو ما يكرهون . واذن فلأعتمد على الله ، ولأحدثك بما أحب أن أحدثك به فى صراحة وأمانة وصدق ، ولأجتنب فى هذا الحديث هذه الطرق التى يسلكها المهرة من الكتاب ليدخلوا على الناس مالم يألفوا فى رفق وأناة وشىء من الأحتياط كثير .

وأول شىء أخبرك به فى هذا الحديث هو أنى شككت فى قيمة الشعر الجاهلى وألححت فى الشك ، أو قل ألح علىّ الشك ، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر ، حتى انتهى بى هذا كله الى شىء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، وانما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شىء ، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى . وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكنى مع ذلك لا أتردد فى إثباتها وإذاعتها ، ولا أضعف عن أن أعلن اليك والى غيرك من القراء أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس فى شىء ، وانما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصّاص أو اختراع المفسرين والمحدّثين والمتكلمين .

والأدبية ، وما بين هذا كله و بين الأدب العربى والشـعر العربى من صلة . ثم يجب أن أحدثك عن مؤثرات سياسية خارجية عملت فى حياة العرب قبل الإسلام وكان لها أثر قوى جدا فى الشعر العربى الجاهلى وفى الشعر العربى الذى انتحل وأضيف الى الجاهليين . وهذه المباحث التى أشرت اليها ستنتهى كلها إلى تلك النظرية التى قدمتها : وهى أن الكثرة المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلى ليست من الشـعر الجاهلى فى شىء .

ولكنى مع ذلك لن أقف عنـد هذه المباحث ؛ لأنى لم أقف عندها فيما بينى و بين نفسى بل جاوزتها . وأريد أن أجاوزها معك الى نحو آخر من البحث أظنـه أقوى دلالة وأنهض حجـة من المباحث المـاضية كلها ، ذلك هو البحث الفنى واللغوى . فسينتهى بنا هـذا البحث الى أن هذا الشعر الذى ينسب الى امرئ القيس أو الى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن . نعم ! وسينتهى بنا هـذا البحث الى نتيجة غريبة ، وهى أنه لا ينبغى أن يستشهد بهذا الشعر على تفسـير القرآن وتأويل الحديث ، وانمـا ينبغى أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسـير هذا الشـعر وتأويله ، أريد أن أقول إن هـذه الأشعار لا تثبت شيئا ولا تدل على

— ١٠ —

شيء ، ولا ينبغي أن تتخذ وسيلة الى ما اتخذت اليه من علم بالقرآن والحديث . فهي إنما تُكلفت واختُرعت اختراعا ليستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا عليه .

فاذا انتهينا من هذه الطرق كلها الى غاية واحدة هي هذه النظرية التي قدّمتها ، فسنجتهد في أن نبحث عما يمكن أن يكون شعرا جاهليا حقا . وأنا أعترف منذ الآن بأن هذا البحث عسير كل العسر ، وبأني أشك شكا شديدا في أنه قد ينتهي بنا الى نتيجة مرضية . ومع ذلك فسنحاوله .

٢

منهج البحث

أحب أن أكون واضحا جليا وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن أضطرهم إلى أن يتأولوا و يتمحّلوا و يذهبوا مذاهب مختلفة فى النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التى أرمى اليها . أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب، وأن أريح نفسى من الرّد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج الى مناقشة . أريد أن أقول إنى سأسلك فى هذا النحو من البحث مسلك المحدَثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة . أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث . والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما . والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا، وأنه قد جدّد العلم والفلسفة تجديدا، وأنه قد غير مذاهب الأدباء

فى أدبهم والفنّانين فى فنونهم ، وانه هو الطابع الذى يمتاز به هـذا العصر الحديث .

فلنصطنع هـذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربى القـديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء . ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برّأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التى تأخذ أيدينا وأرجلنا ورءوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرّة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا .

نعم ! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخّصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وأن ننسى ما يضادّ هذه القومية وما يضاد هذا الدين . يجب ألا نتقيد بشىء ولا نذعن لشىء إلا مناهج البحث العلمى الصحيح . ذلك أنا اذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر الى المحاباة وإرضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين . وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسـد علم القدماء شىء غير هذا ؟ كان القدماء عربا يتعصبون للعرب ، أو كانوا عجما يتعصبون على العرب . فلم يبرأ علمهم من الفساد ؛ لأن المتعصبين للعرب غلوا فى تمجيـدهم وإكبارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم ؛ ولأن المتعصبين على العرب غلوا فى تحقيرهم وإصغارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضا .

كان القدماء مسلمين مخلصين فى حب الإسلام ، فأخضعوا كل شىء لهذا الإسلام وحبهم إياه ، ولم يعرضوا لمبحث علمى ولا لفصل

من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزّه ويعلى كلمته . فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه، وما نافره انصرفوا عنه انصرافا . أوكان القدماء غير مسلمين : يهودا أو نصارى أو مجوسا أو ملحدين أو مسلمين فى قلوبهم مرض وفى نفوسهم زيغ، فتأثروا فى حياتهم العلمية بمثل ما تأثر به المسلمون الصادقون: تعصبوا على الإسلام ونحوا فى بحثهم العلمى نحو الغض منه والتصغير من شأنه، فظلموا أنفسهم وظلموا الإسلام وأفسدوا العلم وجنوا على الأجيال المقبلة . ولو أن القدماء استطاعوا أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم وأن يتناولوا العلم على نحو ما يتناوله المحدَثون لا يتأثرون فى ذلك بقومية ولا عصبية ولا دين ولا ما يتصل بهذا كله من الأهواء، لتركوا لنا أدبا غير الأدب الذى نجده بين أيدينا ، ولأراحونا من هذا العناء الذى نتكلفه الآن . ولكن هذه طبيعة الانسان لا سبيل الى التخلص منها . وأنت تستطيع أن تقول هذا الذى نقوله فى كل شيء. فلو أن الفلاسفة ذهبوا فى الفلسفة مذهب (ديكارت) منذ العصور الأولى ، لما احتاج (ديكارت) الى أن يستحدث منهجه الجديد . ولو أن المؤرخين ذهبوا فى كتابة التاريخ منذ العصور الأولى مذهب (سينيوبوس) لما احتاج (سينيوبوس) الى أن يستحدث منهجه فى التاريخ . وبعبارة أدنى الى الإيجاز : لو أن الإنسان خلق كاملا لما احتاج الى أن يطمع فى الكمال .

فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به فى حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم . ولنجتهد فى ألا نتأثر كما تأثروا وفى ألا نفسد العلم

كما أفسدوه ، لنجتهد فى أن ندرس الأدب العربى غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعى عليه ، ولا معنيّين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمى والأدبى ، ولا وجلين حين ينتهى بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية أو تنفر منه الأهواء السياسية أو تكرهه العاطفة الدينية . فإن نحن حررنا أنفسنا الى هذا الحدّ فليس من شك فى أننا سنصل ببحثنا العلمى الى نتائج لم يصل الى مثلها القدماء . وليس من شك فى أننا سنلتقى أصدقاء سواء اتفقنا فى الرأى أو اختلفنا فيه . فما كان اختلاف الرأى فى العلم سببا من أسباب البغض ، إنما الأهواء والعواطف هى التى تنتهى بالناس الى ما يفسد عليهم الحياة من البغض والعداء .

فأنت ترى أن منهج (ديكارت) هذا ليس خصبا فى العلم والفلسفة والأدب فحسب ، وانما هو خصب فى الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضا . وأنت ترى أن الأخذ بهذا المنهج ليس حتما على الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحدهم ، بل هو حتم على الذين يقرءون أيضا . وأنت ترى أنى غير مسرف حين أطلب منذ الآن الى الذين لا يستطيعون أن يبرءوا من القديم ويخلُصوا من أغلال العواطف والأهواء حين يقرءون العلم أو يكتبون فيه ألّا يقرءوا هذه الفصول . فلن تفيدهم قراءتها إلا أن يكونوا أحرارا حقا .

٣

مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن لا فى الشعر الجاهلى

على أنى أحب أن يطمئن الذين يكلفون بالأدب العربى القديم ويشفقون عليه ويجدون شيئا من اللذة فى أن يعتقدوا أن هناك شعرا جاهليا يمثل حياة جاهلية انقضى عصرها بظهور الإسلام؛ فلن يمحو هذا الكتاب ما يعتقدون ، ولن يقطع السبيل بينهم وبين هذه الحياة الجاهلية يدرسونها ويجدون فى درسها ما يبتغون من لذة علمية وفنية . بل أنا أذهب الى أبعد من هذا، فأزعم أنى سأستكشف لهم طريقا جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها الى هذه الحياة الجاهلية ، أو بعبارة أصح : يصلون منها الى حياة جاهلية لم يعرفوها ، الى حياة جاهلية قيمة مشرقة ممتعة مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التى يجدونها فى المطولات وغيرها مما ينسب الى الشعراء الجاهليين . ذلك أنى لا أنكر الحياة الجاهلية وانما أنكر أن يمثلها هذا الشعر الذى يسمونه الشعر الجاهلى . فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك اليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير؛ لأنى لا أثق بما ينسب اليهم؛ وإنما أسلك اليها طريقا أخرى، وأدرسها

فى نص لا سبيل الى الشك فى صحته، أدرسها فى القرآن . فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلى . ونص القرآن ثابت لا سبيل الى الشك فيه . أدرسها فى القرآن ، وأدرسها فى شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي وجادلوه، وفى شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التى ألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام . بل أدرسها فى الشعر الأموى نفسه . فلست أعرف أمة من الأمم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة فى الأدب ولم تجدد فيه إلا بمقدار كالأمة العربية . فحياة العرب الجاهليين ظاهرة فى شعر الفرزدق وجرير وذى الرُّمة والأخطل والراعى أكثر من ظهورها فى هذا الشعر الذى ينسب الى طَرَفة وعنترة والشمّاخ وبِشْر بن أبى خازم .

قلت : ان القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية . وهذه القضية غريبة حين تسمعها، ولكنها بدهية حين تفكر فيها قليلا . فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أُعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته إلا أن تكون بينهم وبينه صلة هى هذه الصلة التى توجد بين الأثر الفنى البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون اليه . وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه، وليس من اليسير بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديدا كله على العرب . فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه، ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر . إنما كان القرآن جديدا

فى أسلوبه، جديدا فيما يدعو اليـه، جديدا فيما شرع للنـاس من دين وقانون. ولكنه كان كتابا عربيا، لغته هى اللغة العربيـة الأدبية التى كان يصطنعها الناس فى عصره، أى فى العصر الجاهلى. وفى القرآن ردّ على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية، وفيه ردّ على اليهود، وفيه ردّ على النصارى، وفيه ردّ على الصابئة والمجوس. وهو لا يردّ على يهود فلسطين، ولا على نصارى الروم، ومجوس الفرس، وصابئـة الجزيرة وحدهم، وإنما يردّ على فرق من العرب كانت تمثلهم فى البلاد العربية نفسها. ولولا ذلك لمـا كانت له قيمة ولا خطر. ولمـا حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه، وضحوا فى سبيل تأييده ومعارضته بالأموال والحياة.

أفترى أحدا يحفل بى لو أنى أخذت أهاجم البوذية أو غيرها من هذه الديانات التى لا يدينها أحد فى مصر؟ ولكننى أغيظ النصارى حين أهاجم النصرانيـة، وأهيج اليهود حين أهاجم اليهودية، وأحفظ المسلمين حين أهاجم الإسـلام. وأنا لا أكاد أعرض لواحـد من هذه الأديان حتى أجد مقاومة الأفراد ثم الجماعات، ثم مقاومة الدولة نفسها تمثلها النيابة والقضاء. ذلك لأنى أهاجم ديانات ممثلة فى مصر يؤمن بها المصريون وتحميها الدولة المصرية. وكذلك كانت الحال حين ظهر الإسلام: هاجم الوثنية فعارضه الوثنيون. وهاجم اليهود فعارضه اليهود. وهاجم النصارى فعارضه النصارى. ولم تكن هذه المعارضة هينة ولا لينة، وإنما كانت تقدّر بمقدار ما كان لأهلها من قوة ومنعة.

وبأس فى الحياة الاجتماعية والسياسية. فأما وثنية قريش فقد أحرجت النبي من مكة ونصبت له الحرب واضطرّت أصحابه الى الهجرة. وأمّا يهودية اليهود فقد ألّبت عليه وجاهدته جهادا عقليا وجدليا، ثم انتهت الى الحرب والقتال. وأما نصرانية النصارى فلم تكن معارضتها للإسلام إبّان حياة النبي قوية قوّة المعارضة الوثنية واليهودية. لماذا؟ لأن البيئة التى ظهر فيها النبي لم تكن بيئة نصرانية، إنما كانت وثنية فى مكة، يهودية فى المدينة. ولو ظهر النبي فى الحيرة أو فى نَجْران للقى من نصارى هاتين المدينتين مثل ما لقى من مشركى مكة ويهود المدينة.

وفى الحق أن الاسلام لم يكد يظهر على مشركى الحجاز ويهوده حتى استحال الجهاد بينه وبين النصارى من جدال ونضال بالحجة الى آصطدام مسلّح، أدرك النبي أوّله وآنتهى به الخلفاء الى أقصى حدوده.

فأنت ترى أن القرآن حين يتحدّث عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفها العرب. فهو يبطل منها ما يبطل، ويؤيد منها ما يؤيد. وهو يلقى فى ذلك من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من السلطان على نفوس الناس. وإذن فما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية فى هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين والبحث عنها فى القرآن!

فأما هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين فيُظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوىّ والعاطفة الدينية

المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية ؛ وإلا فأين تجد شيئا من هذا فى شعر امرئ القيس أو طَرَفة أو عنترة ! أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلى كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ! .

وأما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر، يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها الى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال . فاذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغَنَاء لجأوا الى الكيد، ثم الى الاضطهاد ، ثم الى إعلان الحرب التى لا تبقى ولا تذر .

أفتظن أن قريشا كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحّى فى سبيلها بثروتها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين إلا ما يمثّله هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين ؟ كلا ! كانت قريش متديّنة قوية الإيمان بدينها . ولهذا الدين وللايمان بهذا الدين جاهدت ما جاهدت وضحت ما ضحت . وقل مثل ذلك فى اليهود ؛ وقل مثله فى غير أولئك وهؤلاء من العرب الذين جاهدوا النبي عن دينهم .

فالقرآن إذن أصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذى يسمونه الجاهلى . ولكن القرآن لا يمثّل الحياة الدينية وحدها ، وإنما يمثل شيئا آخر غيرها لا نجده فى هذا الشعر الجاهلى ، يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن فى جهادها حظا عظيما . أليس القرآن قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون النبي

بقوة الجدال والقدرة على الخصام والشدة فى المحاورة! وفيم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون؟ فى الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التى ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا الى حلها: فى البعث، فى الخلق، فى إمكان الاتصال بين الله والناس، فى المعجزة وما الى ذلك.

أفتظن قوما يجادلون فى هذه الأشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين! كلا! لم يكونوا جهالا ولا أغبياء ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة.

وهنا يجب أن نحتاط، فلم يكن العرب كلهم كذلك، ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك، وإنما كانوا كغيرهم من الأمم القديمة وككثير من الأمم الحديثة منقسمين الى طبقتين: طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم، وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا كله حظ.

القرآن شاهد بهذا. أليس يحدثنا عن أولئك المستضعفين الذين كفروا طاعةً لسادتهم وزعمائهم لا اجتهادا فى الرأى ولا اقتناعا بالحق، والذين سيقولون يوم يسألون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾. بلى! والقرآن يحدثنا عن جفوة الأعراب وغلظتهم وإمعانهم

فى الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التى تحمل على الإيمان والتدين. أليس هو الذى يقول: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ . أليس قد شرع للنبى أن يتألف قلوب الأعراب بالمال ! بلى. فالقرآن اذن يمثل الأمة العربية على أنها كانت كغيرها من الأمم القديمة، فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبى يجادلهم ويجاهدهم؛ وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ من آستنارة أو آمتياز والذين كانوا موضوع النزاع بين النبى وخصومه والذين كان يتألفهم النبى بالمال أحيانا .

والقرآن لا يمثل الأمة العربية متدينة مستنيرة فحسب، بل هو يعطينا منها صورة أخرى يدهش لها الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلى فى درس الحياة العربية قبل الإسلام؛ فهم يعتقدون أن العرب كانوا قبل الإسلام أمة معتزلة تعيش فى صحرائها لا تعرف العالم الخارجى ولا يعرفها العالم الخارجى ؛ وهم يبنون على هذا قضايا ونظريات، فهم يقولون إن الشعر الجاهلى لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التى أثرت فى الشعر الإسلامى: لم يتأثر بحضارة الفرس والروم. وأنى له ذلك ! لقد كان يقال فى صحراء لا صلة بينها وبين الأمم المتحضرة . كلا ! القرآن يحدثنا بشىء غير هذا، القرآن يحدثنا بأن العرب كانوا على آتصال بمن حولهم من الأمم بل كانوا على آتصال قوى قسمهم أحزابا وفرقهم شيعا . أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم

وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب الى حزبين مختلفين: حزب يشايع أولئك، وحزب يناصر هؤلاء! أليس فى القرآن سورة تسمى سورة الروم وتبتدئ بهذه الآيات: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلى معتزلين؛ فانت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم. وهو يصف اتصالهم الاقتصادى بغيرهم من الأمم فى السورة المعروفة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ...﴾ وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشأم حيث الروم، والأخرى الى اليمن حيث الحبشة أو الفرس.

وسيرة النبي تحدثنا أن العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب الى بلاد الحبشة. ألم يهاجر المهاجرون الأوّلون إلى هذه البلاد! وهذه السيرة نفسها تحدثنا بأنهم تجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس، وبأنهم تجاوزوا الشأم وفلسطين الى مصر. فلم يكونوا إذن معتزلين، ولم يكونوا إذن بنجوة من تأثير الفرس والروم والحبش والهند وغيرهم من الأمم المجاورة لهم. لم يكونوا على غير دين ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ولم يكونوا فى عزلة سياسية أو اقتصادية بالقياس الى الأمم الأخرى، كذلك يمثلهم القرآن.

وإذا كانوا أصحاب علم ودين، وأصحاب ثروة وقوة و بأس، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها مؤثرة فيها، فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجية . وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدّق أن القرآن قد ظهر فى أمة جاهلة همجية !

أرأيت أن آلتماس الحياة العربية الجاهلية فى القرآن أنفع وأجدى من آلتماسها فى هـذا الشعر العقيم الذى يسمونه الشعر الجاهلى ! أرأيت أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعوّدنا أن نعرف من أمر الجاهليين !

٤

الشعر الجاهلي واللغة

على أن هناك شيئا آخر يحظر علينا التسليم بصحة الكثرة المطلقة من هذا الشعر الجاهلي ، ولعله أبلغ فى إثبات ما نذهب إليه . فهذا الشعر الذى رأينا أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية فى العصر الذى يزعم الرواة أنه قيل فيه . والأمر هنا يحتاج الى شىء من الروية والأناة . فنحن اذا ذكرنا اللغة العربية نريد بها معناها الدقيق المحدود الذى نجده فى المعاجم حين نبحث فيها عن لفظ اللغة ما معناه ، نريد بها الألفاظ من حيث هى ألفاظ تدل على معانيها ، تستعمل حقيقة مرة ومجازا مرة أخرى ، وتتطور تطورا ملائما لمقتضيات الحياة التى يحياها أصحاب هذه اللغة .

نقول ان هذا الشعر الجاهلى لا يمثل اللغة الجاهلية . ولنجتهد فى تعرف اللغة الجاهلية هذه ماهى ، أو ماذا كانت فى العصر الذى يزعم الرواة أن شعرهم الجاهلى هذا قد قيل فيه . أما الرأى الذى اتفق عليه الرواة أو كادوا يتفقون عليه فهو أن العرب ينقسمون الى قسمين : قحطانية منازلهم الأولى فى اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى فى الحجاز .

وهم متفقون على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله فُطِروا على العربية فهم العاربة، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا؛ كانوا يتكلمون لغة أخرى هي العبرانية أو الكلدانية، ثم تعلّموا لغة العرب العاربة فمحت لغتهم الأولى من صدورهم وثبتت فيها هذه اللغة الثانية المستعارة. وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة إنما يتصل نسبها باسماعيل بن ابراهيم. وهم يروون حديثا يتخذونه أساسا لكل هذه النظرية، خلاصته أن أول من تكلم بالعربية ونسى لغة أبيه إسماعيل بن ابراهيم.

على هذا كله يتفق الرواة، ولكنهم يتفقون على شيء آخر أيضا أثبته البحث الحديث، وهو أن هناك خلافا قويا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة). وقد روى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول: مالسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا.

وفى الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد. ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفى قواعد النحو والتصريف أيضا. وإذن فلا بدّ من حل هذه المسألة.

اذا كان أبناء اسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب الذين نسميهم العاربة فكيف بعُد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب

العاربة واللغة التى كان يصطنعها العرب المستعربة ، حتى آستطاع أبو عمرو بن العلاء أن يقول إنهما لغتان متمايزتان ، واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التى لا تقبل شكا ولا جدالا !
والأمر لايقف عند هذا الحدّ، فواضح جدّا لكل من له إلمام بالبحث التاريخى عامة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة فى عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية أوآقتصادية أو سياسية .

للتوراة أن تحدّثنا عن ابراهيم واسماعيل، وللقرآن أن يحدّثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الآسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدّثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، و بين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى . وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية و يبثون فيه المستعمرات . فنحن نعلم أن حروبا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين و بين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد، وآنتهت بشىء من المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة . فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذى استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التى تجعل العرب واليهود

أبناء أعمام ، لا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئا من التشابه غير قليل ، فأولئك وهؤلاء ساميون .

ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه و بين وثنية العرب من غير أهل الكتاب ، قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد و بين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود .

فأما الصلة الدينية فثابتة واضحة ، فبين القرآن والتوراة والأناجيل اشتراك فى الموضوع والصورة والغرض ، كلها ترمى الى التوحيد ، وتعتمد على أساس واحد هو هذا الذى تشترك فيه الديانات السماوية السامية . ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب وأهل الكتاب . فما الذى يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود ؟

وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة فى القرن السابع للمسيح . فقد كانت فى أول هذا القرن قد انتهت الى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة فى مكة وما حولها و بسط سلطانها المعنوى على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية . وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان أمرين : التجارة من جهة ، والدين من جهة أخرى .

فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشا كانت تصطنعها فى الشأم ومصر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة .

وأما الدين فهـذه الكعبة التى كانت تجتمع حولها قريش ويحج اليها العرب المشركون فى كل عام، والتى أخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعا من السـلطان قويا ، والتى أخذ هؤلاء العرب المشركون يجعلون منهـا رمزا لدين قوى كأنه كان يريد أن يقف فى سبيل انتشار اليهودية من ناحية والمسيحية من ناحية أخرى . فنحن نلمح فى الأساطير أن شـيئا من المنافسة الدينية كان قائمـا بين مكة ونجران . ونحن نلمح فى الأساطير أيضا أن هـذه المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التى أنشأها الحبشة فى صنعاء هى التى دعت الى حرب الفيل التى ذكرت فى القرآن .

فقريش إذن كانت فى هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ونهضة دينية وثنية . وهى بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد فى البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم فى البلاد العربية .

واذا كان هـذا حقا — ونحن نعتقد أنه حق — فمن المعقول جدا أن تبحث هـذه المدنية الجديدة لنفسها عن أصل تاريخى قـديم يتصل بالأصول التاريخية المـاجدة التى تتحدث عنها الأساطير . و إذن فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة التى تفيد أن الكعبة

من تأسيس اسماعيل وابراهيم ، كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس ابن پريام صاحب طِرْوادة .

أمر هذه القصة إذن واضح . فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام ، وآستغلها الإسلام لسبب دينى ، وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى أيضا . وإذن فيستطيع التاريخ الأدبى واللغوى ألا يحفل بها عند ما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى ، وإذن فنستطيع أن نقول ان الصلة بين اللغة العربية الفصحى التى كانت تتكلمها العدنانية واللغة التى كانت تتكلمها القحطانية فى اليمن إنما هى كالصلة بين اللغة العربية وأى لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة ، وإن قصة " العاربة " و " المستعربة " وتعلُّم اسماعيل العربيــة من جُرْهُم ، كل ذلك حديث أساطير لا خطر له ولا غَناء فيه .

والنتيجة لهذا البحث كله تردّنا الى الموضوع الذى ابتدأنا به منذ حين ، وهو أن هذا الشعر الذى يسمونه الجاهلى لا يمثّل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحا . ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون اليهم شيئا كثيرا من الشعر الجاهلى قوما ينتسبون إلى عرب اليمن الى هذه القحطانية العاربة التى كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن ، والتى كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء : إن لغتها مخالفة للغة العرب ، والتى أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير اللغة العربية .

— ٣٠ —

ولكننا حين نقرأ الشعر الذى يضاف الى شعراء هذه القحطانية فى الجاهلية لا نجد فرقا قليلا ولا كثيرا بينه و بين شعر العدنانية . نستغفر الله! بل نحن لانجد فرقا بين لغة هذا الشعر ولغة القرآن. فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله ؟ أمر ذلك يسير، وهو أن هذا الشعر الذى يضاف الى القحطانية قبل الإسلام ليس من القحطانية فى شىء . لم يقله شعراؤها و إنما حمل عليهم بعد الإسلام لأسباب مختلفة سنبيّنها حين نعرض لهذه الأسباب التى دعت إلى انتحال الشعر الجاهلى فى الإسلام .

٥

الشعر الجاهلي واللهجات

على أن الأمر يتجاوز هذا الشعر الجاهلى القحطانى الى الشعر الجاهلى العدنانى نفسه . فالرواة يحدثوننا أن الشعر تنقّل فى قبائل عدنان ، كان فى ربيعة ثم انتقل الى قيس ثم الى تميم . فظل فيها الى ما بعد الإسلام أى إلى أيام بنى أمية حين نبغ الفرزدق وجرير .

ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا النوع من الكلام إلا باسمين ؛ لأننا لا نعرف ما ربيعةُ وما قيس وما تميم معرفة علمية صحيحة ، أى لأننا ننكر أو نشك على أقل تقدير شكا قويا فى قيمة هذه الأسماء التى تسمى بها القبائل ، وفى قيمة الأنساب التى تصل بين الشعراء وبين أسماء هذه القبائل ؛ ونعتقد أو نرجح أن هذا كله أقرب الى الأساطير منه الى العلم اليقين .

ولكن مسألة النسب وقيمته مسألة لا تعنينا الآن . فلندعها إلى حيث نعرض لها اذا اقتضت مباحث هذا الكتاب أن نعرض لها . وقد بينا رأينا فيها بيانا مجملا فى "ذكرى أبى العلاء" . إنما المسألة التى تعنينا الآن وتحملنا على الشك فى قيمة هذه النظرية (نظرية تنقّل الشعر

فى قبائل عَدْنان قبل الإسلام) مسألة فنية خالصة . فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة و يزيل كثيرا من تباين اللهجات. وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانيــة وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام . ولا سيما اذا صحّت النظرية التى أشرنا اليها آنفا وهى نظرية العزلة العربية ، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين ، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المــادّية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجات .

فاذا صح هذا كله ، كان من المعقول جدا أن تكون لكل قبيلة من هــذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها فى الكلام ، وأن يظهر آختلاف اللغات وتباين اللهجات فى شعر هذه القبائل الذى قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة . ولكننا لا نرى شيئا من ذلك فى الشعر العربى الجاهــلى . فأنت تستطيع أن تقرأ هــذه المطوّلات أو المعلقات التى يتخذها أنصار القــديم نموذجا للشعر الجاهــلى الصحيح ، فسترى أن فيها مطوّلة لآمرئ القيس وهو من كِنْدة أى من قحطان ، وأخرى لزُهَيْر ، وأخرى لعنترة ، وثالثة للَبِيد ، وكلهم من قيس ؛ ثم قصيدة لطَرَفة ، وقصيدة لعمرو بن كلثوم ، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة وكلهم من ربيعة .

تستطيع أن تقرأ هــذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون آختلافا في اللهجة أو تباعدا في اللغة أو تباينا في مذهب الكلام . البحر العروضى هو هو ، وقواعد القافية هى هى ، والألفاظ مستعملة فى معانيها كما نجدها عند شعراء المسلمين ، والمذهب الشعرى هو هو .

كل شيء فى هذه المطولات يدل على أن آختلاف القبائل لم يؤثر فى شعر الشعراء تأثيرا ما . فنحن بين آثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك آختلاف بين القبائل العربيــة من عدنان وقحطان فى اللغة ولا فى اللهجة ولا فى المذهب الكلامى ؛ و إما أن نعترف بأن هــذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنمــا حمل عليها حملا بعد الإسلام . ونحن الى الثانية أميل منا الى الأولى . فالبرهان القاطع قائم على أن آختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس الى عدنان وقحطان ، يعترف القدماء أنفسهم بذلك كما رأيت أبا عمرو بن العلاء ، ويثبته البحث الحديث .

وهناك شيء بعيد الأثر لو أن لدينا أو لدى غيرنا من الوقت ما يمكننا من آستقصائه وتفصيل القول فيــه ، وهو أن القرآن الذى تلى بلغة واحدة ولهجة واحدة هى لغــة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القرّاء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعدّدت اللهجات فيــه وتباينت تباينا كثيرا ، جدّ القرّاء والعلماء المتأخرون فى ضبطه وتحقيقه وأقاموا له علما أو علوما خاصة . ولسنا نشير هنا الى هــذه القراءات

(٣)

التى تختلف فيما بينها آختلافا كثيرا فى ضبط الحركات سواء أكانت حركات بنية أو حركات إعراب . لسنا نشير الى آختلاف القراء فى نصب "الطير" فى الآية : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ أو رفعها، ولا الى آختلافهم فى ضم الفاء أو فتحها فى الآية : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ولا إلى آختلافهم فى ضم الحاء أو كسرها فى الآية : ﴿وَقَالُوا حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ ولا الى آختلافهم فى بناء الفعل للمجهول أو للمعلوم فى الآية : ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾. لا نشير الى هذا النحو من آختلاف الروايات فى القرآن فتلك مسألة معضلة نعرض لها ولما ينشأ عنها من النتائج اذا أتيح أن ندرس تاريخ القرآن . إنما نشير الى آختلاف آخر فى القراءات يقبله العقل، ويسيغه النقل، وتقتضيه ضرورة آختلاف اللهجات بين قبائل العرب التى لم تستطع أن تغيّر حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبى وعشيرته من قريش، فقرأته كما كانت تتكلم، فأمالت حيث لم تكن تميل قريش، ومدّت حيث لم تكن تمد، وقصرت حيث لم تكن تقصر، وسكّنت حيث لم تكن تسكن، وأدغمت أو أخفت أو نقلت حيث لم تكن تدغم ولا تخفى ولا تنقل . فهذا النوع من آختلاف اللهجات له أثره الطبيعى اللازم فى الشعر فى أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام .

ولسنا نستطيع أن نفهم كيف آستقامت أوزان الشعر وبحوره وقوافيه كما دونها الخليل لقبائل العرب كلها على ما كان بينها من تباين

اللغات، وآختلاف اللهجات. وإذا لم يكن نظم القرآن، وهو ليس شعرا ولا مقيدا بما يتقيد به الشعر، قد آستطاع أن يستقيم فى الأداء لهذه القبائل، فكيف آستطاع الشعر، وهو مقيد بما تعلم من القيود، أن يستقيم لها! وكيف لم تحدث هذه اللهجات المتباينة آثارها فى وزن الشعر وتقطيعه الموسيقى. أى كيف لم توجد صلة واضحة بين هذا الآختلاف فى اللهجة و بين الأوزان الشعرية التى كانت تصطنعها القبائل ؟

ستقول: ولكن آختلاف اللهجات كان قائما بعد القرآن، وليس من شك فى أن قبائل العرب على آختلافها قد تعاطت الشعر بعد الإسلام ولم يظهر فيه آختلاف اللهجات، فكما آستقامت بحوره وأوزانه على هذا الاختلاف بعد الإسلام، فليس ما يمنع أن تكون قد آستقامت عليه فى العصر الجاهلى .

ولست أنكر أن آختلاف اللهجات كان حقيقة واقعة بعد الاسلام. ولست أنكر أن الشعر قد آستقام للقبائل كلها رغم هذا الاختلاف. ولكنى أظن أنك تنسى شيئا يحسن ألا تنساه، وهو أن القبائل بعد الإسلام قد آتخذت للأدب لغة غير لغتها، وتقيدت فى الأدب بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شعرت فى لغتها الخاصة، أى أن الإسلام قد فرض على العرب جميعا لغة عامة واحدة هى لغة قريش . فليس غريبا أن تتقيد هذه القبائل بهذه اللغة الجديدة فى شعرها ونثرها

فى أدبها بوجه عام . فلم يكن التميمى أو القيسى حين يقول الشعر فى الإسلام يقوله بلغة تميم أو قيس ولهجتها . إنما كان يقوله بلغة قريش ولهجتها . ومثل ذلك واضح فى غير اللغة العربية من اللغات القديمة والحديثة . كان للدوريين من اليونان شعرهم الدورى وأوزانهم الدورية ، وكان لليونيين شعرهم اليونى وأوزانهم اليونية . ثم لما ظهرت أثينا على البلاد اليونانية عامة ذاع الشعر اليونى والأوزان اليونية والنثر الأتيكى ، وأصبح الدوريون اذا نظموا أو نثروا يصطنعون ما كان يصطنع فى أثينا من مناهج النظم والنثر ، ويصطنعون اللغة اليونية التى هذبها مذهب الأثينيين فى الكلام ، فهم كانوا يعدلون عن لغتهم ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم الى لغة الأثينيين ولهجتهم وأوزانهم وأساليبهم . وكذلك فعل العرب بعد الاسلام : عدلوا فى لغتهم الأدبية عن كل ما كانت تمتاز به لغتهم ولهجتهم الخاصة الى لغة القرآن ولهجتها . والأمر كذلك فى الأمم الحديثة الكبرى ذات الأقاليم المتنائية . والأطراف المتباعدة والتكوين الجنسى المعقد . ولست أضرب لذلك إلا مثلا واحدا حيا هو مثل فرنسا . ففى فرنسا الى جانب اللغة الفرنسية لغات إقليمية لها نحوها ولها قوامها الخاص ولها شعرها ؛ ومع ذلك فأهل الأقاليم اذا أرادوا أن يظهروا آثارا أدبية أو علمية قيمة يعدلون عن لغتهم الإقليمية الى اللغة الفرنسية . وقليل جدا من بينهم من يذهب مذهب (ميسترال) فيكتب فى لغته الإقليمية الخاصة .

وأنا أشعر بالحاجة الى أن أضرب مثلا آخر قد يدهش له الذين يدرسون الأدب العربى؛ لأنهم لم يتعوّدوا مثله من الباحثين عن تاريخ الأدب . ذلك أن فى لغتنا المصرية العصرية لهجات مختلفة وأنحاء متباينة من أنحاء القول ، فلأهل مصر العليا لهجاتهم ، ولأهل مصر الوسطى لهجاتهم ، ولأهل القاهرة لهجتهم ، ولأهل مصر السفلى لهجاتهم . وهناك اتفاق مطّرد بين هذه اللهجات و بين ما للمصريين من شعر فى لغتهم العامية ، فأهل مصر العليا يصطنعون أوزانا لا يصطنعها أهل القاهرة ولا أهل الدلتا ، وهؤلاء يصطنعون أوزانا لا يصطنعها أهل مصر العليا . وهذا ملائم لطبيعة الاشياء . فما كان للشعر أن يخرج عما ألف أصحابه من لغة ولهجة فى الكلام ، ومع هذا كله فنحن حين ننظم الشعر الأدبى أو نكتب النثر الأدبى والعلمى نعدل عن لغتنا ولهجتنا الإقليمية الى هذه اللغة واللهجة التى عدل اليها العرب بعد الإسلام وهى لغة قريش ولهجة قريش ، أى لغة القرآن ولهجته .

* * *

فالمسألة اذن هى أن نعلم : أسادت لغة قريش ولهجتها فى البلاد العربية ، وأخضعت العرب لسلطانها فى الشعر والنثر قبل الاسلام أم بعده ؟ أما نحن فنتوسط ونقول : إنها سادت قبيل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل الى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التى كانت تتسلط على أطراف البلاد

العربية . ولكن سيادة لغة قريش قبيل الاسلام لم تكن شيئا يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز . فلما جاء الاسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الدينى والسياسى جنبا لجنب .

واذن فنحن اذا استطعنا أن نفسر اتفاق اللغة واللهجة فى شعر أولئك الذين عاصروا النبى من أهل الحجاز ، فلن نستطيع أن نفسره فى شعر الذين لم يعاصروه أو لم يجاوروه .

ولندع هذه المسألة الفنية الدقيقة التى نعترف بأنها فى حاجة الى تفصيل وتحقيق أوسع وأشمل مما يسمح لنا به المقام فى هذا الفصل الى مسألة أخرى ليست أقل منها خطرا ، وإن كان أنصار القديم سيجدون فى فهمها شيئا من العسر والمشقة ؛ لأنهم لم يتعودوا مثل هذه الريبة فى البحث العلمى . وهى أنا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلى مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون فى ذلك مشقة ولا عسرا ، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلى إنما قدّ على قدّ القرآن والحديث كما يقدّ الثوب على قدّ لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولا وسعة . إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء ، وأن هذه الدقة فى الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلى لا ينبغى أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رزقوا حظا من السذاجة لم يتح لنا مثله . إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة فى الموازاة على الشك والحيرة وعلى أن نسأل أنفسنا : أليس يمكن ألا تكون هذه الدقة فى الموازاة

نتيجة من نتائج المصادفة، وإنما هى شىء تُكُلِّف وطلب وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالى ؟ يجب أن نكون على حظ عظيم جدا من السذاجة لنصدق أن فلانا أقبل على ابن عباس وقد أعدّ له طائفة من المسائل تجاوز المائتين حول لغة القرآن فأخذ يلقى عليه المسألة، فاذا أجاب عليها سأله : وهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ فيقول : نعم ! قال امرؤ القيس أو قال عنترة أو قال غيرهما من الشعراء... وينشد بيتا لا تشك ان كنت من أهل الفقه فى أنه إنما وضع ليثبت صحة اللفظ الذى يستشهد عليه من ألفاظ القرآن !

وهنا نمس أمرا من هذه الأمور التى سيغضب لها أنصار الأدب القديم، ولكننا سنمضى فى طريقنا كما بدأنا لا موارين ولا مخادعين : أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد وضعت فى تكلف وتصنع لغرض من هذه الأغراض المختلفة التى كانت تدعو الى وضع الكلام وانتحاله، لإثبات أن ألفاظ القرآن كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب، أو لإثبات أن عبد الله بن عباس كان من أقدر الناس على تأويل القرآن وتفسيره ومن أحفظهم لكلام العرب الجاهليين ؟ وأنت تعلم أن ذاكرة ابن عباس كانت مضرب المثل فى القرن الثانى والثالث للهجرة . وأنت تذكر قصته مع نافع بن الأزرق هذا، وعمر بن أبى ربيعة حين أنشده : * أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمبكرُ * وأنت تعلم أن عبد الله بن عباس

كان له مولى أخذ عنه العلم ونقله الى الناس ودس على مولاه شيئا كثيرا، وهو عكرمة. وأنت تعلم أن إثبات هذا الحفظ الكثير لعبد الله ابن عباس لم يكن يخلو من فائدة سياسية؛ لأن ابن عباس روى أشياء كثيرة أو رويت عنه أشياء كثيرة تنفع الشيعة، ولأن ابن عباس أجاب نافع بن الأزرق حين قال له : ما رأيت أحفظ منك يابن عباس، بقوله : ما رأيت أحفظ من على. وأنت تعلم أن هناك حديثا ترويه الشيعة يجعل النبيّ مدينة العلم، ويجعل عليا بابها.

بل أليس يمكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت في سذاجة وسهولة ويسر، لا لشيء إلا هذا الغرض التعليمي اليسير، وهو أن يسمع الطالب لفظا من ألفاظ القرآن ويجد الشاهد عليه من غير مشقة ولا عناء، أراد أحد العلماء أن يفسر طائفة من ألفاظ القرآن فوضع هذه القصة واتخذها سبيلا الى ما أراد ؟ ولعل لهذه القصة أصلا يسيرا جدا، لعل نافعا سأل ابن عباس عن مسائل قليلة فزاد فيها هذا العالم ومدها حتى أصبحت رسالة مستقلة يتداولها الناس.

وهذا النحو من التكلف والانتحال للأغراض التعليمية الصرفة كان شائعا معروفا فى العصر العباسى ولا سيما فى القرن الثالث والرابع. ولست أريد أن أطيل ولا أن أتعمق فى إثبات هذا؛ إنما أحيلك الى كتاب "الأمالى لأبى على القالى" والى مايشبهه من الكتب فسترى طائفة من الأحاجى والأوصاف تنسب الى الأعراب رجالا ونساء

شبابا وشيبا . سترى مثلا بنات سبعا اجتمعن وتواصفن أفراس آبائهن ، فتقول كل واحدة منهن فى فرس أبيها كلاما غريبا ومسجوعا يأخذه أهل السذاجة على أنه قد قيل حقا ، فى حين أنه لم يقل ، و إنما كتبه معلم يريد أن يحفظ تلاميذه أوصاف الخيل وما يقال فيها ، أو عالم يريد أن يتفيهق و يظهر كثرة ماوعى من العلم . وقل مثل ذلك فى سبع بنات أجتمعن وتواصفن المثل الأعلى للزوج الذى تطمع فيه كل واحدة منهن ، فأخذن يقلن كلاما غريبا مسجوعا فى وصف الرجولة والفتوة والتعريض أو التلميح الى ما تحب المرأة من الرجل .

ومثل هذا كثير شعرا ونثرا وسجعا ، تجده فى الأمالى والعقد الفريد وديوان المعانى لأبى هلال وغيرها من الكتب . وأكاد أعتقد أن هذا النحو من الانتحال هو أصل المقامات وما يشبهها من هذا النوع من أنواع الانشاء .

ولكنى بعدت عن الموضوع فيما يظهر ، فلأعد اليه لأقول ما كنت أقول منذ حين ، وهو أن من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسأل : أليس هذا الشعر الجاهلى الذى ثبت أنه لايمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم بل لا يمثل لغتهم ، أليس هذا الشعر قد وضع وضعا وحمل على أصحابه حملا بعد الاسلام ؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن فى هذا . ولكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية أن نتبين الأسباب المختلفة التى حملت الناس على وضع الشعر وانتحاله بعد الاسلام .

الكتاب الثانى

أسباب انتحال الشعر

—

١

ليس الانتحال مقصورا على العرب

يجب أن يتعوّد الباحث درس تاريخ الأمم القديمة التى قدّر لها أن تقوم بشىء من جلائل الأعمال، وما اعترض حياتها من الصعب والمحن وألوان الخطوب والصروف، ليفهم تاريخ الأمة العربية على وجهه ويردّ كل شىء فيه الى أصله . واذا كان هناك شىء يؤخذ به الذين كتبوا تاريخ العرب وآدابهم فلم يوفقوا الى الحق فيه . فهو أنهم لم يلمّوا إلماما كافيا بتاريخ هذه الأمم القديمة ، أو لم يخطر لهم أن يقارنوا بين الأمة العربية والأمم التى خلت من قبلها ؛ وإنما نظروا الى هذه الأمة العربية كأنها أمة فذّة لم تعرف أحدا ولم يعرفها أحد ، لم تشبه أحدا ولم يشبهها أحد، لم تؤثّر فى أحد ولم يؤثر فيها أحد . قبل قيام الحضارة العربية وانبساط سلطانها على العالم القديم .

والحق أنهم لو درسوا تاريخ هذه الأمم القديمة وقارنوا بينه و بين تاريخ العرب لتغيّر رأيهم فى الأمة العربية ، ولتغير بذلك تاريخ العرب أنفسهم، ولست أذكر من هذه الأمم القديمة إلا أمتين اثنتين: الأمة اليونانية والأمة الرومانية . فقد قدّر لهاتين الأمتين فى العصور القديمة مثل ما قدّر للأمة العربية فى العصور الوسطى . كلتاهما تحضرت بعد بداوة . وكلتاهما خضعت فى حياتها الداخلية لهــذه الصروف السياسية المختلفة . وكلتاهما انتهت الى نوع من التكوين السياسى دفعها الى أن تتجاوز موطنها الخاص وتُغير على البــلاد المجاورة وتبسط سلطانها على الأرض . وكلتاهمــا لم تبسط سلطانها على الأرض عبثا وانمــا نفعت وانتفعت وتركت للانسانية تُراثا قيما لا تزال تنتفع به الى الآن : ترك اليونان فلسفة وأدبا، وترك الرومان تشريعا ونظاما .

وكذلك كان شأن هذه الأمة العربية، تحضرت كما تحضر اليونان والرومان بعد بداوة ، وتأثرت كما تأثر اليونان والرومان بصروف سياسية مختلفة، وانتهى بها تكوينها السياسى الى مثل ما انتهى التكوين السياسى لليونان والرومان اليه من تجاوز الحدود الطبيعية و بسط السلطان على الأرض ، وتركت كما ترك اليونان والرومان للانسانية تراثا قيما خالدا فيه أدب وعلم ودين . وليس من العجب فى شيء أن تكون العوارض التى عرضت لحياة العرب على اختلاف فروعها مشبهة للعوارض التى عرضت لحياة اليونان والرومان من وجوه كثيرة .

وفى الحق أن التفكير الهادئ فى حياة هذه الأمم الثلاث ينتهى بنا الى نتائج متشابهة ان لم نقل متحدة . ولم لا ؟ أليست هذه الاشارة التى قدمناها الى ما بين هذه الأمم الثلاث من شبه تكفى لتحملك على أن تفكر فى أن مؤثرات واحدة أو متقاربة قد أثرت فى حياة هذه الأمم فانتهت الى نتائج واحدة أو متقاربة !

ولسنا نريد أن نترك الموضوع الذى نحن بإزائه للبحث عما يمكن أن يكون من اتفاق أو افتراق بين العرب واليونان والرومان ؛ فنحن لم نكتب لهذا ، وإنما نريد أن نقول إن هذه الظاهرة الأدبية التى نحاول أن ندرسها فى هذا الكتاب والتى يجزع لها أنصار القديم جزعا شديدا ليست مقصورة على الأمة العربية ، وانما تتجاوزها الى غيرها من الأمم القديمة ، ولا سيما هاتين الأمتين الخالدتين . فلن تكون الأمة العربية أول أمة انتحل فيها الشعر انتحالا وحمل على قدمائها كذبا وزورا ، وانما انتحل الشعر فى الأمة اليونانية والرومانية من قبل وحمل على القدماء من شعرائهما ، وانخدع به الناس وآمنوا له ، ونشأت عن هذا الانخداع والإيمان سنة أدبية توارثها الناس مطمئنين اليها ؛ حتى كان العصر الحديث وحتى استطاع النقاد من أصحاب التاريخ والأدب واللغة والفلسفة أن يردوا الأشياء الى أصولها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وأنت تعلم أن حركة النقد هذه بالقياس الى اليونان والرومان لم تنته بعد ، وأنها لن تنتهى غدا ولا بعد غد . وأنت تعلم أنها قد وصلت الى نتائج غيرت تغييرا تاما ما كان معروفا متوارثا من تاريخ هاتين

الأمتين وآدابهما. وأنت اذا فكرت فستوافقنى على أن منشأ هذه الحركة النقدية انما هو فى حقيقة الأمر تأثر الباحثين فى الأدب والتاريخ بهذا المنهج الذى دعوت اليه فى أول هذا الكتاب، وهو منهج (ديكارت) الفلسفى .

وسواء رضينا أم كرهنا فلا بد من أن نتأثر بهـذا المنهج فى بحثنا العلمى والأدبى كما تأثر من قبلنا به أهل الغرب . ولا بد من أن نصطنعه فى نقد آدابنا وتاريخنا كما اصطنعه أهل الغرب فى نقد آدابهم وتاريخهم. ذلك لأن عقليتنا نفسها قد أخذت منذ عشرات من السنين تتغير وتصبح غربية، أو قل أقرب الى الغربية منها الى الشرقية. وهى، كلما مضى عليها الزمن جدّت فى التغير وأسرعت فى الاتصال بأهل الغرب .

واذا كان فى مصر الآن قوم ينصرون القديم، وآخرون ينصرون الجديد، فليس ذلك إلا لأن فى مصر قوما قد اصطبغت عقليتهم بهذه الصبغة الغربيـة، وآخرين لم يظفروا منها بحظ أو لم يظفروا منهـا إلا بحظ قليل . وانتشار العلم الغربى فى مصر وازدياد انتشاره من يوم الى يوم، واتجاه الجهود الفردية والاجتماعية الى نشر هـذا العلم الغربى، كل ذلك سيقضى غدا أو بعـد غد بأن يصبح عقلنا غربيـا، وبأن ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثرين بمنهج (ديكارت) كما فعل أهل الغرب فى درس آدابهم وآداب اليونان والرومان .

ولقد أحب أن تلم إلمـاما قليلا بأى كتاب من هذه الكتب الكثيرة التى تنشر الآن فى أوربا فى تاريخ الآداب اليونانية أو اللاتينية، وأن

تسأل نفسك بعد هذا الإلمام ماذا بقى مما كان يعتقده القدماء فى تاريخ الآداب عند هاتين الأمتين : أحق ما كان يعتقد القدماء فى شأن الإلياذة والأوديسا ؟ أحق ما كانوا يتحدثون به بل ما كانوا يؤمنون به فى شأن (هوميروس) و (هيزيودوس) وغيرهما من الشعراء القصصيين؟ أحق ما كان القدماء يتخذونه أساسا لسياستهم وعلمهم وأدبهم وحياتهم كلها من أخبار اليونان والرومان؟ إن من اللذيذ حقا أن تقرأ ما كتب (هيرودوت) فى تاريخ اليونان ، و (تيتوس ليفوس) فى تاريخ الرومان ، وما يكتب المحدثون الآن فى تاريخ هاتين الأمتين . ولكنك لا تكاد تجد شيئا من الفرق بين ما كان يتحدث به ابن إسحاق ويرويه الطبرى من تاريخ العرب وآدابهم ، وما يكتبه المؤرخون والأدباء عن العرب فى هذا العصر . ذلك لأن الكثرة من هؤلاء المؤرخين والأدباء لم تتأثر بعد بهذا المنهج الحديث ، ولم تستطع بعد أن تؤمن بشخصيتها وأن تخلص هذه الشخصية من الأوهام والأساطير .

وإذا كان قد قدر لهذا الكتاب ألا يرضى الكثرة من هؤلاء الأدباء والمؤرخين فنحن واثقون بأن ذلك لن يضيره ولن ينال من تأثيره فى هذا الجيل الناشئ . فالمستقبل لمنهج (ديكارت) لا لمناهج القدماء .

٢

السياسة وانتحال الشعر

قلت إن العرب قد خضعوا لمثل ما خضعت له الأمم القديمة من المؤثرات التي دعت الى انتحال الشعر والأخبار . ولعل أهم هذه المؤثرات التي طبعت الأمة العربية وحياتها بطابع لا يمحى ولا يزول هو هذا المؤثر الذى يصعب تمييزه والفصل فيه ؛ لأنه مزاج من عنصرين قويين جدا ، هما الدين والسياسة . والحق أن لا سبيل الى فهم التاريخ الاسلامى مهما تختلف فروعه إلا اذا وضحت هذه المسألة (مسألة الدين والسياسة) توضيحا كافيا . فقد أرادت الظروف ألا يستطيع العرب منذ ظهر الاسلام أن يخلصوا من هذين المؤثرين فى لحظة من لحظات حياتهم فى القرنين الاول والثانى .

هم مسلمون لم يظهروا على العالم إلا بالاسلام ؛ فهم محتاجون الى أن يعتزوا بهذا الاسلام و يرضوه و يجدوا فى اتصالهم به ما يضمن لهم هذا الظهور وهذا السلطان الذى يحرصون عليه . وهم فى الوقت نفسه أهل عصبية وأصحاب مطامع ومنافع ، فهم مضطرون الى أن يرعوا هذه العصبية و يلائموا بينها و بين منافعهم ومطامعهم ودينهم .

وإذن فكل حركة من حركاتهم وكل مظهر من مظاهر حياتهم متأثر بالدين، متأثر بالسياسة . واذا كانت حياتهم كما نصف تأثرا متصلا بالدين والسياسة، واجتهادا متصلا فى التوفيق بينهما، أو بعبارة أصح: فى الاستفادة منهما جميعا، فخليق بالمؤرخ السياسى أو الأدبى أو الاجتماعى أن يجعل مسألة الدين والسياسة عند العرب أساسا للبحث عن الفرع الذى يريد أن يبحث عنه من فروع التاريخ . وسترى عند ما نتعمق بك قليلا فى هذا الموضوع أنا لسنا غُلاة ولا مخطئين .

وأول مايحسن أن نلاحظه، هو هذا الجهاد العنيف الذى اتصل بين النبي وأصحابه من ناحية، وبين قريش وأوليائها من ناحية أخرى . أما فى أول عهد الاسلام بالظهور حين كان النبي وأصحابه فى مكة مستضعفين فقد كان هذا الجهاد جدليا خالصا، وكان النبي يكاد يقوم به وحده بازاء الكثرة المطلقة من قومه، يجادلهم بالقرآن ويقارعهم بهذه الآيات المحكمات، فيبلغ منهم ويفحمهم ويضطرهم الى الإعياء . وهو كلما بلغ من ذلك حظا انتصر له من قومه فريق حتى تكون له حزب ذو خطر، ولكنه لم يكن حزبا سياسيا، ولم يكن يطمع فى ملك ولا تغلّب ولا قهر، أو لم يكن ذلك فى دعوته . غير أن هذا الحزب كان كلما اشتدت قوته وقوى أَمْره اشتدت مناضلة قريش له وفتنتها إياه حتى كان ما تعلم من الهجرة الأولى ثم من هجرة النبي الى المدينة .

وليس هنا موضع البحث عن هذه الهجرة الى المدينة، وعما أعدّ الأنصار لنصر النبي وإيوائه، وعن النتائج المختلفة التى أنتجتها الهجرة .

ولكنا نستطيع أن نسجل مطمئنين أن هذه الهجرة قد وضعت مسألة الخلاف بين النبي وقريش وضعا جديدا، جعلت الخلاف سياسيا يعتمد فى حله على القوة والسيف بعد أن كان من قبل دينيا يعتمد على الجدال والنضال بالحجة ليس غير .

*
* *

منذ هاجر النبي الى المدينة تكوّنت للإسلام وحدة سياسية لها قوتها المادّية و بأسها الشديد، وأحست قريش أن الأمر قد تجاوز الأوثان والآراء الموروثة والسنن القديمة، الى شيء آخر كان فيما يظهر أعظم خطرا فى نفوس قريش من الدين وما يتصل به، وهو السيادة السياسية فى الحجاز، والطرق التجارية بين مكة و بين البلاد التى كانت ترحل اليها بتجارتها فى الشتاء والصيف . وأنت تعلم أن الاستيلاء على العير هو أصل الوقعة الكبرى الأولى بين النبي وقريش فى بدر . فليس من شك اذن فى أن الجهاد بين النبي وقريش قد كان دينيا خالصا ما أقام النبي فى مكة . فلما انتقل الى المدينة أصبح هذا الجهاد دينيا وسياسيا واقتصاديا، وأصبح موضوع النزاع بين قريش والمسلمين ليس مقصورا على أن الإسلام حق أو غير حق، بل هو يتناول مع ذلك الأمة العربية أو الحجازية على أقل تقدير لمن تذعن، والطرق التجارية لمن تخضع .

وعلى هذا النحو وحده تستطيع أن تفهم سيرة النبي منذ هاجر الى المدينة لا مع قريش وحدها بل مع غيرها من العرب، بل مع اليهود أيضا .

(٤)

ولكننا لا نكتب تاريخ النبي ، وإنما نريد أن نصل مسرعين إلى ما يعنينا من هذا كله ، وهو أن استحالة الجهاد الى جهاد سياسي بعد أن كان جهادا دينيا قد آستحدث عداوة بين مكة والمدينة ، أو بين قريش والأنصار لم تكن موجودة من قبل . فالسيرة تحدثنا بأن صلات المودّة كانت قوية بين قريش و بين الأوس والخزرج قبل أن يهاجر النبي الى المدينة . وكان ذلك معقولا وطبعيا . فقد كان الأوس والخزرج على طريق قريش الى الشأم . ولم يكن بد لهذه المدينة التجارية التى تسمى مكة من أن تؤمن طرقها التجارية وتوثق صلات الودّ مع الذين يستطيعون أن يعترضوا هذه الطريق للخطر .

نشأت إذن بعد الهجرة عداوة بين مكة والمدينة ، وما هى إلا أن آصطبغت هذه العداوة بالدم يوم آنتصر الأنصار فى "بدر" ويوم انتصرت قريش فى "أُحُد" . وما هى إلا أن آشترك الشعر فى هذه العداوة مع السيف ، فوقف شعراء الأنصار وشعراء قريش يتهاجون ويتجادلون و يتناضلون ، يدافع كل فريق عن أحسابه وأنسابه ويُشيد بذكر قومه . ثم كان الموقف دقيقا ؛ فقد كان شعراء الأنصار يدافعون قريشا عن النبي وأصحابه وهم من قريش ؛ وكان شعراء قريش يهجون مع الأنصار النبي وأصحابه ، وهم من خلاصة قريش . ويجب أن يكون هذا الهجاء قد بلغ أقصى ما يمكن من الحدّة والعنف ؛ فان النبي كان يحرّض عليه ، و يثيب أصحابه و يقدّمهم و يعِدُهم ، مثل ما كان يعد

المقاتلين من الأجر والمثوبة عند الله ، ويتحدث أن جبريل كان يؤيد حسانا .

كثر الهجاء إذن واشتد بين قريش والأنصار لما كثرت الحرب واشتدت . وأنت تعلم مقدار حظ العرب من العصبية وحرصهم على الثأر للدماء المسفوكة ، وجدهم في الدفاع عن الأعراض المنتهكة . فليس غريبا أن تبلغ الضغينة بين هذين الحيين من أهل الحجاز أقصى ما كانت تستطيع أن تبلغ .

ولقد مضت قريش فى جهادها بالسنان واللسان والأنفس والأموال ، وأعانها من أعانها من العرب واليهود ، ولكنها لم توفق . وأمست ذات يوم وإذا خيل النبي قد أظلت مكة ، فنظر زعيمها وحازمها أبو سفيان فاذا هو بين اثنتين : إما أن يمضى فى المقاومة فتفنى مكة ، وإما أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس وينتظر لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة الى المدينة ومن قريش الى الأنصار أن يعود الى قريش والى مكة مرة أخرى . أسلم أبو سفيان وأسلمت معه قريش ، وتمت للنبي هذه الوحدة العربية ، وألقى الرماد على هذه النار التى كانت متأججة بين قريش والأنصار ، وأصبح الناس جميعا فى ظاهر الأمر إخوانا مؤتلفين فى الدين .

ولعل النبي لو عمِّر بعد فتح مكة زمنا طويلا لاستطاع أن يمحو تلك الضغائن ، وأن يوجه نفوس العرب وجهة أخرى ؛ ولكنه توفى

بعد الفتح بقليل، ولم يضع قاعدة للخلافة، ولا دستورا لهذه الأمة التى جمعها بعد فرقة. فأى غرابة فى أن تعود هذه الضغائن الى الظهور، وفى أن تستيقظ الفتنة بعد نومها، وفى أن يزول هذا الرماد الذى كان يخفى تلك الأحقاد!

وفى الحق أن النبي لم يكد يدع هذه الدنيا حتى اختلف المهاجرون من قريش والأنصار من الأوس والخزرج فى الخلافة أين تكون؟ ولمن تكون؟ وكاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين وحزم النفر من قريش، ولولا أن القوة المادية كانت اذ ذاك الى قريش. فما هى إلا أن أذعنت الأنصار وقبلوا أن تخرج منهم الإمارة الى قريش. وظهر أن الأمر قد استقر بين الفريقين، وأنهم قد أجمعوا على ذلك لا يخالفهم فيه إلا سعد بن عُبَادة الأنصارى الذى أبى أن يبايع أبا بكر، وأن يبايع عمر، وأن يصلى بصلاة المسلمين، وأن يحج بحجهم. وظل يمثل المعارضة قوى الشكيمة ماضى العزيمة، حتى قتل غِيلةً فى بعض أسفاره. قتلته الجن فيما يزعم الرواة. وانصرفت قوة قريش والأنصار الى ما كان من انتقاض العرب على المسلمين أيام أبى بكر، والى ما كان من الفتوح أيام عمر. ولكن المقيمين من أولئك وهؤلاء فى مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون أن ينسوا تلك الخصومة العنيفة التى كانت بينهم أيام النبى، ولا تلك الدماء التى سفكت فى الغزوات.

وليس من شك فى أن حزم عمر قد حال بين المهاجرين والأنصار، أو بعبارة أصح: بين قريش والأنصار وبين الفتنة. فالرواة يحدثوننا أن

عمر نهى عن رواية الشعر الذى تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي . وهذه الرواية نفسها تثبت رواية أخرى ، وهى أن قريشا والأنصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضا أيام النبي ؛ وكانوا حراصا على روايته يجدون فى ذلك من اللذة والشماتة مالا يشعر به إلا صاحب العصبية القوية اذا وتر أو انتصر .

وقد ذكر الرواة أن عمر مر ذات يوم فاذا حسان فى نفر من المسلمين ينشدهم شعرا فى مسجد النبي ، فأخذ باذنه وقال : أرغاء كرغاء البعير؟ قال حسان : اليك عنى ياعمر ، فوالله لقد كنت أنشد فى هذا المكان من هو خير منك فيرضى ؛ فمضى عمر وتركه . وفقه هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ما قدمنا من أن الأنصار كانوا موتورين ، وأن عصبيتهم كانت لا تطمئن الى انصراف الأمر عنهم ، فكانوا يتعزون بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش وما كان لهم من البلاء قبل موت النبي وما أفادوا بأيديهم وألسنتهم من مجد .

وكان عمر قرشيا تكره عصبيته أن تزدرى قريش ، و تنكر ما أصابها من هزيمة ، وما أشيع عنها من منكر . وكان فوق هذا كله أميرا حازما يريد أن يضبط أمور الرعية ، وأن يؤسس ملك المسلمين على شيء غير العصبية . وقد وفق بعض التوفيق ، ولكنه لم يظفر بكل ما كان يريد .

تحدث الرواة أن عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب قدما المدينة أيام عمر فذهبا الى أبى أحمد بن جحش ، وكان رجلا ضريرا حسن

الحديث يألفه الناس و يتحدثون عنده، قالا جئناك لتدعو لنا حسّان ابن ثابت لينشدنا وننشده؛ قال : هو ما تريدان، وأرسل الى حسان فجاء؛ قال : هذان أخواك قد أقبلا من مكة يريدان أن يسمعاك ويسمعا لك؛ قال حسان : إن شئتما فابدأا و إن شئتما بدأت؛ قالا : بل نبدأ، فأخذا ينشدانه مما قالت قريش فى الأنصار حتى فار وأخذ يغلى كالمرجل، فلما فرغا استوى كل منهما على راحلته ومضيا الى مكة. وذهب حسان مغضبا الى عمر وقص عليه الخبر؛ قال عمر : سأردهما عليك إن شاء الله. ثم أرسل من ردّهما؛ حتى اذا كانا بين يدى عمر ومعه نفر من أصحاب النبى، قال لحسان : أنشدهما ما شئت؛ فأنشدهما حتى اشتفى. وقال عمر بعد ذلك — فيما يحدثنا صاحب الأغانى — : قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن، فأما إذ أبوا فاكتبوه. وسواء أقال عمر هذا أم لم يقله، فقد كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش ويحرصون على ألا يضيع.

قال آبن سَلّام : وقد نظرت قريش فاذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية، فآستكثرت منه فى الإسلام. وليس من شك عندى فى أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذى يهجى فيه الأنصار.

ولما قتل عمر وانتهت الخلافة بعد المشقة الى عثمان، تقدمت الفكرة السياسية التى كانت تشغل أبا سفيان خطوة أخرى. فلم تصبح الخلافة فى قريش فحسب، بل أصبحت فى بنى أمية خاصة. وآشتدت عصبية

قريش ، وآشتدت عصبية الأمويين ، وآشتدت العصبيات الأخرى بين العرب ، وقد هدأت حركة الفتح ، وأخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض . وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عثمان وافتراق المسلمين وانتهاء الأمر كله الى بنى أمية بعد تلك الفتن والحروب .

فى ذلك الوقت تغيّرت خطة الخليفة السياسية أو بعبارة أدق : فشلت هذه الخطة التى كان يختطها عمر ، وهى منع العرب أن يتذاكروا ما كان بينهم من الضغائن قبل الإسلام . وعاد العرب الى شرّ مما كانوا فيه فى جاهليتهم من التنافس والتفاخر فى جميع الأمصار الاسلامية . ويكفى أن أقص عليك ما كان من تنافس الشعراء من الأنصار وغيرهم عند معاوية ويزيد بن معاوية ، لتعلم الى أى حدّ عاد العرب فى ذلك الوقت الى عصبيتهم القديمة .

ولعلك قرأت تلك القصة التى تخبرنا بأن عبد الرحمن بن حسّان شبب برَمْلة بنت معاوية نكاية فى بنى أمية . فأما معاوية فاصطنع الحلم كعادته ، وقال لعبد الرحمن : فأين أنت من أختها هند ! وأما يزيد فقد كان صورة لجده أبى سفيان ، كان رجل عصبية وقوة وفتك وسخط على الإسلام وماسنّه للناس من سنن ، فأغرى كَعْب بن جُعَيل بهجاء الأنصار ، فاستعفاه وقال : أتريد أن تردّنى كافرا بعد إسلام؟ فأغرى الأخطل وكان نصرانيا فأجابه وهجا الأنصار هجاء مقذعا مشهورا .

قلت إن يزيد كان صورة صادقة لجده أبى سفيان ، يؤثر العصبية على كل شىء . وأنت لا تنكر أن يزيد هو صاحب وقعة الحَرّة التى انتهكت

فيها حرمات الأنصار فى المدينة ، والتى انتقمت فيها قريش من الذين انتصروا عليها فى بدر ، والتى لم تقم للأنصار بعدها قائمة . ولأمر ما يقول الرواة حين يقصّون وقعة الحرّة إنه قد قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرا ، أى من الذين أذلّوا قريشا .

ولست فى حاجة الى أن أقص عليك هذه القصة الأخرى التى تمثل لنا عمرو بن العاص وقد ضاق ذرعا بالأنصار حتى كره اسمهم هذا ، وطلب الى معاوية أن يمحوه ، واضطر النعمان بن بشير وهو الأنصارى الوحيد الذى شايع بنى أمية الى أن يقول :

ياسعدُ لا تجبِ الدعاء فما لنا ... نسبٌ نُجيب به سوى الأنصارِ
نسبٌ تخيّره الإله لقومنا ... أَثْقِلْ به نسبًا على الكفار!
إن الذين ثَوَوْا ببدر منكمُ ... يوم القَليب هُمُ وَقودُ النار

وقد سمع معاوية هذا الشعر فلام عمرا على تسرعه ليس غير . فلم يكن معاوية أقلّ بغضا للأنصار وتعصبا لقريش من مشيره عمرو ، أو ولىّ عهده يزيد . ولكن أصحاب هذه العصبية القرشية كانوا يتفاوتون فيما بينهم تفاوتا شديدا ، فكان منهم المسرف كيزيد ، والمقتصد كمعاوية . وكان منهم من يتجاوز الاقتصاد فى العصبية الى شىء يشبه العطف على الأنصار والرثاء لهم . ولعل الزبير بن العوّام كان من هؤلاء العاطفين على الأنصار الراثين لهم الحافظين لعهدهم والراعين لوصية النبى فيهم ؛ فقد يحدّثنا الرواة أنه مرّ بنفر من المسلمين فإذا فيهم حسّان ينشدهم ،

وهم غير حافلين بما يقول؛ فلامهم على ذلك وذكرهم موقع شعر حسان من النبي؛ وأثر ذلك في نفس حسان فقال يمدحه — وأحب أن تلتفت الى أول هذا الشعر، فهو حسن الدلالة على ما أريد أن أثبته من دخول الحزن على نفوس الأنصار لهذا الموقف الجديد الذى وقفته منهم قريش — :

أقام على عهد النبيّ وهَدْيِهِ حَوَارِيُّه والقولُ بالفعل يعدلُ
أقام على منهاجه وطريقه يُوالِى ولىّ الحق والحقُّ أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذى يصول اذا ما كان يوم مُحَجَّل
اذا كشفت عن ساقها الحرب حشّها بأبيض سبّاقٍ الى الموت يُرْقِل
وإن امرأً كانت صَفِيَّةُ أمّه ومن أسد فى بيتها لمرفَّل
له من رسول الله قُرْبَى قريبةٌ ومن نصرة الإسلام مجدٌ مؤثَّل
فكم كربةٍ ذبَّ الزبير بسيفه عن المصطفى والله يعطى فيُجزل
فما مثله فيهم ولا كان قبله وليس يكون الدهرَ ما دام يَذْبُلُ
ثناؤك خير من فعال معاشر وفعلك يابن الهاشمية أفضل

فانظر الى هذين البيتين فى أول المقطوعة كيف يمثلان ذكر حسان لعهد النبي وحزنه عليه وأسفه على ما فات الأنصار من موالاة النبي لهم وإنصافه إياهم. ولكن بقية هذه الأبيات تدعو الى شيء من الاستطراد لا بأس به؛ لأنه لا يتجاوز الموضوع كثيرا؛ فقد يظهر من قراءة هذه الأبيات أنه قد قصد بها الى الإلحاح فى مدح الزبير وإحصاء مآثره. وقد يظهر أن فى آخرها ضعفا لا يلائم قوة أولها.

وقد روى هذه القصة نفر من آل الزبير ومن أحفاد عبد الله بن الزبير بالدقة . أفتستبعد أن تكون عصبية الزبيرين قد مدّت هذه الأبيات وطوّلتها وتجاوزت بها ما كان قد أراد حسان من الاعتراف بالجميل الى ما كانت تريد العصبية الزبيرية من تفضيل الزبير على منافسيه أو على منافسى ابنه عبد الله بنوع خاص .

واستطراد آخر لا بأس به، لأنه يثبت ما نحن فيه أيضا، فقد ذكرت لك ما كان من هجاء الأخطل للأنصار. وهم يتحدثون — كما رأيت — أن النعمان بن بشير غضب لهذا الهجاء وأنشد بين يدى معاوية أبياتا نرويها لك، فسترى فيها مثل ما رأيت فى أبيات حسّان من أثر هذه العصبية التى تضيف الى الشعراء ما لم يقولوا. وقد كان النعمان بن بشير فى الأنصار يتعصب لقريش ولبنى أمية، أو قل يمالئهم التماسا للنفع عندهم . وقد تحدّثوا أنه كان الأنصارى الوحيد الذى شهد صِفِّين مع معاوية، كما كان الزبير من هذه القلة القرشية التى كانت تعطف على الأنصار ذكرا لعهد النبىّ، أو احتفاظا بمودّة الأنصار ليوم الحاجة . قال النعمان بن بشير لمعاوية :

معاوِىَ إلّا تُعْطِنا الحقَّ تعترف ... لِحَى الأَزْد مشدودا عليها العمائمُ
أيشتُمُنا عبدُ الأراقم ضَلّةً ... وماذا الذى تُجدى عليك الأراقم !
فما لِىَ ثأرٌ دون قطع لسانه ... فدونك من تُرضيه عنك الدراهم
وراعِ رويدا لا تَسُمْنا دنيّةً ... لعلك فى غِبِّ الحوادث نادم

متى تلق منا عصبة خزرجية ... أو الأوس يوما تخترمك المخارم
وتلقاك خيل كالقطا مستطيرة ... شماطيط أرسال عليها الشكائم
يسومها العمران عمرو بن عامر ... وعمران حتى تستباح المحارم
ويبدو من الخود العزيزة حجلها ... وتبيض من هول السيوف المقادم
فتطلب شعب الصدع بعد التئامه ... فتغريه فالآن والأمر سالم
وإلا فثوبى لأمة تبعية ... تواريث آبائى وأبيض صارم
وأسمر خطى كأن كعوبه ... نوى القسب فيها لهذمى خثارم
فإن كنت لم تشهد ببدر وقيعة ... أذلت قريشا والأنوف رواغم
فسائل بنا حيى لؤى بن غالب ... وأنت بما يخفى من الأمر عالم
ألم تبتدر يوم بدر سيوفنا ... وليلك عما ناب قومك قائم
ضربنا لهم حتى تفرق جمعكم ... وطارت أكف منكم وجماجم
وعادت على البيت الحرام عرائس ... وأنت على خوف عليك التمائم
وعضت قريش بالأنامل بغضة ... ومن قبل ما عضت عليك الأداهم
فمنا لها فى كل أمر نكيده ... مكان الشجا والأمر فيه تفاقم
فما إن رمى رام فأوهى صفاتنا ... ولا ضامنا يوما من الدهر ضائم
وإنى لأغضى عن أمور كثيرة ... سترقى بها يوما اليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وإننى ... لتلك التى فى النفس منى أكاتم
فما أنت والأمر الذى لست أهله ... ولكن ولى الحق والأمر هاشم
اليهم يصير الأمر بعد شتاته ... فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم ... ومنهم له هاد إمام وخاتم

فظاهر جدا أن هـذه الأبيات الثلاثة الأخيرة على أقل تقدير قد حملت على النعمان بن بشير حملا، حملها عليه الشيعة . ومع أننا نعلم أن الأنصار حين أخطأهم الحكم فاضطغنوا على قريش مالوا بطبيعة موقفهم السياسى الى تأييد الحزب المناوئ لبنى أمية، فانضموا الى على، فلسنا نشك فى أن النعمان بن بشير لم يكن هاشمى المذهب ولا علوى الرأى، إنما كان أمويا أو بعبارة أصح : سُفْيانيا . فلما أحس انتقال الأمر من آل أبى سفيان الى مَرْوان بن الحَكَم تحول عن الأمويين الى ابن الزبير وقتل فى ذلك .

فأنت ترى الى أى حد كانت العصبية قد انتهت بقريش والأنصار. وأنت ترى تأثيرها فى الشعر والشعراء . وأن ترى من هذين الاستطرادين كيف استغلت العصبية الزبيرية والهاشمية شعر حسان وشعر النعمان ابن بشير لمناهضة خصومها . ولكنى لم أفرُغ بعدُ من أمر هذه العصبية بين قريش والأنصار وتأثيرها فى الشعر والشعراء، ولا أريد أن أدع هذه العصبية دون أن أذكر ما كان بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحَكَم أخى الخليفة مروان من هذا النضال العنيف الذى لم تبق لنا منه إلا آثار ضئيلة .

والرواة يختلفون فى أصل هذه المهاجاة بين هذين الرجلين . وهم مضطرون الى أن يختلفوا، فقد دخلت العصبية فى الرواية أيضا . أما الأنصار فكانوا يتحدثون أن هذين الرجلين كانا صديقين، ولكن عبدالرحمن بن حسان الأنصارى كان يحب امرأة صاحبه القرشى ويختلف

اليها ، فبلغ ذلك صاحبه فراسل امرأة عبد الرحمن بن حسان ، وأنبأت هذه زوجها فاحتال حتى حمل امرأة صاحبه على أن تزوره فى بيته ، وأخفاها فى إحدى الحجر ، واحتالت امرأته حتى حملت القرشى على أن يزورها ، فلما استقر به المقام عندها أقبل زوجها فأرادت أن تخفيه فأدخلته فى إحدى الحجر ، فاذا هو يرى امرأته ، ففسد الأمر بين الصديقين . وأما قريش فكانت تروى القصة نفسها ، ولكنها تعكسها وتظهر صاحبها مظهر الوفى لصديقه بأنه كانت تأتيه رسائل امرأة عبد الرحمن بن حسان فلا يجيبها الى ما كانت تريد رعاية لحرمة الصديق .

وليس من شك فى أن هذه القصة خيال كانت تتفكه به الأنصار وقريش بعد أن هدأت نار الخصومة العملية بينهما ، وأن ما يرويه صاحب الأغانى عن أصل هذه المهاجاة بعيد كل البعد عن النساء :

كان الصديقان يتصيديان بأكلب لهما ، فقال القرشى لصاحبه :

أُزجر كلابك إنها قَلَطيةٌ بُقْعٌ ومثلُ كلابكم لم تصطَدِ

فرد عليه ابن حسان :

من كان يأكل من فريسة صيده فالتمر يغنينا عن المتصيَّد
إنا أناس رَيِّقون وأمكم ككلابكم فى الولغ والمتردّد
حزناكُمُ بالضبِّ تحترشونه والريف يمنعكم بكل مهنّد

وعظُم الشر بين الصديقين منذ ذلك اليوم .

ولعل عبد الرحمن بن حسان قد أحسن تصوير نفسية الأنصار حين قال :

صار الذليلُ عزيزا والعزيزُ به ذلٌّ وصار فروع الناس أذنابا
إنى لملتمس حتى يبين لكم فيكم متى كنتمُ للناس أربابا
وفارقوا طلكم ثم انظروا وسلوا عنا وعنكم قديمَ العلم أنسابا

على أن الأمر تجاوز هذين الشاعرين، فاستعان القرشيّ بشعراء من مضر وربيعة . ثم تجاوز الأمر الشعر والشعراء وانتهى الى معاوية، فأرسل الى سعيد بن العاصى، وكان واليه على المدينة، يأمره بأن يضرب كلّا من الشاعرين مائة سوط، وكان سعيد عطوفا على الأنصار فى أيام معاوية كما كان الزبير عطوفا عليهم أيام عمر ؛ وكانت بين سعيد وعبد الرحمن بن حسان مودّة فكره أن يضربه، وكره أيضا أن يضرب القرشى فعطّل أمر معاوية . غير أنه لم يلبث أن ترك ولاية المدينة لمروان بن الحكم الذى أسرع فتعصّب لأخيه وضرب عبد الرحمن ابن حسان مائة سوط . هنا ذكر عبد الرحمن بن حسّان أن للأنصار سفيرا فى الشأم هو النعمان بن بشير فكتب اليه :

ليت شعرى أغائب أنت بالشأ م خليلى أم راقد نُعمانُ
أيّةٌ ما تكن فقد يرجع الغا ئب يوما ويُوقَظ الوسنان
إن عمرا وعامرا أبوينا وحراما قدما على العهد كانوا
إنهم مانعوك أم قلة الكتّ ـاب أم أنت عاتب غضبان
أم جفاء أم أعوزتك القراطيـ ـس أم أمرى به عليك هوان
يوم أنبئتَ أنّ ساقِىَ رُضّـ ـت وأنتم بذلك الركبان

ثم قالوا إن ابن عمك فى بلـ ـوى أمورٍ أتى بها الحدثان
فنسيت الأرحام والودّ والصحـ ـبة فيما أتتك به الأزمان
انما الرمح فاعلمنّ قناةٌ أو كبعض العيدان لولا السنان

قالوا : فدخل النعمان بن بشير على معاوية ، فذكر له أن سعيداً عطّل أمره ، وأن مروان أنفذه فى الأنصارى وجهده ؛ قال معاوية : فتريد ماذا ؟ قال النعمان : أريد أن تعزم على مروان لتُمضين أمرك فى الرجلين جميعا . ويروى أن النعمان قال فى ذلك هذه الأبيات :

يابن أبى سفيان ما مثلُنا جارَ عليه ملك أو أميرُ
أذكر بنا مقدم أفراسنا بالحِنو اذا أمّت الينا فقير
واذكر غداة الساعدى الذى آثركم بالأمر فيها بشير
فاحذر عليهم مثل بدرٍ وقد مرّ بكم يوم ببدر عسير
إن ابن حسّان له ثائر فأعطه الحقّ تصحّ الصدور
ومثل أيام لنا شتّتت ملكا لكم أمرك فيها صغير
أما ترى الأزد وأشياعها تجول خُزّاًا كاظمات تزير
يصول حولى منهمُ معشر إن صُلْتُ صالوا وهمُ لى نصير
يأبى لنا الضيمَ فلا نُعْتَلَى عِزٌّ منيع وعديد كثير
وعنصرٌ فى عزّ جُرْثومة عاديّة تنقل عنها الصخور

وانتهى أمر معاوية الى مروان ، فضربه أخاه خمسين سوطا ، واستعفى عبد الرحمن بن حسان فى الباقى فعفا . ولكنه أخذ يذيع

فى المدينـة أن مروان قد ضربه حد الحر مائة صـوت وضرب أخاه حد العبد خمسين . فشقت هذه المقالة على عبد الرحمن بن الحكم وأقبل على أخيه فطلب اليه أن يتم عليه المائة ففعل . واتصل الهجاء بين الرجلين .

ولقـد يستطيع الكاتب فى التاريخ السياسى أن يضـع كتابا خاصا ضخما فى هـذه العصبية بين قريش والأنصار ، وما كان لهـا من التأثير فى حياة المسلمين أيام بنى أمية ، لانقول فى المدينة ومكة ودمشق ، بل نقـول فى مصر وأفريقيا والأندلس . ويسـتطيع الكاتب فى تاريخ الأدب أن يضع سفرا مستقلا فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الاسلام ، وفى الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية . هذا دون أن يتجاوز المؤرخ السياسى أو الأدبى الخصـومة بين قريش والأنصار ، فكيف اذا تجاوزها الى الخصومة بين القبائل الأخرى ! ذلك أن العصبية لم تكن مقصورة على أهل مكة والمدينة ، ولكنها تجاوزتهـم الى العرب كافة ، فتعصبت العدنانية على اليمانية ، وتعصبت مضر على بقية عدنان ، وتعصبت ربيعة على مضر . وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية والتميمية والقرشـية . وانقسمت ربيعـة فكانت فيها عصبية تَغْلِب وعصبية بَكْر . وقل مثل ذلك فى اليمن ، فقد كانت للأَزْد عصبيتها ، ولِحِمْيَر عصبيتها ، ولقُضَاعة عصبيتها .

وكانت كل هـذه العصبيات تتشعب وتتفرع وتمتـد أطرافها وتتشكل بأشكال الظروف السياسية والإقليمية التى تحيط بها ، فلها شكل

فى الشام، وآخر فى العراق، وثالث فى خراسان، ورابع فى الأندلس .
وأنت تعلم حق العلم أن هذه العصبية هى التى أزالت سلطان بنى أمية ؛ لأنهم عدلوا عن سياسة النبي التى كانت تريد محو العصبيات، وأرادوا أن يعتزوا بفريق من العرب على فريق ، فقووا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها، فأدالت منهم، بل أدالت من العرب للفرس .

واذا كان هذا تأثير العصبية فى الحياة السياسية وقد رأيت طرفا يسيرا من تأثيرها فى الشعر والشعراء، فأنت تستطيع أن تتصور هذه القبائل العربية فى هذا الجهاد السياسى العنيف، تحرص كل واحدة منها على أن يكون قديمها فى الجاهلية خير قديم، وعلى أن يكون مجدها فى الجاهلية رفيعا مؤثلا بعيد العهد . وقد أرادت الظروف أن يضيع الشعر الجاهلى، لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد، وانما كانت ترويه حفظا . فلما كان ما كان فى الإسلام من حروب الردّة ثم الفتوح ثم الفتن ، قتل من الرواة والحفّاظ خلق كثير . ثم اطمأنت العرب فى الأمصار أيام بنى أمية وراجعت شعرها ، فإذا أكثره قد ضاع ، واذا أقله قد بقى . وهى بعد فى حاجة الى الشعر تقدّمه وقودا لهذه العصبية المضطرمة . فاستكثرت من الشعر وقالت منه القصائد الطوال وغير الطوال ونحلتها شعراءها القدماء .

وليس هذا شيئا نفترضه نحن أو نستنبطه استنباطا، وانما هو شىء كان يعتقده القدماء أنفسهم . وقد حدّثنا به محمد بن سلّام فى كتابه

(٥)

« طبقات الشعراء » . وهو يحدثنا بأكثر من هذا ، يحدثنا بأن قريشا كانت أقل العرب شعرا فى الجاهلية ، فاضطرها ذلك الى أن تكون أكثر العرب انتحالا للشعر فى الاسلام . وابن سلام يحدثنا عن يونس ابن حبيب أنه نقل عن أبى عمرو بن العلاء أنه كان يقول : ما بقى لكم من شعر الجاهلية إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير .

ولابن سلام مذهب من الاستدلال لإثبات أن أكثر الشعر قد ضاع ، لا بأس بأن نلم به إلمامة قصيرة . فهو يرى أن طَرَفة بن العبد وعَبِيد بن الأبرص من أشهر الشعراء الجاهليين وأشدهم تقدما . وهو يرى أن الرواة الصحيحين لم يحفظوا لهذين الشاعرين إلا قصائد بقدر عشر ، فهو يقول : إن لم يكن هذان الشاعران قد قالا إلا ما يُحفظ لهما فهما لا يستحقان هذه الشهرة وهذا التقدم ، واذن فقد قالا شعرا كثيرا ولكنه ضاع ، ولم يبق منه إلا هذا القليل . وشق على الرواة أو على غير الرواة ألا يروى لهذين الشاعرين إلا قصائد بقدر عشر فأضافوا اليهما ما لم يقولا ، وحُمل عليهما كما يقول ابن سلام حمل كثير .

ولكن ابن سلام لا يقف عند هذا الحد ، بل هو ينقد ما كان يرويه ابن إسحاق وغيره من أصحاب السير من الشعر يضيفونه الى عاد وثمود وغيرهم ، ويؤكد أن هذا الشعر منحول مختلق . وأى دليل على ذلك أوضح من هذه النصوص القرآنية التى تثبت أن الله قد أباد عاد وثمود ولم يبق منهم باقية ! .

وسنعرض بعد قليل لهذا النحو من شعر عاد وثمود وغير عاد وثمود . ولكننا انما ذكرناه الآن لنبين كيف كان القدماء يتبينون كما نتبين ويحسون كما نحس أن هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين أكثره منحول ، لأسباب منها السياسى ومنها غير السياسى . كان القدماء يتبينون هذا . ولكن مناهجهم فى النقد كانت أضعف من مناهجنا ؛ فكانوا يبدءون ثم يقصرون عن الغاية . ومن هنا زعم ابن سلّام أنه يستطيع أن يروى لنا شيئا من أولية الشعر العربى . فروى أبياتا تنسب لجَذِيمة الأبرش ، وأخرى تنسب لزُهَيْر بن جَنَاب ، ونحو هذا . وسترى أننا نحن لا نستطيع أن نقبل هذا الشعر ، كما أن ابن سلّام لم يستطع أن يقبل شعر عاد وثمود .

ومهما يكن من شىء فإن هذا الفصل الطويل ينتهى بنا الى نتيجة نعتقد أنها لا تقبل الشك ، وهى أن العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت من أهم الأسباب التى حملت العرب على انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين . وقد رأيت أن القدماء قد سبقونا الى هذه النتيجة . وأريد أن ترى أنهم قد شقُوا بها شقاء كثيرا . فابن سلام يحدثنا بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذى ينتحله الرواة فى سهولة ، ولكنهم يجدون مشقة وعسرا فى تمييز الشعر الذى ينتحله العرب أنفسهم . ونحن لا نقف عند استخلاص هذه النتيجة وتسجيلها ، وانما نستخلص منها قاعدة علمية وهى أن مؤرخ الآداب مضطر

حين يقرأ الشعر الذى يسمى جاهليا أن يشك فى صحته كلما رأى الشيئا من شأنه تقوية العصبية أو تأييد فريق من العرب على فريق . ويجب أن يشتد هذا الشك كلما كانت القبيلة أو العصبية التى يؤيدها هذا الشعر قبيلة أو عصبية قد لعبت — كما يقولون — دورا فى الحياة السياسية للسلمين .

٣

الدين وانتحال الشعر

ولم تكن العواطف والمنافع الدينيـة أقل من العواطف والمنافع السياسية أثرا فى تكلف الشعر وانتحاله واضافته الى الجاهليين، لا نقول فى العصور المتأخرة وحدها، بل فيها وفى العصر الأموى أيضا . وربما ارتقى عصر الانتحال المتأثر بالدين الى أيام الخلفاء الراشـدين أيضا . ولو أن لدينا من سعة الوقت وفراغ البال ما يحتاج اليه هذا الموضوع لمهونا وألهينا القارئ بنوع من البحث لا يخلو من فائدة علمية أدبية قيمة، وهو أن نضع تاريخا لهذا الانتحال المتأثر بالدين .

فنحن نرى أنه تشكل أشكالا مختلفة دعت إليها الظروف المختلفة التى أحاطت بالحياة الدينية للعرب خاصة وللمسلمين عامة . فكان هذا الانتحال فى بعض أطواره يقصـد به الى إثبات صحة النبوة وصـدق النبى ؛ وكان هذا النوع موجها الى عامة الناس . وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذى قيل فى الجاهلية ممهدا لبعثة النبى وكل ما يتصل به من هذه الأخبار والأساطير التى تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثـة نبى عربى يخرج من قريش أو من مكة . وفى سـيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسـير ضروب كثيرة

من هذا النوع . وأنت تستطيع أن تحمل على هذا لونا آخر من الشعر المنتحل لم يضف الى الجاهليين من عرب الإنس وانما أضيف الى الجاهليين من عرب الجن . فقد يظهر أن الأمة العربية لم تكن أمة من الناس الذين ينتسبون الى آدم ليس غير ، وانما كان بإزاء هذه الأمة الإنسية أمة أخرى من الجن كانت تحيا حياة الأمة الإنسية وتخضع لما تخضع له من المؤثرات ، وتحس مثلما تحس ، وتتوقع مثل ما نتوقع . وكانت تقول الشعر ، وكان شعرها أجود من شعر الإنس ؛ بل كان شعراؤها هم الذى يلهمون شعراء الإنس . فأنت تعرف قصة عبيد وهبيد . وأنت تعرف أن الأعراب والرواة قد لهوا بعد الإسلام بتسمية الشياطين الذين كانوا يلهمون الشعراء قبل النبوّة و بعدها . وفى القرآن سورة تسمى "سورة الجن" أنبات بأن الجن استمعوا للنبي وهو يتلو القرآن فلانت قلوبهم وآمنوا بالله و برسوله ، وعادوا فأنذروا قومهم ودعوهم الى الدين الجديد . وهذه السورة تنبئ أيضا بأن الجن كانوا يصعدون فى السماء يسترقون السمع ، ثم يهبطون وقد ألموا إلماما يختلف قوة وضعفا بأسرار الغيب ؛ فلما قارب زمن النبوّة حيل بينهم وبين استراق السمع فرُجموا بهذه الشهب وانقطعت أخبار السماء عن أهل الأرض حينا . فلم يكد القصّاص والرواة يقرءون هذه السورة وما يشبهها من الآيات التى فيها حديث عن الجن حتى ذهبوا فى تأويلها كل مذهب واستغلّوها استغلالا لاحدّ له ، وأنطقوا الجن بضروب من الشعر وفنون من السجع ، ووضعوا على النبي نفسه أحاديث

لم يكن بدّ منها لتأويل آيات القرآن على النحو الذى يريدونه ويقصدون اليه .

وأعجب من هذا أن السياسة نفسها قد اتخذت الجنّ أداة من أدواتها وأنطقتها بالشعر فى العصر الإسلامى نفسه . فقد أشرنا فى الفصل السابق الى ما كان من قتل سعد بن عُبَادة ، ذلك الأنصارى الذى أبى أن يذعن بالخلافة لقريش ، وقلنا إنهم تحدّثوا أن الجنّ قتلته . وهم لم يكتفوا بهذا الحديث ، وانما رووا شعرا قالته الجنّ تفتخر فيه بقتل سعد بن عبادة هذا :

قد قتلنا سيّد الخز — رج سعد بن عباده
ورميناه بسهمين — فلم نخطئ فؤاده

وكذلك قالت الجنّ شعرا رثت فيه عمر بن الخطّاب :

أبعدَ قتيلٍ بالمدينة أظلمتْ — له الأرض تهتزّ العِضاهُ بأسوقِ
جزى الله خيراً من إمام وباركت — يد الله فى ذاك الأديم الممزّق
فمن يسعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامةٍ — ليدرك ما حاولتَ بالأمس يُسْبَقِ
قضيتَ أمورا ثم غادرتَ بعدها — بوائقَ فى أكمامها لم تُفَتَّقِ
وما كنتُ أخشى أن تكون وفاته — بكفَّيْ سَبَنْتَى أزرقِ العين مُطرق

والعجب أن أصحاب الرواية مقتنعون بأن هذا الكلام من شعر الجنّ . وهم يتحدّثون فى شيء من الإنكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر الى الشَّمّاخ بن ضِرار .

ولنعد الى ما نحن فيه فقد أظهرناك على نحو من انتحال الشعر على الجن والإنس باسم الدين . والغرض من هذا الانتحال — فيما نرجح — إنما هو إرضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة فى كل شيء، ولا يكرهون أن يقال لهم إن من دلائل صدق النبي فى رسالته أنه كان منتظرا قبل أن يجيء بدهر طويل، تحدثت بهذا الانتظار شياطين الجن وكهان الإنس وأحبار اليهود ورهبان النصارى .

وكما أن القصاص والمنتحلين قد اعتمدوا على الآيات التى ذكرت فيها الجن ليخترعوا ما اخترعوا من شعر الجن وأخبارهم المتصلة بالدين، فهم قد اعتمدوا على القرآن أيضا فيما رووا وانتحلوا من الأخبار والأشعار والأحاديث التى تضاف الى الأحبار والرهبان . فالقرآن يحدثنا بأن اليهود والنصارى يجدون النبي مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . وإذن فيجب أن تخترع القصص والأساطير وما يتصل بها من الشعر ليثبت أن المخلصين من الأحبار والرهبان كانوا يتوقعون بعثة النبي ويدعون الناس الى الإيمان به حتى قبل أن يظل الناس زمانه .

ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر وإضافته الى الجاهليين، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه فى قريش . فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون صفوة بنى هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قصى، وأن تكون قصى صفوة قريش، وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب . والعرب صفوة الانسانية

كانها . وأخذ القصّاص يجتهدون فى تثبيت هـذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل منه بأسرة النبي خاصة ، فيضيفون الى عبدالله وعبد المطلب وهاشم وعبد مناف وقصيّ من الأخبار ما يرفع شأنهم ويعلى مكانتهم ويثبت تفوقهم على قومهم خاصة وعلى العرب عامة . وأنت تعلم أن طبيعة القصص عند العرب تستتبع الشعر ، ولا سيما اذا كانت العامة هى التى تراد بهذا القصص .

وهنا تتظاهر العواطف الدينية والعواطف السياسية على انتحال الشعر . فقد أرادت الظروف أن تكون الخلافة والملك فى قريش رهط النبي ، وأن تختلف قريش حول هذا الملك ، فيستقر حينا فى بنى أمية وينتقل منهم الى بنى هاشم رهط النبي الأدنين . ويشتد التنافس بين أولئك وهؤلاء ، ويتخذ أولئك وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسى . فأما فى أيام بنى أمية فيجتهد القصّاص فى إثبات ما كان لأمية من مجد فى الجاهليـة . وأما فى أيام العباسـيين فيجتهد القصاص فى إثبات ما كان لبنى هاشم من مجد فى الجاهلية . وتشـتد الخصومة بين قصاص هـذين الحزبين السياسيين ، وتكثر الروايات والأخبار والأشعار .

ثم لا يقتصر الأمر على هذين الصنوين من بنى عبد مناف ؛ فالأرستقراطية القرشية كلها طموحة الى المجد حريصة على أن يكون لها حظ منه فى قديمها كما أن لهـا حظا منه فى حديثها . وإذن فالبطون القرشـية على اختلافها تنتحل الأخبار والأشعار وتغرى القصاص وغير

القصاص بانتحالها . ولا أصل لهذا كله إلا أن قريشا رهط النبي من ناحية ، وأن الملك قد استقر فيها من ناحية أخرى . فانظر إلى تعاون العواطف الدينية والسياسية على انتحال الشعر أيام بني أمية وبني العباس .

ولست في حاجة الى أن أضرب لك الأمثال . فأنت تستطيع أن تنظر في سيرة ابن هشام وغيرها من كتب السير والتاريخ لترى من هذا كله الشيء الكثير . وإنما أضرب لك مثلا واحدا يوضح ما ذهبت اليه من أن بطون قريش كانت تحث على انتحال الشعر منافسة للأسرة المالكة أموية كانت أو هاشمية . وهذه القصة التي سأرويها تمس رهط بني مخزوم من قريش ، وهي تعطيك مثلا صادقا قويا لحرص قريش على انتحال الشعر لا تتحرج في ذلك ولا ترعى فيه صدقا ولا دينا .

تحدث صاحب الأغاني بإسناد له عن عبد العزيز بن أبي نهشل قال : قال لي أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام وجئته أطلب منه مغرما : ياخال هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة وقل سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقلت أعوذ بالله أن أفترى على الله ورسوله ، ولكن إن شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلت ؛ فقال : لا ، إلا أن تقول سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ؛ فأبى على وأبيت عليه ؛ فأقمنا لذلك لا نتكلم عدة ليال . فأرسل الى فقال قل أبياتا تمدح بها هشاما — يعني ابن المغيرة —

وبنى أمية، فقلت سمّهم لى، فسماهم، وقال اجعلها فى عُكاظ وآجعلها لأبيك، فقلت :

أَلَا لله قـــومٌ و لدتْ أختُ بنى سَهْمِ
هِشَامٌ وأبو عبـــدِ منافٍ مِدْرَهُ الخَصم
وذو الرُّمحين أشباك على القــوة والحــزم
فهــذان يذودانِ وذا من كَثَبٍ يرمى
أســودٌ تزدهى الأقرا نَ منّاعون للهَضْم
وهم يــومَ عكاظٍ مـــــنعوا الناس من الهزم
وهم من ولدوا أشبَوْا بسرّ الحسبِ الضخم
فان أحلفْ وبيتِ اللـــــه لا أحلِفْ على إثم
لمــا من أخوة تبني قصورَ الشأم والرَّدْم
بأزكى من بنى رَيْطة أو أوزنَ فى الحِــلْم

قال : ثم جئت فقلت : هذه قالها أبى، فقال لا، ولكن قل قالها ابن الزِّبَعْرَى، قال فهى الى الآن منسوبة فى كتب النـاس الى ابن الزِّبعْرَى" .

فانظر الى عبـد الرحمن بن الحارث بن هشام كيف أراد صاحبه على أن يكذب وينتحل الشعر على حسّان، ثم لا يكفيه هذا الانتحال حتى يذيع صاحبه أنه سمع حسانا ينشد هذا الشعر بين يدى النبي، كل ذلك بأربعة الآف درهم . ولكن صاحبنا كره أن يكذب على النبي بهذا

المقدار، واستباح أن يكذب على عائشة . وعبد الرحمن لا يرضيه إلا الكذب على النبي؛ فاختصما . وكلاهما شديد الحاجة الى صاحبه، هذا يريد شعرا لشاعر معروف، والآخر يريد المال؛ فيتفقان آخر الأمر على أن ينحل الشعر عبد الله بن الزبعرى شاعر قريش . ومثل هذا كثير .

نحو آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر وهو هذا الذى يلجأ اليه القصّاص لتفسير ما يجدونه مكتوبا فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن اليهم . فالرواة يضيفون اليهم شعرا كثيرا . وقد كفانا ابن سلّام نقده وتحليله حين جدّ فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف الى تُبّع وحِمْيَر موضوع منتحل؛ وضعه ابن اسحاق ومن اليه من أصحاب القصص . وابن اسحاق ومن اليه من أصحاب القصص لا يكتفون بالشعر يضيفونه الى عاد وثمود وتبّع وحمير وانما هم يضيفون الشعر الى آدم نفسه، فهم يزعمون أنه رثى هابيل حين قتله أخوه قابيل . ونظن أن من الإطالة والإملال أن نقف عند هذا النحو من السخف .

ونحو آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم و بين الأمم المغلوبة، فأرادوا هم أو الموالى أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درسا لغويا ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه . ولأمر ما شعروا بالحاجة الى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب، فحرصوا على أن

يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل الى الشك فى عربيتها . وأنت توافقنى فى غير مشقة على أن من العسير كما قدمت فى الكتاب الأول أن نطمئن الى كل هذا الشعر الذى يستشهد به الرواة والمفسرون على ألفاظ القرآن ومعانيه . وقد عرفت رأينا فى ذلك وفى قصة عبد الله ابن عباس ونافع بن الأزرق ، فلا حاجة الى أن نعيد القول فيه . وانما نعيد شيئا واحدا وهو أننا نعتقد أنه اذا كان هنالك نص عربى لا تقبل لغته شكا ولا ريبا وهو لذلك أوثق مصدر للغة العربية فهو القرآن . وبنصوص القرآن وألفاظه يجب أن نستشهد على صحة ما يسمونه الشعر الجاهلى بدل أن نستشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن .

ولست أفهم كيف يمكن أن يتسرب الشك الى عالم جادّ فى عربية القرآن واستقامة ألفاظه وأساليبه ونظمه على ما عرف العرب أيام النبى من لفظ ونظم وأسلوب ! وانما هنالك مسألة أخرى وهى أن العلماء وأصحاب التأويل من الموالى بنوع خاص لم يتفقوا فى كثير من الأحيان على فهم القرآن وتأويل نصوصه ، فكانت بينهم خصومات فى التأويل والتفسير . وعن هذه الخصومات نشأت خصومات أخرى بين الفقهاء وأصحاب التشريع .

وهنا نوع جديد من تأثير الدين فى انتحال الشعر . فهذه الخصومات بين العلماء كان لها تأثير غير قليل فى مكانة العالم وشهرته و رأي الناس

فيه وثقة الأمراء والخلفاء بعلمه . ومن هنا كان هؤلاء العلماء حراصا على أن يظهروا دائما مظهر المنتصرين فى خصوماتهم الموفقين الى الحق والصواب فيما يذهبون اليه من رأى . وأى شيء يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد، بما قالته العرب قبل نزول القرآن ! وقد كثر استغلالهم لهذا الاستشهاد، فاستشهدوا بشعر الجاهليين على كل شيء، وأصبحت قراءة الكتب الأدبية واللغوية وكتب التفسير والمقالات تترك فى نفسك أثرا قويا وصورة غريبة لهذا الشعر العربى الجاهلى، حتى ليخيل اليك أن أحد هؤلاء العلماء على اختلاف ما كان ينظر فيه من فروع العلم لم يكن عليه إلا أن يمد يده اذا احتاج فيظفر بما شاء الله من كلام العرب قبل الإسلام ، كأن كلام العرب قبل الإسلام قد وعى كل شيء وأحصى كل شيء . هذا، وهم مجمعون على أن هؤلاء الجاهليين الذين قالوا فى كل شيء كانوا جهلة غلاظا فظاظا . أفترى إلى هؤلاء الجهال الغلاظ يستشهد بجهلهم وغلظتهم على ما انتهت اليه الحضارة العباسية من علم ودقة فنية ! فالمعتزلة يثبتون مذاهبهم بشعر العرب الجاهليين . وغير المعتزلة من أصحاب المقالات ينقضون آراء المعتزلة معتمدين على شعر الجاهليين . وما أرى إلا أنك ضاحك مثلى أمام هذا الشطر الذى رواه بعض المعتزلة ليثبت أن كرسى الله الذى وسع السموات والأرض هو علمه ؛ وهذا الشطر هو قول الشاعر (المجهول طبعا) : ”ولا بكرسى علم الله مخلوق“ .

وكذب أصحاب العلم على الجاهليين كثير لا سبيل الى إحصائه أو استقصائه . فهو ليس مقصورا على رجال الدين وأصحاب التأويل والمقالات ورجال اللغة وأهل الأدب ، وانما هو يجاوزهم الى غيرهم من الذين قالوا فى العلم مهما يكن الموضوع الذى تناولوه .

لأمر ما كان البِدْع فى العصر العباسى عند فريق من الناس أن يردّ كل شيء الى العرب حتى الأشياء التى استحدثت أو جاء بها المغلوبون من الفرس والروم وغيرهم . واذا كان الأمر كذلك فليس لانتحال الشعر على الجاهليين حدّ . وأنت اذا نظرت فى كتاب الحيوان للجاحظ رأيت من هذا الانتحال ما يقنعك ويرضيك .

ولكنى لا أريد أن أبعد عما أنا فيه من تأثير العواطف والمنافع الدينية فى انتحال الشعر وإضافته الى الجاهليين . وقد رأينا الى الآن فنونا من هذا التأثير، ولكننا لم نصل بعد الى أعظم هذه الفنون كلها خطرا وأبعدها أثرا وأشدّها عبثا بعقول القدماء والمحدَثين ، وهو هذا النوع الذى ظهر عند ما استؤنف الجدال فى الدين بين المسلمين وأصحاب الملل الأخرى ، ولا سيما اليهود والنصارى . هذا الجدل الذى قوى بين النبى وخصومه ، ثم هدأ بعد أن تم انتصار النبى على اليهود والوثنيين فى بلاد العرب ، وانقطع أو كاد ينقطع أيام الخلفاء الراشدين؛ لأن الكلمة فى أيام هؤلاء الخلفاء لم تكن للحجة ولا للسان ، وانما كانت لهذا السيف الذى أزال سلطان الفرس واقتطع من دولة الروم الشام

وفلسطين ومصر وقسما من أفريقيا الشمالية . فلما آنتهت هذه الفتوح واستقر العــرب فى الأمصار واتصلت الأسباب بينهم و بين المغلوبين من النصارى وغير النصارى استؤنف هذا الجدال وأخذ صورة أقرب الى النضال منها الى أى شىء آخر . وذهب المجادلون فى هــذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من غرابة نحب أن نشــير الى بعضها فى شىء من الإيجاز .

أما المسلمون فقــد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أوليــة فى بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي ، وأن خلاصة الديــن الإسلامى وصفوته هى خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله الى الأنبياء من قبل . فليس غريبا أن نجد قبل الإسلام قوما يدينون بالاسلام أخذوه من هذه الكتب السماوية التى أوحيت قبل القرآن . والقرآن يحدثنا عن هذه الكتب ، فهو يذكر التوراة والإنجيل ويجادل فيهما اليهود والنصارى . وهو يذكر غير التوراة والإنجيــل شيئا آخر هو صحف إبراهيم . ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينا آخر هو ملة ابراهيم ، هو هــذه الحنيفية التى لم نســتطع الى الآن أن نتبين معناها الصحيح . و إذ كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله ، وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله ، وكان القرآن قد وقف من أولئـك وهؤلاء موقف من ينكر عليهم صحة ما يزعمون ، فطعن فى صحة ما بين أيديهم من التوراة والإنجيل وآتهمهم بالتحريف والتغيير ، ولم يكن أحد قد آحتكر ملة إبراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها ، فقد أخذ المسلمون يردون الإسلام

فى خلاصته الى دين إبراهيم هذا الذى هو أقدم وأنق من دين اليهود والنصارى .

وشاعت فى العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم . ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضلون وانصرفت الى عبادة الأوثان . ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفراد قليلون يظهرون من حين الى حين . وهؤلاء الأفراد يتحدثون فنجد من أحاديثهم ما يشبه الإسلام . وتأويل ذلك يسير، فهم أتباع إبراهيم، ودين إبراهيم هو الاسلام . وتفسير هذا من الوجهة العلمية يسير أيضا، فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الإسلام، لا لشىء إلا ليثبت أن للإسلام فى بلاد العرب قدمة وسابقة . وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التى تضاف الى الجاهليين والتى يظهر بينها وبين ما فى القرآن من الحديث شبه قوى أو ضعيف .

وهنا نصل الى مسألة عنى بها الباحثون عن تاريخ القرآن من الفرنج والمستشرقين خاصة، وهى تأثير المصادر العربية الخالصة فى القرآن . فقد كان هؤلاء الباحثون يرون أن القرآن تأثر باليهودية والنصرانية ومذاهب أخرى بين بين كانت شائعة فى البلاد العربية وما جاورها . ولكنهم رأوا أن يضيفوا الى هذه المصادر مصدرا عربيا خالصا، والتمسوا هذا المصدر من شعر العرب الجاهليين، ولا سيما الذين كانوا

(٦)

يمتنعون منهم . وزعم الأستاذ (كليمان هوار) — فى فصل طويل نشرته له المجلة الأسيوية سنة ١٨٠٤ — أنه قد ظفر من ذلك بشىء قيم واستكشف مصدرا جديدا من مصادر القرآن، هذا الشىء القيم وهذا المصدر الجديد هو شعر أُمَيَّة ابن أبى الصَّلْت . وقد أطال الأستاذ (هوار) فى هذا البحث وقارن بين هذا الشعر الذى ينسب الى أمية ابن أبى الصلت وبين آيات من القرآن ، وانتهى من هذه المقارنة الى نتيجتين :

(الأولى) أن هذا الشعر الذى ينسب لأمية ابن أبى الصلت صحيح ؛ لأن هناك فروقا بين ما جاء فيه وما جاء فى القرآن من تفصيل بعض القصص ، ولو كان منتحلا لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن ، واذا كان هذا الشعر صحيحا ، فيجب فى رأى الأستاذ (هوار) أن يكون النبى قد استعان به قليلا أو كثيرا فى نظم القرآن .

(الثانية) أن صحة هذا الشعر واستعانة النبى به فى نظم القرآن قد حملتا المسلمين على محاربة شعر أمية بن أبى الصلت ومحوه ليستأثر القرآن بالجدة وليصح أن النبى قد انفرد بتلقى الوحى من السماء . وعلى هذا النحو استطاع الأستاذ (هوار) أو خيل اليه أنه استطاع أن يثبت أن هناك شعرا جاهليا صحيحا ، وأن هذا الشعر الجاهلى قد كان له أثر فى القرآن .
ومع أنى من أشد الناس إعجابا بالأستاذ (هوار) وبطائفة من أصحابه المستشرقين وبما ينتهون اليه فى كثير من الأحيان من النتائج العلمية القيمة فى تاريخ الأدب العربى وبالمناهج التى يتخذونها للبحث ، فإنى

لا أستطيع أن أقرأ مثل هـذا الفصل الذى أشرت اليه آنفا دون أن تعجب كيف يتورط العلماء أحيانا فى مواقف لاصلة بينها وبين العلم. وليس يعنينى هنا أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية أو لا يكون، فأنا لا أؤرخ القرآن، وأنا لا أذود عنه ولا أتعرض للوحى ومايتصل به، ولا للصلة بين القرآن وما كان يتحدث به اليهود والنصارى. كل ذلك لا يعنينى الآن، وانما الذى يعنينى هو شعر أمية بن أبى الصلت وأمثاله من الشعراء.

والغريب من أمر المستشرقين فى هـذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكون فى صحة السيرة نفسها ويتجاوز بعضهم الشك الى الجحود، فلا يرون فى السيرة مصدرا تاريخيا صحيحا، وانما هى عندهم كما ينبغى أن تكون عند العلماء جميعا : طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج الى التحقيق والبحث العلمى الدقيق ليمتاز صحيحها من منتحلها. هم يقفون هـذا الموقف العلمى من السيرة ويغلون فى هذا الموقف، ولكنهم يقفون من أمية بن أبى الصلت وشعره موقف المستيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى الى الصدق ولا أبلغ فى الصحة من أخبار السيرة. فما سرّ هذا الاطمئنان الغريب الى نحو من الأخبار دون النحو الآخر؟ أيمكن أن يكون المستشرقون أنفسهم لم يبرءوا من هـذا التعصّب الذى يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات؟ أما أنا فلست مستشرقا ولست رجلا من رجال الدين. وانما أريد أن أقف من شعر أمية بن أبى الصلت نفس الموقف

العلمى الذى وقفته من شعر الجاهليين جميعا . وحسبي أن شعر أمية ابن أبى الصلت لم يصل الينا إلا من طريق الرواية والحفظ لأشك فى صحته كما شككت فى صحة شعر امرئ القيس والأعشى و زهير، و إن لم يكن لهم من النبي موقف أمية بن أبى الصلت .

ثم إن هـذا الموقف نفسه يحملنى على أن أرتاب الآرتياب كله فى شعر أمية بن أبى الصلت ؛ فقد وقف أمية من النبي موقف الخصومة : هجا أصحابه وأيد مخالفيه ورثى أهل بدر من المشركين . وكان هـذا وحده يكفى لينهى عن رواية شعره، وليضيع هذا الشعر كما ضاعت الكثرة المطلقة من الشعر الوثنى الذى هجى فيه النبي وأصحابه حين كانت الخصومة شديدة بينهم و بين مخالفيهم من العرب الوثنيين واليهود . وليس يمكن أن يكون من الحق فى شىء أن النبي نهى، عن رواية شعر أمية لينفرد بالعلم والوحى وأخبار الغيب . فما كان شعر أمية بن أبى الصلت إلا شعرا كغيره من الشعر لا يستطيع أن ينهض للقرآن كما لم يستطع غيره من الشعر أن ينهض للقرآن . وما كان علم أمية بن أبى الصلت بأمور الدين إلا كعلم أحبار اليهود و رهبان النصارى . وقد ثبت النبي لأولئك وهؤلاء وآستطاع أن يغلبهم على عقول العرب بالحجة مرة و بالسيف مرة أخرى . فأمر النبى مع أمية بن أبى الصلت كأمره مع هؤلاء الشعراء الكثيرين الذين هجوه وناهضوه وألبوا عليه .

ومن هنا تستطيع أن تفهم ما يروى من أن النبي أُنشد شيئا من شعر أمية فيه دين وتحنّف فقال: "آمن لسانه وكفر قلبه". آمن لسانه لأنه كان يدعو الى مثل ما كان يدعو اليه النبي، وكفر قلبه لأنه كان يظاهر المشركين على صاحب هذا الدين الذى كان يدعو اليه. فأمره كأمر هؤلاء اليهود الذين أيدوا النبي ووادعوه، حتى اذا خافوه على سلطانهم السياسي والاقتصادى والديني ظاهروا عليه المشركين من قريش.

ليس إذًا شعر أمية بن أبى الصلت بِدْعًا فى شعر المتحنّفين من العرب أو المتنصّرين والمتهوّدين منهم. وليس يمكن أن يكون المسلمون قد تعمّدوا محوه، إلا ما كان منه هجاء للنبي وأصحابه ونعيا على الإسلام؛ فقد سلك المسلمون فيه مسلكهم فى غيره من الشعر الذى أهمل حتى ضاع.

ولكن فى شعر أمية بن الصلت أخبارا وردت فى القرآن كأخبار ثمود وصالح والناقة والصيحة. ويرى الأستاذ (هوار) أن ورود هذه الأخبار فى شعر أمية مخالفة بعض المخالفة لما جاء فى القرآن دليل على صحة هذا الشعر من جهة، وعلى أن النبي قد استقى منه أخباره من جهة أخرى.

ولست أدرى قيمة هذا النحو من البحث... فمن الذى زعم أن ما جاء فى القرآن من الأخبار كان كله مجهولا قبل أن يجيء به القرآن؟ ومن الذى يستطيع أن ينكر أن كثيرا من القصص القرآنى كان معروفا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم،

وكان من اليسير أن يعرفه النبي ، كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي من المتصلين بأهل الكتاب . ثم كان النبي وأمية متعاصرين . فلم يكون النبي هو الذى أخذ عن أمية ولا يكون أمية هو الذى أخذ عن النبي ؟ ثم من الذى يستطيع أن يقول إن من ينتحل الشعر ليحاكى القرآن ملزم أن يلائم بين شعره وبين نصوص القرآن ؟ أليس المعقول أن يخالف بينهما ما استطاع ليخفى الانتحال ويوهم أن شعره صحيح لا تكلّف فيه ولا تعمّل ؟ بلى !

ونحن نعتقد أن هذا الشعر الذى يضاف الىّ أمية بن أبى الصلت والى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبي أو جاءوا قبله انما انتحل انتحالا . انتحله المسلمون ليثبتوا — كما قدمنا — أن للاسلام قُدْمة وسابقة فى البلاد العربية . ومن هنا لا نستطيع أن نقبل ما يضاف الى هؤلاء الشعراء والمتحنفين إلا مع شيء من الاحتياط والشك غير قليل .

هذا شأن المسلمين . فأما غير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى فقد نظروا فإذا لهم فى حياة الأمة العربية قبل الإسلام قديم . وفى الحق أن اليهود قد استعمروا جزءا غير قليل من بلاد الحجاز فى المدينة وحولها وعلى طريق الشأم . وفى الحق أيضا أن اليهودية قد جاوزت الحجاز الى اليمن . ويظهر أنها استقرت حينا عند سراة اليمن وأشرافها ، وأنها أثّرت بوجه ما فى الخصومة التى كانت بين أهل اليمن وبين الحبشة ، وهم نصارى . ثم فى الحق أن اليهودية قد استتبعت حركة اضطهاد للنصارى فى نجران ذكرها القرآن فى سورة البروج .

كل هذا حق لا شك فيه . وكل هذا ظاهر فى أخبار العرب وأساطيرهم ، وهو ظاهر فى القرآن بنوع خاص ؛ فليس قليلا ما يمس اليهود من سور القرآن وآياته . وأنت تعلم ما كان بين النبي واليهود من خصومة انتهت بإجلاء اليهود عن بلاد العرب أيام عمر بن الخطاب . وكان اليهود قد تعربوا حقا ، وكان كثير من العرب قد تهودوا . وليس من شك عندى فى أن الاختلاط بين اليهود وبين الأوس والخزرج قد أعدّ هاتين القبيلتين لقبول الدين الجديد وتأييد صاحبه.

هذه حال اليهود . فأما النصارى فقد انتشرت ديانتهم انتشارا قويا فى بعض بلاد العرب فيما يلى الشأم حيث كان الغسّانيون الخاضعون لسلطان الروم ، وفيما يلى العراق حيث كان المناذرة الخاضعون لسلطان الفرس ، وفى نجران من بلاد اليمن التى كانت على اتصال بالحبش وهم نصارى .

و يظهر أن قبائل من العرب البادين تنصّرت قبل الإسلام بأزمان تختلف طولا وقصرا . فنحن نعلم مثلا أن تَغْلِب كانت نصرانية وأنها أثارت مسألة من مسائل الفقه . فالقاعدة أنه لا يقبل من العربى إلا الإسلام أو السيف ؛ فأما الجزية فتقبل من غير العرب . ولكن تغلب قبلت منها الجزية ، قبلها عمر فيما يقول الفقهاء .

تغلغلت النصرانية إذن كما تغلغلت اليهودية فى بلاد العرب . وأكبر الظن أن الإسلام لو لم يظهر لانتهى الأمر بالعرب الى اعتناق

إحدى هاتين الديانتين . ولكن الأمة العربية كان لها مزاجها الخاص الذى لم يستقم لهذين الدينين والذى استتبع دينا جديدا أقل ما يوصف به أنه ملائم ملاءمة تامة لطبيعة الأمة العربية .

مهما يكن من شيء ، فليس من المعقول أن ينتشر هذان الدينان فى البلاد العربيــة دون أن يكون لها أثر ظاهر فى الشعر العربى قبل الإسلام . وقد رأيت أن العصبية العربية حملت العرب على أن ينتحلوا الشعر ويضيفوه الى عشائرهم فى الجاهلية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر . فالأمر كذلك فى اليهود والنصارى : تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين ، وأبوا إلا أن يكون لهم مجد وسؤدد كما كان لغيرهم مجد وسؤدد أيضا ، فانتحلوا كما انتحــل غيرهم ، ونظموا شعرا أضافوه الى السموءل بن عادياء والى عدىّ بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى .

والرواة القــدماء أنفسهم يحسون شيئا من هــذا فهم يجدون فيما ينسب الى عدىّ بن زيد من الشــعر سهولة ولينا لا يلائمــان العصر الجاهلى ، فيحاولون تعليــل ذلك بالإقليم والاتصال بالفرس واصطناع الحياة الحضرية التى كان يصطنعها أهل الحيرة .

ونحن نجد مثل هذه السهولة فى شعر اليهود ، فى شعر السموءل بنوع خاص . ولا نستطيع أن نعللها بمثل ما عللت به فى شعر عدى . فقــد كان السموءل — إن صحت الأخبار — يعيش عيشــة خشنة

أقرب الى حياة السادة البادية منها الى حياة أصحاب الحضر . ويحدثنا صاحب الأغانى بأن ولد السموءل انتحلوا قصيدة قافيــة أضافوها الى امرئ القيس وزعموا أنه مدح بها السموءل حين أودعه سلاحه فى طريقــه الى قسطنطينية . ونرجح نحن أن ولد السموءل هم الذين انتحلوا هــذه القصيدة الرائية التى تضاف للأعشى والتى يقال إنه مدح بها شرحبيل بن السموءل فى قصته المشهورة مع الكلبى .

فانت ترى أن للعواطف الدينية على اختلافها وتنوع أغراضها مثل ما للعواطف السياســية من التأثير فى انتحال الشعر وإضافته الى الجاهليين .

واذا كان من الحق أن نحتاط فى قبول الشــعر الذى يظهر فيه تأثير ما للأهواء السياســية، فمن الحق أيضا أن نحتاط فى قبول الشعر الذى يظهر فيه تأثير ما للأهواء الدينية .

وأكبر الظن أن الشعر الذى يسمى جاهليا مقسم بين السياســة والدين، ذهبت هذه بشطر منه وذهب هذا بالشطر الآخر .

ولكن أسباب الانتحال ليست مقصورة على السياسة والدين بل هى تتجاوزهما الى أشياء أخرى .

٤

القصص وانتحال الشعر

من هذه الأشياء شيء ليس دينا ولا سياسة، ولكنه يتصل بالدين وبالسياسة اتصالا قويا، نريد به القصص الذى أشرنا اليه غير مرة فيما قدمنا من القول .

فالقصص فى نفسه ليس من السياسة ولا من الدين، وانما هو فن من فنون الادب العربى توسّط بين آداب الخاصة والآداب الشعبية. وكان مرآة للون من ألوان الحياة النفسية عند المسلمين . وأزهر فى عصر غير قصير من عصور الأدب العربى الراقية، أزهر أيام بنى أمية وصدرا من أيام بنى العباس، حتى اذا كثر التدوين وانتشرت الكتب واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال الى مجالس القصاص، ضعف أمر هذا الفن وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية شيئا فشيئا حتى ابتذل وانصرف عنه الناس .

وهذا الفن الأدبى تناول الحياة العربية والإسلامية كلها من ناحية خيالية لم يقدُرها الذين درسوا تاريخ الآداب العربية قدرها، لا أكاد أستثنى منهم إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ؛ فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص فى انتحال الشعر وإضافته الى القدماء،

كما فطن لأشياء أخرى قيمة وأحاط بها إحاطة حسنة فى الجزء الأول من كتابه "تاريخ آداب العرب". نقول إن هذا الفن قد تناول الحياة العربية والإسلامية من ناحية خيالية خالصة. ونعتقد أن الذين يدرسون تاريخ الأدب العربى لو أنهم عُنُوا بدرس هذا الفن عناية علمية صحيحة لوصلوا الى نتائج قيمة ولغيّروا رأيهم فى تاريخ الأدب . فمهما تكن الأسـباب التى دعت الى نشأة فن القصص عند المسلمين، فقد نشأ هذا الفن، وكانت منزلته عند المسلمين هى بعينها منزلة الشعر القصصى عند قدماء اليونان. وكانت الصلة بينه وبين الجماعات هى بعينها الصلة بين الشعر القصصى اليونانى وجماعات اليونان القدماء .

وليس من شك عندنا فى أن هؤلاء القصاص من المسلمين قـد تركوا آثارا قصصية لاتقل جمالا وروعة وحسن موقع فى النفس عن "الإلياذة" و " الأودِسّا " . وكل مابين القصص الإسلامى واليونانى من الفرق هو أن الأول لم يكن شعرا كله وانما كان نثرا يزينه الشـعر من حين الى حين بينما كان الثانى كله شعرا ، وأن الأول لم يكن يلقيه صاحبه على أنغام الأدوات الموسيقية بينما كان القاصّ اليونانى يعتمد على الأداة الموسيقية اعتمادا ما ، وأن الأول لم يجد من عناية المسلمين مثلما وجد الثانى من عناية اليونان ، فبينما كان اليونان يقدّسون "الإلياذة" و " الأودِسّا " ويعنون بجمعهما وترتيبهما وروايتهما وإذاعتهما عناية المسلمين بالقرآن ، كان المسلمون مشغولين بالقرآن وعلومه عن قصصهم هـــذا .

وفى الحق أن الأدب العربى لم يدرس فى العصور الإسلامية الأولى لنفسه وانما درس من حيث هو وسيلة الى تفسير القرآن وتأويله واستنباط الأحكام منه ومن الحديث . وكان هذا كله أدنى الى الجد وألصق به من هذا القصص الذى كان يمضى مع الخيال حيث أراد ويتقرب من نفس الشعب ويمثل له أهواءه وشهواته ومُثُله العليا . فليس غريبا أن ينصرف عن القصص أصحاب الجد من المسلمين .

كان قصّاص المسلمين يتحدثون الى الناس فى مساجد الأمصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات ، ويمضون معهم فى تفسير القرآن والحديث ورواية السيرة والمغازى والفتوح الى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا الى حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقفوا . وكان الناس كَلِفين بهؤلاء القصاص مشغوفين بما يلقون اليهم من حديث . وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية ، فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالا شديدا ، وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر .

وليس من شك فى أن العناية بدرس هذا الفن ستنتهى الى مثل ما انتهت اليه العناية بدرس الشعر من أن الأحزاب السياسية على اختلافها كانت تصطنع القصّاص ينشرون لها الدعوة فى طبقات الشعب على اختلافها ، كما كانت تصطنع الشعراء يناضلون عنها ويذودون عن آرائها وزعمائها . ونحن نعرف من سيرة ابن إسحاق أنه كان هاشمى

النزعة والهوى ، وأنه لقى فى ذلك عناء من الأمويين فى آخر عهدهم بالسلطان، وأنه ظفر بحسن المنزلة عند العباسيين فى أول عهدهم بالملك .

والتعمق فى درس حياة القصاص الذين كانوا يقصّون فى البصرة والكوفة ومكة والمدينة وغيرها من الأمصار يظهرنا من غير شك على الصلات التى كانت تصل بين هؤلاء القصاص وبين الأحزاب السياسية .

غير أن القصص لم يتأثر بالسياسة وحدها ، وإنما تأثر بالدين أيضا . وقد رأيت فى الفصل الماضى مُثُلا توضح هذا التأثر .

وتأثر القصص بشىء آخر غير السياسة والدين هو روح الشعب الذى كان يُتحدث اليه . ومن هنا عُنى عناية شديدة بالأساطير والمعجزات وغرائب الأمور . ومن هنا اجتُهد فى تفسير هذه الأساطير وإكمال الناقص منها وتوضيح الغامض . فنحن نستطيع أن نقول إن هذا القصص كان يستمد قوته وثروته من مصادر مختلفة ، أهمها أربعة :

(الأول) مصدر عربى هو القرآن وما كان يتصل به من الأحاديث والروايات ، وما كانت تتحدث به العرب فى الأمصار من أخبارها وأساطيرها وما كانت تروى من شعر ، وما كان يتحدث به الرواة من سيرة النبى والخلفاء وغزواتهم وفتوحهم ؛

(الثانى) مصدر يهودى نصرانى ، وهو ما كان يأخذه القصاص عن أهل الكتاب من أخبار الأنبياء والأحبار والرهبان وما يتصل بذلك ،

وليس ينبغى أن ننسى هنا تأثير أولئك اليهود والنصارى الذين أسلموا وأخذوا يضعون الأحاديث ويدسّونها مخلصين أو غير مخلصين .

(الثالث) مصدر فارسى ، وهو هـذا الذى كان يستقيه القصاص فى العراق خاصة من الفرس مما يتصل بأخبارهم وأساطيرهم وأخبار الهند وأساطيرها .

ثم المصدر الرابع مصـدر مختلط هو هذا الذى يمثل نفسية العامة غير العربية من أهل العراق والجزيرة والشأم من الأنباط والسريان ومن إليهم من هؤلاء الأخلاط الذين كانوا منبثين فى هـذه الأقطار والذين لم تكن لهم سيادة ولا وجود سياسى ظاهر .

كل هذه المصادر كانت تمدّ القصّاص . فكنت ترى فى قصصهم ألوانا من القول وفنونا من الحـديث قد لا تعجب العـالم المحقق لاضطرابها وظهور سلطان الخيـال عليها ، ولكن لها جمـالا أدبيا فنيا قيما يعجب به من يستطيع أن يقدر التئام هـذه الأهواء المختلفة التى تتصل بشعوب مختلفة وأجيال متباينة من الناس . ويعجب به بنوع خاص الذين يحاولون أن يتبينوا فيـه نفسيّة الشعوب والأجيـال التى كانت تلهم هؤلاء القصّاص .

مهما يكن من شىء ، فإن هذه المصادر كلها كانت تطلق ألسنة القصاص بما كانوا يتحدثون به الى سامعيهم فى الأمصار . وأنت تعلم أن القصص العربى لا قيمـة له ولا خطر فى نفس سامعيه اذا لم يزنه الشعر من حين الى حين . ويكفى أن تنظر فى « ألف ليلة وليلة »

وفى قصة عنترة وما يشبهها، فسترى أن هذه القصص لا تستطيع أن تستغنى عن الشعر، وأن كل موقف قيم أو ذى خطر من مواقف هذه القصص لا يستقيم لكاتبه وسامعه إلا اذا أضيف اليه قدر من الشعر قليل أو كثير يكون عمادا له ودعامة . وإذن فقد كان القصاص أيام بنى أمية وبنى العباس فى حاجة الى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه . وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما كانوا يشتهون .

وأكاد لا أشك فى أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم ولا بما يحتاجون اليه من الشعر فى هذا القصص، وانما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها . ولدينا نص يبيح لنا أن نفترض هذا الفرض، فقد يحدثنا ابن سلام أن ابن إسحاق كان يعتذر عما كان يروى من غثاء الشعر فيقول : لا علم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله . فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله . فمن هؤلاء القوم ؟

أليس من الحق لنا أن نتصور أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون الى الناس فحسب، وانما كان كل واحد منهم يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النظام والمنسقين، حتى اذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم وأذاعوه بين الناس . وكان مثلهم فى هذا مثل القاص.

الفرنسى المعروف (ألكسندر دوما) الكبير . وأنت تدهش اذا رأيت هذه الكثرة الشعرية التى تنبث فيما بقى لنا من آثار القصاص . فلديك فى سيرة ابن هشام وحدها دواوين من الشعر نظم بعضها حول غزوة بدر ، وبعضها حول غزوة أُحُد ، وبعضها فى غير هاتين الغزوتين من المواقف والوقائع ، وأُضيف كل هذا الى الشعراء وغير الشعراء من الأشخاص المعروفين ، وأضيف بعضه الى حمزة ، وبعضه الى علىّ . وبعضه الى حسان ، وبعضه الى كعب بن مالك ، وأضيف بعضه الى نفر من شعراء قريش ، والى نفر من قريش لم يكونوا شعراء قط ، والى نفر آخرين من غير قريش . وليس غير سيرة ابن هشام أقل منها حظا فى هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين مرّة والى المخضرمين مرة أخرى .

وكثرة هذا الشعر الذى صدر عن المصانع الشعرية فى الأمصار المختلفة أيام بنى أمية وبنى العباس كانت سببا فى نشأة رأى يظهر أن القدماء كانوا مقتنعين به ، وأن الكثرة المطلقة من المحدَثين ليست أقل به اقتناعا ، وهو أن الأمة العربية كلها شاعرة ، وأن كل عربى شاعر بطبعه وسليقته ، يكفى أن يصرف همه الى القول فاذا هو ينساق اليه انسياقا . كان القدماء يعتقدون هذا ، وما يزال المحدَثون يرونه . وعذر أولئك وهؤلاء أن لديهم كثرة فاحشة من الشعر تضاف الى ناس منهم المعروف ومنهم غير المعروف ، منهم الحضرى ومنهم البدوى . فأما العلماء والمحققون منهم فقد استطاعوا أن ينفوا من هذا الشعر مقدار

قليلا أو كثيرا لم يستطيعوا أن يقبلوه ولا أن يطمئنوا اليه . ولكنهم بعد الحذف والنفى والنقد والتمحيص نظروا فإذا لديهم مقادير ضخمة تضاف الى ناس منهم المعروف ومنهم المجهول، ومنهم الحضرى ومنهم البدوى . فأى شىء أيسر من أن يعتقدوا أن العربى شاعر بفطرته ، وأنه يكفى أن يكون الرجل عربيا ليقول الشعر متى شاء وكيف شاء .

ولكن رأيا كهذا لا يلائم طبيعة الأشياء . فنحن نستطيع أن نؤمن بأن الأمم تتفاوت حظوظها من الشعر، فبعضها أشعر من بعض، وبعضها أكثر شعراء من بعضها الآخر . ولكن لا نستطيع أن نفهم أن يكون جيل من الناس شاعرا كله، أو أن تكون أمة من الأمم شاعرة كلها رجالا ونساء شبانا وشيبا وولدانا أيضا . ولدينا نصوص قديمة تدلنا على أن العرب لم يكونوا جميعا شعراء . فكثيرا ما حاول العربى قول الشعر فلم يوفق الى شىء . وقد طلب الى النبى فى بعض المواقف التى احتاج المسلمون فيها الى الشعر أن يأذن لعلى فى أن يقول شعرا يرد به على شعراء قريش فأبى النبى أن يأذن له ، لأنه لم يكن من ذلك فى شىء ، وأذن لحسان .

وما نظن أننا فى حاجة الى أن نقيم الأدلة ونبسط البراهين على أن العرب لم يكونوا كلهم شعراء . وانما سبيلنا أن نوضح أن كثرة هذا الشعر هى التى خيلت الى القدماء والمحدثين أن لفظ العربى مرادف للفظ الشاعر . فاذا أضفت الى ما قدمنا أنك تجد كثيرا من الشعر يضاف الى قائل غير معروف بل غير مسمى ، فتراهم يقولون مرة قال

(٧)

الشاعر، وأخرى قال الأول ، وثالثة ، قال الآخر، ورابعة قال رجل من بنى فلان ، وخامسة قال أعرابى وهلم جرا — نقول اذا لاحظت هذا كله عذرت القدماء والمحدثين اذا اعتقدوا أن العرب كلهم شعراء.

والحق أن العرب كانوا كغيرهم من الأمم ذات الفصاحة واللسن والأذهان القوية يكثر فيهم الشعر دون أن يعم كافتهم . وأن أكثر هذا الشعر الذى يضاف الى غير قائل أو الى قائل مجهول انما هو شعر مصنوع موضوع انتحل انتحالا بسبب من هذه الأسباب التى نحن بإزائها ومنها القصص .

كثرة هذا الشعر الذى احتاج اليه القصاص لتزدان به قصصهم من ناحية وليسيغها القراء والسامعون من ناحية أخرى خدعت فريقا من العلماء، فقبلوها على أنها صدرت عن العرب حقا . وقد فطن بعض العلماء الى ما فى هذا الشعر من تكلف حينا ومن تخفف و إسفاف حينا آخر، وفطن الى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسب اليهم . ومن هؤلاء العلماء محمد بن سلام الذى أنكر — كما رأيت — ما يضيفه ابن إسحاق الى عاد وثمود وحمير وتبع ، وأنكر كثيرا مما رواه ابن اسحاق فى السيرة من شعر الرجال والنساء سواء منهم من عرف بالشعر ومن لم يقل شعرا قط . وآخرون غير ابن سلام أنكروا ما روى ابن اسحاق وأصحابه القصاصون، نذكر منهم ابن هشام الذى يروى لنا فى السيرة ما كان يرويه ابن اسحاق، حتى اذا فرغ من رواية القصيدة .

قال : وأكثر أهل العلم بالشعر أو وبعض أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة أو ينكرها لمن تضاف اليه .

ولكن هؤلاء العلماء الذين فطنوا لأثر القصص فى آنتحال الشعر خُدعوا أيضا ، فلم يكن صُنّاع الشعر جميعا ضعافا ولا محمّقين ، بل كان منهم ذو البصيرة النافذة والفؤاد الذكى والطبع اللطيف ، فكان يجيد الشعر ويحسن آنتحاله وتكلّفه ، وكان فطنا يجتهد فى إخفاء صنعته ويوفّق من ذلك الى الشيء الكثير. وآبن سلام نفسه يحدّثنا بأنه اذا سهل على العلماء النقاد أن يعرفوا ما تكلفه الضعفاء من المنتحلين ، فمن العسير عليهم أن يميزوا ما كان يتكلفه العرب أنفسهم . وقد رأيت أن العرب أنفسهم كانوا يتكلفون ويضعون ويكذبون ، فيسرفون فى هذا كله .

ولعل من أوضح الأمثلة لانخداع آبن سلام عن هذا الشعر المنتحل هذه الطائفة التى رواها على أنها أقدم ما قالته العرب من الشعر الصحيح ، والتى يضاف بعضها الى جَذيمة الأبرش ، وبعضها الى زهير ابن جناب ، وبعضها الى العنبر بن تميم ، وبعضها الى مالك وسعد ابنى زيد مناة بن تميم ، وبعضها الى أَعْصُر بن سعد بن قيس عَيْلان . وكل هذا الشعر اذا نظرت فيه سخيف سقيم ظاهر التكلف بيّن الصنعة . واضح جدّا أن راويا من الرواة أو قاصّا من القصاص تكلفه ليفسر مثلا من الأمثال أو أسطورة من الأساطير أو لفظا غريبا أو ليلذ القارئ أو السامع ليس غير. ولنضرب لذلك مثلا هذين البيتين اللذين يضافان الى أعصر بن سعد بن قيس عيلان ، وهما :

قالت عميرة ما لرأسك بعد ما   نفـد الزمان أتى بلون منكر
أعمير إنّ أباك شيّب رأسه   كرّ الليالى واختلافُ الأعصرُ

قال ابن سلّام وغيره من العلماء والرواة : إن هذا الرجل إنما سمى «أعصر» لهذا البيت الأخير . قال ابن سلام : و بعض الناس يسميه «يعصر» وليس بشىء .

وابن سلام نفسه يحدّثنا أن معدا كان يعيش فى العصر الذى كان يعيش فيه موسى بن عمران ، أى قبل المسيح بقرون عدّة أى قبل الإسلام بأكثر من عشرة قرون . فإذا لاحظنا أن أعصر هذا هو ابن سعد بن قيس عيلان بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ ، رأينا أنه إن عاش فقد عاش فى زمن متقدّم جدا أى قبل الإسلام بعشرة قرون على أقل تقدير.

أفتظن أن هـذين البيتين اللذين قرأتهما آنفا يمكن أن يكونا قد قيلا قبل الإسلام بألف سنة ! ونحن لا نعرف اللغة العربية قبل الإسلام بثلاثة قرون أو أربعة قرون ، ونحن نجد مشقة غير قليلة فى فهم الشعر العربى الصحيح الذى قيل أيام النبى أو بعد النبى ، ولا نجد شيئا من العسر فى فهم هذا الكلام الذى إن صح رأى ابن سلام فقد قيل قبل النبى بأكثر من عشرة قرون .

أليس واضحا جليا أن هذين البيتين إنما قيلا فى الاسلام ليفسرا اسم هـذا الرجل الذى هو فى حقيقة الأمر من أشخاص الأساطير لا نعرف أوُجد فى حقيقة الأمر أم لم يوجد .

وقل مثل هذا فيما يضيفه آبن سلام الى مالك وسعد آبنى زيد مناة ابن تميم . فنحن لا نعرف مَنْ سعدٌ ومَنْ مالك ومنْ زيد مناة ومَن تميم . وأكبر الظن عندنا أنهم أشخاص أساطير لم يوجدوا قط . ولكن رأى الرواة والقصاص مثلا تستعمله العرب وهو : "ما هكذا تُورَد يا سعدُ الإبل" ... وهم فى حاجة الى تفسير الأمثال ، والشعوب نفسها فى حاجة إلى تفسير الأمثال أيضا . ومن هنا آخترعت هذه القصة التى نطق فيها سعد ومالك بما يضاف إليهما من الرجز .

وقل مثل هذا فيما يضاف للعنبر بن تميم وهو :

قد رابنى من دلوىَ آضطرابُها والنأى فى بهراء واغترابُها
إلّا تجىء مَلأى يجىء قِرابُها

فالأمر عندنا لا يتجاوز تفسير هذا البيت الأخير الذى كان يجرى مجرى المثل فيما يظهر . وقل مثل هذا فى هذا الشعر الذى يضاف الى جَذيمة الأبرش ، وفى كل ما يتصل بجذيمة وصاحبته الزَّبّاء وآبن أخته عمرو بن عدىّ ووزيره قَصير .

فليس لهذا كله إلا أصل واحد هو تفسير طائفة من الأمثال ذكرت فيها أسماء هؤلاء الناس كلهم أو بعضهم كقولهم " لا يطاع لقَصير أمر " . وقولهم : "لأمرٍ ما جدع قصيرٌ أنفه" ، وقولهم : " شب عمرو على الطوق " . أو ذكر فيها ما يتصل بهؤلاء الناس فى هذه القصص التى كانت شائعة عند هؤلاء الأخلاط من سكان

العراق والجزيرة والشأم وما يتصل بها من بوادى العرب، كفرس جذيمة التى كانت تسمى "العصا" والبرج الذى بناه قصير على العصا بعد أن نفقت وكان يسمى "برج العصا"، ودم جذيمة الذى جمعته الزّباء فى طست من الذهب، وجمال عمرو بن عدىّ التى احتال قصير فى إدخالها تدمُر وعليها الرجال فى الغرائر.

وتستطيع أن تذهب هذا المذهب من الفهم والتفسير فى كل هذه الحكايات والأساطير التى تتصل بالأسماء والأمثال والأمكنة وما إليها وما ينشد فيها من الشعر.

ولكن القدماء لم يذهبوا هذا المذهب، وإنما قبلوا هذه الأخبار والأشعار على علاتها ورووها على أنها صحيحة لأنهم سمعوها من رواة كانوا يعتقدون أنهم ثقات مصححون. ومن هنا روى ابن سلام وغيره أبياتا لجذيمة على أنها من أقدم الشعر العربى وهى التى تبتدئ بهذا البيت:

ربما أوفيتُ فى علمٍ ترفعَنْ ثوبى شَمالاتُ

وهناك لون من ألوان القصص كان الناس يتحدثون به ويميلون اليه ميلا شديدا ويروون فيه الأكاذيب والأعاجيب وهو أخبار المعمَّرين الذين مدّت لهم الحياة الى أبعد مما ألف الناس. وقد رويت حول هؤلاء المعمَّرين أخبار وأشعار قبلها العلماء الثقات فى القرن الثالث للهجرة كأبى حاتم السجستانى وابن سلّام نفسه، وهو يروى لنا فى كتاب

الطبقات هذا الشعر المتكلف السخيف الذى يضاف الى أحد هؤلاء المعمّرين وهو المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد الذى بقى بقاء طويلا حتى قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وازددت من عدد السنين مئينا
مائة أتت من بعدها مئتان لى   وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقى إلا كما قد فاتنا   يومٌ يكرّ وليلةٌ تحدونا

ويروى لنا ابن سلام شعرا آخر ليس أقل من هذا الشعر سخفا ولا تكلفا ولا انتحالا يضيفه الى دُوَيْد بن زيد بن نهد حين حضره الموت :

اليومَ يبنى لدُوَيْدٍ بيتُه   لو كان للدهر بِلًى أبليتُهُ
أو كان قرنى واحدًا كَفَيتُه   يارُبَّ نَهْبٍ صالحٍ حَوَيته
ورب غَيْلٍ حسن لوَيته   ومِعصمٍ مخضَّبٍ ثنَيته

فأنت ترى أن ابن سلام على ما أظهر من الشك فيما كان يروى ابن إسحاق من شعر عاد وثمود وتبّع وحمير ، قد انخدع عما كان يرويه ابن إسحاق وغير ابن اسحاق من القصاص من الشعر يضيفونه الى القدماء من حاضرة العرب وباديتهم .

والرواة أشدّ انخداعا حين يتصل الأمر بالبادية اتصالا شديدا ، وذلك فى هذه الاخبار التى يسمونها "أيام العرب" أو "أيام الناس" . فهم سمعوا بعض هذه الأخبار من الأعراب ثم رأوها تقص مفصلة

مطولة فقبلوا ما كان يروى منها على أنه جد من الأمر، ورووه وفسروه وفسروا به الشعر واستخلصوا منه تاريخ العرب؛ مع أن الأمر فيه لا يتجاوز ما قدمناه. فليست هذه الأخبار إلا المظهر القصصي لهذه الحياة العربية القديمة، ذكره العرب بعد أن استقروا فى الأمصار فزادوا فيه ونموه وزينوه بالشعر؛ كما ذكر اليونان قديمهم فأنشأوا فيه "الإلياذة" و "الأوديسا" وغيرهما من قصائد الشعر القصصي التي لم يكن يكاد يبلغها الاحصاء. فحرب البسوس وحرب داحس والغبراء وحرب الفساد وهذه «الأيام» الكثيرة التي وضعت فيها الكتب ونظم فيها الشعر ليست فى حقيقة الامر — إن استقامت نظريتنا إلا توسيعا وتنمية لأساطير وذكريات كان العرب يتحدثون بها بعد الإسلام.

ومن هنا نستطيع أن نقول مطمئنين إن مؤرخ الآداب العربية خليق أن يقف موقف الشك — إن لم يقف موقف الإنكار الصريح — أمام هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين، والذى هو فى حقيقة الأمر تفسير أو تزيين لقصة من القصص أو توضيح لاسم من الأسماء أو شرح لمثل من الأمثال.

كل ما يروى عن عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وجُرْهُم والعماليق موضوع لا أصل له.

وكل ما يروى عن تبع وحمير وشعراء اليمن فى العصور القديمة، وأخبار الكهان، وما يتصل بسيل العرم وتفرق العرب بعده موضوع لا أصل له.

— ١٠٥ —

وكل ما يروى من أيام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل بذلك من الشعر خليق أن يكون موضوعا . والكثرة المطلقة منه موضوعة من غير شك .

وكل ما يروى من هذه الأخبار والأشعار التي تتصل بما كان بين العرب والأمم الاجنبية من العلاقات قبل الإسلام كعلاقاتهم بالفرس واليهود والحبشة خليق أن يكون موضوعا . وكثرته المطلقة موضوعة من غير شك .

ولسنا نذكر شعر آدم وما يشبهه فنحن لم نكتب هذا الكتاب هازلين ولا لاعبين .

٥

الشعوبيـــة وانتحـال الشـــعر

والشـعوبية ما رأيك فيهم وفيما يمكن أن يكون لهم من الأثر القوى فى انتحال الشـعر والأخبار وإضافتها الى الجاهليين ؟ أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد انتحلوا أخبارا وأشعارا كثيرة وأضافوها الى الجاهليين والإسـلاميين . ولم يقف أمرهم عند انتحال الأخبار والأشعار، بل هم قـد اضطروا خصومهم ومناظريهـم الى الانتحال والإسراف فيه . وأنت تعلم أن أصل هذه الفرقة إنمـا هو هذا الحقد الذى أضمره الفرس المغلوبون للعرب الغالبين ، وأنت تعلم أن هـذه الخصومة قد أخذت مظاهر مختلفة منذ تم الفتح للعرب، وأحدثت آثارا مختلفة بعيدة فى حياة المسلمين الدينية والسياسية والأدبية . ولكنا لا نريد أن نتجاوز فى هـذا الفصل تأثير الشعوبية فى الحيـاة الأدبية وحدها وفى انتحال الشعر على الجاهليين بنوع خاص .

لم يكد ينتصف القـرن الأول للهجرة حتى كان فريق من سبى الفرس قد استعرب وأتقن العربية واستوطن الأقطار العربية الخالصة، وأخذ يكون له فيها نسل وذرية ، وأخذ هذا الشباب الفارسى الناشئ يتكلم العربية كما يتكلمها العرب أنفسهم . وما هى إلا أن أخذ هذا

الشباب يحاول نظم الشعر العربى على نحو ما كان ينظمه شعراء العرب . ثم لم يقف أمرهم عند نظم الشعر بل تجاوزوه إلى أن شاركوا العرب فى أغراضهم الشعرية السياسية . فكان من هؤلاء الموالى شعراء يتعصّبون للأحزاب العربية السياسية ويناضلون عنها .

وهذا الموقف السياسى الذى وقفه الموالى من الأحزاب يسّر الأمر عليهم تيسيرا شديدا . فقد كان أحدهم لا يكاد يظهر تأييده لحزب من هذه الأحزاب حتى يفرح به هذا الحزب ويعطف عليه ويجزل له الصِّلات ويذهب فى تشجيعه كل مذهب، على نحو ما تفعل الأحزاب السياسية الآن بالصحف التى تقف منها مواقف التأييد، تقبل عليها وتمنحها المعونة لا تبالى فى ذلك بشىء، لأنها لا تريد إلا نشر الدعوة، ولأنها لا تريد إلا الفوز . ومن ابتغى الفوز وحده كان خليقا ألا يحقق فى اختيار الوسائل وتدبر العواقب .

وكذلك كانت تفعل الأحزاب العربية أيام بنى أمية . كان هذا المولى يعلن تأييده للأمويين فى قصيدة من الشعر فما أسرع ما يضمه الأمويون إليهم لا يعنيهم أكان مخلصا لهم أو مبتغيا للحظوة والزلفى .

وكذلك كان يفعل حزب آل الزبير وحزب الهاشميين . وكذلك كانت الخصومة بين الأحزاب العربية تبيح للغلويين الموتورين من الموالى أن يتدخّلوا فى السياسة العربية وأن يهجوا أشراف قريش وقرابة النبى .

كان بنى أمية يشجعون أبا العباس الأعمى، وكان آل الزبير يشجعون إسماعيل بن يسار، وكان هذان الشاعران يستبيحان لأنفسهما هجو أشراف قريش خاصة والعرب عامة فى سبيل التأييد لآل مروان وآل حرب أو آل الزبير.

ولم يكن هؤلاء الموالى مخلصين للعرب حقا، إنما كانوا يستغلون هذه الخصومة السياسية بين الأحزاب ليعيشوا من جهة وليخرجوا من حياة الرق أو حياة الولاء إلى حياة تشبه حياة الأحرار والسادة من جهة أخرى، ثم ليشفوا ما فى صدورهم من غل وينفّسوا عن أنفسهم ما كانوا يضمرون من ضغينة للعرب من جهة ثالثة.

ولعل إسماعيل بن يسار أظهر مثل لهذه الطائفة من الشعراء الموالى الذين كانوا يبغضون العرب ويزدرونهم ويستغلون ما بينهم من الخصومات السياسية لحاجاتهم ولذاتهم وأهوائهم. قالوا: كان إسماعيل ابن يسار زبيرى الهوى، فلما ظفر آل مروان بآل الزبير أصبح إسماعيل مروانيا وقبله بنو أمية، فاستأذن ذات يوم على الوليد بن عبد الملك فأخره ساعة حتى إذا أذن له دخل عليه يبكى. فلما سأله عن بكائه هذا قال: أخرتنى وأنت تعلم مروانيتى ومروانية أبى. فأخذ الوليد يهون عليه ويعتذر اليه وهو لا يزداد إلا إغراقا فى البكاء، حتى وصله الوليد فأحسن صلته، فلما خرج تبعه بعض من حضر فسأله عن هذه المروانية التى ادعاها: ما هى؟ ومتى كانت؟ فأجاب: إن هذه المروانية هى بغضنا لآل مروان وهى التى حملت أباه يسارا وهو يموت على أن

يتقرب الى الله بلعن مروان بن الحكم ، وهى التى تحمل أمه على أن تلعن آل مروان مكان ماتتقرب به من التسبيح .

ولكن آل مروان كانوا فى حاجة إلى اصطناع هؤلاء الشعراء يذودون عنهم ويناضلون بنى هاشم خاصة ؛ فقد علمت منزلة بنى هاشم فى نفوس الموالى والفرس .

والرواة يحدثوننا بأن حب بنى أمية لشاعرهم أبى العباس الأعمى لم يكن له حد ؛ فقد كانت صلات بنى أمية ترسل اليه فى مكة . وحج عبد الملك مرة فدخل عليه هذا الشاعر وأنشده شعرا هجا به ابن الزبير ، فحلف عبد الملك على من فى المجلس من قرابته ومن قريش ليكسونه كل واحد منهم ؛ قالوا فألقيت عليه الحلل والثياب حتى كادت تخفيه ، ونهض فجلس عليها بقية مجلسه مع عبد الملك .

ولم تكن سيرة الهاشميين مع أنصارهم من الموالى أقل من سيرة الأمويين والزبيريين . وكانت النتيجة لهذا كله أن استباح هؤلاء الموالى لأنفسهم هجو العرب أولا ثم ذكر قديمهم والافتخار بالفرس ثانيا ، وقد ضاع أكثر ماقال هؤلاء الموالى فى الافتخار بالفرس وهجاء العرب أيام بنى أمية ؛ ولكنك تجد من ذلك طرفا مجزئا مغنيا فى الأغانى وغيره من كتب الأدب .

أما العصر العباسى فيكفى أن تقرأ هذه القصيدة التى قالها أبو نواس يهجو فيها العرب وقريشا ، والتى يقال إن الرشيد أطال حبسه فيها .

وهم يحدّثوننا أن الجرأة بلغت بإسماعيل بن يسار أن أنشد فخره بالفرس بين يدى هشام بن عبد الملك ؛ فغضب عليه الخليفة وأمر به فألقى فى بركة كانت بين يديه ولم يخرج إلا وقد أشرف على الموت .

نسوق هذا كله لنعطيك صورة من حقد الفرس على العرب وما كان له من أثر فى الحياة الأدبية لهؤلاء الشعراء .

وقد وصلنا الى ما كنا نريد من تأثير هذه الشعوبية فى آنتحال الشعر. ويكفى أن يحاول الشاعر من الموالى الافتخار على العرب ليفكر فى أن يثبت أن العرب أنفسهم كانوا قبل أن يتيح لهم الإسلام هذا التغلب يعترفون بفضل الفرس وتقدّمهم ، و يقولون فى ذلك الشعر يتقربون به إليهم و يبتغون به المثوبة عندهم ، ولا سيما إذا كانت الحوادث التاريخية والأساطير تعين على ذلك وتدنى منه .

ومن الذى يستطيع أن ينكر أن الفرس قد سيطروا قبل الإسلام على العراق وأخضعوا لسلطانهم من كان يسكن حضره وباديته من العرب! ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن الفرس قد أرسلوا جيشا آحتل اليمن وأخرج منه الحبشة! ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أنه قد كانت بين الفرس والعرب وقائع ، وأن ملوك الحيرة كانوا أتباعا للفرس يوفدون اليهم من حين الى حين أشراف البادية العربية ؟ وإذا

كله هذا كله حقا فلم لا يستغله الموالى؟ ولم لا يعتزون به على العرب المتغلبين الذين يزدرونهم و يتخذونهم رقيقا وخدما ؟

الحق أن الموالى لم يقصّروا فى هذا ، فهم أنطقوا العرب بكثير من نثر الكلام وشعره ، فيه مدح للفرس وثناء عليهم وتقرب منهم . وهم زعموا لنا أن الأعشى زار كسرى ومدحه وظفر بجوائزه . وهم أضافوا الى عدى بن زيد ولقيط بن يعمر وغيرهما من إياد والعباد كثيرا من الشعر فيه الاشادة بملوك الفرس وسلطانهم وجيوشهم . وهم أنطقوا شاعرا من شعراء الطائف بأبيات رواها الثقات من الرواة على أنها صحيحة لا شك فيها ، وهى أبيات تضاف الى أبى الصلت بن ربيعة ، وهو أبو أمية بن أبى الصلت المعروف . وقد يكون من الخير أن نروى هذه الأبيات وهى :

لله درّهم من عصبة خرجوا ... ما إن ترى لهم فى الناس أمثالا
بيضا مرازبة غرّا جحاجحة ... أسدا تربّب فى الغيضات أشبالا
لا يرمضون اذا حرّت مغافرهم ... ولا ترى منهم فى الطعن ميّالا
من مثل كسرى وسابور الجنود له ... أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا ... فى رأس غمدانَ دارا منك محلالا
واحتطم بالمسك اذا شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم فى برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

والشعر فى مدح سيف بن ذى يزن . وقد زاد ابن قتيبة فى أوله هذه الأبيات وهى أبلغ فى الدلالة على ما نريد أن ندل عليه وهى :

لن يطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن　　لجج فى البحر للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته　　فلم يجد عنده القول الذى قالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد تاسعة　　من السنين، لقد أبعدت إيغالا
حتى أتى ببنى الأحرار يحملهم　　إنك عمرى لقد أسرعت قلقالا

فانظر اليه كيف قدم الفرس على الروم فى أول الشعر وعلى العرب فى سائره ! ولو أن العرب غلبوا الروم بعد الإسلام وأزالوا سلطانهم كما أزالوا سلطان الفرس وأخضعوهم لمثل ما أخضعوا له الفرس لكان الروم مع العرب شأن يشبه شأن الفرس معهم . ولكن العرب لم يقوضوا سلطان الروم وإنما اقتطعوا طائفة من أقاليمهم وظلت دولتهم قائمة .

ومن الخير أن نروى أبياتا قالها إسماعيل بن يسار فى الفخر بالفرس ، فسترى بينها وبين الشعر الذى يضاف الى أبى الصلت ما يحمل على شيء من الشك والريبة . قال :

إنى وجدك ما عودى بذى خور　　عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به　　ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب　　من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرازبة　　جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا　　والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا　　وهم أذلوا ملوك الترك والروم

يمشون فى حلق الماذِىّ سابغةً ۞ مَشْىَ الضراغمة الأُسْـد اللهاميم
هناك إن تسألى تُنْبَىْ بأن لنا ۞ جُرْثومةً قَهَرتْ عِزّ الجراثيم

على هـذا النحو من آنتحال الموالى للشعر والأخبار يضيفونها الى العرب ذكرًا لمآثر الفرس وما كان لهم من سلطان ومجد فى الجاهلية . كان العرب مضطرين الى أن يجيبوا بلون من الانتحال يشبه هذا اللون ، فيه تغليب للعرب على الفرس ، وفيه إثبات لأن ملك الفرس فى الجاهلية وتسلطهم على العـرب لم يكن من شأنه أن يذل هؤلاء أو أن يقدم عليهم أولئك .

ومن هنا مواقف هـذه الوفود التى تحدّث أمام كسرى بمحامد العرب وعزّتها ومنعتها وإبائها للضيم . ومن هنا هذه المواقف التى تضاف الى ملوك الحيرة والتى تظهر هؤلاء الملوك أحيانا عصاة مناهضين للملك الأعظم . ثم من هنا هذه الأيام والوقائع التى كانت للعرب على الفرس والتى تحدّث النبىّ عن بعضها وهو يوم ذى قار .

فأنت ترى أن الشعوبيـة فى مظهرها السياسى الأول قد حملت الفرس على آنتحال الأشـعار والأخبار وأكرهت العرب على أن يلقوا الآنتحال بمثله .

على أن هذه الشعوبية لم تلبث أن آستحالت بعد سقوط الأمويين وقيام سـلطان الفرس على يد العباسيين الى خلافته له صـورة علمية أدبية أقرب الى البحث والجدل فى أنواع العلم منها الى ما كان معروفا

(٨)

من الخصومة السياسية بين الغالب والمغلوب . وكان هذا النحو من الشعوبيــة أخصب من النوع السابق وأبلغ فى مل العرب والفرس على الانتحال والإسراف فيه .

ولعلك تلاحظ أن الكثرة المطلقة من العلماء الذين انصرفوا الى الأدب واللغة والكلام والفلسفة كانوا من العجم الموالى ، وكانوا يستظلون بسلطان الوزراء والمشيرين من الفرس أيضا ؛ وكانت غايتهم قد استحالت من إثبات سابقة الفرس فى الملك والسلطان الى ترويج هذا السلطان الذى كسبوه أيام بنى العباس وإقامة الأدلة الناهضة على أن الأمر قد ردّ الى أهله وعلى أن هؤلاء العرب الذين حيل بينهم و بين السيادة الفعلية ليسوا ولم يكونوا أهلا لهــذه السيادة . ومن هنا كان هؤلاء العلماء والمناظرون أصحاب ازدراء للعرب ونعى عليهم وغضّ من أقدارهم .

فأما أبو عُبَيْدة مَعْمَر بن المُثَنَّى الذى يرجع العرب اليه فيما يروون من لغة وأدب ، فقد كان أشدّ الناس بغضا للعرب وازدراءً لهم ؛ وهو الذى وضع كتابا لا نعرف الآن إلا اسمه وهو "مثالب العرب" . وأما غير أبى عبيدة من علماء الموالى ومتكلميهم وفلاسفتهم فقد كانوا يمضون فى ازدراء العرب الى غير حدّ : ينالونهم فى حروبهم ، ينالونهم فى شعرهم ، ينالونهم فى خطابتهم ، وينالونهم فى دينهم أيضا . فليست الزندقة إلا مظهرا من مظاهر الشعوبية ؛ وليس تفضيل النار على الطين و إبليس

على آدم إلا مظهرا من مظاهر الشعوبية الفارسية التى كانت تفضّل المجوسية على الإسلام .

وأنت تجد فى "البيان والتبيين" كلاما كثيرا تستبين منه الى أىّ حدّ كان الفرس يعجبون بآثار الأمم الأعجمية ويقدّمونها على آثار العرب ، فهم يعجبون بخطب الفرس وسياستهم ، وعلم الهند وحكمتها ، ومنطق اليونان وفلسفتهم ؛ وهم ينكرون على العرب أن يكون لهم شىء يقارب هذا . والجاحظ ينفق ما يملك من قوة ليثبت أن العرب يستطيعون أن ينهضوا لكل هذه المفاخر الأعجمية وأن يأتوا بخير منها .

ولعل أصدق مثال لهذه الخصومة العنيفة بين علماء العرب والموالى : هذا الكتاب الذى كتبه الجاحظ فى البيان والتبيين وهو "كتاب العصا". وأصل هذا الكتاب كما تعلم أن الشعوبية كانوا ينكرون على العرب الخطابة ، وينكرون على خطباء العرب ما كانوا يصطنعون أثناء خطابتهم من هيئة وشكل وما كانوا يتخذون من أداة ؛ وكانوا يعيبون على العرب اتخاذ العصا والمخصرة وهم يخطبون . فكتب الجاحظ كتاب العصا ليثبت فيه أن العرب أخطب من العجم ، وأن اتخاذ الخطيب العربى للعصا لا يغضّ من فنه الخطابى . أليست العصا محمودة فى القرآن والسنة وفى التوراة وفى أحاديث القدماء ؟ ومن هنا مضى الجاحظ فى تعداد فضائل العصا حتى أنفق فى ذلك سفرا ضخما .

والذى يعنينا من هذا كله هو أن نلاحظ أن الجاحظ وأمثاله من الذين كانوا يعنون بالرّد على الشعوبية ، مهما يكن علمهم ومهما تكن روايتهم لم يستطيعوا أن يعصموا أنفسهم من هذا الانتحال الذى كانوا يضطرون إليه اضطرارا ليسكتوا خصومهم من الشعوبية . فليس من اليسير أن نصدق أن كل ما يرويه الجاحظ من الأشعار والأخبار حول العصا والمخصرة ويضيفه إلى الجاهليين صحيح . ونحن نعلم حق العلم أن الخصومة حين تشتد بين الفرق والأحزاب فأيسر وسائلها الكذب . كانت الشعوبية تنتحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم . وكان خصوم الشعوبية ينتحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم .

ونوع آخر من الانتحال دعت اليه الشعوبية ، تجده بنوع خاص فى كتاب الحيوان للجاحظ وما يشبهه من كتب العلم التى ينحو بها أصحابها نحو الأدب . ذلك أن الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم الى أن يزعموا أن الأدب العربى القديم لا يخلو أو لا يكاد يخلو من شىء تشتمل عليه العلوم المحدثة . فاذا عرضوا لشىء مما فى هذه العلوم الأجنبية فلا بد من أن يثبتوا أن العرب قد عرفوه أو ألموا به أو كادوا يعرفونه ويلمون به .

ومن هنا لاتكاد تجد شيئا من هذه الأنواع الحيوانية التى عرض لها الجاحظ فى كتاب الحيوان إلا وقد قالت العرب فيه شيئا قليلا أو كثيرا

طويلا أو قصيرا، واضحا أو غامضا. يجب أن يكون للعرب قول فى كل شىء وسابقة فى كل شىء، هم مضطرون الى ذلك اضطرارا ليثبتوا فضلهم على هذه الأمم المغلوبة . واضطرارهم يشتد ويزداد شدّة بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسى، وبمقدار ما ترفع هذه الأمم المغلوبة رءوسها .

وأنا أستطيع أن أمضى فى تفصيل هذه الآثار المختلفة التى تركتها الشعوبيــة فى الأدب العربى وفى الانتحال بنــوع خاص ؛ ولكنى لم أكتب هذا الكتاب إلا لألمّ إلمــاما بكل هــذه الأسباب التى تحمل على الشك فى قيمة ما يضاف الى الجاهليين من الشعر . وأحسبنى قد ألممت بالشعوبية وتأثيرها فى ذلك إلمــاما كافيا .

٦

الرواة وانتحال الشعر

فاذا فرغنا من هذه الأسباب العامة التى كانت تحمل على الانتحال والتى تتصل بظروف الحياة السياسية والدينيــة والفنية للمسلمين فلن نفرغ من كل شيء ، بل نحن مضطرون الى أن نقف وقفات قصيرة عند طائفة أخرى من الأسباب ، ليست من العموم والاطراد بمنزلة الأسباب المتقدمة . ولكنها ليست أقل منهـا تأثيرا فى حياة الأدب العربى القديم ، وحثًّا على تحميل الجاهليين مالم يقولوا من الشعر والنثر. أريد بها هــذه الأسباب التى تتصل بأشخاص أولئك الذيـن نقلوا إلينــا أدب العرب ودونوه . وهؤلاء الأشخاص هم الرواة . وهم بين اثنين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بمـا كان يتأثر به العرب . وإما أن يكونوا من الموالى، فهم متأثرون بمـا كان يتأثر به الموالى من تلك الأسباب العامة . وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة لمتأثرون بأشياء أخرى هى التى أريد أن أقف عنــدها وقفات قصيرة كما قلت .

ولعل أهم هــذه المؤثرات التى عبثت بالأدب العــربى وجعلت حظه من الهزل عظيما : مجون الرواة وإسرافهم فى اللهو والعبث

وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق الى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق .

ولعلى لا أحتاج بعد الذى كتبته مفصلا فى الجزء الأول من «حديث الأربعاء» الى أن أطيل فى وصف ما كان فيه هؤلاء الناس من اللهو والمجون . ولست أذكر هنا إلا اثنين اذا اذكرتهما فقد ذكرت الرواية كلها والرواة جميعا : فأما أحدهما فحَمّاد الراوية . وأما الآخر فخَلَف الأحمر .

كان حماد الراوية زعيم أهل الكوفة فى الرواية والحفظ . وكان خلف الأحمر زعيم أهل البصرة فى الرواية والحفظ أيضا . وكان كلا الرجلين مسرفا على نفسه ليس له حظ من دين ولا خلق ولا احتشام ولا وقار . كان كلا الرجلين سكيرا فاسقا مستهترا بالخمر والفسق . وكان كلا الرجلين صاحب شك ودعابة ومجون .

فأما حماد فقد كان صديقا لحمّاد عَجْرَد وحمّاد الزبرقان ومُطيع ابن إيَاس . وكلهم أسرف فيما لا يليق بالرجل الكريم الوقور . وأما خلف فكان صديقا لوالبة بن الحُبَاب وأستاذا لأبى نواس . وكان هؤلاء الناس جميعا فى أمصار العراق الثلاثة مظهر الدعابة والخلاعة ؛ ليس منهم إلا من اتهم فى دينه ورمى بالزندقة ، يتفق على ذلك الناس جميعا : لا يصفهم أحد بخير ، ولا يزعم لهم أحد صلاحا فى دين أو دنيا .

وأهل الكوفة مجمعون على أن أستاذهم في الرّواية حمّاد، عنه أخذوا ما أخذوا من شعر العرب . وأهل البصرة مجمعون على أن أستاذهم في الرواية خلف ، عنه أخذوا ما أخذوا من شعر العرب أيضا . وأهل الكوفة والبصرة مجمعون على تجريح الرجلين في دينهما وخُلُقهما ومروءتهما . وهم مجمعون على أنهما لم يكونا يحفظان الشعر ويحسنان روايته ليس غير ، وانما كانا شاعرين مجيدين يصلان من التقليد والمهارة فيه الى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يرويان وما ينتحلان .

فأما حماد فيحدّثنا عنه راوية من خيرة رواة الكوفة هو المُفَضَّل الضَّبّي أنه قد أفسد الشعر إفسادا لا يصلح بعده أبدا ، فلما سئل عن سبب ذلك ألحنٌ أم خطأ ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردّون من أخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟

ويحدثنا محمد بن سلّام أنه دخل على بِلَال بن أبي بُرْدة بن أبي موسى الأشعري فقال له بلال : ما أطرفتني شيئا ، فغدا عليه حماد فأنشده قصيدة للحطيئة في مدح أبي موسى ، قال بلال : ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعرف ذلك ، وأنا أروي شعر الحطيئة ! ولكن دعها

تذهب في النـاس ، وقد تركها حماد فذهبت فى الناس وهى فى ديوان الحطيئة والرواة أنفسهم يختلفون ، فمنهم من يزعم أن الحطيئة قالها حقا .

وكان يونس بن حبيب يقول : العجب لمن يروى عن حمّـاد ، كان يكذب و يلحن و يكذب . وثبت كذب حماد فى الرواية للمهدى ؛ فأمر حاجبه فأعلن فى الناس أنه يبطل رواية حماد .

وفى الحق أن حمادا كان يسرف فى الرواية والتكثر منها ، وأخباره فى ذلك لا يكاد يصدقها أحد ، فلم يكن يسأل عن شيء إلا عرفه . وقد زعم للوليد بن يزيد أنه يستطيع أن يروى على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة لمن لم يعرفهم من الشعراء . قالوا وامتحنه الوليد حتى ضجر فوكل به من أتم امتحانه ثم أجازه .

وأما خلف فكلام الناس فى كذبه كثير . وابن سلام ينبئنا بأنه كان أفرس الناس ببيت شعر . ويتحدثون أنه وضع لأهل الكوفة ما شاء الله أن يضع لهم ، ثم نسك فى آخر أيامه فأنبأ أهـل الكوفة بمـا كان قد وضع لهم من الشعر ؛ فأبوا تصديقه . واعترف هو للأصمعى بأنه وضع غير قصيدة . ويزعمون أنه وضع لامية العرب على الشَّنْفَرَى ، ولامية أخرى على تأبَّط شرًّا رويت فى الحماسة .

وهنالك راوية كوفىّ لم يكـن أقل حظا من صاحبيـه هذين فى الكذب والانتحال . كان يجمع شعر القبائل حتى اذا جمع شعر قبيلة كتب مصحفا بخطه ووضعه فى مسجد الكوفة . ويقول خصومه :

إنه كان ثقة لولا إسرافه فى شرب الخمر، وهو أبو عمرو الشيبانى . ويقولون : إنه جمع شعر سبعين قبيلة .

وأكبر الظن أنه كان يأجر نفسه للقبائل يجمع لكل واحدة منها شعرا يضيفه الى شعرائها . وليس هذا غريبا فى تاريخ الأدب، فقد كان مثله كثيرا فى تاريخ الأدب اليونانى والرومانى .

واذا فسدت مروءة الرواة كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبى عمرو الشيبانى، واذا أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والانتحال ككسب المال والتقرب الى الأشراف والأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين ونكاية العرب — نقول : اذا فسدت مروءة هؤلاء الرواة وأحاطت بهم مثل هذه الظروف، كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون الينا من شعر القدماء .

والعجب أن رواة لم تفسد مروءتهم ولم يُعرفوا بفسق ولا مجون ولا شعوبية قد كذبوا أيضا وانتحلوا . فأبو عمرو بن العَلاء يعترف بأنه وضع على الأعشى بيتا :

وأنكرتنى وما كان الذى نكِرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ويعترف الأصمعى بشىء يشبه ذلك .

ويقول اللاحق إن سيبويه سأله عن إعمال العرب "فَعِلًا"، فوضع له هذا البيت :

حَذِرٌ أمورا لا تَضِيرُ وآمنٌ   ما ليس ينجيه من الأقدار

ومثل هذا كثير .

وهناك طائفة من الرواة غير هؤلاء ليس من شك في أنهم كانوا يتخذون الانتحال في الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب . وكانوا يفعلون ذلك في شيء من السخرية والعبث ، نريد بهم هؤلاء الأعراب الذين كان يرتحل اليهم في البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب . فليس من شك عند من يعرف أخلاق الأعراب في أن هؤلاء الناس حين رأوا إلحاح أهل الامصار عليهم في طلب الشعر والغريب وعنايتهم بما كانوا يلقون اليهم منهما ، قدّروا بضاعتهم وآستكثروا منها . ثم لم يلبثوا أن أحسوا آزدياد حرص الأمصار على هذه البضاعة ، فجدّوا في تجارتهم وأبوا أن يظلوا في باديتهم ينتظرون رواة الأمصار . ولم لا يتولون هم إصدار بضاعتهم بأنفسهم ؟ ولم لا يهبطون الى الأمصار يحملون الشعر والغريب والنوادر الى الرواة فيريحونهم من الرحلة ومشاق السفر ونفقاته ، ويحدثون التنافس بينهم ، ويفيدون من ذلك مالم يكونوا يفيدون حين لم يكن يقتحم الصحارى اليهم إلا رجل كالأصمعي أو أبي عمرو بن العلاء ؟ وكذلك فعلوا : انحدروا الى الأمصار في العراق خاصة وكثر آزدحام الرواة حولهم فنفَقت بضاعتهم ، وأنت تعلم أن نَفاق البضاعة أدعى الى الإنتاج ؛ فأخذ هؤلاء الأعراب يكذبون وأسرفوا في الكذب ، حتى أحس الرواة أنفسهم ذلك . فالأصمعي يحدثنا عن أحد هؤلاء الأعراب ، وآسمه أبو ضمضم ، أنه أنشد لمائة شاعر أو ثمانين شاعرا كلهم يسمى عمرا ؛ قال الأصمعي : فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين .

ويحدثنا ابن سلّام عن أبي عُبَيْدة أن داود بن متمم بن نويرة ورد البصرة فيما يقدم له الأعراب، فأخذ أبو عبيدة يسأله عن شعر أبيه وكفاه حاجته؛ فلما فرغ داود من رواية شعر أبيه وكره أن تنقطع عناية أبي عبيدة به أخذ يضع على أبيه مالم يقل، وعرف ذلك أبو عبيدة.

ونظن أننا قد بلغنا ما كنا نريد من إحصاء الأسباب المختلفة التي حملت على انتحال الشعر وإضافته الى الجاهليين، والتي تضطرنا نحن في هذا العصر الى أن نقف موقف الشك والاحتياط أمام هذا الشعر.

كل شيء في حياة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى كان يدعو الى انتحال الشعر وتلفيقه سواء في ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء والبررة، والحياة السيئة حياة الفساق وأصحاب المجون. فاذا كان الأمر على هذا النحو فهل تظن أن من الحزم والفطنة أن نقبل ما يقول القدماء في غير نقد ولا تحقيق؟

وقد قدّمنا أن هذا الكذب والانتحال في الأدب والتاريخ لم يكونا مقصورين على العرب، وإنما هما حظ شائع في الآداب القديمة كلها. فخير لنا أن نجتهد في تعرّف ما يمكن أن تصح إضافته الى الجاهليين من الشعر. وسبيل ذلك أن ندرس الشعر نفسه في ألفاظه ومعانيه بعد أن درسنا ما يحيط به من الظروف.

الكتاب الثالث

الشعر والشعراء

١

قصص وتاريخ

نظن أن أنصار القديم لا يطمعون منا فى أن نغير لهم حقائق الأشياء أو أن نسمى هذه الحقائق بغير أسمائها، لنبلغ رضاهم ونتجنب سخطهم. ومهما نكن حراصا على أن يرضوا ومهما نكن شديدى الكره لسخطهم فنحن على رضا الحق أحرص، وللعبث بالحق والعلم أشد كرها.

ولن نستطيع أن نسمى حقا ما ليس بالحق، وتاريخا ما ليس بالتاريخ. ولن نستطيع أن نعترف بأن ما يروى من سيرة هؤلاء الشعراء الجاهليين وما يضاف اليهم من الشعر تاريخ يمكن الاطمئنان اليه أو الثقة به، وانما كثرة هذا كله قصص وأساطير لا تفيد يقينا ولا ترجيحا، وانما تبعث فى النفوس ظنونا وأوهاما. وسبيل الباحث المحقق أن يستعرضها فى عناية وأناة وبراءة من الأهواء والأغراض، فيدرسها محللا ناقدا مستقصيا فى النقد والتحليل. فإن انتهى من درسه هذا الى حق أو شىء يشبه الحق أثبته محتفظا بكل ما ينبغى أن يحتفظ

به من الشك الذى قد يحمله على أن يغير رأيه و يستأنف بحثه ونظره من جديد .

ذلك أن أخبار الجاهليين وأشعارهم لم تصل الينا من طريق تاريخية صحيحة ، وانما وصلت الينا من هذه الطريق التى تصل منها القصص والأساطير : طريق الرواية والأحاديث ، طريق الفكاهة واللعب ، طريق التكلف والانتحال . فنحن مضطرون أمام هـذا كله الى أن نحتفظ بحريتنا كاملة ، والى أن نقاوم ميولنا وأهواءنا وفطرتنا التى هى مستعدة للتصديق والاطمئنان فى سهولة و يسر . ونحن لا نعرف نصا عربيا وصل الينا من طريق تاريخية صحيحة يمكن أن نطمئن اليها قبل القرآن إلا طائفة من النقوش لا تثبت فى الأدب حقا ولا تنفى منه باطلا . وهى إن أفادت فى تاريخ الرسم فذلك كل ما يمكن أن يؤخذ منها الى الآن .

القرآن وحده هو النص العربى القـديم الذى يستطيع المؤرخ أن يطمئن الى صحتـه و يعتبره مشخصا للعصر الذى تلى فيه . فأما شـعر هؤلاء الشعراء وخطب هؤلاء الخطباء وسجع هؤلاء الساجعين فلا سبيل الى الثقة بها ولا الى الاطمئنان اليها ، ولا سيما بعد ما بسطنا لك فى الكتاب الأول من الأسباب التى تدعو الى الشك فى صحتها ، و بعد ما بسطنا لك فى الكتاب الثانى من الأسباب التى كانت تحمـل الناس على التكلف والانتحـال .

واذًا فيجب أن يكون لمؤرخ الآداب العربية موقفان مختلفان : أحدهما أمام الأساطير والأقاصيص والأسمار التي تروى عن العصر الجاهلي . والثاني أمام النصوص التاريخية الصحيحة التي تبتدئ بالقرآن . وقد بينا لك في الكتاب الماضي أن هذا ليس شأن الآداب العربية وحدها ، وانما هو شأن الآداب القديمة كلها ، وضربنا لك الأمثال بالأدب اليوناني والأدب اللاتيني . ولولا أنا نحرص على الإيجاز لضربنا لك أمثالا أخرى لطائفة من الآداب الحية الحديثة ؛ فلكل أدب قسمه الصحيح وقسمه المتكلف ، ولكل أمة تاريخها الصحيح وتاريخها المنتحل . ولسنا ندرى لم يريد أنصار القديم أن يميزوا الأمة العربية والأدب العربي من سائر الأمم والآداب ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن الله قد وضع القوانين العامة لتخضع لها الانسانية كلها إلا هذا الجيل الذى كان ينتسب الى عدنان وقحطان ؟ كلا ! الجيل العربي كغيره من الأجيال خاضع لهذه القوانين العامة التي تسيطر على حياة الأفراد والجماعات .

للعرب خيالهم الشعبي . وهذا الخيال قد جد وعمل وأثمر ، وكانت نتيجة جده وعمله وإثماره هذه الأقاصيص والأساطير التي تروى لا عن العصر الجاهلي وحده بل عن العصور الإسلامية التاريخية أيضا . وقد رأيت في فصولنا التي سميناها "حديث الأربعاء" أنا نشك في طائفة من هذه القصص الغرامية التي تروى عن العذريين وغيرهم من العشاق في العصر الأموى . ويجب حقا أن نلغى عقولنا — كما يقول بعض

الزعماء السياسيين — لنؤمن بأن كل ما يروى لنا عن الشعراء والكتّاب والخلفاء والقواد والوزراء صحيح، لأنه ورد فى كتاب الأغانى أو فى كتاب الطبرى أو فى كتاب المبرّد أو فى سفر من أسفار الجاحظ . نعم يجب أن نلغى عقولنا وأن نلغى وجودنا الشخصى وأن نستحيل الى كتب متحركة : هذا يحفظ الكامل لا يعدوه فيصبح نسخة من كتاب الكامل تمشى على رجلين وتنطق بلسان؛ وهذا يحفظ كتاب البيان والتبيين فيصبح نسخة منه؛ وهذا يحفظ أخلاطا من هذه الكتب فيصبح مزاجا غريبا يتكلم مرة بلسان الجاحظ وأخرى بلسان المبرد وثالثة بلسان ثعلب ورابعة بلسان ابن سلّام .

لأنصار القديم أن يرضوا لأنفسهم بهذا النحو من أنحاء الحياة العلمية . أما نحن فنأبى كل الإباء أن نكون أدوات حاكية أو كتبا متحرّكة، ولا نرضى إلا أن تكون لنا عقول نفهم بها ونستعين بها على النقد والتمحيص فى غير تحكم ولا طغيان . وهذه العقول تضطرنا، كما اضطرت غيرنا من قبل، الى أن ننظر الى القدماء كما ننظر الى المحدثين دون أن ننسى الظروف التى تحيط بأولئك وهؤلاء . فأنا لا أقدّس أحدا من الذين يعاصروننى ولا أبرئه من الكذب والانتحال ولا أعصمه من الخطأ والاضطراب . فاذا تحدّث إلىّ بشىء أو نقل لى عنه شىء، فأنا لا أقبل حتى أنقد وأتحرّى، وأحلل وأدقق فى التحليل . وما أعرف أن أحدا من أنصار القديم أنفسهم يقدّس المعاصرين

ويطمئن اليهم من غير نقد ولا تبصر . وآية ذلك أنهم يحيون حياتهم اليومية كما يحياها أنصار الجديد، فهم يبيعون ويشترون ويدخرون كما يبيع غيرهم وكما يشترى وكما يدخر، وهم يدبرون أمورهم الخاصة كما يدبرها سائر الناس فى مقدار من الذكاء والفطنة والحذر . فما بالهم يصطنعون ملكاتهم الناقدة بالقياس الى المعاصرين ولا يصطنعونها بالقياس الى القدماء؟ وما بالهم إذ كانوا يحبون التصديق والاطمئنان الى هذا الحد لا يصدقون البائع حين يزعم لهم أن سلعته تساوى عشرين ، بل يعرضون عليه عشرة وأقل من عشرة ويساومون حتى ينتهوا الى ما يريدون؟ ولو أنهم صدقوا المحدثين واطمأنوا اليهم كما يصدقون القدماء ويطمئنون اليهم لكانوا مضرب الأمثال فى الغفلة والبله والحمق، ولكانت حياتهم كدًّا وضنكا وعناء . ولكنا نحمد لهم الله، فهم بالقياس الى معاصريهم أصحاب بصر بالأمور وفطنة بدقائقها وحيلة واسعة للتخلص من المآزق، وهم يشترون اللحم كما نشتريه ويبذلون فى الخبز والسمن مثل ما نبذل .

واذًا فما مصدر هذه التفرقة التى يصطنعونها بين القدماء والمحدثين؟ مالهم يؤمنون لأولئك ويشكون فى هؤلاء؟

ليس لهذه التفرقة مصدر إلا هذه الفكرة التى تسيطر على نفوس العامة فى جميع الأمم وفى جميع العصور ، وهى أن القديم خير من الجديد ، وأن الزمان صائر الى الشر لا الى الخير ، وأن الدهر يسير بالناس القهقرى : يرجع بهم الى وراء ولا يمضى بهم الى أمام ...

(٩)

زعموا أن القمحة كانت فى العصور الذهبية تعدل التفاحة العظيمة حجماً، ثم غضب الله على الناس فأخذت القمحة تتضاءل حتى وصلت الى حيث هى الآن .

وزعموا أن الرجل من الأجيال القديمة كان من الطول والضخامة والقوة بحيث كان يغمس يده فى البحر فيأخذ منه السمك ثم يرفع يده فى الجو فيشويه فى جذوة الشمس ثم يهبط بيده الى فمه فيزدرد شواءه ازدرادا .

وزعموا أن أهل الأجيال القديمة كانوا من الضخامة والجسامة بحيث استطاع بعض الملوك، أو بعض الأنبياء، أن يتخذ فخذ أحدهم جسرا يعبر عليه الفرات .

فالقديم خير من الجديد، والقدماء خير من المحدثين . يؤمن العامة بهذا إيمانا لا سبيل الى زعزعته . وهذا الايمان يتطور ويتغير، ولكن أصله ثابت . فأصحاب الحضارة والمدنيــة الذين أخذوا من العلم بحظ لا يؤمنون بمثل هــذه الأحاديث التى قدمتها لك ؛ ولكنهم يرون أن الأخلاق مثلا كانت أشــد استيقاظا فى العصور الأولى، وأن الأفئدة كانت أشد ذكاء، وأن الأبدان كانت أعظم حظا من الصحة . وعلى هذا النحو يكون تفضيل القديم؛ لأنه قديم لا نراه من جهة، ولأننا ساخطون بطبعنا على الحاضر من جهة أخرى .

فهل تظن أن الذين يثقون بخلف وحمّاد والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء يثقون بهم لشىء غير ما قدمت لك؟ كلا ! كان هؤلاء الناس

٢

أمرؤ القيس — عَبِيد — عَلْقَمة

لعل أقدم الشعراء الذين يروى لهم شعر كثير و يتحدث الرواة عنهم أخبار كثيرة فيها تطويل وتفصيل هو آمرؤ القيس .

ونحن نعلم أن الرواة يتحدثون بأسماء طائفة من الشعراء زعموا أنهم عاشوا قبل آمرئ القيس وقالوا شعرا، ولكنهم لا يروون لهؤلاء الشعراء إلا البيت أو البيتين أو الأبيات . وهم لا يذكرون من أخبار هؤلاء الشعراء إلا الشيء القليل الذى لا يغنى . وهم يعللون قلة الأخبار والأشعار التى يمكن أن تضاف الى هؤلاء الشعراء ببعد العهد وتقادم الزمن وقلة الحفّاظ . وقد رأيت فى الكتاب الماضى أن قليلا من النقد لما يضاف الى هؤلاء الشعراء ينتهى بك الى جحود ما يضاف اليهم من خبر أو شعر . فلندع هؤلاء الشعراء ولنقف عند آمرئ القيس وأصحابه الذين يظهر أن الرواة عرفوا عنهم ورووا لهم الشيء الكثير.

مَنْ آمرؤ القيس؟ أما الرواة فلا يختلفون فى أنه رجل من كِنْدة. ولكن مَنْ كندة؟ لا يختلف الرواة فى أنها قبيلة من قحطان؛ وهم يختلفون بعض الاختلاف فى نسبها وفى تفسير اسمها وفى أخبار سادتها . ولكنهم على كل حال يتفقون على أنها قبيلة يمانية، وعلى أن آمرأ القيس منها.

فاما اسم آمرئ القيس واسم أبيه واسم أمه فأشياء ليس من اليسير الاتفاق عليها بين الرواة ؛ فقد كان اسمه آمرأ القيس ، وقد كان اسمه حندجا ، وقد كان اسمه قيسا . وقد كان اسم أبيه عمرا ، وقد كان اسم أبيه حُجرا أيضا . وكان اسم أمه فاطمة بنت ربيعة أخت مُهَلْهِل وكُلَيْب ، وكان اسم أمه تَمْلِك . وكان آمرؤ القيس يعرف بأبي وهب ، وكان يعرف بأبي الحارث . ولم يكن له ولد ذكر ، وكان يئد بناته جميعا . وكانت له ابنة يقال لها هند ؛ ولم تكن هند هذه ابنته وانما كانت بنت أبيه . وكان يعرف بالملك الضِّلِّيل ، وكان يعرف بذي القروح .

وعليك أنت أن تستخلص من هذا الخليط المضطرب ما تستطيع أن تسميه حقا أو شيئا يشبه الحق . وأى شيء أيسر من أن تأخذ ما اتفقت عليه كثرة الرواة على أنه حق لا شك فيه ؟ وكثرة الرواة قد اتفقت على أن اسمه حندج بن حجر ، ولقبه آمرؤ القيس ، وكنيته أبو وهب ، وأمه فاطمة بنت ربيعة . على هذا اتفقت كثرة الرواة . واذا اتفقت الكثرة على شيء فيجب أن يكون صحيحا أو على أقل تقدير يجب أن يكون راجحا .

أما أنا فقد أطمئن الى آراء الكثرة ، أو قد أرانى مكرها على الاطمئنان لآراء الكثرة ، فى المجالس النيابية وما يشبهها . ولكن الكثرة فى العلم لا تغنى شيئا ؛ فقد كانت كثرة العلماء تنكر كروية الأرض وحركتها ،

وظهر بعد ذلك أن الكثرة كانت مخطئة . وكانت كثرة العلماء ترى كل ما أثبت العلم الحديث أنه غير صحيح . فالكثرة فى العلم لا تغنى شيئا .

وإذًا فليس من سبيل الى أن نقبل قول الكثرة فى آمرئ القيس ؛ وإنما السبيل أن نوازن بينه وبين ما تزعم القلة . وليس الى هذه الموازنة المنتجة من سبيل اذا لاحظت ما قدمناه فى الكتاب الماضى من هذه الأسباب التى كانت تحمل على الانتحال وتكلف القصص .

وإذًا فلسنا نستطيع أن نفصل بين الفريقين المختلفين ، وإنما نحن مضطرون الى أن نقبل ما يقول أولئك وهؤلاء على أن الناس كانوا يتحدثون به دون أن نعرف وجه الحق فيه . ولعل هذا وأشباهه من الخلط فى حياة آمرئ القيس أوضح دليل على ما نذهب اليه من أن آمرأ القيس إن يكن قد وجد حقا — ونحن نرجح ذلك ونكاد نوقن به — فإن الناس لم يعرفوا عنه شيئا إلا آسمه هذا ، وإلا طائفة من الأساطير والأحاديث تتصل بهذا الاسم .

وهنا يحسن أن نلاحظ أن الكثرة من هذه الأساطير والأحاديث لم تشع بين الناس إلا فى عصر متأخر : وفى عصر الرواة المدونين والقصاصين . فأكبر الظن إذًا أنها نشأت فى هذا العصر ولم تورث عن العصر الجاهلى حقا . وأكبر الظن أن الذى أنشأ هذه القصة ونماها إنما هو هذا المكان الذى احتلته قبيلة كندة فى الحياة الإسلامية منذ تمت للنبي السيطرة على البلاد العربية الى أواخر القرن الأول للهجرة .

فنحن نعلم أن وفدا من كندة وفد على النبيّ وعلى رأسه الأشعث ابن قيس . ونحن نعلم أن هـذا الوفد طلب — فيما تقول السيرة — الى النبي أن يرسـل معهم مفقّها يعلمهم الدين . ونحن نعلم أن كندة ارتدّت بعد موت النبي ، وأن عامل أبي بكر حاصرها في النُّجَيْر وأنزلها على حكمه وقتل منها خلقا كثيرا وأوفد منها طائفة الى أبي بكر فيها الأشعث ابن قيس الذى تاب وأناب وأصهر الى أبي بكر فتزوّج أخته أم فروة ، وخرج — فيما يزعم الرواة — الى سوق الإبل في المدينة فاستل سيفه ومضى في إبل السوق عقرا ونحرا حتى ظن الناس به الجنون ، ولكنه دعا أهل المدينة الى الطعام وأدّى الى أصحاب الإبل أموالهم ؛ وكانت هذه المجزرة الفاحشة وليمة عرسه . ونحن نعلم أن هذا الرجل قد اشترك في فتح الشأم وشهد مواقع المسلمين في حرب الفرس ، وحسُن بلاؤه في هذا كله ، وتولّى عملا لعثمان ، وظاهر عليا على معاوية ، وأكره عليا على قبول التحكيم في صِفّين . ونحن نعلم أن ابنه محمد بن الأشعث كان سيِّدا من سادات الكوفة ، عليه وحده اعتمد زياد حين أعياه أخذ حجر بن عدىّ الكندى . ونحن نعلم أن قصة حجر بن عدىّ هذا وقتل معاوية إياه في نفر من أصحابه قد تركت في نفوس المسلمين عامة واليمنيين خاصة أثرا قويا عميقا مثّل هذا الرجل في صورة الشهيد . ثم نحن نعلم أن حفيد الأشعث بن قيس وهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد ثار بالحجّاج ، وخلع عبد الملك ، وعرّض دولة آل مروان للزوال ، وكان سببا في إراقة دماء المسلمين من أهل العراق والشأم ، وكان الذين قتلوا

في حروبه يحصون فيبلغون عشرات الآلاف ، ثم انهزم فالجأ الى ملك الترك ، ثم أعاد الكرة فتنقل فى مدن فارس ، ثم آستيأس فعاد الى ملك الترك ، ثم غدر به هذا الملك فأسلمه الى عامل الحجاج ، ثم قتل نفسه في طريقه الى العراق ، ثم احتُزّ رأسه وطوّف به فى العراق والشأم ومصر .

أفتظن أن أسرة كهذه الأسرة الكندية تنزل هذه المنزلة فى الحياة الاسلامية وتؤثر هذه الآثار فى تاريخ المسلمين لا تصطنع القصص ولا تأجر القصّاص لينشروا لها الدعوة ويذيعوا عنها كل ما من شأنه أن يرفع ذكرها ويبعد صوتها ؟ بلى ! ويحدثنا الرواة أنفسهم أن عبد الرحمن بن الأشعث اتخذ القصّاص وأجرهم كما اتخذ الشعراء وأجزل صلتهم : كان له قاص يقال له عمرو بن ذر ؛ وكان شاعره أعشى همْدان .

فما يروى من أخبار كندة فى الجاهلية متأثر من غير شك بعمل هؤلاء القصاص الذين كانوا يعملون لآل الأشعث . وقصة آمرئ القيس بنوع خاص تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن ابن الأشعث . فهى تمثل لنا آمرأ القيس مطالبا بثأر أبيه . وهل ثار عبد الرحمن عند الذين يفقهون التاريخ إلا منتقما لحجر بن عدىّ ؟ وهى تمثل لنا آمرأ القيس طامعا فى الملك . وقد كان عبدالرحمن بن الأشعث يرى أنه ليس أقل من بنى أمية استئهالا للملك ؛ وكان يطالب به . وهى تمثل لنا آمرأ القيس متنقلا فى قبائل العرب . وقد كان عبد الرحمن ابن الأشعث متنقلا فى مدن فارس والعراق . وهى تمثل آمرأ القيس

لاجئا الى قيصر مستعينا به . وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث لاجئا الى ملك الترك مستعينا به . وهى تمثل لنا أخيرا آمرأ القيس وقد غدر به قيصر بعد أن كاد له أسدىّ فى القصر . وقد غدر ملك الترك بعبد الرحمن بعد أن كاد له رسل الحجاج . وهى تمثل لنا بعد هذا وذاك آمرأ القيس وقد مات فى طريقه عائدا من بلاد الروم . وقد مات عبد الرحمن فى طريقه عائدا من بلاد الترك .

أليس من اليسير أن نفترض بل أن نرجح أن حياة آمرئ القيس كما يتحدث بها الرواة ليست إلا لونا من التمثيل لحياة عبد الرحمن آستحدثه القصاص إرضاء لهوى الشعوب اليمنية فى العراق واستعاروا له اسم الملك الضِّلِّيل آتقاء لعمال بنى أمية من ناحية، واستغلالا لطائفة يسيرة من الأخبار كانت تعرف عن هذا الملك الضليل من ناحية أخرى؟

***

ستقول : وشعر آمرئ القيس ما شأنه ؟ وما تأويله ؟ شأنه يسير، وتأويله أيسر . فأقل نظر فى هذا الشعر يلزمك أن تقسمه الى قسمين : أحدهما يتصل بهذه القصة التى قدمنا الاشارة اليها . وإذًا فشأنه شأن هذه القصة انتحل لتفسيرها أو تسجيلها، وانتحل لتمثيل هذا التنافس القوى الذى كان قائما بين قبائل العرب وأحيائهم فى الكوفة والبصرة . وأقل درس لهذا الشعر يقنعك، إن كنت من الذين يألفون البحث الحديث، بأن هذا الشعر الذى يضاف الى آمرئ القيس

ويتصل بقصته انما هو شعر إسلامى لا جاهلى ، قيل وانتحل لهذه الأسباب التى أشرنا اليها ولأسباب أخرى فصلناها فى القسم الثانى من هذا الكتاب . فهذا أحد القسمين . وأما القسم الثانى فشعر لا يتصل بهذه القصة ، وانما يتناول فنونا من القول مستقلة من الأهواء السياسية والحزبية . ولنا فى هذا القسم رأى نسطره بعد حين .

وخلاصة هذا البحث القصير أن شخصية امرئ القيس — اذا فكرت — أشبه شىء بشخصية الشاعر اليونانى هوميروس . لا يشك مؤرخو الآداب اليونانية الآن فى أنها قد وجدت حقا ، وأثرت فى الشعر القصصى حقا ، وكان تأثيرها قويا باقيا ؛ ولكنهم لا يعرفون من أمرها شيئا يمكن الاطمئنان اليه ، وانما ينظرون الى هذه الأحاديث التى تروى عنه كما ينظرون الى القصص والأساطير لا أكثر ولا أقل . فامرؤ القيس هو الملك الضِّلِّيل حقا : نريد أنه الملك الذى لا يعرف عنه شىء يمكن الاطمئنان اليه . هو ضُلّ بن قُلّ كما يقول أصحاب المعاجم اللغوية . ومن غريب الأمر أن طائفة من الشعر تنسب الى امرئ القيس على أنه قالها حينما كان متنقلا فى القبائل العربية يمدح بها هذه ويهجو تلك ، وتتصل بهذه الأشعار طائفة من الأخبار تبين نزول امرئ القيس فى هذه القبيلة ، والتجاءه الى تلك القبيلة ، وجواره عند فلان ، واستعانته بفلان ، وأن شيئا مثل هذا يلاحظ فى حياة هوميروس ؛ فهو — فيما يزعم رواة اليونان — قد تنقل فى المدن اليونانية فلقى من بعضها الكرامة والتجلة ، ومن بعضها الإعراض

والانصراف . ومؤرخو الآداب اليونانية يفسرون هذه الأحاديث على أنها مظهر من مظاهر التنافس بين المدن اليونانية : كلها يزعم لنفسه أنه ضيّف هوميروس أو نشّأه أو أجاره أو عطف عليه .

ونحن نذهب هذا المذهب نفسه فى تفسير هذه الأخبار والأشعار التى تمس تنقّل آمرئ القيس فى قبائل العرب . فهى محدثة انتحلت حين تنافست القبائل العربية فى الإسلام وحين أرادت كل قبيلة وكل حى أن تزعم لنفسها من الشرف والفضل أعظم حظ ممكن . وقد أحس القدماء بعض هذا ؛ فصاحب الأغانى يحدثنا أن القصيدة القافية التى تضاف الى آمرئ القيس على أنه قالها يمدح بها السموءل حين لجأ اليه منحولة نحلها دارم بن عقال وهو من ولد السموءل . وأكبر ظننا أن دارم بن عقال لم ينحل القصيدة وحدها وانما نحل القصة كلها وانتحل ما يتصل بها أيضا : نحل قصة ابن السموءل الذى قتل بمنظر من أبيه حين أبى تسليم أسلحة آمرئ القيس ، نحل قصة الأعشى الذى استجار بشريح بن السموءل وقال فيه هذا الشعر المشهور :

شريحُ لا تتركَنّى بعد ما عَلِقتْ ... حبالَك اليومَ بعد القدّ أظفارى
قد جُلت ما بين بانقيا الى عَدَنٍ ... وطال فى العجم تَرْدادى وتَسْيارى
فكان أكرمهم عهدا وأوثقهم ... مجدا أبولث بعرف غير إنكار
كالغيث ما استمطروه جاد وابلُه ... وفى الشدائد كالمستأسد الضارى
كن كالسموءل اذ طاف الهُمام به ... فى جحفل كهزيع الليل جرّار

اذ سامه خطتى خسف فقال له ... قل ما تشاء فإنى سامع حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشط غير طويل ثم قال له ... أقتل أسيرك إنى مانع جارى
أنا له خلف إن كنت قاتله ... وإن قتلت كريما غير غوار
وسوف يعقبنيه إن ظفرت به ... رب كريم وبيض ذات أطهار
لا سرهن لدينا ذاهب هدرا ... وحافظات اذا استودعن أسرارى
فاختار أدراعه كى لا يسب بها ... ولم يكن وعده فيها بختار

ثم كانت هذه القصة المنتحلة سببا فى انتحال قصة أخرى هى قصة ذهاب امرئ القيس الى القسطنطينية وما يتصل بها من الأشعار ، منتحلة هذه القصيدة الرائية الطويلة التى مطلعها :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا ... وحلت سليمى بطن ظبى فعرعرا

منتحل هذا الشعر الذى قاله امرؤ القيس حين دخل الحمام مع قيصر والذى ننزه هذا الكتاب عن روايته . منتحل هذا الحب الذى يقال إن امرأ القيس أضمره لابنة قيصر . منتحلة هذه الأشعار التى تضاف الى امرئ القيس حين أحس السم وهو قافل من بلاد الروم .

كل هذا منتحل لأنه يفسر هذه الأحاديث التى شاعت ، لتلك الأسباب التى قدمناها .

واذا لم يكن بد من التماس الأدلة الفنية على انتحال هذا الشعر ، فقد نحب أن نعرف كيف زار امرؤ القيس بلاد الروم وخالط قيصر

حتى دخل معه الحمام وفتن ابنته ورأى مظاهر الحضارة اليونانية فى قسطنطينية ولم يظهر لذلك أثرما فى شعره : لم يصف القصر ولم يذكره ، لم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية ، لم يصف هذه الفتاة الامبراطورية التى فتنها ، لم يصف الروميات ، لم يصف شيئا ما يمكن أن يكون روميا حقا . ثم يكفى أن تقرأ هذا الشعر لتحس فيه الضعف والاضطراب والجهل بالطريق الى قسطنطينية .

ومهما يكن من شيء فان السذاجة وحدها هى التى تعيننا على أن نتصور أن شاعرا عربيا قديما قال هذا الشعر الذى يضاف الى آمرئ القيس فى رحلته الى بلاد الروم وقفوله منها .

واذا رأيت معنا أن كل هذا الشعر الذى يتصل بسيرة آمرئ القيس إنما هو من عمل القصّاص فقد يصح أن نقف معك وقفة قصيرة عند هذا القسم الثانى من شعر آمرئ القيس وهو الذى لا يفسر سيرته ولا يتصل بها . ولعل أحق هذا الشعر بالعناية قصيدتان اثنتان :

الأولى : * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

والثانية : * ألا آنعم صباحًا أيها الطلل البالى *

فأما ما عدا هاتين القصيدتين فالضعف فيه ظاهر والاضطراب فيه بين والتكلف والإسفاف فيه يكادان يلمسان باليد . وقد يكون لنا أن نلاحظ قبل كل شيء ملاحظة لا أدرى كيف يتخلص منها أنصار القديم ، وهى أن آمرأ القيس — إن صحت أحاديث الرواة —

يمني، وشعره قرشي اللغة، لافرق بينه وبين القرآن فى لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام . ونحن نعلم — كما قدمنا — أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز، فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز؟ بل فى لغة قريش خاصة؟ سيقولون : نشأ آمرؤ القيس فى قبائل عدنان وكان أبوه ملكا على بنى أسد وكانت أمه من بنى تغلب وكان مهلهل خاله، فليس غريبا أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن . ولكننا نجهل هذا كله ولا نستطيع أن نثبته إلا من طريق هذا الشعر الذى ينسب الى آمرئ القيس . ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل .

وإذًا فنحن نَدُور : نثبت لغة آمرئ القيس التى نشك فيها بشعر آمرئ القيس الذى نشك فيه . على أننا أمام مسألة أخرى ليست أقل من هذه المسألة تعقيدا . فنحن لا نعلم ولا نستطيع أن نعلم الآن أكانت لغة قريش هى اللغة السائدة فى البلاد العربية أيام آمرئ القيس؟ وأكبر الظن أنها لم تكن لغة العرب فى ذلك الوقت، وأنها انما أخذت تسود فى أواسط القرن السادس للمسيح وتمت لها السيادة بظهور الاسلام كما قدمنا .

وإذًا فكيف نظم آمرؤ القيس اليمنى شعره فى لغة القرآن مع أن هذه اللغة لم تكن سائدة فى العصر الذى عاش فيه آمرؤ القيس؟ وأعجب من هذا أنك لا تجد مطلقا فى شعر آمرئ القيس لفظا أو أسلوبا

أو نحوا من أنحاء القول يدل على أنه يمنيّ . فمهما يكن آمرؤ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الأولى قد محيت من نفسه محوا تاما ولم يظهر لها أثر ما في شعره؟ نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيرا من المشقة والعناء ليحلّوا هذه المشكلة . ونظن أن إضافة هذا الشعر الى آمرئ القيس مستحيلة قبل أن تحل هذه المشكلة .

على أننا نحب أن نسأل عن شيء آخر، فامرؤ القيس ابن أخت مهلهل وكليب ابني ربيعة — فيما يقولون — ، وأنت تعلم أن قصة طويلة عريضة قد نسجت حول مهلهل وكليب هذين ، هي قصة البسوس وهذه الحرب التي اتصلت أربعين سنة — فيما يقول القصاص — وأفسدت ما بين القبيلتين الأختين بكر وتغلب . فمن العجيب ألا يشير آمرؤ القيس بحرف واحد الى مقتل خاله كليب ، ولا الى بلاء خاله مهلهل، ولا إلى هذه المحن التي أصابت أخواله من بني تغلب ، ولا إلى هذه المآثر التي كانت لأخواله على بني بكر .

وإذًا فأينما وجّهت فلن تجد إلا شكا : شكا في القصة ، شكا في اللغة ، شكا في النسب ، شكا في الرحلة ، شكا في الشعر . وهم يريدون بعد هذا أن نؤمن ونطمئن إلى كل مايتحدّث به القدماء عن امرئ القيس ! نعم نستطيع أن نؤمن وأن نطمئن لو أن الله قد رزقنا هذا الكسل العقلي الذي يحبب إلى الناس أن يأخذوا بالقديم

تجنبا للبحث عن الجديد . ولكن الله لم يرزقنا هذا النوع من الكسل ، فنحن نؤثر عليه تعب الشك ومشقة البحث .

وهـذا البحث ينتهى بنا الى أن أكثر هذا الشعر الذى يضاف لامرئ القيس ليس من امرئ القيس فى شىء وانما هو محمول عليه حملا ومختلق عليه اختلاقا ، حمل بعضه العرب أنفسهم ، وحمل بعضه الآخر الرواة الذين دونوا الشعر فى القرن الثانى للهجرة .

ولننظر فى المعلّقة نفسها ، فلسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران فى هـذه القصيدة . لا نحفل بقصة تعليق هذه القصائد السبع أو العشر على الكعبة أو فى الدفاتر . فما نظن أن أنصار القديم يحفلون بهذه القصة التى نشأت فى عصر متأخر جدا والتى لا يثبتها شىء فى حياة العـرب وعنايتهم بالآداب . ولكننا نلاحظ أن القدماء أنفسهم يشكون فى بعض هـذه القصيدة فهم يشكون فى صحة هذين البيتين :

ترى بعـر الآرام فى عَرَصَاتها ... وقيـعانها كأنه حبُّ فُلفـل
كأنى غداة البيـن يوم تحمّلوا ... لدى سَمُرَات الحى ناقف حنظل

وهم يشكون فى هذه الأبيات :

وقربة أقوام جعلتُ عِصامَها ... على كاهل منى ذلول مرحّل
ووادٍ كجوف العَير قفرٍ قطعتُه ... به الذئبُ يعوى كالخليع المعَيّل

فقلت له لما عوى إن شأننا قليلُ الغنى إن كنت لما تموّل
كلانا اذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حَرْثى وحرثك يهزل

وهم بعد هذا يختلفون اختلافا كثيرا فى رواية القصيدة : فى ألفاظها وفى ترتيبها ، و يضعون لفظا مكان لفظ و بيتا مكان بيت . وليس هذا الاختلاف مقصورا على هذه القصيدة ، و إنما يتناول الشعر الجاهلىّ كله . وهو اختلاف شنيع يكفى وحده لحملنا على الشك فى قيمة هذا الشعر . وهو اختلاف قد أعطى للستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى ، فخيّل اليهم أنه غير منسّق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة ، وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها فى القصيدة أيضا ، وأنك تستطيع أن تقدّم وتؤخر وأن تضيف الى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجا أو جناحا ما دمت لم تخلّ بالوزن ولا بالقافية .

وقد يكون هذا صحيحا فى الشعر الجاهلى ، لأن كثرة هذا الشعر منتحلة مصطنعة . فأما الشعر الاسلامى الذى صحّت نسبته لقائليه فأنا أتحدى أى ناقد أن يعبث به أقل عبث دون أن يفسده . وأنا أزعم أن وحدة القصيدة فيه بينة ، وأن شخصية الشاعر فيه ليست أقل ظهورا منها فى أى شعر أجنبى . إنما جاء هذا الخطأ من اتخاذ هذا الشعر الجاهلى نموذجا للشعر العربى ؛ مع أن هذا الشعر الجاهلى — كما قدّمنا — لا يمثل شيئا ولا يصلح إلا نموذجا لعبث القصّاص وتكلف الرواة .

(١٠)

ونظن أن أنصار القـديم لا يخالفون فى أن هـذين البيتين قلقان فى القصيدة وهما :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهـموم ليبتلى
فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

فقد وضع هذان البيتان للدخول على البيت الذى يليهما وهو :

الا أيها الليل الطويل ألَا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وهذان البيتان أشبه بتكلف المشطّر والمخمّس منهما بأى شىء آخر .

فاذا فرغنا من هـذا الشعر الذى لا نكاد نختلف فى أنه دخيـل فى القصيدة ، فقد نستطيع أن نرد القصيدة الى أجزائها الأولى . وهذه الأجزاء هى : أولا وقوف الشاعر على الدار وما يتصل بذلك من بكاء وإعوال ، ثم ذكره أيام لهوه مع العذارى ، ثم عتابه لصاحبته ومايتصل بذلك من وصف خليلته ، ثم ذكر الليل والاسـتطراد منه الى الصيد وما يتوسّل به الى الصيد من وصف الفرس ، ثم ذكر البرق وما يتبعه من السيل .

ولنسرع الى القول بأن وصف اللهو مع العذارى وما فيـه من فحش أشبهُ بأن يكون من انتحال الفرزدق منه بأن يكون جاهليا . فالرواة يحدثوننا أن الفرزدق خرج فى يوم مطير الى ضاحية البصرة فاتبع آثارا حتى انتهى الى غدير واذا فيه نساء يستحممن ، فقال : ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جُلْجُل ، وولى منصرفا ؛ فصاح النساء به : يا صاحب

البغلة ؛ فعاد اليهن فسألنه وعزمن عليه ليحدثنهن بحديث دارة جلجل ؛ فقص عليهن قصة امرئ القيس وأنشدهن قوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل
[الأبيات]

والذين يقرءون شعر الفرزدق و يلاحظون فحشه وغلظته وأنه قد ليم على هذا الفحش وعلى هذه الغلظة لا يجدون مشقة فى أن يضيفوا اليه هذه الأبيات ، فهى بشعره أشبه . وكثيرا ما كان القدماء يتحدثون بمثل هـذه الأحاديث يضيفونها الى القدماء وهم ينتحلونها من عنـد أنفسهم . ومهما يكن من شىء ، فلغة هذه الأبيات كلغة القصيدة كلها عدنانيـة قرشية يمكن أن تصدر عن شاعر إسلامى اتخذ لغة القرآن لغة أدبية .

أما وصف امرئ القيس لخليلته ، وزيارته إياها ، وتجشمه ماتجشم للوصول اليها ، وتخوفها الفضيحة حين رأته ، وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها ، وما كان بينهما من لهو ، فهو أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة منـه بأى شىء آخر . فهذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر فن عمر بن أبى ربيعة قد احتكره احتكارا ولم ينازعه فيه أحد . ولقد يكون غريبا حقا أن يسبق امرؤ القيس الى هـذا الفن ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتى ابن أبى ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد الى أن ابن أبى ربيعة قد تأثر بامرئ القيس مع أنهـم قد أشاروا الى تأثير امرئ القيس فى طائفة مـن الشعراء

فى أنحاء من الوصف . فكيف يمكن أن يكون آمرؤ القيس هو منشئ هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة والذى كوّن شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ولا يعرف له ذلك ؟

وأنت اذا قرأت قصيدة أو قصيدتين من شعر ابن أبى ربيعة لم تكد تشك فى أن هذا الفن فنه آبتكره آبتكارا وآستغلّه آستغلالا قويا ، وعرفت العرب له هذا . وقل مثل هذا فى هذا القصص الغرامى الذى تجده فى قصيدة آمرئ القيس الأخرى : « ألا آنعم صباحًا أيها الطلل البالى » . ففى هذا القصص الفاحش فنّ ابن أبى ربيعة وروح الفرزدق . ونحن نرجح إذًا أن هذا النوع من الغزل انما أضيف الى آمرئ القيس ، أضافه رواة متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين .

بقى الوصف ، ولا سيما وصف الفرس والصيد . ولكننا نقف فيه موقف التردّد أيضا . واللغة هى التى تضطرنا الى هذا الموقف . فالظاهر أن آمرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخيل والصيد والسيل والمطر . والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفة من قبل . ولكن أقال هذه الأشياء فى هذا الشعر الذى بين أيدينا أم قالها فى شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ولم يبق منه إلا الذكرى و إلا جملٌ مقتضبة أخذها الرواة فنظموها فى شعر محدَث نسّقوه ولفّقوه وأضافوه الى شاعرنا القديم؟ هذا مذهبنا الذى نرجحه . فنحن نقبل أن آمرأ القيس هو أوّل من قيّد الأوابد ، وشبه الخيل بالعصى والعقبان

وما الى ذلك ، ولكننا نشك أعظم الشك فى أن يكون قد قال هذه الأبيات التى يرويها الرواة . وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجده فى المعلّقة وفى اللامية الأخرى فيه شيء من ريح آمرئ القيس ، ولكن من ريحه ليس غير .

هناك قصيدة ثالثة نجزم نحن بأنها منتحلة انتحالا . وهى القصيدة البائية التى يقال إن آمرأ القيس أنشأها يخاصم بها عَلْقمة بن عَبَدَة الفحل ، وأن أم جندب زوج آمرئ القيس قد غلّبت علقمة على زوجها . وأنت تجد القصيدتين فى ديوان آمرئ القيس وديوان علقمة . فأما قصيدة آمرئ القيس فمطلعها :

خليلىّ مُرّا بى على أم جندب ... نقضِّ لُبَانات الفؤاد المعذَّب

وأما قصيدة علقمة فمطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهبِ ... ولم يك حقًّا كلُّ هذا التجنُّب

ويكفى أن تقرأ هذين البيتين لتحس فيهما رقة إسلامية ظاهرة . على أن النظر فى هاتين القصيدتين سيقفك على أن هذين الشاعرين قد تواردا على معان كثيرة بل على ألفاظ كثيرة بل على أبيات كثيرة تجدها بنصها فى القصيدتين معا ، وعلى أن البيت الذى يضاف الى علقمة وبه ربح القضية يروى لآمرئ القيس ، وهو :

فأدركهن ثانيًا من عِنانه ... يمرّ كمرّ الرائح المتحلّب

والبيت الذى خسر به آمرؤ القيس القضية يروى لعلقمة وهو :

فللسوط أُلهوبٌ وللساق درّة ... وللزجر منه وقعُ أهوجَ مِنْعَبِ

وأنت تستطيع أن تقرأ القصيدتين دون أن تجد فيهما فرقا بين شخصية الشاعرين، بل أنت لا تجد فيهما شخصية ما، وانما تحس أنك تقرأ كلاما غريبا منظوما فى جمع مايمكن جمعه من وصف الفرس جملة وتفصيلا . وأكبر الظن أن علقمة لم يفاخر آمرأ القيس، وأن أم جندب لم تحكم بينهما، وأن القصيدتين ليستا من الجاهلية فى شىء، وانما هما صنع عالم من علماء اللغة لسبب من تلك الأسباب التى أشرنا فى الكتاب الماضى الى أنها كانت تحمل علماء اللغة على الانتحال . وكان أبو عبيدة والأصمعى يتنافسان فى العلم بالخيل و وصف العرب إياها : أيهما أقدر عليه وأحذق به . وما نظن إلا أن هاتين القصيدتين وأمثالها أثر من آثار هذا النحو من التنافس بين العلماء من أهل الأمصار الإسلامية المختلفة .

وهنا وقفة أخرى لا بد منها . ذلك أن آمرأ القيس لا يذكر وحده وانما يذكر معه من الشعراء علقمة — كما رأيت — وعَبيد بن الأبرص . فأما علقمة فلا يكاد الرواة يذكرون عنه شيئا إلا مفاخرته لآمرئ القيس ومدحه ملكا من ملوك غسّان ببائيته التى مطلعها :

طحا بِكَ قلبٌ للحسان طروبُ   بُعَيْدَ الشباب عصرَحانَ مشيبُ

و إلا أنه كان يتردّد على قريش ويناشدها شعره، وإلا أنه مات بعد ظهور الإسلام أى فى عصر متأخر جدا بالقياس الى آمرئ القيس الذى مهما يتأخر فقد مات قبل مولد النبى، والذى نرى نحن انه عاش قبل القرن السادس و ربما عاش قبل القرن الخامس أيضا .

وأما عبيد فقد التمسنا فى سيرته وما يضاف اليه من الشعر ما يعيننا على إثبات شخصية آمرئ القيس وشعره فكانت النتيجة محزنة جدا . ذلك أنها انتهت بنا الى أن نقف من عبيد وشعره نفس الموقف الذى وقفناه من آمرئ القيس وشعره . وليس علينا فى ذلك ذنب؛ فالرواة لا يحدثوننا عن عبيد بشىء يقبل التصديق . انما عبيد عند الرواة والقصّاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات، كان صديقا للجنّ والسماء معا ، عُمّر عمرا طويلا يصلون به الى ثلاثة قرون ومات ميتة منكرة : قتله النعمان بن المنذر أو المنذر بن ماء السماء فى يوم بؤسه . والرواة يعرفون شيطان عبيد . واسم هذا الشيطان هبيد، وقد حاول بعضهم أن يرسل هذا المثل : «لولا هبيد ما كان عبيد» . وقد رووا لهبيد هذا شعرا وزعموا أنه أراد أن يلهم الشعر ناسا غير عبيد فلم يوفق . ولعبيد مع الجنّ أحاديث لا تخلو من لذة وعجب . ولكن كل ما نقرأ من أخبار عبيد لا يعطينا من شخصيته شيئا ولا يبعث الاطمئنان إلا فى أنفس العامة أو أشباه العامة .

فأما شعر عبيد فليس أشدّ من شخصيته وضوحا . فالرواة يحدّثوننا بأنه مضطرب ضائع . وابن سلّام يحدّثنا فى موضع من كتابه «طبقات الشعراء» أنه لم يبق من شعر عبيد وطرفه إلا قصائد بقدر عشر، ولكنه يحدّثنا فى موضع آخر أنه لا يعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوبُ   فالقُطَبِيّاتُ فالذّنوب

ثم يقول ابن سلام : ولا أدرى ما بعد ذلك . ولكن رواة آخرين يروون هذه القصيدة كاملة ويروون له شعرا آخر فى هجاء آمرئ القيس ومعارضته ، وفى استعطاف حُجْر على بنى أسد . ويكفى أن تقرأ هذه القصيدة التى قدّمنا مطلعها لتجزم بأنها منتحلة لا أصل لها . وحسبك أنه يثبت فيها وحدانيـة الله وعلمه على نحو ما يثبتهما القرآن فيقول :

والله ليس له شريكٌ   عَلّامُ ما أخفتِ القلوبْ

فأما شـعره الآخر الذى عارض فيـه آمرأ القيس وهجا فيه كندة فلا حظَّ له من صحة فيما نعتقد . وذلك أن فيه إسفافا وضعفا وسهولة فى اللفظ والأسلوب لا يمكن أن تضاف الى شاعر قديم . ويكفى أن تقرأ هذه القصيدة التى أولها :

يا ذا المخوّفنـا بقتـ   ـل أبيه إذلالا وحينا

أزعمت أنك قـد قتلـ   ـت سراتنا كذبا ومينا

لتعرف أنها من عمل القصّاص ، وأن هذا الشعر وأشباهه انما هو من أثر التنافس بين العصبية اليمنية والمضرية .

ولولا أننا نؤثر الإيجاز ونحرص عليه لروينا لك هذا الشعر ووضعنا يدك على مواضع التوليد فيه ، ولكن الرجوع الى هذا الشعر يسير والحكم عليـه أيسر . واذًا فكل شعر آمرئ القيس الذى يتصل بشعر عبيد هذا منحول أيضا كشعر عبيد .

وقد رأيت من هـذه الإلمـامة القصيرة بهؤلاء الشعراء الثلاثة : (آمرئ القيس وعبيد وعلقمة) أن الصحيح من شعرهم لا يكاد يذكر وأن الكثرة المطلقة من هـذا الشعر مصنوعة لا تثبت شيئا ولا تنفى شيئا بالقياس الى العصر الجاهلي ؛ لا نستثنى من ذلك إلا قصيدتين اثنتين لعلقمة :

الأولى : ٭ طحا بك قلبٌ للحسان طروبُ ٭

والثانية : ٭ هل ما علمت وما استودعت مكتوم ٭

فقد يمكن أن يكون لهاتين القصيدتين نصيب من الصحة مع شيء من التحفظ فى بعض أبيات القصيدة الثانيـة . ولكن صحة هاتين القصيدتين لا تمس رأينا فى الشعر الجاهلي ؛ فقد رأيت أن علقمة متأخر العصر جدا ، وأنه مات بعد ظهور الاسلام ، ورأيت أيضا أنه كان يأتى قريشا و يعرض عليها شعره . على أننا احتفظنا لأنفسنا بالشك فى بعض أبيات القصيدة الثانيـة يظهر فيها التوليد ، وهى هـذه الأبيات التى يذهب فيها الشاعر مذهب الحكمة وضرب المثل .

٣

عمرو بن قَمِيئة — مهلهل — جليلة

وشاعران آخران يتصل ذكرهما بذكر آمرئ القيس. كان أحدهما — فيما يقول الرواة — صديقا له، صحبه فى رحلته فى قسطنطينية، ولم يعد من هذه الرحلة كما لم يعد آمرؤ القيس، وهو عمرو بن قميئة. وكان الآخر خال آمرئ القيس — فيما يقول الرواة — وهو مهلهل بن ربيعة.

ولا بد من وقفة قصيرة عند هذين الشاعرين فسترى بعد قليل من التفكير أن حياتهما ليست أوضح ولا أثبت من حياة آمرئ القيس وعبيد، وأن شعرهما ليس أصح ولا أصدق من شعر آمرئ القيس وعبيد.

ولنلاحظ قبل كل شىء أن بين آمرئ القيس وعمرو بن قميئة شبها غريبا؛ فقد كان آمرؤ القيس يسمى الملك الضِّلِّيل. وفسرنا نحن هذا الاسم تفسيرا غير الذى اتفق عليه الرواة وأصحاب اللغة، فقلنا إنه الملك المجهول الذى لا يعرف عنه شىء، قلنا إنه ضُلُّ بن قُلّ. وكانت العرب تسمى عمرو بن قميئة عمرا الضائع. فأما المتأخرون من الرواة بعد الإسلام فقد التمسوا لهذه التسمية تفسيرا فوجدوه فى سهولة ويسر، أليس قد رحل مع آمرئ القيس فى القسطنطينية؟ أليس قد مات

فى هـذه الرحلة ؟ فهو اذًا عمرو الضائع ، لأنه ضاع فى غير قصد ولا وجه . أما نحن فنفسر هذا الاسم كما فسرنا اسم آمرئ القيس ، ونرى أن عمرو بن قميئة ضاع كما ضاع آمرؤ القيس من الذاكرة ، ولم يعرف من أمره شيء إلا اسمه هـذا كما لم يعرف من أمر آمرئ القيس ولا من أمر عبيد إلا اسمهما ، ووضعت له قصة كما وضعت لكل من صاحبيه قصة ، وحمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضا .

قال الرواة : إن ابن قميئة عُمِّر طويلا وعرف آمرأ القيس وقد انتهت به السنّ الى الهرم ، ولكن آمرأ القيس أحبه واستصحبه فى رحلته رغم سنه . قال ابن سـلام : إن بنى أُقَيْش كانوا يدّعون بعض شعر آمرئ القيس لعمرو بن قميئة ، وليس هذا بشيء . وفى الحق أن هذا ليس بشيء ، فان هذا الشعر لا يمكن أن يكون لعمرو بن قميئة كما لا يمكن أن يكون لآمرئ القيس فهو شعر محدَث محمول .

واذا كان عمرو بن قميئة لم يعرف آمرأ القيس ، إلا بعد أن تقدّمت به السنّ وأدركه الهرم فيجب أن يكون قد قال الشعر قبل آمرئ القيس الذى لم تتقدّم به السنّ . والرواة يزعمون أن ابن قميئة قال الشعر فى شبابه الأوّل . وإذًا فليس آمرؤ القيس هو أوّل من فتح للناس باب الشعر . ولكن ما لنا نقف عند شيء كهذا والرواة يضطربون فيـه اضطرابا شـديدا؟ فهم يزعمون أن أوّل من قصّد القصائد مهلهل بن ربيعة خال آمرئ القيس . وكأن آمرأ القيس انمـا جاءه الشعر من

قبل أمه . ومعنى ذلك أن الشعر عدنانى لا قحطانى . ومن هنا نشأت نظرية أخرى تزعم أن الشعر يمانى كله ، بدئ بامرئ القيس فى الجاهلية وختم بأبى نواس فى الإسلام . فأنت ترى أنا حين نقف عند مسألة كهـذه لا نتجاوز العصبية بين عدنان وقحطان . ولكن سترى أكثر من هذا بعد قليل .

قصة عمرو بن قميئة التى يرويها الرواة ليست شيئا قيما ، وانما هى حديث كغيره من الأحاديث ، فهم يزعمون أن أباه توفى عنه طفلا فكفله عمه ، ونشأ عمرو جميلا وضيء الطلعة فكلفت به امرأة عمه وكتمت ذلك حتى اذا غاب زوجها لأمر من أموره أرسلت الى الفتى ، فلما جاء دعته الى نفسها ، فامتنع وفاء لعمه وامتناعا عن منكر الأمر ، وانصرف . ولكنها حنقت عليه وألقت على أثره جفنة ، حتى اذا عاد زوجها أظهرت الغضب والغيظ وقصت على زوجها الأمر وكشفت عن الأثر ، فغضب الرجل على ابن أخيه . وهنا يختلف الرواة ، فمنهم من يزعم أنه هم بقتله ، فهرب الى الحيرة ، ومنهم من يزعم أنه أعرض عنه . ومهما يكن من شيء فقد اعتذر الشاب الى عمه فى شعر نروى لك منه طرفا لتلمس بذلك ما فيه من سهولة ولين وتوليد :

خليلى لا تستعجلا أن تزودا ... وأن تجمعا شملى وتنتظرا غدا
فما لبثى يوما بسائق مغنم ... ولا سرعتى يوما بسائقة الردى
وان تنظرا فى اليوم أقض لبانة ... وتستوجبا منا على وتحمدا

لعمرك ما نفس بجدٍّ رشيدةٌ ... تؤامرني سوءا لأصرم مرثدا
وإن ظهرت مني قوارصُ جمّةٌ ... وأفرغ من لؤمي مرارا وأصعدا
على غير جُرم أن أكون جنيته ... سوى قول باغ كادني فتجهّدا
لعمري لنعم المرء تدعو بخلّة ... اذا ما المنادي في المقامة نددا
عظيم رماد القدر لا متعبّس ... ولا مؤيس منها اذا هو أوقدا
وإن صرّحت كَحْلٌ وهبّتْ عَرِيّةٌ ... من الريح لم تترك من المال مرقدا
صبرت على وطء الموالي وخطبهم ... اذا ضنّ ذو القربى عليهم وأخمدا
ولم يحم حُرْم الحي إلا محافظٌ ... كريم المحيّا ماجد غير أجردا

ونظن أن النظر في هذه القصة وفي هذه القصيدة يكفي ليقتنع القارئ بأننا أمام شيء منتحل متكلف لاحظ له من صدق . وليس خيرا من هذه القصيدة هذا الشعر الذي يقال إن عمرو بن قميئة أنشأه لمّا تقدّمت به السنّ يصف به هرمه وضعفه ، ولعله قاله قبل أن يرتحل مع امرئ القيس الى بلاد الروم . ويزعم الشعبي، أو من روى عن الشعبي أن عبد الملك بن مروان تمثل به في علّته التي مات فيها .
وهو :

كأني وقد جاوزتُ تسعين حِجّةً ... خلعتُ بها عني عِنانَ لجامي
على الراحتين مرّةً وعلى العصا ... أنوء ثلاثًا بعدهن قيامي
رمتني بناتُ الدهر من حيث لا أرى ... فما بال من يُرْمَى وليس برام
فلو أنّ ما أُرْمَى بنبل رميتها ... ولكنما أُرْمَى بغير سهام

اذا ما رآنى الناس قالوا ألم يكن حديثا جديد البرى غير كهام
وأفنى وما أفنى من الدهر ليلة وما يفنى ما أفنيت سلك نظامى
وأهلكنى تأميل يوم وليلة وتأميل عام بعد ذاك وعام

فنحن نستطيع بعد هذا أن نضيف عمرو بن قميئة الى صاحبيه الضائعين : (عبيد وآمرئ القيس) ، وأن ننتقل الى مهلهل ، لنرى ماذا يمكن أن يثبت لنا من أمره وشعره .

فأما أمره فنظن أنه يسير لا سبيل الى الاختلاف فيه . فيجب أن نبلغ من السذاجة حظا غير قليل لنسلم بما كان يتحدث به الرواة من أمر هذه القصة الطويلة العريضة : قصة البسوس . ونظن أن الاتفاق يسير على أن هذه القصة قد طولت ونميت وعظم أمرها فى الاسلام حين اشتد التنافس بين ربيعة ومضر من ناحية ، وبين بكر وتغلب من ناحية أخرى . وليس مهلهل فى حقيقة الأمر إلا بطل هذه القصة ، فقد عظم أمره وارتفع شأنه بمقدار ما نميت هذه القصة وطول فيها . ولسنا ننكر أن خصومة عنيفة كانت بين القبيلتين الشقيقتين بكر وتغلب فى العصور الجاهلية القديمة ، وأن هذه الخصومة قد انتهت الى حروب سفكت فيها الدماء وكثرت فيها القتلى ، ولكن أسباب هذه الخصومة ومظاهرها وأعراضها وآثارها الأدبية قد ذهبت كلها ولم يبق منها إلا ذكرى ضئيلة تناولها القصاص فاستغلوها استغلالا قويا ، ووجدت بكر وتغلب وربيعة كلها حاجتها فى هذا

الاستغلال . ولم لا ؟ ألم تكن النبوّة والخلافة ومظاهر الشرف كلها لمضر في الاسلام؟ وكيف يستطيع العرب من ربيعة أن يؤمنوا لمضر بهذه السيادة وهذا المجد دون أن يثبتوا لأنفسهم في قديم العهد على أقل تقدير مجدا وشرفا وسيادة ؟ وقد فعلوا : فزعموا أنهم كانوا سادة العرب من عدنان في الجاهلية : كان منهم الملوك والسادة، وكان منهم الذين ذادوا القحطانيــة عن ولد عدنان، وكان منهم الذين قاوموا طغيان اللخميين في العراق والغسّانيين في الشأم، وكان منهم الذين هزموا جيوش كسرى في يوم ذي قار . لمضر إذًا حديث العرب بعد الاسلام، ولربيعة قديم العرب قبل الاســلام . فاذا لاحظت الى هــذا ما كان من الخصومة الفعلية بين ربيعة ومضر أيام بني أمية وما كان من الخصومة الأدبيــة بين جرير شاعر مضر الذي يقول :

إنّ الذي حرم المكارمَ تَغْلِبًا   جعــل النبوّةَ والخلافة فينـا
هذا ٱبن عمي في دِمَشْقَ خليفة   لو شئتُ ساقكُمُ الىّ قطينـا

وبين الأخطل الذي يقول :

أبنى كُلَيْبٍ إنّ عمّيّ اللّذا   قتلا الملوكَ وفكّكا الأغلالا

نقول اذا لاحظت كل هذه الخصومات لم يصعب عليك أن تتصور كثرة الانتحال في القصص والشــعر حول ربيعة عامة وحول هاتين القبيلتين من ربيعة خاصــة، وهما بكر وتغلب . على أن بعض الرواة كانوا يظهرون كثيرا من الشك فيما كانت تتحدث به بكر وتغلب من أمر هذه الحروب .

ومهما يكن من شيء فليست شخصية مهلهل بأوضح من شخصية امرئ القيس أو عبيد أو عمرو بن قميئة ، وإنما تركت لنا قصة البسوس منه صورة هي الى الأساطير أقرب منها الى أي شيء آخر . ومن هنا قال ابن سلّام إن العرب كانت ترى أن مهلهلا كان يتكثر ويدعى في شعره أكثر مما يعمل . والحق أن مهلهلا لم يتكثر ولم يدَّع شيئا ، وانما تكثرت تغلب في الاسلام ونحلته ما لم يقل . ولم تكتف بهذا الانتحال بل زعمت أنه أول من قصّد القصيد وأطال الشعر ، ثم أحسّت ما نحس الآن أو أحسه الرواة أنفسهم وهو أن في هذا الشعر اضطرابا واختلاطا ، فزعمت ، أو زعم الرواة ، أنه لهذا الاضطراب والاختلاط سمّي مهلهلا ، لأنه هلهل الشعر . والهلهلة الاضطراب . ويستشهد ابن سلّام على هذا بقول النابغة :

* أتاك بقول هَلْهَلِ النسجِ كاذبِ *

وليس من شك في أن شعر مهلهل مضطرب ، فيه هلهلة واختلاط . ولكننا نستطيع أن نجد هذه الهلهلة نفسها في شعر امرئ القيس وعبيد وابن قميئة وكثير غيرهم من شعراء العصر الجاهلي ؛ فقد كانوا جميعا مهلهلا إذًا .

غير أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى أن يهلهل شعراء الجاهلية جميعا الشعر بحيث يصبح لكل واحد منهم شخصيات شعرية مختلفة تتفاوت في القوة والضعف وفي الشدة واللين وفي الإغراب والسهولة . و إذًا

فمن الذى هلهل الشعر؟ هلهله الذين وضعوه من القصّاص والمنتحلين وأصحاب التنافس والخصومة بعد الإسلام .

ويحسن أن نظهرك على شىء من شعر مهلهل لترى كما نرى أنه لا يمكن أن يكون أقدم شعر قالته العرب :

أليلتنا بذى حُسُم أنيرى ... اذا أنت انقضيت فلا تحورى
فإن يك بالذنائب طال ليلى ... فقد أبكى من الليل القصير
فلو نُبِش المقابرُ عن كُلَيْب ... لأُخبر بالذنائب أىّ زير
ويوم الشعثمين لقر عيناً ... وكيف لقاءُ مَنْ تحت القبور
على أنى تركت بواردات ... بُجَيْراً فى دم مثل العبير
هتكت به بيوت بنى عُبَاد ... وبعض الغشم أشفى للصدور
على أن ليس يوفى من كليب ... اذا برزت مخبّأة الخدور
وهمّام بن مُرّةَ قد تركنا ... عليه القَشْعمان من النسور
ينوء بصدره والرمح فيه ... ويخلجه خِدَبٌّ كالبعير
فلولا الريحُ أُسمِعَ مَنْ بحُجْرٍ ... صليلَ البيض تُقرع بالذكور
فدى لبنى شقيقة يوم جاءوا ... كأُسد الغاب لجّت فى الزئير
كأن رماحهم أشطانُ بئر ... بعيد بين جاليْها جرور
غداة كأننا وبنى أبينا ... بجنب عُنَيْزة رَحَيا مُدير
تظلّ الخيل عاكفةً عليهم ... كأن الخيل تُرْحَض فى غدير

أليس يقع من نفسك موقع الدهش أن يستقيم وزن هذا الشعر وتطّرد قافيته وأن يلائم قواعد النحو وأساليب النظم لا يشذ فى شىء

(١١)

ولا يظهر عليه شيء من أعراض القدم أو مما يدل على أن صاحبه هو أول من قصّد القصيد وطوّل الشعر ؟

أليس يقع فى نفسك هذا كله موقع الدهش حين تلاحظ معه سهولة اللفظ ولينه وإسفاف الشاعر فيه الى حيث لا تشك أنه رجل من الذين لا يقدرون إلا على مبتذل اللفظ وسُوقيّه ؟

ولكننا لا نريد أن نترك مهلهلا هذا دون أن نضيف اليه امرأة أخيه جليلة التى رثت كليبا — فيما يقول الرواة — بشعر لا ندرى أيستطيع شاعر أو شاعرة فى هذا العصر الحديث أن يأتى بأشدّ منه سهولة ولينا وابتذالا ، مع أننا نقرأ للخنساء وليلى الأخيلية شعرا فيه من قوّة المتن وشدّة الأَسْر ما يعطينا صورة صادقة للمرأة العربية البدوية . قالت جليلة :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا — تعجَلِي باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذى — يوجبُ اللومَ فلُومى واعذُلِى
إن تكن أخت آمرئ ليمتْ على — شَفَقٍ منها عليه فافعلى
جلّ عندى فعل جَسّاس فيا — حسرتى عما انجلى أو يَنجلى
فعل جسّاس على وجدى به — قاصم ظهرى ومُدْنٍ أجلى
يا قتيلا قوّض الدهر به — سقفَ بيتَيَّ جميعًا من عَلِ
هدم البيتَ الذى استحدثته — وانثنى فى هدم بيتى الأوّل
ورمانى قتله من كَثَبٍ — رميةَ المُصْمَى به المستأصَلِ

يا نسائى دونكنّ اليوم قــد   خصّنى الدهر برزء معضِل
خصّنى قتــل كليب بلظى   من ورائى ولظى مستقبلى
ليس من يبكى ليوميه كمن   إنمــا يبكى ليـــوم ينجـلى

وقد أعرضنا فى كل هذه الأحاديث عن أسجاع ما نظن أن أحدا يرتاب فى أنها مصنوعة متكلفة . ونعتقد أن قراءة هــذا الشعر الذى رويناه تكفى لنضيف فى غير مشقة مهلهلا وآمرأة أخيه الى ابن أخته آمرئ القيس .

وقد فرغنا من آمرئ القيس ومن يتصل به من الشعراء ولكننا لم نفرغ من الشــعراء أنفسهم ؛ فلا بدّ من وقفات أخرى قصيرة عند طائفة منهم . وستثبت لك هذه الوقفات أننا لسنا غلاة ولا مسرفين إن خشينا ألا يقتصر الشك على آمرئ القيس وشعره .

٤

عمرو بن كُلثوم — الحارث بن حِلِّزة

ونحن حين ندع مهلهلا وامرأة أخيه الى هذين الشاعرين من أصحاب المعلقات لا نتجاوز ربيعة بل لا نتجاوز هذين الحيين من ربيعة وهما حيّا بكر وتغلب . فعمرو بن كلثوم تغلبي ، وهو فى عرف الرواة لسان تغلب الناطق ، هو الذى سجل مفاخرها وأشاد بذكرها فى شعره ، أو بعبارة أدق : فى قصيدته التى تروى بين المعلقات . وقد كان — فيما يقول الرواة — بطلا من أبطال تغلب ورث القوّة والأيد وشدّة البأس و إباء الضيم عن جدّه مهلهل ، فقد كانت أمه ليلى بنت مهلهل .

وقد أحيط عمرو بن كلثوم فى مولده ونشأته بل فى مولد أمه بطائفة من الأساطير لا يشك أشدّ الناس سذاجة فى أنها لون من ألوان العبث والانتحال :

زعموا أن مهلهلا لما ولدت له ليلى أمر بوأدها فأخفتها أمها ، ثم نام فأتاه آت وتنبأ له بأن ابنته هذه ستلد ابنا يكون له شأن ، فلما أصبح سأل عن ابنته فقيل وُئدت فكذب وألح فأُظهرت له فأمر بإحسان غذائها . ثم تزوّجت كلثوما فما زالت ترى فيما يرى النائم من

يأتيها فيحبرها عن ابنها بالأعاجيب حتى ولدته ونشأته . قالوا وقد ساد عمرو بن كلثوم قومه ولما يتجاوز الخامسة عشرة .

فكل هذه الأحاديث التى نشير اليها إشارة، تدل على أن عمرو بن كلثوم قد أحيط بطائفة من الأساطير جعلته الى أبطال القصص أقرب منه الى أشخاص التاريخ . ومع ذلك فقد يظهر أنه وجد حقا، وقد يظهر أنه على خلاف من قدمنا ذكرهم من الشعراء . وقد أعقب ؛ فصاحب الأغانى يحدثنا بأن له عقبا كان باقيا الى أيامه .

وسواء أكان عمرو بن كلثوم شخصا من أشخاص التاريخ أم بطلا من أبطال القصص، فإن القصيدة التى تنسب اليه لا يمكن أن تكون جاهلية أو لا يمكن أن تكون كثرتها جاهلية . وهل نستطيع قبل كل شيء أن نطمئن الى ما يتحدث به الرواة من أن عمرو بن كلثوم قتل ملكا من ملوك الحيرة هو عمرو بن هند المشهور، وذلك حين بغى عمرو بن هند هذا وانتهى به الطغيان الى أن طمع فى أن تستخدم أمه ليلى بنت مهلهل أم عمرو هذا؟ قال الرواة : فطلبت هند أم الملك الى ليلى بنت مهلهل أن تناولها طبقا ؛ فأجابتها ليلى : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ؛ فألحت هند ؛ فصاحت ليلى : وَا ذُلَّاه يا لَتغلب ! وكان ابنها عمرو فى قبة الملك فسمع دعاءها فوثب الى سيف معلق فضرب به الملك ، ونهضت بنو تغلب فنهبوا قبة الملك وعادوا الى باديتهم .

غير أن النص التاريخى الذى يثبت هذه القصة لم يصل الينا بعد . وهل من المعقول أن يقتل ملك الحيرة هذه القتلة و يقف الأمر عند

هذا الحد بين آل المنذر وبنى تغلب من ناحية وبين ملوك الفرس وأهل البادية من ناحية أخرى ؟ أليس هذا لونا من الأحاديث التى كان يتحدث بها القصاص يستمدونها من حاجة العرب الى المفاخرة والتنافس ؟ بلى ! وقصيدة عمرو بن كلثوم نفسها نوع من هذا الشعر الذى كان ينتحل مع هذه الأحاديث . وأنت اذا قرأت هذه القصيدة رأيت أن مهلهلا لم يكن يتكثر وحده وإنما أورث التكثر والكذب سبطه عمرو بن كلثوم ، فلسنا نعرف كلمة تضاف الى الجاهليين وفيها من الإسراف والغلو ما فى كلمة عمرو بن كلثوم هذه . على أن رأى الرواة فيها يشبه رأيهم فى معلقة امرئ القيس ، فهم يشكون فى بعضها وهم يختلفون فى الأبيات الأولى منها : أقالها عمرو بن كلثوم أم قالها عمرو بن عدى ابن أخت جَذِيمة الأبرش ؟ فأما الذين يضيفون هذه الأبيات لعمرو بن كلثوم فيرون أن مطلع القصيدة :

* أَلَا هُبِّي بصحنك فاصبحينا *

وأما الآخرون فيرون أن مطلعها :

* قِفِي قبل التفرّق يا ظعينا *

وأولئك وهؤلاء لايختلفون فى إنطاق عمرو بن عدى بالبيتين :

صددتِ الكأس عنا أمَّ عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شرُّ الثلاثةِ أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

وأنت حين تمضى فى القصيدة ترى فيها أبياتا مكررة تقع فى وسط القصيدة وفى آخرها . ولكن هذا النحو من الاضطراب مشترك فى أكثر

الشعر الجاهلي ، مصدره اختلاف الروايات . فاذا قرأت القصيدة نفسها فستجد فيها لفظا سهلا لا يخلو من جزالة ، وستجد فيها معانى حسانا وفخرا لا بأس به لولا أن الشاعر يسرف فيه من حين الى حين إسرافا ينتهى به الى السخف كقوله :

اذا بلغ الرضيعُ لنا فطامًا   تخرُّ له الجبابر ساجدينـا

وستجد فيها أبياتا تمثل إباء البدوى للضيم واعتزازه بقوته و بأسه كقوله :

أَلَا لا يجهلَنْ أحدٌ علينـا   فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

قلت إن هذا البيت يمثل إباء البدوى للضيم . ولكنى أسرع فأقول إنه الا يمثل سلامة الطبع البـدوى و إعراضه عن تكرار الحروف الى هذا الحد الممل :

ألا لا يجهلن أحد علينـا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقد كثرت هـذه الجيمات والهاءات واللامات واشتد هذا الجهل حتى مَلّ . وهم يحملون على الأعشى بيتا فيه مثل هذا النوع من التعسف . ولكنا نشك فى صحة هذا البيت الذى يضاف الى الأعشى .

ومهما يكن من شىء ، فان فى قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيرا على أقل النـاس حظا من العـلم باللغة العربية فى هذا العصر الذى نحن فيه . وما هكذا كانت تتحدث العرب فى منتصف القرن السادس للسيح وقبل ظهور الإسلام بما يقرب من

نصف قرن . وما هكذا كانت تتحدث ربيعة خاصة فى هذا العصر الذى لم تسد فيه لغة مضر ولم تصبح فيه لغة الشعر . بل ما هكذا كان يتحدث الأخطل التغلبي الذى عاش فى العصر الأموى أى بعد ابن كلثوم بنحو قرن . واقرأ هذه الأبيات وحدثنى أتطمئن الى جاهليتها :

قِفِى قبل التفرق يا ظعينا ... نخبِّرْكِ اليقين وتُخبرينا
قفى نسألك هل أحدثتِ صَرْمًا ... لوَشْك البين أم خُنتِ الأمينا
بيوم كريهة ضربًا وطعنًا ... أقر به مواليك العيونا
وإن غدًا وإن اليوم رهن ... وبعد غد بما لا تعلمينا
تُريكَ اذا دخلتَ على خَلاءٍ ... وقد أمِنت عيونَ الكاشحينا
ذراعَىْ عَيْطَلٍ أدماء بكرٍ ... هجان اللون لم تقرأ جنينا
وثديًا مثل حُقّ العاج رَخْصًا ... حَصانا من أكف اللامسينا
ومَتْنَىْ لَدْنةٍ سَمقت وطالت ... روادفها تنوء بما ولينا
ومأكَمَةً يضيق الباب عنها ... وكشحا قد جُننت به جنونا
وسارِيَتَىْ بَلَنْطٍ أو رُخام ... يرن خشاش حليهما رنينا

واقرأ هذه الأبيات أيضا :

ألَا لا يعلم الأقوام أنّا ... تضعضعنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجهلنْ أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرَو بن هند ... نكون لقَيْلكم فيها قطينا
بأى مشيئة عمرَو بن هند ... تُطيع بنا الوشاةَ وتزدرينا

تهـددنا وأوعدنا رويدًا   متى كنا لأمك مقتوينا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت   على الأعداءِ قبلك أن تلينا

وهذه الأبيات :

ونحن التاركون لما سخطنا   ونحن الآخذون لما رضينا
وكنا الأيمنينَ اذا التقينا   وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولةً فيمن يليهم   وصُلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا   وأُبنا بالملوك مُصَفَّدينا
اليكم يابني بكر اليكم   ألمّا تعرفوا منا اليقينا

وهذه الأبيات وقارن بينها وبين الأبيات الأخيرة :

وقد علم القبائل من مَعَدّ   اذا قُبَبٌ بأبطحها بُنينا
بأنا المطعمون اذا قدرنا   وأنّا المهلكون اذا ابتُلينا
وأنا المانعون لما أردنا   وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون اذا سخطنا   وأنا الآخذون اذا رضينا
وأنا العاصمون اذا أُطعنا   وأنا العارمون اذا عُصينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوًا   ويشرب غيرنا كدرًا وطينا

وهذه الأبيات :

اذا ما المَلْكُ سام الناسَ خسفًا   أبينا أن نقرّ الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها   ونبطش حين نبطش قادرينا

ملأنا البر حتى ضـاق عنا وماءَ البحـر نملؤه سفينا
اذا بلغ الرضيع لنـا فِطامًا تخر له الجبابر ساجدينـا

أمتن من هذه القصيدة وأرصن قصيدة الحارث بن حلزة، وكان لسان بكر فيما يقول الرواة، ومحاميها والذائد عنها بين يدى عمرو بن هند أيضا . زعموا أن عمرو بن هنـد أصلح بين القبيلتين المختصمتين بكر وتغلب واتخذ منهما رهائن، فتعرضت رهائن تغلب لبعض الشر وهلكت أو هلك أكثرها، فتجنت تغلب على بكر وطالبت بدية الهلكى، وأبت بكر، وكادت تستأنف الحرب بينهما، واجتمعت أشرافهما الى عمرو بن هند ليحكم بينهم، وأحس الحارث ميل الملك الى تغلب فنهض فاعتمد على قوسه وارتجل هذه القصيدة . قالوا وكان به وضح، وكان الملك قد أمر أن يكون بينه و بينه ستار، فلما أخذ ينشد قصيدته أخذ الملك يعجب به ويدنيه شيئا فشيئا حتى أجلسه الى جانبه وقضى لبكر .

ويكفى أن تقرأ هـذه القصيدة لترى أنها ليست مرتجلة ارتجالا وانما هى قصيدة نظمت وفكر فيها الشاعر تفكيرا طويلا ورتب أجزاءها ترتيبا دقيقا . وليس فيها من مظاهر الارتجال إلا شيء واحد هو هذا الإقواء الذى تجده فى قوله :

فملكنا بذلك النـاس حتى ملك المنذر بن ماء السماء

فالقافيـة كلها مرفوعة الى هذا البيت . ولكن الإقواء كان شيئا شائعا حتى عنـد الشعراء الاسـلاميين الذين لم يكونوا يرتجلون فى كل

وقت . نقول إن قصيدة الحارث أمتن وأرصن من قصيدة ابن كلثوم . وقد نظمتا فى عصر واحد، إن صح ما يقول الرواة، فهما مسوقتان الى عمرو بن هند . فاقرأ هذه الأبيات للحارث وقارن بينها فى اللفظ والمعنى و بين ما قدمنا لك من شعر عمرو :

ملكٌ أضرعَ البريّةَ لا يو　　جد فيها لما لديه كِفاءُ
ما أصابوا من تغلبيٍّ فمطلو　　ل، عليه اذا أصيب العَفاء
كتكاليف قومنا إذ غزا المنـ　　ـذر هل نحن لابن هند رِعاء
اذ أحلّ العلياء قبة مَيْسُو　　ن فأدنى ديارها العوصاء
فتأوت له قَرَاضِبةٌ من　　كل حي كأنهم ألقاء
فهداهم بالأسودين وأمر الـ　　ـله بَلْغ تشقى به الأشقياء
اذ تمنونهم غرورا فساقتـ　　ـهم اليكم أمنيــة أشْراء
لم يغرّوكُمُ غرورا ولكن　　رفع الآلُ شخصَهم والضَّحاء

وانظر الى هـذه الأبيات يعير فيها الشاعر تغلب بإغارات كانت عليهم لم ينتصفوا لأنفسهم من أصحابها :

أعلينا جُناح كِنْـدة أن يغـ　　ـنم غازيهمُ ومنّا الجـزاء
ليس منا المضرّبون ولا قيـ　　ـس ولا جندل ولا الحذّاء
أم جنايا بنى عتيق فمن يغـ　　ـدر فإنا من حربهم برآء
أم علينا جرّى العباد كما نيـ　　ـط بجوز المحمّل الأعباء
وثمانون من تميم بأيديـ　　ـهم رماح صدورهن القضاء
تركوهم مُلَحَّبين وآبوا　　بنهاب يُصم منها الحداء

أم علينا جرّى حنيفة أم ما جمعت من مُحارب غبراء
أم علينا جَرّى قُضاعة أم ليـ ـس علينا فيما جنوا أنداء
ثم جاءوا يسترجعون فلم تر جع لهم شامة ولا زهراء

فأنت ترى أن بين القصيدتين فرقا عظيما فى جودة اللفظ وقوة المتن وشدّة الأسر . على أن هذا لا يغير رأينا فى القصيدتين، فنحن نرجح أنهما منتحلتان . وكل ما فى الأمر أن الذين كانوا ينتحلون كانوا كالشعراء أنفسهم يختلفون قوة وضعفا وشدّة ولينا . فالذى انتحل قصيدة الحارث بن حِلِّزة كان من هؤلاء الرواة الأقوياء الذين يحسنون تخير اللفظ وتنسيقه ونظم القصيد فى متانة وأَيْد . ولسنا نتردّد فى أن نعيد ما قلناه من أن هاتين القصيدتين ومايشبههما مما يتصل بالخصومة بين بكر وتغلب إنما هو من آثار التنافس بين القبيلتين فى الاسلام لا فى الجاهلية .

٥

طَرَفة بن العبد – المُتَلَمِّس

وشاعران آخران من ربيعة نقف عندهما وقفة قصيرة هما طرفة ابن العبد والمتلمس . وانما نجمعهما لأن القصص جمعهما من قبل. فقد زعموا أن المتلمس كان خال طرفة. ولم يقف جمع القصص بينهما عند هذا الحد بل قد جمعهما فى الشيء القليل الذى نعرفه عنهما، ذلك أن لطرفة والمتلمس أسطورة لهج بها الناس منذ القرن الأول للهجرة. وهم يختلفون فى روايتها اختلافا كثيرا، ولكنا نتخير من هذه الروايات أيسرها وأقربها الى الانسان :

زعموا أن هذين الشاعرين هجوا عمرو بن هند حتى أحنقاه عليهما، ثم وفدا عليه فتلقاهما لقاء حسنا وكتب لهما كتابين الى عامله بالبحرين وأوهمهما أنه كتب لهما بالجوائز والصِّلات، فخرجا يقصدان الى هـذا العامل . ولكن المتلمس شك فى كتابه فأقرأه غلاما من أهـل الحيرة فاذا فيه أمر بقتل المتلمس، فألقى كتابه فى النهر، وألحّ على طرفة فى أن يفعل فعله فأبى، وافترق الشاعران : مضى أحدهما الى الشأم فنجا، ومضى الآخر الى البحرين فلقى الموت . وكان طرفة حديث السن لم يتجاوز العشرين فى رأى بعض الرواة ولم يتجاوز السادسة والعشرين

في رأى بعضهم الآخر . وقد كثرت الأحاديث حول هذه القصة وأضيفت اليها أشياء أعرضنا عن ذكرها لظهور الانتحال فيها . وغضب عمرو بن هند على المتلمس حين هرب الى الشأم وأفلت من الموت فأقسم لا يطعم حَبَّ العراق . واتصل هجاء المتلمس له .

والرواة المحققون يعدون هذين الشاعرين من المقلين . بل لم يرو ابن سلّام للتلمس شيئا ولم يسم له قصيدة . فأما طرفة فقد قال ابن سلام عنه في موضع إنه هو وعَبِيد من أقدم الفحول ولم يبق لهما إلا قصائد بقدر عشر . واستقلّ ابن سلام هذه القصائد على الشاعرين وقال إنه قد حمل عليهما حمل كثير . وقد رأيت أنه حين أراد أن يضع عبيدا في طبقته لم يعرف له إلا بيتا واحدا . فأما طرفة فقد عرف له المطولة وروى مطلعها هكذا :

لِخَوْلَةَ أطلالٌ ببرقة ثهمدِ وقفتُ بها أبكى وأبكى الى الغدِ

وعرف له الرائية المشهورة :

« أصحوت اليوم أم شاقتك هر »

وعرف له قصائد أخرى لم يدل عليها . وقال إنه أشعر الناس بواحدة . يريد المعلقة . وبين يدينا ديوان لطرفة يشتمل هاتين القصيدتين وقصيدة أخرى مشهورة، وهى :

سائلوا عنا الذى يعرفنا بِخَزَازَى يوم تَحلاق اللمم

ثم مقطوعات أخرى ليست بذات غَناء . وأنت اذا قرأت شعر طرفة رأيت فيه ما ترى فى أكثر هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين

ولا سيما المضريين منهم من متانة اللفظ وغرابتـه أحيانا، حتى لتقرأ الأبيات المتصلة فلا تفهم منها شيئا دون أن تستعين بالمعاجم. ولكنك مضطر الى أن تلاحظ أن هذا الشعر أشبه بشعر المضريين منه بشعر الربعيين؛ فنحن لم نجمع شعراء ربيعة عفوا، وإنما جمعناهم فيما تحدثنا به اليك فى هذا الكتاب الى الآن لأن بينهم شيئا يتفقون فيه جميعا، هو هـذه السهولة التى تبلغ الإسفاف أحيانا؛ لا نستثنى منهم فى ذلك إلا قصيدة الحارث بن حلزة. فكيف شذ طرفة عن شعراء ربيعة جميعا فقوى متنه واشتد أسره وآثر من الإغراب ما لم يؤثر أصحابه ودنا شعره من شعر المضريين ؟

وانظر فى هذه الأبيات التى يصف بها الناقة :

وإنى لأمضى الهمَّ عند احتضاره ... بعوجاء مِرْقالٍ تروح وتغتدى
أمونٍ كألواح الأران نصأتُها ... على لاحب كأنه ظهـر بُرْجُد
جماليـةٍ وجناء تردى كأنهـا ... سفنّجةٌ تبرى لأزعر أربد
تُبارى عتاقًا ناجياتٍ وأتبعت ... وظيفًا وظيفا فوق مَوْرٍ معبَّـد
تربعت القُفَّين فى الشَّوْل ترتعى ... حدائقَ مَوْلِيِّ الأسرَّة أغيـد
تَريع الى صوت المُهيب وتتَّقى ... بذى خُصَلٍ روعاتِ أكلفَ مُلْبِد
كأنّ جنـاحَىْ مَضْرَحىّ تكنَّفا ... حفافيه شُكَّا فى العسيب بمِسْرَد

وهو يمضى على هـذا النحو فى وصف ناقته فيضطرنا الى أن نفكر فيما قلناه من قبل من أن أكثر هذه الأوصاف أقرب الى أن يكون من

صنعة العلماء باللغة منه الى أى شئ آخر . ولكن دع وصفه للناقة واقرأ :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغني فى حلقة القوم تلقني وإن تلتمسني فى الحوانيت تصطد
متى تأتني أصبحك كأسا روية وإن كنت عنها ذا غنى فاغن وازدد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقني الى ذروة البيت الشريف المصمد
نداماى بيض كالنجوم وقينة تروح إلينا بين برد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضة المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد
اذا رجعت فى صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردى

فسترى فى هذه الأبيات لينا ولكن فى غير ضعف، وشدة ولكن فى غير عنف . وسترى كلاما لا هو بالغريب الذى لا يفهم، ولا هو بالسوقى المبتذل، ولا هو بالألفاظ قد رصفت رصفا دون أن تدل على شيء . وامض فى قراءة القصيدة فستظهر لك شخصية قوية ومذهب فى الحياة واضح جلى : مذهب اللهو واللذة يعمد اليهما من لا يؤمن بشيء بعد الموت ولا يطمع من الحياة إلا فيما تتيح له من نعيم برىء من الإثم والعار على ما كان يفهمهما عليه هؤلاء الناس :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ولا أهل هذاك الطراف الممدد

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلِدى
فان كنتَ لا تسطيع دفعَ منيتى ... فدعنى أبادرْها بما ملكت يدى
ولولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى ... وجدّك لم أحفِلْ متى قام عُوَدى
فمنهن سبقى العاذلاتِ بشربة ... كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تزبد
وكَرِّى اذا نادى المضافُ محنَّبًا ... كسِيدِ الغضا نبّهته المتورِّد
وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدجنُ معجبٌ ... ببهكَنَةٍ تحت الخِباء المعمَّد

فى هذا الشعر شخصية بارزة قوية لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منتحلة أو مستعارة . وهذه الشخصية ظاهرة البداوة واضحة الإلحاد بينة الحزن واليأس والميل الى الإباحة فى قصد واعتدال . هذه الشخصية تمثل رجلا فكر والتمس الخير والهدى فلم يصل الى شىء ، وهو صادق فى يأسه ، صادق فى حزنه ، صادق فى ميله الى هذه اللذات التى يؤثرها . ولست أدرى أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر؟ وليس يعنينى أن يكون طرفة قائل هذا الشعر . بل ليس يعنينى أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ، وإنما الذى يعنينى هو أن هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا انتحال ، وأن هذا الشعر لا يشبه ما قدمنا فى وصف الناقة ولا يمكن أن يتصل به ، وأن هذا الشعر من الشعر النادر الذى نعثر به من حين الى حين فى تضاعيف هذا الكلام الكثير الذى يضاف الى الجاهليين ، فنحس حين نقرؤه أنا نقرأ شعرا حقا فيه قوة وحياة وروح .

(١٢)

الناس يعرفون من أمره شيئا ، ففسره القصاص واعتمدوا تفسيره من هذه الأساطير الشعبية التي أشرنا اليها غير مرة .

وهناك شعراء آخرون من ربيعة كنا نستطيع أن نقف عندهم ونلم بشعرهم إلماما وننتهي فيهم الى مثل ما انتهينا اليه في أمر هؤلاء الشعراء الذين درسناهم في هذا البحث القصير. ولكنا نكتفي بما قدمناه فقد ضربنا المثل . ويخيل الينا أنا قد وضحنا و بينا وأزلنا الحجاب عن كل ما نريد أن نقوله في موقفنا بازاء الشعر الجاهلي .

ونحن لم نقصد في هذا الكتاب الى أن ندرس الشعراء ولا الى أن نحلل شعرهم وانما قصدنا الى أن نبسط رأينا في طريقة درس هذا الشعر الجاهلي وهؤلاء الشعراء الجاهليين . وقد بلغنا من ذلك ما كنا نريد ، فأما تتبع الشعراء شاعرا شاعرا ودرس شعرهم قصيدة قصيدة ومقطوعة مقطوعة فقد نفرغ لبعضه في غير هذا الكتاب . ومهما نفعل فلن نستطيع أن ننهض به وحدنا في عام أو أعوام ، بل لا بد من أن ينهض به معنا الذين يحبون الحق فيسعون اليه و يطلبونه .

على أنا نريد أن نختم هذا السفر بملاحظتين :

(الأولى) أن هذا الدرس الذي قدمناه ينتهي بنا الى نتيجة إلا تكن تاريخية صحيحة فهي فرض يحسن أن يقف عنده الباحثون و يجتهدوا في تحقيقه ، وهي أن أقدم الشعراء فيما كانت تزعم العرب وفيما كان يزعم الرواة انما هم يمنيون أو ربعيون . وسواء أكانوا من أولئك أو من

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فان كنت لا تسطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى اذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد

فى هذا الشعر شخصية بارزة قوية لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منتحلة أو مستعارة . وهذه الشخصية ظاهرة البداوة واضحة الإلحاد بينة الحزن واليأس والميل الى الإباحة فى قصد واعتدال . هذه الشخصية تمثل رجلا فكر والتمس الخير والهدى فلم يصل الى شيء ، وهو صادق فى يأسه ، صادق فى حزنه ، صادق فى ميله الى هذه اللذات التى يؤثرها . ولست أدرى أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر؟ وليس يعنينى أن يكون طرفة قائل هذا الشعر . بل ليس يعنينى أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ، وإنما الذى يعنينى هو أن هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا انتحال ، وأن هذا الشعر لا يشبه ما قدمنا فى وصف الناقة ولا يمكن أن يتصل به ، وأن هذا الشعر من الشعر النادر الذى نعثر به من حين الى حين فى تضاعيف هذا الكلام الكثير الذى يضاف الى الجاهليين ، فنحس حين نقرؤه أنا نقرأ شعرا حقا فيه قوة وحياة وروح .

(١٢)

لتحس تكلف القافية . على أن هذه القصيدة مضطربة الرواية فقد يوضع آخرها فى أولها ، وقد يروى مطلعها :

كم دونَ ميّةَ من مستعمَلٍ قَذَفٍ ‏ ‏ ومن فلاة بها تستودع العِيسُ

وللمتلمس قصيدة أخرى ليست أجود ولا أمتن من هذه ، ولعلها أدنى منها الى الرداءة ، وهى التى مطلعها :

ألم تر أن المرء رهن منية ‏ ‏ صريعٌ لعَافى الطير أوسوف يُرْمَسُ
فلا تقبلنْ ضيماً مخافةَ ميتةٍ ‏ ‏ ومُوتَنْ بهـا حرًّا وجلدُك أملس

و يقول فيها :

وما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا ‏ ‏ وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

ور بما كانت ميمية المتلمس أجود ما يضاف اليه من الشعر ، وهى التى أولها :

يعيِّرنى أمى رجال ولا أرى ‏ ‏ أخا كرم إلا بأن يتكرّما

وأكبر الظن أن كل ما يضاف الى المتلمس من شعر — أو أكثره على أقل تقدير — مصنوع ، الغرض من صنعته تفسير طائفة من الأمثال وطائفة من الأخبار حفظت فى نفوس الشعب عن ملوك الحيرة وسيرتهم : فى هؤلاء الأخلاط من العرب وغير العرب الذين كانوا يسكنون السواد . ولا أستبعد أن يكون شخص المتلمس نفسه قد اخترع اختراعا تفسيرا لهذا المثل الذى كان يضرب بصحيفة المتلمس والذى لم يكن

هؤلاء مما يروى من أخبارهم يدل على أن قبائلهم كانت تعيش فى نجد والعراق والجزيرة أى فى هذه البلاد التى تتصل بالفرس اتصالا ظاهرا والتى كان يهاجر اليها العرب من عدنان وقحطان على السواء .

واذًا فنحن نرجح أن هذه الحركات التى دفعت أهل اليمن من ناحية وأهل الحجاز من ناحية أخرى الى العراق والجزيرة ونجد، فى عصور مختلفة ولكنها لا تكاد تتجاوز القرن الرابع للمسيح ، قد أحدثت نهضة عقلية وأدبية ، لما كان من اختلاط هذين الجنسين العربيين فيما بينهما ومن اتصالهم بالفرس .

ومن هذه النهضة نشأ الشعر أو قل اذا كنت تريد التحقيق ظهر الشعر وقوى وأصبح فنا أدبيا . وقد ذهب هذا الشعر ولم يبق لنا منه شىء إلا الذكرى ، ولكن لم يكد يأتى القرن السادس للمسيح حتى تجاوزت هذه النهضة أقطار العراق والجزيرة ونجد وتغلغلت فى أعماق البلاد العربية نحو الحجاز فمست أهله . ومن هنا ظهر الشعر فى مضر ومن اليهم من أهل البلاد العربية الشمالية . فالشعر كما ترى يمنى قوى حين اتصلت القحطانية بربيعة . ولكنا لم نعرفه ولم نصل اليه إلا حين تغلغل فى البلاد العربية وأخذته مضر عن ربيعة . ومن هنا نستطيع أن نقول إنا نتعمد الوقوف ببحثنا عند هذا الحد الذى انتهينا اليه ، فلنا فى شعر مضر رأى غير رأينا فى شعر اليمن وربيعة ، لأننا نستطيع أن نؤرخه ونحدد أوليته تقريبا ، ولأننا نستطيع أن نقبل بعض قديمه دون أن تحول بيننا وبين ذلك عقبة لغوية عنيفة .

وإذًا فنحن نستطيع أن نستأنف هذا البحث فى سفر آخر . وسترى أن الشعراء الجاهليين من مضر قد أدركوا الاسلام كلهم أو أكثرهم فليس غريبا أن يصح من شعرهم شىء كثير .

(الثانيــة) أن الذين يقرءون هذا الكتاب قد يفرغون من قراءته وفى نفوسهم شىء من الأثر المؤلم لهذا الشك الأدبى الذى نردده فى كل مكان من الكتاب . وقد يشعرون ، مخطئين أو مصيبين ، بأننا نتعمد الهدم تعمدا ونقصد اليه فى غير رفق ولا لين . وقد يتخوفون عواقب هذا الهدم على الأدب العربى عامة وعلى القرآن الذى يتصل به هذا الأدب خاصة .

فلهؤلاء نقول إن هذا الشك لاضرر منه ولا بأس به ، لا لأن الشك مصدر اليقين ليس غير ، بل لأنه قد آن للأدب العربى وعلومه أن تقوم على أساس متين . وخير للأدب العربى أن يزال منه فى غير رفق ولا لين ما لا يستطيع الحياة ولا يصلح لها من أن يبقى مثقلا بهذه الأثقال التى تضر أكثر مما تنفع ، وتعوق عن الحركة أكثر مما تمكن منها .

ولسنا نخشى على القرآن من هــذا النوع من الشك والهدم بأساً . فنحن نخالف أشد الخلاف أولئك الذين يعتقدون أن القرآن فى حاجة الى الشعر الجاهلى لتصح عربيته وتثبت ألفاظه . نخالفهم فى ذلك أشد الخلاف لأن أحدا لم ينكر عربية النبى فيما نعرف ، ولأن أحدا لم ينكر أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته . واذا لم ينكر أحد أن النبى عربىّ واذا لم ينكر أحد أن العرب قد فهموا القرآن حين

سمعوه . فأى خوف على عربية القرآن من أن يبطل هذا الشعر الجاهلي أو هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين ؟ وليس بين أنصار القديم أنفسهم من يستطيع أن ينازع في أن المسلمين قد احتاطوا أشد الاحتياط فى رواية القرآن وكتابته ودرسه وتفسيره حتى أصبح أصدق نص عربى قديم يمكن الاعتماد عليه فى تدوين اللغة العربية وفهمها . وهم لم يحفلوا برواية الشعر ولم يحتاطوا فيها ، بل انصرفوا عنها فى بعض الأوقات طائعين أو كارهين ، ولم يراجعوها إلا بعد فترة من الدهر وبعد أن عبث النسيان والزمان بما كان قد حفظ من شعر العرب في غير كتابة ولا تدوين . فأيهما أشد إكبارا للقرآن وإجلالا له وتقديسا لنصوصه وايمانا بعربيته : ذلك الذى يراه وحده النص الصحيح الصادق الذى يستدل بعربيته القاطعة على تلك العربية المشكوك فيها ، أم ذلك الذى يستدل على عربية القرآن بشعر كان يرويه وينتحله في غير احتياط ولا تحفظ قوم منهم الكذاب ومنهم الفاسق ومنهم المأجور ومنهم صاحب اللهو والعبث ؟

أما نحن فمطمئنون الى مذهبنا مقتنعون بأن الشعر الجاهلي أو كثرة هذا الشعر الجاهلي لا تمثل شيئا ولا تدل على شىء إلا ما قدمنا من العبث والكذب والانتحال ، وأن الوجه — اذا لم يكن بد من الاستدلال بنص على نص — إنما هو الاستدلال بنصوص القرآن على عربية هذا الشعر لا بهذا الشعر على عربية القرآن »

١٨ مارس سنة ١٩٢٦

نشأة الشعر العربي(1)

تأليف

ديـفـد صمويل مرجليوث

يشهد القرآن على وجود شعراء في جزيرة العرب قبل بزوغ الإسلام : ففيه سورة مسماة باسمهم ، وفيه إشارات عابرة إليهم في مواضع أخرى . ومن بين الأوصاف التي أطلقها خصوم النبي عليه وصفه بأنه : ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 39]، وقد رَدّ عليهم بأنه إنما ﴿ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الصافات : 37] . وفي موضع آخر [الطور : 29] يردّ عليهم أيضًا : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ . ولما كان الذين وصفوه بأنه شاعر يقولون عنه إنه : ﴿ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور : 30] ، فيمكن أن نستنتج من هذا أنه كان من عادة الشعراء التنبؤ بالمستقبل . وفي موضع آخر يؤكد أن لغته ليست لغة شاعر . ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [الحاقة : 40 ، 41] ، وأن الله لم يعلّمه الشعر . ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : 69]، ومن هذا ينبغي أن نستنتج أن الشعر كان كلامًا غامضًا غير مبين . وهذه الإشارات إلى الشعراء تتلخص في السورة التي تحمل اسمهم (الشعراء : 224 وما يتلوها) ، وفيها يرد

(1) نص هذا البحث من كتاب «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، الصادر في لبنان عام 1979م .

أن : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ . ولئن كانت الآية التالية [الشعراء : 227] يلوح أنها تستثني بعض الشعراء : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ، فإن أسلوب القرآن يجعل من غير المؤكد ما إذا كان هذا الاستثناء ينطبق على الشعراء في الواقع . ومما سبق يمكن أن نستنتج أن الشياطين تنزل على الشعراء ، لأنها : ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء : 222] ، فتبلغه الإفك والشائعات الكاذبة غالبًا. ويبدو أن في هذا إشارة إلى العادة المنسوبة إلى الشياطين [الصافات : 10] من التسمّع إلى الملأ الأعلى ، وهو إثم عوقبوا عليه بإطلاق الشهب الثاقبة عليهم : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ . وهذا أيضًا يربط بين الشعراء وبين التنبؤ .

فإن كان المقصود بالشعر نفس المعنى المفهوم منه في الأدب اللاحق على القرآن ، فسنكون في مواجهة معضلة خفيفة : إن محمدًا ، الذي لم يكن يَعْلم الشعر ، كان يدرك أن ما يوحى إليه لم يكن شعرًا ؛ بينما أهل مكة ، الذين يفترض أنهم كانوا يعرفون الشعر حين يسمعونه أو يرونه ، ظنوا بأن هذا الوحي كان شعرًا . وكان ينبغي أن يتوقع العكس. ولربما كان في وسعنا أن نستنتج أن الشاعر كان يُعْرَف عامةً بمادة أقواله أولى من أن يُعْرَف بشكلها : ومن هنا فإن الإنكار لا يشير إلى الخلو من الانتظام في شكل الأقوال ، بل إلى طبيعة المادة المعبَّر عنها . لكن العبارة القرآنية : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ ﴾ تستلزم بالضرورة وجود نوع من الصنعة التي تميّز الأسلوب الشعري ، وينبغي تعلّمها .

ومع ذلك ، فإن لهجة هذه العبارة الأخيرة تبدو يقينًا أنها تختلف عن لهجة سائر العبارات . ففي هذه استنكار لملكة الشعر ؛ لقد ظُنّ القرآن شعرًا ، وهذا الظن منقوض. لكن ها هنا ربما يبدو بالأحرى أن الخلو من الصنعة الشعرية أمرٌ ينفسح له وجه العذر؛

إنها لم تَعُدْ شيئًا يجده السامعون هناك حين لا ينبغي أن تكون هناك ، بل شيء يتوقون إليه، لكن غيابه أمر له ما يبرّره .

والنصوص التي أوردناها تتفق مع الأفكار اللاحقة ، على الأقل إلى حدّ ما . فالشعراء كانوا أحيانًا يتنكرون لمواثيقهم على أساس أن القرآن أعلن أنهم كذابون بحكم مهنتهم[1]. وهم لم يقرّوا فقط بأن الجن يلهمونهم ، بل يستطيعون أيضًا أن يذكروا أحيانًا أسماء هؤلاء المرشدين الباطنين[2]. وعلى الرغم من أن العبارة القرآنية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ من المحتمل أنها مجازية ، وتعني أنهم يعملون خيالهم في كل الموضوعات بدون تمييز[3]، فإن من الممكن أن تفهم بمعنى : «أنهم يتغزلون في كل وادٍ» ، واتفاقًا مع هذا فإن معظم القصائد يبدأ بموقف غزلي غرامي فيه يفعل الشاعر ما وصف . وفي بعض الحكايات يصوَّر النبي أنه يكشف عن جهل تام بفن الشعر[4]، وثمّ حديث يؤكد فيه أن الأولى بباطن الإنسان أن يملأ بأي شيء ما عدا الشعر[5] . ومع ذلك فقد نسبت إليه أشعار[6] ، وفي بعض الأحيان يبدو ناقدًا للشعر[7] ، وراويًا له[8] ، وثمّ حديث مشهور يثني فيه على الشعر .

والكمية الهائلة من النقوش التي ترجع إلى ما قبل الإسلام والتي نملكها الآن مكتوبة بعدة لهجات ، ليس فيها شيء من الشعر ؛ وهذه واقعة تسترعي النظر خصوصًا فيما يتعلق بالنقوش على المقابرى، لأن معظم الأمم ذوات الآداب تدخل الشعر في الكتابات التي من هذا النوع . فمثلًا الأدب اللاتيني يبدأ بمراثي الشيبيونين Scipios ، وهي منظومة في بحر زُحَل . والنقوش[9] اللودياوية التي اكتشفت حديثًا نجد مجموعة كبيرة منظومة

(1) «الأغاني» ، ط2 ، ج13 ، ص 48 ، س 23 .
(2) «رسائل أبي العلاء» ، ص66 ، س25 .
(3) الراغب الأصفهاني .
(4) «الأغاني» ، ط2 ، ج13 ، ص 48 ، س 23 .
(5) «مسند» ابن حنبل ن ج 2، ص 331 .
(6) البيضاوي في تفسير الآية 69 من سورة يس .
(7) «الأغاني» ، ج11 ، ص 76 ، س 23 .
(8) «تلبيس إبليس» ، ص 240 .
(9) [المشهورون باسم شيبيون ثلاثة : (أ) Publuis Cornelius Scipio وهو قائد روماني في الحرب=

شعرًا. ولا يمكن أن نستنتج من النقوش العربية أنه كانت لدى العرب أية فكرة عن النظم أو القافية ، على الرغم من أن حضارتهم في بعض النواحي كانت متقدمة جدًا . فإن كان القرآن يتحدث عن الشعر على أنه شيء يحتاج إلى تعلّم ، فمن المعقول أن نفترض أنه يشير إلى تلك الصنعة التي تستلزم العلم بالأبجدية ، لأن القافية العربية تقوم في تكرار نفس المجموعة من الحروف الساكنة ، والعلم بنظام نحوي ، لأن النظم يتوقف على الفارق بين المقاطع الطويلة والقصيرة ، وارتباط بعض النهايات ببعض المعاني .

فيمكن إذن أن يكون ما يشهد عليه القرآن هو أنه قبل ظهوره كان بين العرب بعض الكهّان المعروفين بأنهم «شعراء» ؛ ومن المحتمل أن لغتهم كانت غامضة ، كما هي الحال في ألوان الوحي ؛ وحيث إن أقدم وحي دِلْفي Delphine لدينا يبدأ هكذا :

«إني أعلم عدد الرمل ومقاييس البحر»

فإن دقة أقوال هؤلاء الأشخاص لابد أنها كانت موضوع شك إلى حدّ يبرر وصفهم بما وصفهم به القرآن .

لكن نظرة الشاعر الجمّاع للشعر القديم : أبي تمام ، في بداية القرن الثالث الهجري، إلى الشعر القديم يختلف عن هذا كل الاختلاف . فهو يقرر بعبارات غامضة بعض الغموض ، لكنها لا تختلف عن تلك التي استعملها هوراس ، أن أمجاد العرب الأوائل

= اليونانية الثانية ، وكان قنصلًا في سنة 218 ق.م وقد هزمه هنيبعل . (ب) وابنه هو المشهور باسم شيبيون الإفريقي الكبير Scipio Africanus Major ، ولد سنة ٢٣٤ ق.م ، وتوفي حوالي سنة 183 ق.م : وتولّى قيادة الجيش الروماني في إسبانيا بعد وفاة أبيه . ثم عبر إلى إفريقية في سنة 204، وانتصر انتصارًا عظيمًا على هنيبعل في معركة زاما في 19 أكتوبر سنة 202 ق.م ؛ (ج) شيبيون الإفريقي الأصغر، ولد حوالي سنة 185 ق . م ، وانتصر في معركة پودنا Pydna ، واستولى على قرطاجة في ربيع سنة 146 ق . م .

أما لوديا فإقليم في آسيا الصغرى ، غربي نهر هالوس ، وعاصمته سرديس . ويقال إن أهل لوديا كانوا أول من صك النقود . وكانوا ذوي حضارة عالية في القرن السابع وبعض القرن السادس قبل الميلاد.

ووحي دلف نسبة إلى مدينة دلف (أو دلفي) في إقليم فوقبس باليونان ، وكانت مكانًا مقدسًا منذ الألف الثاني قبل الميلاد ، وفيها معبد شهير باسم أپولو ، تتولى الكهانة فيه كاهنة هي الفوثيا . - المترجم] .

لم يحفظ منها إلّا ما سُجّل في القصائد ؛ وأن هذه القصائد هي التي حافظت على ذكر المعارك وجلائل الأعمال ، بل وسميت «ملكًا محدودًا» وهذه العبارة ربما كان معناها أن القبيلة التي يظهر فيها أبرع الشعراء تسيطر على القبائل الأخرى ، إلى حد ما[1] . وتبعًا لهذا فإن الشعراء ليسوا كهانًا يرطنون بوحي غير مفهوم ، بل هم مسجّلون للأحداث ، التي تمكنهم قريحتهم من تخليد ذكرها . ويتفق معه في هذه النظرة معاصره الواسع التأليف، الجاحظ البصري[2] . وليس من اليسير تمامًا التوفيق بين هذه النظرية وبين أقوال القرآن وموقفه العام . إنها تنطبق تمامًا على «ديوان» أبي تمام نفسه ، ففيه يخلّد ذكرى مغامرات ممدوحية ، مثل غزو المعتصم لعمّورية ؛ كما تنطيق جيدًا على الشذرات التي جمعها في «حماسته» لأن الكثير منها ذات طابع تاريخي أو ترجمة ذاتية . فها هنا لا نرى أن الشعراء «يقولون ما لا يفعلون» ، بل على العكس يفترض أنهم إنما يسجّلون ما فعلوه في الواقع أو ما شاهدوه يُفعل ، ويبدو أن أي عربي من عهد إسماعيل فصاعدًا يفعل شيئًا فإنه يخلد ذكراه في قصيدة . لكن مجموعًا من القصائد يخلّد فيها التاريخ إنما يؤلفّ أدبًا لا يستحق أبدًا أن يوصم بلغة الازدراء التي استخدمها القرآن ، ووجود هذا الأدب تستبعده - كما سنرى - مواضع أخرى في القرآن استبعادًا تامًا .

لكن الأثريين المسلمين ، الذين بدأوا عملهم حوالي نهاية العصر الأموي ، ليس فقط يقررون وجود هذا القسم من الأدب القديم الذي من هذا النوع في بلاد العرب قبل الإسلام ، بل يدّعون تقديم قطع كبيرة منه إلى الناس . وثمّ سبب يدعو إلى الظن بأن أولئك الذين بدأوا بتقديمه قد صادفوا بعض الشك من جانب الناس ؛ ولما قدّم الخليل بن أحمد (المتوفى سنة 170هـ) نظام العروض الذي صرّح بأنه استمده من القبائل العربية، فإن أحد معاصريه ألّف كتابًا رام أن يثبت فيه أن هذا النظام كله وهم[3] . وليس من الواضح متى بدأ العرب في نظم الشعر ؛ فبعضهم يرجعه إلى آدم[4] ، والبعض يدعي

(1) ديوان أبي تمام ، ص83 ، طبعة بيروت ، سنة 1889م .
(2) «البيان والتبيين» ، ج 2 ، ص 184 .
(3) «إرشاد الأديب» لياقوت ، ج2 ، ص366 ، س6 .
(4) «مروج الذهب» للمسعودي ، ج1 ، ص 65 .

تقديم قصائد من عهد إسماعيل[1] . وعلى الرغم من أن ملوك جنوب الجزيرة العربية ألّفوا نقوشهم بلغاتهم ولهجاتهم ، فإن الأشعار التي اهتموا بنظمها ، حسبما يقول الأثريون[2] المسلمون ، إنما كتبت بالعربية التي كتب بها القر آن[3] . لكن يبدو أن الرأي العام يقرر أن الشعر العربي – على الشكل الذي استقر عليه فيما بعد – بدأ قبل ظهور الإسلام ببضعة أجيال قليلة . ويوافق الأب شيخو[4] على الرأي الذي أورده صاحب «الأغاني»[5] ومفاده أن المهلهل ، أخا كليب – وقد ازدهر حوالي سنة 531 ميلادية ، ووصف بأنه أحد مفاخر بني بكر بن وائل[6] – كان أول من قصّد القصائد الطوال وأدخل فيها الغزل . وليس من الواضح ما هو المقصود بالقصيدة الطويلة ، ولربما قصد بها تلك التي تزيد على عشرين بيتًا ، لأنه تنسب إلى البّراق – وشيخو يجعل تاريخه سنة 470م – قصيدة بهذا الطول[7]. ولدينا بيانات أدق عن الأغلب ، الذي قيل إنه كان أول من نظم قصيدة طويلة في بحر الرجز ، ويفسر الطول هنا بأنه ما يزيد على بيتين من الرجز[8] . ويذكر أن هذا الشخص قد قتل في معركة ناوند سنة 23هـ ؛ ولما كان عمره آنذاك التسعين فإن مولده في نفس الوقت الذي ازدهر فيه المهلهل . ومع ذلك فإن عالمًا كبيرًا أكدَّ أكثر أن أول من نظم رجزًا مؤلفًا من أكثر من بيتين هو العَجّاج الذي عاش في العصر الأموي . كما أن الدعوى القائلة بأن المهلهل هو أول من قصّد القصائد دعوى متنازع فيها : فمن ناحية يروون قصائد تبتدئ بالنسيب يرجع زمانها إلى أقدم من زمان المهلهل[9] ؛ ومن ناحية أخرى ، هناك روايات عالية تؤكد أن أول الشعراء هو امرؤ القيس ، وزمانه متأخر قليلًا عن زمان المهلهل[10].

(1) «الأغاني» ، ج13 ، ص . 104

(2) يقصد بالأثريين : الرواة القدماء الذين رووا الشعر العربي القديم السابق على الإسلام .

(3) تاريخ الطبري ، ج1 ، ص906 ، «الأغاني» ، ج13 ، ص118 ، ج20 ، ص9 .

(4) «شعراء النصرانية» ، ص 160 .

(5) «الأغاني» ، ج4 ، ص 148، س 11 .

(6) «الأغاني» ، ج20 ، ص 15، س 27 .

(7) «شعراء النصرانية» ، ص 142.

(8) راجع «الأغاني» ، ج 18 ، ص 164 .

(9) «المزهر» للسيوطي ، ج 2 ، ص 243 .

(10) «الأغاني» ، ج11 ، ص 154 (خزيمة بن نهد) .

كذلك يقال إن أعشى قيس – وشيخو يضع تاريخ وفاته سنة 629م – كان أول شاعر تكسّب بشعره[1] ؛ بيد أن عَبَيَد الأبرص – وكان أسبق من الأعشى بوقت طويل – كان أستاذًا في هذا اللون من الفن[2] . ثم إن عنترة العبسي ، وهو أسبق قليلًا ، لم يكره أو لم يكن بمنأى عن هذا الصنيع ، أعني التكسب بالشعر .

وربما كانت الدعوى الخاصة بالمهلهل ، إنما تستند إلى اسمه ، فمعناه : «صانع النسيج الرقيق»[3] والمراد هنا «النسيج الشعري» ، بينما تفسير الاسم بمعنى «الصانع» أدّى إلى هذه الفكرة العجيبة وهي أنه كان أول شاعر انحرف عن جادة الصدق[4] .

فإن عددنا الرواية التي تنسب إليه أنه أول من قصّد القصائد على أنها تاريخية ، فلابد من الإقرار بأنه وجد مقلّدين له عديدين ، لأن لدينا صفًّا هائلًا من المجلدات التي تحتوي على الأعمال المجموعة لعدد كبير جدًا من الشعراء ينتسبون إلى الفترة التي تفصل بين تقصيده القصائد وبين الهجرة . وأصحاب المعلّقات العشر المشهورون كلهم لهم دواوين ، نشر معظمها وتستغرق عددًا ضخمًا من الصفحات. وإلى جانب ذلك هناك العديد من الشعراء المكثرين ممن لا يعدون من بين العشرة الخالدين . كذلك جمعت قصائد الشعراء المنتسبين إلى قبيلة في مجاميع ، وقد نشر واحدٌ منها[5] . ولما كانت هذه القصائد تستلزم بطبعها معرفة بالأبجدية ، وكثيرًا ما نشير إلى الكتابة ، فإن العرب

(1) الجاحظ : «البيان والتبيين» ، ج 2 ، ص 184 (عن أبي عمرو بن العلاء) .
(2) «الأغاني» ، ج8 ، ص 75 .
(3) [هناك اختلاف شديد في تفسير معنى كلمة مهلهل ، ومعنى الفعل هلهل . فابن سلام الجمحي في «طبقات الشعراء» (ج 1 ص 39 ط 2 بدون تاريخ ، نشره محمود شاكر) يقول : «وإنما سمّي مهلهلًا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه» ، وفي «النقائض» : «إنما سمي مهلهلًا لأنه هلهل الشعر ، يعني سلسل بناءه ، كما يقال : ثوب مهلهل ، إذا كان خفيفًا» . وفي لسان العرب عن ابن الأعرابي : «ثوب هلهل : رديء النسج ... ومهلهل : اسم شاعر ، سمي بذلك لرداءة شعره ، وقيل : لأنه أول من أرقّ الشعر» – المترجم] .
(4) «الأغاني» ، ج 4 ، ص 148 .
(5) [هو مجموع أشعار الهذليين ، وقد نشره كوزجارتن بعنوان : The Hudsailian poems edited by Kosegarten I, London, 1954] .

الجاهليين الذين استخدموا لغة القرآن لابد أنهم كونوا جماعة على حظ عال من الثقافة الأدبية ؛ واليونان القديمة لا تكاد تكشف عن مثل هذا العدد من أنصار ربات الفنون .

وأول سؤال ينبغي أن نسأله هو : لو افترضنا أن هذا الأدب صحيح ، فكيف حُفِظ؟ لابد أنه قد حُفِظ إمّا شفاهًا ، أو بالكتابة . والفرض الأول يبدو أنه كان الرأي الذي أخذ به الرواة العرب ، وإن لم يكن الرأي الذي أجمع عليه الكل ، كما سنرى . لقد روي عن الخليفة الثاني [عمر] أنه قال إنه على الرغم من أن الشعر الجاهلي قد أُهْمِل في الأيام الأولى للإسلام وفي السنوات الحافلة بالفتوح ، فإنه لما جاء وقت أوفر سلامًا عاد المسلمون إلى دراسته ولم يكن لديهم كتب مكتوبة أو مجاميع يمكن الرجوع إليها، ولما كان معظم العرب - أعني أولئك الذين اعتنقوا الإسلام بعد الوثنية - قد قتلوا أو ماتوا موتًا طبيعيًّا ، فقد ضاع معظم الشعر ، ولم يبق منه إلّا القليل(1) . ومن الواضح أن نسبة هذا القول إلى الخليفة الثاني خطأ تاريخي ؛ لأن زمان الهدوء لم يأت إلّا مع خلافة أول الأمويين [معاوية] ، أي بعد وفاة عمر بثلاثين سنة تقريبًا . كذلك من الباطل القول بأنه لم يبق من الشعر الجاهلي إلّا القليل ، إذا قصد من ذلك صف كامل من المجلدات. فإن كانت قد بقيت ، مع ذلك ، قصائد عديدة طويلة جدًا ، فلابد أن ذلك مرده إلى أنه وُجد أشخاص كانت مهمتهم استظهارها للآخرين . وليس لدينا سبب لأن نعتقد أن مثل هذه المهنة وجدت ، أو أنها استطاعت أن تبقى بعد العقود الأولى من ظهور الإسلام(2). «الإسلام يجبُّ ما قبله» ؛ والقرآن يقرر أن الذين يتّبعون الشعراء غاوون ، وكلامه عن الشعراء فيه شدّة وازدراء . فكان هناك إذن سبب قويّ لنسيان الشعر الجاهلي ، إن كان قد بقي منه شيء ؛ لكنه كان هناك سبب آخر من المحتمل أن يؤثر بقوة ، ذلك أن الوقائع التي يظن أن القصائد خلّدتها كانت انتصارات في حروب بين القبائل ، والإسلام قد أراغ إلى توحيد العرب ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا ، لم يشجع على مثل هذه الذكريات، لأن القصائد التي من هذا النوع لن تثير إلّا الحفيظة وغليان الدماء . والحق أن أمثال

(1) «المزهر» ، ج1 ، ص 121 .

(2) يذكر الثعالبي في كتاب «غُرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» ص 556 سوّار بن زيد بوصفه رواية أهل الحيرة . وكان يروي أشعارًا عربية نظمها ملك فارسي وراوي أهل الكوفة (المبّرد : «الكامل»، ج 1 ، ص 358) إسلامي .

هذه القصائد تميل نحو النسيان ؛ إلّا إذا سجّلت كتابةً . ثم إن البدو كان ينظر إليهم على أنهم غير جديرين بالثقة وأنهم متهورون في أقوالهم عن الأشعار[1] ؛ ومن هنا فإن نقولهم الشفوية لا تلقى إلّا القليل من التصديق بها .

بقي الإمكان الآخر ، وهو أن تكون القصائد قد حُفِظت كتابةً . فإن كانت هذه القصائد، كما تدعي إحداها ، يسطع نورها على العالم ، وكان الناس حين تنشد لهم يسألون عمّن نظمها[2] ، فإن احتمال تسجيلها كتابة يصبح احتمالا قويًا جدًا ، لأن الإكثار من نسخها سيكون عملية مريحة . وهنا يلاحظ أن الإشارات إلى الكتابة وفيرة جدًّا في الأدب[3] ، بل إن بعض الشعراء يتحدث عن الكتابة فيما يتصل باشعاره . فإن أحد الشعراء الجاهليين في مجموعة أشعار الهذليين يتوق إلى أن ترسل إليه .

ولا شك أنه يشير إلى قصيدة من شعره . والشرّاح يفسّرون البيت على أنه يقصد كتابة حميرية على سعَفِ الجريد . والواقع أنه يروى أن بعض الأشعار العربية كانت مكتوبة بخط كاتب يدعى قَيْسَبه بالخط الحميري على ظهر سرجه[4] ، بينما قصيدتان أخريان كانتا مكتوبتين في وثقية محتومة كتبهما مادح لأمير حميري هو ذو الدرعين ، وإن كان لم يذكر ماذا كان مكتوبًا[5] والملك الحميري ذو جَدَن ، الذي اكتشفت عظامه الهائلة الحجم في صنعاء ، كان على رأسه لوح فيه نقش بنثر مسجوع ، بالعربية الفصحى ، ولكن بحروف

(1) «الأغاني» ، ج11 ، ص 100 ؛ ص 3 .

(2) «الأغاني» ، ج12 ، ص 123 ؛ ص 4 .

(3) والحارث بن حلزّة («المُعلقات» ص ٦٧) يتحدث عن معاهدات مكتوبة على «مهارق» : فهل يعني البرشمان؟ [في اللسان : المُهرق(بضم الميم وسكون الهاء وفتح الراء): ثوب حرير أبيض يُسْقَى الصبغ وَيُصْقل ثم يكتب فيه ، وهو بالفارسية : مهر كرد. - قال الجواليقي في «المعرب» (ص 303، نشرة أحمد شاكر) : «المهرق : الصحيفة ، وهي بالفارسية : «مهرة» . . وقالوا : هي خرق كانت تصقل ويكتب فيها . وأصلها : مُهْر كرده : أي صقلت بالخرز» - و«مُهْر» بالفارسية : صدف صغير كان يستعمل لصقل الورق» - المترجم] .

(4) نشرة كوزجارتن ، ص 13 ، س 6 .

(5) «الأغاني» ، ج11 ، ص 125 ؛ ص 21 .

حميرية[1] . ومن المحتمل جدّا أن يكون قد أمر بكتابة أشعاره[2] . والشاعر الجاهلي لقيط نظم قصيدة ، ليحذرهم من حملة تأديبية سيقوم بها ضدهم ملك فارسي[3] . وهناك شاعر جاهلي يروي مثلًا قرأة على پرشمان شخصٌ يملي[4] . فلربما لم يكن هناك إذن تعارض مع أقوال هذه القصائد إذا تصورنا أنها كانت تتداول مكتوبة بانتظام .

غير أن وجود أدب جاهلي قديم بلغة القرآن مكتوب بالقلم الحميري ، أو بأيّ قلم آخر، يبدو أنه يتعارض تعارضًا صارخًا مع أقوال القرآن وتقديراته بحيث لا يمكن الإقرار بهذا الوجود . إن القرآن يسأل أهل مكة : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ [القلم : 37] ؛ ويتساءل عن معارضيه : ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم : 47] . لقد جاء القرآن لينذر : ﴿قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس : 6] ولينذر : ﴿قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة : 3 ؛ القصص : 46] ؛ إن أمتين فقط ، اليهود والنصارى ، هما اللذان أوتيا الكتاب : ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ [الأنعام : 156] ، أما الوثنيون فلم يؤتوا أيّ كتاب وهذه مسألة لا يمكن القرآن أن يخطئ فيها . إن المبشر المرسل إلى الهندوس يمكنه أن يدمغ كتبهم بأنها عديمة القيمة وضارة، لكنه لا يستطيع أن ينكر وجودها . فإن كان الشعر الجاهلي مكتوبًا ، كان عند الوثنيين وفرة من الكتب (ومن الكتب «الموحى بها» حقّا) التي ربما لم تكن تدعو إلى التقوى - وإن لم تكن كلها كذلك ، كما سنرى - لكنها كافية للردّ الإيجابي على الأسئلة المذكورة، لكن القرآن يفترض قطعًا أن الجواب عنها سيكون سالبًا .

(1) «الأغاني» ، ج20، ص 8 ؛ ص 13 .

(2) «الأغاني» ، ج11 ، ص 76 ؛ ص 23 .

(3) «الأغاني» ، ج12 ، ص 112 . الشمردل كتب قصيدة .

(4) «الأغاني» ، ج20 ، ص 24 .

ثم إن عملية التطور الأدبي تسير عادة ، وربما دائمًا ، من غير المنتظم إلى المنتظم . فالأدب اللاتيني يبدأ مما يسميه هوراس : «كان بحر زُحَل[1] الشعريّ خشنًا غليظًا» ؛ ثم استخدمت البحور الشعرية اليونانية ، ولكن تكييفها [مع اللغة اللاتينية] كان في البداية قاسيًا جدًا ؛ وبعد قرن ونصف وضع ڤرجيلُ وهوارس مثلًا للانتظام كان على التالين أن يتبعوه . والأساليب العربية ، سواء منها النثر المسجوع والشعر ، ذات شبه بأسلوب القرآن ، وفي القرآن أجزاء لا يشكك في كونها نثرًا مسجوعًا إلّا المتشدِّدون جدًا من أهل السنة ، وفي القرآن أمثلة على كثير من أوزان الشعر[2] . فعملية الانتقال من أسلوب القرآن إلى الأساليب المنتظمة ستبدو إذن متفقة مع قياس النظير ؛ وغدا كان القرآن أول عمل في اللغة العربية يكشف عن فن أدبي ، فإن دعواه إعجاز فصاحة ستكون أمرًا يمكن أن يفهمه الناس بسهولة ؛ ولن تكون مختلفة كثيرًا عما يدعى للبعض أو يدعيه البعض ممن أدخلوا الشعر في اللغة لأول مرة . أما إن كان السامعون قد تعوّدوا من قبل على النثر المسجوع والشعر اللذين من النوع المنمّق المنمّى الذي يتجلى في الأعمال الأدبية الجاهلية المكتوبة بهذه الأساليب ، فسيكون من الصعب إثبات صحّة تلك الدعوى على الأقل .

لكن قد يقال إن هذه الحجة الأخيرة حجة قبلية[3] a priori ، وأنه حيث يشكّك المسلمون أنفسهم في صدق القرآن ، فإن الآخرين لا مبرر لهم في تصديقه . فصاحب «الأغاني» - وهو مُسْلم - يروي قصيدة صحيحة نظمها ورقة بنُ نوفل ، وهو سابق على محمد ، وفيها يعلن أنه نذير ، ويأمر الناس ألا يعبدوا إلّا خالقهم[4] . وهذا يتناقض تناقضًا

---

(1) [بحر زحل الشعري : numerus satrnius بحر شعري لاتيني قديم يتصف بالخشونة والغلظ - المترجم] .

(2) راجع : «النحو العربي» تأليف رايت Wright ج 2 ص 359 [يلاحظ أن الشهاب الحجازي (- 1388 1417م) ، أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الخزيمي ، المعروف بالحجازي قد نظم بحور الشعر العربي مستشهدًا بآيات من القرآن ، راجع نظمه هذا في ص 105 من كتاب «ميزان الذهب في صناعة شعر العرب - ط بيروت» للهاشمي - المترجم] .

(3) [أي نظرية غير مستمدة من الواقع والتجربة] .

(4) «الأغاني» ، ج3 ، ص15 .

صريحًا مع القرآن ، لأن القرآن كما رأينا يؤكد أنه لم يجئ إلى أهل مكة نذيرٌ قبل محمد. وقُدَم بن قادم (400 – 480م) في القصيدة المنسوبة إليه يسبق إنذارات القرآن في كثير من التفاصيل ، ويدّعي أنه دعا قومه إلى الدين بالمعنى الإسلامي[1] . ومن هنا فإن القرآن إذا أعلن أنه ليس لدى الوثنيين كتب ، فإنه يبدو أن المسلم هو نفسه ليس ملزمًا بتصديق ذلك ؛ لكن ما نريد مع ذلك أن نبيّنه هو أن أولئك الذين اعتقدوا في وجود مثل هذا الأدب المكتوب كانوا أقل استحقاقًا للتصديق بكثير من النبي ، حتى لو رفضنا رأي المسلمين في خُلقه .

وقبل أن نصدق الروايات التي تدور حول الشعر العربي المكتوب بحروف حميرية ، فإن من المرغوب فيه أن نرى بعض نماذج منه . إذ يود المرء أن يرى كيف كتب الخطاط بهذا الخط معلقة الحارث (بن حلزّة) ، حيث تتوزع كلمات كثيرة فيها بين أشطار الأبيات. وإن من مبادئ الكتابة العربية الجنوبية تمييز نهاية الكلمة بخط عمودي ، وهذا لا يبدو أنيقًا في الشعر ، حيث شطر البيت شائع ؛ ثم إن الكتابة العربية العادية تلوح ملائمة للشعر العربي على أساس أن الخطّاط يسهل عليه أن يمدّ أو يقصّر الكلمات بحيث يبدو التركيب كله متناسبًا ، لكن هذه العملية يصعب إنجازها بالكتابة العربية الجنوبية . لكن لو أمكن اكتشاف نموذج من هذا النوع لسقط هذا الاعتراض .

وفي تاريخ الإسلام[2] نلقى أخبارًا عن مجلدات مكتوبة من الشعر قبل ذكر مؤلفات بالنثر؛ فالطبري يذكر أن شخصًا وجد في سنة 83 هـ في قلعة قائمة في صحراء كربان مجلدًا مكتوبًا فيه شعر أبي جلدة اليَشْكُري وقد كتبه أحد الكوفيين . كذلك يورد النص الكامل لقصيدة لأعشى همدان تشير إلى أحداث سنة 65 هـ ، وقد أخفيت في زمانها ؛ ومن الصعب إخفاء شيء ليس ماديًا . والقاضي أبو يوسف ، الذي صنّف كتابًا في الفقه لاستعمال هارون الرشيد (180 – 193 = 788 – 809) يذكر من بين الأشياء التي لا ملكية فيها ، أي التي لا عقوبة على سرقتها في التقاضي العادي ، القرآن والأوراق المكتوب

(1) انظر : جرفيني : «قصيدة قُدم بن قادم» ، روما ، سنة 1918م .
(2) تاريخ الطبري ، ج2 ، ص 1102 ، س 6 .

فيها أشعار ؛ والتفسير الطبيعي جدًّا لهذه القاعدة هو أن الكتب التي اعتاد الناس تداولها في ذلك الوقت كانت كتب الشعر ، إلى جانب القرآن . ويذكر أبو يوسف أن أبا حنيفة هو الذي أفتى بهذه الفتوى ، وأبو حنيفة توفى في سنة 150 هـ . ويروي الطبري أنه بعد هذا التاريخ (150 هـ) بقليل أمر الخليفة المهدي (158 - 169 هـ) بجمع مجموعة من الشعر العربي (ومن المحتمل : الجاهلي)[1] . «وحَماسة» أبي تمام ، وقد صنفت بعد ذلك بجيل، قد جمعت من مواد مكتوبة[2] . وربما كان هذا الارتباط المبكر بين الشعر والكتابة هو الذي دعا من أنتجوا كميات كبيرة من الشعر الجاهلي إلى الزعم بأن مصادرهم كانت وثائق مكتوبة . وحمّاد الرواية (95 - 155 هـ) وهو واحد من الرواة الذين نفعوا الجماعة [بتقديم شعر قديم لهم] ، يزعمون أنه أكّد أن النعمان اللخمي (850 - 602 م)[3] أمر بنسخ أشعار العرب في الطنوج[4] ، فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض بمدينة الحيرة . وحينما دخل المغامر المختار بن أبي عبيد [الثقفي] الكوفة في سنة 65 هـ أخبروه أن في القصر كنزًا مخبوءًا ، فأمر بالحفر عنه وعثر على هذا المجموع من الشعر . فإن افترضنا أن هذه الحكاية رويت فعلًا عن حمّاد ، فلا شك أن الغرض منها هو تفسير هذه الواقعة وهي أنه كان يعرف الكثير من القصائد الجاهلية التي لم يعرفها أحدٌ غيره . وفي كتاب «الأغاني» اتهام له بالانتحال دون حياء[5] ؛ ومعاصره المفضّل الضبيّ يتهمه بأنه أفسد الشعر إفسادًا لا إصلاح معه[6] . وتروي إحدى الحكايات أن الخليفة المهدي دعا حمّادًا والمفضل ولابد أن ذلك قد حدث قبل توليه الخلافة ، لأن خلافته بدأت سنة 158 هـ، بينما حمّاد توفي سنة 155 هـ وسألهما تفسير بيت لزهير يبدأ قصيدة بقوله : «دع ذا» . ففسّر المفضل هذه الصعوبة بقدر ما استطاع ، أما حمّاد فقال إن القصيدة لا تبدأ بهذا البيت ، بل تسبقه ثلاثة أبيات رواها فلما طلب منه أن يُقْسِم على ذلك ، اعترف بأنه هو

(1) أبو يوسف : «كتاب الخراج» ، ص 105 .
(2) «تاريخ الطبري» ، ج 2، ص841 ، س21 .
(3) مقدمة التبريزي لشرح الحماسة .
(4) انظر روتشتين : «دولة اللخميين» ، سنة 1899م Rothstein : Die Dynastie der Lakhmiden
(5) «الأغاني» ، ج 5 ، ص 172 ، ط 1 ، ص 163 ، ط2 .
(6) «الأغاني» ، ج 5 ، ص 172 .

الذي اخترع هذه الأبيات الثلاثة . ومع ذلك فإنها موجودة في نشراتنا[1] . ورواة الكوفة تمسكوا بصحة أشعار من المعروف أن حمّادًا نظمها ونسبها إلى شعراء متقدمين ، وكان يسامر بها خالد القسري ، والي الكوفة[2] . ويروي ياقوت عن النحّاس (توفي سنة 331 هـ) أن المعلّقات السبع جمعها حمّاد هذا ؛ وبودنا لو كان اكتشافها قد تم على يدي شخص آخر أدعى إلى الثقة والاحترام . وثاني راوية للشعر القديم في الكوفة هو جَنّاد[3]، وكان كحمّاد كثير الرواية قليل المعرفة .

والجماعون الأوائل للشعر كانوا - مثل حمّاد - في الغالب أشخاصًا ذوي وازع ضعيف في انتحال الشعر . وقد سئل أحدهم وهو برزخ - وكان معاصرًا لحمّاد وجنّاد - عن أي سند روى بعض أشعار نسبها إلى امرئ القيس ، قال إنه رواها عن سنده هو وهذا في نظره كافٍ[4] .

وبعد حمّاد بوقت قصير كان خَلَف الأحمر ، المتوفى سنة 180 هـ ، وعنه أخذ أبرز الرواة . وكان هو الآخر سيّئ السمعة ؛ وقد أورد ابن خلّكان ، عن أبي زيد ، أنه أذاع في الكوفة قصائد منحولة بوصفها قصائد قديمة ، وأصابته علّة فاعترف بجربمته لأهل الكوفة ، لكنه ، شأن كثيرين غيره ، استسهلوا أن يخدعوا على أن يكتشفوا خداعهم . ومن معاصريه أبو عمرو بن العلاء ؛ المتوفى سنة 154 هـ ، وهو من أعظم الرواة ، وقد أعترف بأنه دس بيتًا من نظمه في قصيدة للأعشى[5] . والأصمعي ، وهو تلميذ لخلف الأحمر ، وضع مجموعة من أحسن مجاميع الشعر القديم ، يؤكد أنه أقام في المدينة ولم يستطع أن يعثر هناك على قصيدة واحدة سليمة ؛ والقصائد التي لم تكن فاسدة كانت منحولة[6]. ومع ذلك يبدو أنه لم يكن شديد التحرّج في النقد وذكر عن رجل اسمه كيسان أنه كان يذهب إلى البدو ويسمع منهم القصائد ؛ ويكتبها على ألواحه ثم ينقلها محرّفة إلى

(1) «شعراء النصرانية» ، ص 540 ؛ ألفرت ص 81 ، ... إلخ .
(2) تاريخ الطبري ، ج2 ، ص 1102 ، س 6 .
(3) ياقوت «إشارد الأريب» ، ج2 ، ص 366 ، س 18 .
(4) ياقوت : «إرشاد الأريب» ، ج2 ، ص 366 ، س 18 .
(5) «الأغاني» ، ج3 ، ص 23 .
(6) ياقوت : «إرشاد الأريب» ، ج6 ، ص 110 .

مذكراته ، ثم يغيّر فيها من جديد قبل أن يحفظها ، ثم يغيرها أيضًا قبل أن ينشدها للناس . ومن الواضح أنه لن يبقى من الأصل بعد هذا شيء كثير . وبالرغم من ذلك فإن الأصمعي كان يعدّه جيّد الرواية [1].

والجمّاع الكبير أبو عمرو الشيباني (المتوفى سنة 205 هـ) وُجد أنه يملك صندوقًا يحتوي على كتب تزن بضعة أرطال فقط ؛ فلما تعجب أحدهم من ضآلتها أجاب بأنها تعد كبيرة من حيث كونها مجموعة صحيحة[2] . بل إن هذه المجموعة الصغيرة نفسها لم تكن خالية من المنحولات ، فمؤلف «الأغاني» ينقل عن أحد كتبه قصيدة طويلة يبدو أنها لشاعر جاهلي ، ويصرّح بأن من الواضح أنها منتحلة في العصر الإسلامي[3] . ويمكن أن يضاف إلى هذا أن رأي هؤلاء الرواة الكبار بعضهم في بعض لم يكن حسنًا أبدًا . فابن الإعرابي كان سيئ الرأي في الأصمعي وأبي عبيدة على السواء[4] ؛ ومن المحتمل أنهما بادلاه هذا الرأي ، وظنا فيه ما ظنه فيهما .

ومستوى القرن الثالث الهجري لم يكن – فيما يبدو -- أفضل من مستوى القرن الثاني. فهناك حكايتان عن المبرّد ، وهو رواية من نفس العصر ظفر بأحرّ الإطراء . لقد زار رجلًا عظيمًا فسأله هذا عن معنى كلمة وردت في حديث نبوي ؛ فلم يعرفها المبرّد ، واقترح معنى ، فسأله الرجل العظيم أن يورد شاهدًا عليه . فلم يتردد المبرّد في إبراز بيت شعر شاهدًا على المعنى الذي اقترحه . ثم جاء زائر عالم آخر ، فسُئل نفس السؤال ، وتصادف أنه كان يعرف الجواب الصحيح فذكر المعنى الحقيقي لتلك الكلمة ، فذكر الرجل العظيم الشاهد الذي أورده المبرّد ، هنالك اعترف المبرّد بأنه صنع هذا الشاهد من تلقاء نفسه لهذه المناسبة . – وفي مرة أخرى اخترع بعض الناس – الذين يشككون في شواهد المبرّد – كلمة وبعثوا بها إليه ليسألوا عن معناها ؛ فأجاب من غير تردد أن الكلمة معناها: «قطن» ، واستشهد على ذلك ببيت من الشعر . ونال صنيعه هذا إعجاب من سألوه ، بغض النظر عن كون الجواب صحيحًا أو غير صحيح[5] .

(1) ياقوت : «إرشاد الأريب» ، ج6، ص215 .
(2) ياقوت : «إرشاد الأريب» ، ج2، ص236 ، س 5 .
(3) «الأغاني» ، ج13 ، ص 4 .
(4) ياقوت : «إرشاد الأريب» ، ج7، ص 5 ، س 13 .
(5) ياقوت : «إرشاد الأريب» ، ج7 ، ص 138 .

وبالاتفاق مع هذه الوقائع نحصل بين الحين والحين على معلومات مزعجة جدًا عن مجموعات شعرية مهمة . لقد رأينا أنه قد بقي لدينا مجموع من أشعار الهذليين ، وكان يظن أن هذه القبيلة أعظم القبائل حظًا من قول الشعر[1] ؛ والنحوي أحمد بن فارس – من القرن الرابع الهجري – زار هذه القبيلة في منازلها ، فلم يجد أحدًا من أهل هذه القبيلة يعرف اسم واحد من هؤلاء الشعراء ، وقصارى ما وجده أن مَنْ منهم يملك أي ذوق شعري كان يستطيع أن ينشد بيتًا عاديًا لا علاقة له بقبيلته[2] . والسُّكري ، الذي جمع ديوان الهذليين ، عاش قبل ذلك بقرن من الزمان ؛ وكان يغلب على الظن أن هذا المجموع لابد أن يكون قد أدّى إلى مزيد من دراسة القصائد بين أهل القبيلة التي عنها صدر ، لكن يبدو أن الذي حدث هو العكس . وفي عصر أبكر ، وعلى الرغم من أن اسماء الشعراء كانت معروفة ، فقد كان هناك ارتياب كبير في نسبة هذه القصائد[3] . وقد نسب شعر كثير إلى شاعر يعرف بلقب مجنون بني عامر . وقد أخذ أحد الرواة على عاتقه أن يسأل كل أسرة في هذه القبيلة ، فلم يجد أحدًا منهم سمع به[4] . وعلى الرغم من هذا ، فقد أمكن على نحو ما ، العثور على اسمه أو أسمائه ، بل وتتبع أسلافه حتى الجيل العاشر ، واكتشاف قدر كبير من تفاصيل حياته ، بما في ذلك محادثات طويلة . وذكروا بهذه المناسبة اسم اثنين من مخترعي هذه الأخبار[5] .

وفي أحوال أخرى يذكر لنا ليس فقط أسماء المخترعين ، بل والأعمال التي اخترعوها. فيزيد بن المفرّغ هو الذي اخترع حكاية الملك الحميري تُبَّع وما نسب إليه من قصائد[6]. والأشعار الواردة في سيرة النبي لابن اسحق ، وربما كانت أقدم كتاب نثري في اللغة الكلاسيكية ، قد صنعت صنعًا لهذه الغاية[7] ؛ وفي كثير من الأحوال يلاحظ ابن هشام ،

(1) «المزهر» ، للسيوطي ، ج2 ، ص242 .
(2) ياقوت : «الإرشاد» ، ج2 ، ص8 ، س5 .
(3) «الأغاني» ، ج20 ، ص19 ، س3 ، من أسفل .
(4) «الأغاني» ، ج1 ، ص161 ، س10 .
(5) «الأغاني» ، ج1 ، ص170.
(6) «الأغاني» ، ج17 ، ص112 .
(7) ياقوت : «الإرشاد» ، ج 6، ص 40، س1 .

ناشر السيرة ، أن الشعر منحول ، لكن ليس ثم إلا القليل - إن كان ثم سبب أصلًا - من الأسباب لافتراض أن أي أبيات منها صحيحة .

والشاعر نُصَيْبَ بدا في الشعر بنظم أبيات نسبها إلى أفراد مشهورين في قبائل ضَمْرَة بن بكر عبد مناة وخُزاعة . فلما نالت هذه الأبيات إعجاب رؤساء هذه القبائل استشعر نُصَيْبَ الثقة بموهبته الشعرية[1] . ولا شك في أن هذه التجربة تدل على عقل علمي ، لكن إذا كان إعجاب زعماء هذه القبائل حقيقيًّا، فمن المحتمل أن الأبيات نالت الاستحسان بوصفها من نظم شعراء قدماء ؛ وقد كان من الصعب على نُصَيْبَ أن يكشف عن انخداعهم. وبالمثل فإن الشاعر جعفر بن الزبير ، أخا عبد الله بن الزبير المنافس للخليفة الأموي، قيل عنه إنه نسب أشعاره هو إلى عمر بن أبي ربيعة ، وهذه الأبيات أولجت - كما يقولون- بعد ذلك في ديوان هذا الأخير[2] .

وينبغي أن يضاف إلى هذا أن الخلفاء وغيرهم قد شجعوا المنتحلين تشجيعًا كبيرًا . فإن المفضّل الضبي وحمّاد الرواية حين عملا للمهدي على النحو الذي وصفناه سابقًا ، فإن أولهما حصل على الجائزة الأسنى ، لكنّ حمّاد الذي انتحل وكذب، نال أيضًا جائزة سنيّة هو الآخر . وهارون الرشيد عرض عشرة آلاف درهم لكل من ينشد قصيدة للأسود بن يعفور . ومما يثير الدهشة تمامًا أن نقرأ أنه على الرغم من أن كل زعماء العرب في الشام والجزيرة العربية والعراق كانوا حاضرين ، فإن أحدًا لم يجب[3] . وفي مناسبات أخرى كان الاستعداد لإنشاد قصيدة يطلبها الخليفة مؤديًا إلى رفع الراتب فورًا[4] .

والموفق ، أخو الخليفة المعتمد ، وكان أقوى منه نفوذًا ، طلب من وزيره أن يزوده بقصائد من نظم اليهود ؛ فلجأ الوزير إلى المبرّد ، فأعلن أنه لا يعرف قصيدة ليهودي . لكن منافسة ثعلب الذي طلب منه ذلك أيضًا بعد ذلك ، كان من حسن حظه أنه كان آنذاك يجمع أشعار اليهود منذ خمسين سنة ، فقدّم مجموعة ونال حظًا وافرًا بذلك .

(1) «الأغاني» ، ج1 ، ص126 .
(2) «الأغاني» ، ج13 ، ص102 ، س16.
(3) «الأغاني» ، ج11، ص129 في الوسط.
(4) «الأغاني» ، ج3 ، ص4 .

ونظرًا إلى فساد ذمّة من ينشرون القصائد على الناس ، فإن أحجامها كانت تختلف كثيرًا . فصاحب «الأغاني» ، يورد قصيدة لذي الإصبع في ستة أبيات ؛ ثم زيدت إلى اثنى عشر بيتًا ؛ وبعد ذلك نعلم أنه في رأي أكبر الرواة ثلاثة فقط منها هي الصحيحة ؛ ثم ينتهي بنا الأمر إلى أن نجد سبعة عشر بيتًا .

أما أن بعض الرواة كانوا ذوي ذمة ووازع ، بالرغم من الاغراءات ، بل وكانوا ذوي نزعة نقدية ، فأمر يمكن الإقرار به . إنهم لم يصنعوا شعرًا ، وقبلوا في مجاميعهم ما اعتقدوا أنه آثار صحيحة من القديم . بيد أن هذا يعود بنا إلى السؤال عن مصادرهم . لقد كانت رسالة محمد حادثًا هائلًا في بلاد العرب وكانت تتضمن قطعًا للصلة بالماضي ، مما لا نجد له إلّا نظائر قليلة في التاريخ . فمن كل أجزاء شبه الجزيرة ترك الناس منازلهم ليستقروا في مناطق لم يسمع عنها إلّا قليل منهم ؛ وداخل شبه الجزيرة صحب ظهور الإسلام وتلاه حروب داخلية . وموقف الإسلام تجاه الوثنية القديمة لم يكن موقف التسامح المستهين بها ، بل كان موقف العداوة البالغة الشدّة ، ولم يشأ أن يتساهل معها أيّ تساهل . فإن كان الشعراء هم ألسنة أحوال الوثنية ، فمن هم الأشخاص الذين حفظوا في ذاكراتهم ونقلوا إلى غيرهم تلك المؤلفات التي تنتسب إلى شريعة قضى عليها الإسلام؟ ونستطيع أن نتلمس الشعور بهذه الصعوبة في الحلّ الذي قيل إن حمّاد الرواية قدّمه وهو أن القصائد بقيت مدفونة طوال السنوات التي كانت فيها الحماسة للإسلام في أوجها ، ثم استخرجت من دفائنها لما أن فترت هذه الحماسة بعض الفتور . والتفسير الآخر الذي سنعرضه الآن هو الشعراء لم يكونوا ألسنة أحوال الوثنية . لقد كانوا مسلمين في كل شيء إلّا في كونهم لم يُسَمَّوا مُسلمين .

لو وجهنا انتباهنا إلى البيّنة الباطنة ، وجدنا في هذه القصائد ملامح تثير الدهشة على الأقل . إن شعراء غالبية الأمم لا يشكون أبدًا في ديانتهم ، والعرب المسجّلون على النقوش كلهم صرحاء في هذا الموضوع ؛ فمعظم النقوش تذكر واحدًا أو أكثر من الآلهة ومن الأمور المتعلقة بعبادتهم . والْمرزُباني كرّس كتابًا يقع في أكثر من خمسة

آلاف صفحة للأخبار عن الشعراء الجاهليين ، ودياناتهم ونِحَلهم[1] ؛ وربما تخيل المرء أن المواد المتعلقة بهذه الموضوعات كانت ضئيلة جدًا ، إذ الإشارات إلى الديانة في القصائد الموجودة لدينا نادرة . فأحد الشعراء يذكر أن ديانته تتفق مع ديانة قوم آخرين[2]؛ لكنه لا يخبرنا أية ديانة كانت ديانته . وجو الشِّرْك الذي نجده في النقوش غير موجودة في هذه القصائد . وربما كان هذا هو ما دعا الأب لويس شيخو إلى نظريته القائلة بأنهم كانوا جميعًا من النصاري . لكن يلوح أن هذه النظرية ليست صحيحة . فإن بعض هؤلاء المزعوم أنهم نصارى يعبّرون عن أنفسهم على نحو يوضح بجلاء أنهم ينتسبون إلى ملة أخرى ؛ فمثلًا أعشى قيس ، وهو ممن عدّهم شيخو في عداد النصارى ، يتكلم عن طُلّاب حاجات يطوفون حول أبواب الممدوح كما يطوف النصارى حول بيت صنمهم[3]؛ ومن بين الأمثلة القليلة التي نجد فيها قسمًا بإله وثني بيت منسوب إليه[4] .

والنصارى أينما كانوا فمعهم كتبهم المقدسة ، ولغتهم وفكرهم متأثران كثيرًا بعبارات الأناجيل ورسائل الرسل (الحواريين) والمزامير . وشعرهم يتخذ في الغالب شكل الأناشيد لكن في الشعر الجاهلي المزعوم هناك فقر شديد في الإشارات إلى كتب النصارى المقدسة والنظم المسيحية حتى عند أولئك الشعراء الذين يفترض أنهم ازدهروا في بلاطات الأمراء والملوك النصارى . وصاحب «الأغاني» ، وهو رجل خبير ، يستنتج أن شاعرًا معيّنًا ازدهر حوالي نهاية القرن الأول الهجري لابد أنه كان نصرانيًا لأنه يُقْسم بالإنجيل والرهبان والإيمان ، ويقول - بحقّ - إن هذه أقسام نصرانية[5] . وعلى الرغم من أن شعراء الجاهلية كثيرًا ما يقسمون ، فيكاد قَسَمهم أن يكون بالله دائمًا ؛ أن القَسَم بالله شائع في دواوينهم . والشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص يقول بلغة قرآنية .

(1) «الفهرست» ، لابن النديم ، [ص 132 نشرة فلوجل ، وعنوان الكتاب : «المفيد» ، عدد ورقه أكثر من خمسة آلاف ورقة - المترجم] .

(2) عمرو بن قميئة ، ج2 ، ص9 .

(3) السكري : شرح ديوان الحطيئة ، ص38 .

(4) «الأغاني» ، ج20 ، ص139 ، س4 من أسفل .

(5) المسلم يقسم بالتوراة وبالقرآن ، راجع الأغاني ، ج12 ، ص72 ، س9 .

حَلَفْتُ بالله إنَّ الله ذُو نِعَمٍ لمنْ يَشَاءُ وذُو عَفْوٍ وتَصْفاح[1]

وآراؤهم في أفعال الله هي مما لا يستطيع مسلمٌ أن يرفضه ، وتستبق أقوال القرآن في أدق تفاصيلها تقريبًا . والله «يقبض الدنيا ويبسطها»[2] . والله يُدعى لمكافأة المحسنين[3]، وجمع من تفرّقوا[4]. وأوامر الله هي التي تنفذ[5]. ورحمة الله هي التي يرتجيها النساء في ثكلهن[6] . ويُدْعى الله ليبارك في ماء الآبار[7] . وطلب اللعنة يتم باسم الله[8] . «وسائل الله لا يخيب»[9] . كما يخيب من يسأل الناس . وهم إنما يخافون ما هو إثم في نظر الله[10]. والله هو الشاهد الذي يفزعون إليه[11] . ويعلم ما يخفى على الآخرين[12] . وهو ربّ الناس[13] . ويقول شاعر جاهلي[14] :

فقلتُ لهَا تَاللهِ يَدْرِي مُسافرٌ إذا أضْمَرتْهُ الأرضُ مَا اللهُ صَانع

وأحيانًا يستخدم اسم «الرحمن»[15] مكان اسم الله ، كما هي الحال في القرآن .

والحق أن الدين الوحيد الذي يمكن أن ينسب إليه هؤلاء الشعراء الجاهليون هو الإسلام . فإنهم ، كما رأينا ، ليسوا موحدين توحيدًا مستقيمًا فحسب – لأنه من النادر

(3) ديوان عبيد بن الأبرص ، ص67 ، س1 ، [نشرة سير تشارلز ليل ، ليدن سنة 1913م] .
(2) ذو الإصبع العدواني ، «الأغاني» ، ج3 ، ص9 .
(3) «الأغاني» ، ج13 ، ص4 .
(4) «الأغاني» ، ج13 ، ص5 .
(5) معلّقة الحارث بن حلّزة ، 44 .
(6) «الأغاني» ، ج4 ، ص151 ، س6 .
(7) «ديوان عبيد بن الأبرص» ، ص 19 ، س 8 .
(8) «ديوان عبيد بن الأبرص» ، ص68 ، س12

فإنْ خَفّتْ لجُوعِ البَطْنِ رِجْلِي فدَقّ اللهُ رِجْلِي بالمَعَاصِي

(9) «ديوان عبيد بن الأبرص» ، ص8 ، س23 .
(10) ابن قتيبة ، ص44 ، س10 .
(11) «الأغاني» ، ج4 ، ص144 ، س15 .
(12) «ديوان عبيد بن الأبرص» ، ص50 ، س17 ، والحارث بن حلزّة ، «المعلقة» 55.
(13) «الأغاني» ، ج11 ، ص132 ، س6 من اسفل .
(14) «الأغاني» ، ج13 ، ص7 ، [والشاعر هو قيس بن الحوارية] .
(15) «الأغاني» ، ج13 ، ص4 في نهايتها .

جدًا أن يذكروا إلهًا غير الله ، وهذا الذكر أحيانًا يخلو من التوقير[1] - بل يبدو أيضًا أنهم على معرفة وثيقة بأمور يؤكد القرآن أن العرب لم يعرفوها قبل أن يخبرهم بها . فمثلًا في سورة هود : 51 يرد أن قصة نوح لم يكن محمد ولا قومه من قبل هذا يعلمونها؛ وهذا القول يتفق مع ما ينبغي أن نستنتجه من النقوش ، إذ لا ترد فيها أية إشارة إلى أنساب العرب كما وردت في التوراة ، مما يتضمن قصة نوح . ومع ذلك نجد أن النابغة الذبياني، الذي ازدهر بحسب شيخو سنة 604م ، ويقال أيضًا إنها سنة وفاته ، ليس فقط على علم بقصة نوح ، بل ويعرف أيضًا بعض المعلومات عنه مما يلوح أن القرآن هو وحده المصدر له . فهو يقول :

فَألفَيتَ الأمَانَةَ لم تَخُنْها　　　كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يخُون[2]

وها هنا إشارة واضحة إلى الصفة «أمين» التي يصف القرآن بها نوحًا (الشعراء : 107). والشاعر عنترة العبسي ، وديوانه يملأ 284 صفحة ، من الواضح أنه عرف ما نزل به القرآن وخصائص الإسلام قبل ظهور الإسلام : فإنه في مخاطبته لملك الفرس أنوشروان - الذي توفي حوالي سنة 580م - يدعو هذا الملك بأنه «قِبْلة القُصاد»[3] وهو اصطلاح إسلامي للدلالة على اتجاه الصلاة ، وهذا أمر ربما ينبغي ألا يدهشنا لأن صاحب «الأغاني» يذكر أنه كان لأهل المدينة قبل الإسلام «مسجد» ذو قبلة[4] ، وهذا أمر ينظر إليه عادة على أنه مما جاء به الإسلام لأول مرة . ونفس الشاعر [عنترة] يعرف كيفية الصلاة في الإسلام من ركوع وسجود[5] ، ويعرف حجر المقام ، أي الحجر الذي وقف عليه إبراهيم ، ومن المؤكد أن ربطه بالحرم المكي أمرٌ ابتدعه الإسلام[6] . كذلك يعرف الأسماء القرآنية

(1) ديوان عبيد الأبرص ، ص13 ، س14 .

البيت هو : **وتَبَدّلوا العيوب بَعْدَ إلاهِهم　　　صَنَمًا فقرّوا يا جَديلُ وأعْذَلُوا**

(2) «شعراء النصرانية» ، ص 730، س٤ من أسفل [وكذلك في «العقد الثمين» نشرة ألفرت ص 176].

(3) طبعة القاهرة ، ص 254 .

(4) «الأغاني»، ج13 ، ص116 ، س12 .

(5) ديوان عنترة ، طبعة القاهرة ، ص 101 ، 154 .

(6) ديوان عنترة ، طبعة القاهرة ، ص 232.

للنار: جحيم ، جهنم[1] ، والاسم الذي يطلقه القرآن على يوم الحساب[2] . ويحلو له أن يستخدم تعبيرات قرآنية[3] . ومن هنا فليس ثم من سبب للشك في أنه كان مسلمًا صحيح الإسلام ، اللهم إلّا أن حياته كانت قبل ظهور الإسلام[4] .

وربما كان هذا الشاعر [عنترة] يبالغ في إظهار إسلامه ؛ لكن كثيرين غيره يكشفون عن لمحات من إسلامهم هم الآخرين . إننا لابد استخلصنا من القرآن أن التمييز بين الحياة الدنيا والآخرة قد أتى به محمد إلى العرب ، لأن خصومه يبدون أنهم ينظرون إلى فكرة الحياة الآخرة بازدراء واستخفاف ومن هذا ينبغي أن نفترض أن استعمال التعبير : «الدنيا»= [الأقرب] بمعنى «العالم» لابد أن القرآن هو الذي أوجده ، وفيه يستعمل أحيانًا بمفرده ، ولكن في غالب الأحوال يستعمل مع كلمة : «الحياة» . والشخص الذي يعتبر أن العالم هو «الحياة الدنيا» . لابد لديه في ذهنه حياة أخرى قصوى (آخرة) وهذا رأي نظر إليه سامعو محمد في أول الأمر بتعجب مستهزئ . بيد أن الشعراء الجاهليين نجد عندهم هذا التعبير (الحياة الآخرة) مألوفًا جدًا . فعبيد الأبرص ، وقد عاش قبل دعوة القرآن بعقود كثيرة ، يتحدث بلغة قرآنية عن «متاع الدنيا»[5] يقصد متاع هذا العالم ؛ وذو الإصبع، وهو شاعر جاهلي أيضًا ، يقتبس من القرآن : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾[6]. وعبيد بن الأبرص وهو يوّبخ والد امرئ القيس ، يشير إلى يوم القيامة[7] ، ويستخدم تعبيرًا يتضمن معرفة بقانون المواريث في الإسلام[8] . وذو الإصبع يعرف التمييز بين السنة والفرض ، أي نص القرآن . كذلك نجد الكلمة : «الدنيا» في معلّقة عمرو بن كلثوم، الذي

(1) ديوان عنترة ، ص 237 ، ص204 .

(2) «القيامة» ، ص83 ، 247 ؛ «المحشر» ص 127.

(3) «جبار عنيد» ، ص191 ، 206 ، 231 .

(4) «الأغاني» ، ج4 ، ص128 ، س4 من أسفل .

(5) ديوان عبيد بن الأبرص ، ص 80، البيت رقم 28 ، وهو :

تزوّدْ من الدنيا متاعًا فإنَّه　　　عَلَى كُلِّ حَالٍ خَيرُ زَادِ المُزَوّد

(6) «الأغاني» ، ج3 ، ص9 ، س8 . والسورة المقتبس منها هي سورة الأنفال آية 67 .

(7) ابن قتيبة ، ص37 ، س15 .

(8) «ذو سهمه» أي ذو قرابة ، ليل Lyall .

يفترض أنه توفي سنة 600م ، اي قبل الهجرة بعشرين سنة . وحين يريد هؤلاء الشعراء أن يستشهدوا على صولة القدرة الإلهية ، يستشهدون في العادة بأمثلة إرم ، وعاد وثمود[1] ؛ وكثيرون منهم يخلطون بين الأخيرين[2] (عاد وثمود) ، ولا يكاد يكون لهذا الخلط سبب غير أنهما يردان مقترنين في القرآن ، ومن المحتمل جدًا أن تكون قصص هؤلاء الأقوام الثلاثة مأخوذة من القرآن . وحتى المؤسّس المظنون للقصائد ، المهلهل ، وقد ازدهر ، كما رأينا ، قبل النبي بمائة سنة ، يسبق عصره فيقتبس من القرآن :

نَعى النُّعَاةُ كُلَيبًا لي فَقُلْتُ لَهم   مَالَتْ بِنَا الأرضُ أم مَادتْ رَوَاسِيها[3]؟

وهذا يفسر بوضوح من الآية 15 من سورة النحل : ﴿ **وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ** ﴾ . وهناك سورة أخرى : ﴿ **وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا** ﴾ [النازعات : 32] يتضح منها أن المقصود هو الجبال . وبالمثل فإن تأبط شرًا في رثائه للشنفرى يقتبس من القرآن[4]. ويفعل مثل ذلك ملك فارسي ، بحسب ما يقوله الثعالبي[5] .

وأحيانًا يرى النقاد المسلمون أن الاستعمال البيّن للقرآن في هذه القصائد مبالغ فيه ؛ فيذكرون أن الشك قد حاك حول صحة قصيدة منسوبة إلى لبيد ، يذكر فيها قصة الفيل، وهزيمة أصحاب الفيل بفعل من الله على نفس النحو المذكور في القرآن[6] . ويستند صاحب «الأغاني» إلى دليل شبيه بهذا لإثبات أن الحصين بن الهمام كان إسلاميًا[7] . وهناك نقاد آخرون كانوا أقل نقدًا وتدقيقًا : فالمطهَّر بن طاهر ، من القرن الرابع الهجري، يلاحظ أن زيد بن عمرو بن نفيل – وهو جاهلي – دعا إلى التوحيد في مجموعة من الأبيات هي مجرد آيات قرآنية تتعلق بموسى وهارون في علاقتهما بفرعون ، ويمضي

(1) «الأغاني» ، ج11 ، ص61 ، س11 ؛ عمرو بن قميئة ، ص64 ، س4 .
(2) زهير : معلّقته ، 32 ؛ ديوان الهذليين ، ص80 ، نشرة كوزجارتن .
(3) «شعراء النصرانية» ، ص166 ، س 6من أسفل .
(4) «سورة المؤمن» : 18 ؛ الأغاني ، ج21 ، ص89 .
(5) «غرر أخبار ملوك الفرس» ، ص47 ، س2 .
(6) ديوان لبيد ، نشرة بروكلمن ، ص XXXIV .
(7) «الأغاني» ، ج12 ، ص123 .

إلى حد أن يصرّح بأنه مُسْلم في قوله : «أَسْلَمْتُ وَجْهي»[1] . وأُمَيّة بن أبي الصلت ، الذي يتكلم عن النصارى كما لو كان ليس منهم ، يستعمل للتعبير عن يوم الحساب تعبيرًا كان ينبغي أن نفترض أن القرآن[2] هو الذي ابتدعه ، حتى لو سلمنا بالقول القائل بأن العرب الوثنيين كانوا على علم تام بفكرة هذا اليوم ، يوم الحساب . والشاعرة الخنساء تعرف «الزبانية» ، والظن بها أنها اصطلاح قرآني[3] . وحاتم الطائي ، وهو نصراني ، يعرف التكبير الإسلامي : «الله أكبر»[4] .

ومن الممكن تمامًا أن نتصور أن محمدًا كان له «سابقون» forerunners بمعنى أن بعض الأشخاص قبل زمانه في وسط الجزيرة العربية قد ثاروا على العبادات الوثنية. وفضلًا عن ذلك فإن المسيحية يبدو بوضوح أنها كانت لها مراكز في أجزاءٍ من شبه الجزيرة العربية . فإن كان الشعراء الجاهليون نظموا أشعارهم مثل نصارى يعتنقون عقائد المسيحية ويبدون عن معرفة بنظُمِها ، فمن الممكن أن نواجه بعض صعوبات في قصائدهم ومسألة نقلها ، لكن ديانتهم لن تكون واحدة من بين هذه الصعوبات . لكن إذا وجدناهم يتكلمون مثل مسلمين ، موحدين توحيدًا صارمًا مثل أتباع النبي فيما بعد ، وكلما ظهر في كلامهم صدى لكتاب مقدس وجدناه صدى للقرآن ، فإن من الصعب جدًّا أن نؤمن بصدقهم . ولماذا عرب النقوش يفكرون في آلهتهم المحلّيين المختلفين، بينما شعراء نفس المناطق لا يعرفون إلهًا غير الله الذي أعلن محمد أنه واحد أحد؟ وحتى لو افترضنا أن النقوش صدرت عن جماعات غير جماعات هؤلاء الشعراء ، فلماذا ستؤول إليه رسالة محمد إذا كان أولئك الذين «أنذرهم» كانوا يؤمنون بإله واحد ويتوقعون يوم الحساب؟ وإذا استرشدنا بالنقوش فيجب الإقرار بأن جدال القرآن موجّه توجيهًا صائبًا؛ ومن الممكن ألا تكون عبادات أهل مكة وجيرانهم هي هي عينها عبادات المناطق التي تنتسب إليها النقوش ، لكن بين كلتيهما نسبًا أسريا . لكن آراء الشعراء الجاهليين في الموضوعات الدينية يبدو أنها تشبه ، أو هي هي بعينها ، الآراء التي يدعو إليها القرآن .

(1) كتاب «البدء والتاريخ» ، ج1 ، ص75 .

(2) كتاب «البدء والتاريخ» ، ج2 ، ص145 : يوم التغابن ، سورة التغابن : 9 .

(3) «الأغاني» ، ج4 ، ص136 ، س7 .

(4) نشرة شولتس Schulthess ، ص51 ، س15 .

وثمّ خطٌّ ثان للبيّنة الباطنة وهو اللغة . فكل هذه القصائد نظمت بلغة القرآن ، وإن عثرنا ها هنا وهناك على كلمة أو شكل يقال إنه ينتسب إلى قبيلة بعينها أو منطقة من المناطق . فإن افترضنا أن فَرْض الإسلام على قبائل شبه الجزيرة العربية قد وحدّ لغتهم، لأنه زودهم بنموذج لسلامة اللغة لا نزاع فيه وهو القرآن ، فإن ثمّ نظائر لهذا ، فالفتح الروماني فعل الشيء نفسه في إيطاليا وبلاد الغال (فرنسا) وإسبانيا . لكن من الصعب أن نتصور وجود لغة مشتركة قبل مجيء الإسلام بهذا العامل الموحِّد ، لغة تختلف عن لغات النقوش وانتشرت في كل أرجاء شبه الجزيرة العربية . فلابد أنه كانت بين القبائل المختلفة ، أو على الأقل مجموعات القبائل ، اختلافات واضحة في النحو والألفاظ . والمجموعة التي جمعها الأب شيخو تبدأ بشعراء جنوبي الجزيرة العربية ؛ ولغتها هي لغة القرآن . وفي داخل جنوبي الجزيرة العربية نفسها جاءت النقوش بلهجات عديدة، وبعضها قريب العهد بزمان النبي ، وهي لا تفهم إلّا بصعوبة ، لأن العون الذي تقدمه العربية الكلاسيكية ضئيل بالنسبة إليها . ومع ذلك فإن الرواة المسلمين حين يروون أشعارًا لأحد ملوك حضرموت وهو الذي نظمها بنفسه ، فيما يقولون ، بحروف حميرية، فإنها مع ذلك بلغة القرآن ، ومن المفروض أن شعبه يفهمها[1] . وهذا الخبر رواه ابن الكلبي وهو أقدم الرواة والإخباريين . وأحد الحميرين ، وينتسب إلى فترة سابقة على غزو الحبشة ، يكتب ويختم بيتين من الشعر لا بلغة النقوش المعاصرة له أو التالية بعض الشيء عليها ، وإنما بلغة القرآن[2] . وفي هذه الأحوال قليلون هم الذين يشكّون في أن هذه الأشعار منحولة ، وأن الأخبار المتصلة بها خرافية على أقل تقدير . لكن علينا أن نتذكر أن رواة هذه القصائد الجاهلية هم أنفسهم إما رواة الشعراء الذين جمع شيخو شعرهم أو ليسوا أقل منهم حظًّا من الثقة ؛ ومؤلف «الأغاني» ، وهو أحيانًا يمارس النقد، ينقل عنهم دون ارتياب فيهم وتشكيك . ومن المحتمل أن يكون قد فعل ذلك عن حُسْن نيّة ، ومثله فعل بعض المجادلين المسلمين الذين يؤكدون أن العقيدة المسيحية الخاصة

---

(1) «الأغاني» ، ج11 ، ص125 .

(2) «الأغاني» ، ج20 ، ص8 ، س13 .

بألوهية المسيح نشأت عن سوء قراءة لنقطتين على كلمة في المزمور الثاني : إذ كان يجب قراءتها : «نبيٌّ» ، لكن أسيئت قراءتها فقرئت : «بُنَيٌّ» . إنهم لا يدركون أن هذه العقيدة قد اعتنقت قبل اختراع حروف الكتابة العربية بعدة قرون ، وعلى الأقل هي أسبق بقرنٍ من استعمال النقط على الحروف العربية . ونسبة أشعار باللغة العربية الكلاسيكية إلى شعراء اليمن في الجاهلية يلوح أنها خطأ من نفس النوع . وليس ثمّ دليل على أن جنوب الجزيرة العربية كان فيه أي شاعر ؛ فإن كان هناك شعراء برغم ذلك ، فلابدَّ أنهم نظموا شعرهم بلهجات جنوب الجزيرة العربية .

والآن ولدينا هذا الدليل القاطع على سوء النية في مجموعة من الأحوال ، فإننا لا ندري ماذا نقبل في الأحوال . في شمالي بلاد العرب اكتشف نقش أو نقشان مكتوبان بلغة القرآن ، لكن ثمّ نقوشًا أخرى مكتوبة بعدد كبير من اللهجات ، التشبية بما وجد في الجنوب ؛ وها هنا أيضًا لا نجد أشعارًا بحسب معلوماتنا الحالية ، ولما كان الإسلام قد نشأ في الحجاز فقد كان من المتوقع أن يكون المسلمون على علم بتاريخ هذا الجزء من الجزيرة العربية أكبر من علمهم بالجنوب ؛ والواقع أن علمهم بالجنوب أكبر ، لأنه حدثت في الجنوب أحداث ذات أهمية أكبر بالنسبة إلى شبه الجزيرة مما حدث في أماكن أخرى منها . ومع ذلك فإن معرفتهم بجنوب الجزيرة العربية كانت من الغموض بحيث نسبوا إلى ملوك الجنوب أشعارًا مكتوبة - بلغة نحن نعلم - بشهادة النقوش - أنها لم تكن لغتهم . ولما جمع الرواة مجموعاتهم كانت لغة القرآن قد صارت بفضل الإسلام اللغة الكلاسيكية في جنوبي الجزيرة العربية ، وبفضل الإسلام أيضًا صارت هي السائدة في أجزاءٍ أخرى من شبه الجزيرة العربية ؛ لكن لا يوجد لدينا أي سبب يدعونا إلى افتراض أنها كانت اللغة الأدبية في أي مكان آخر حتى جاء القرآن .

فإن تناولنا الآن الوثائق النثرية ، فيمكن أن نوافق على الفرض القائل بأنها إما أنها ترجمت ، أو حوّلت تدريجيًّا ، من مرحلة اللغة إلى مرحلة أخرى ، على نحو ما حدث من تغييرات في قواعد الإملاء في الكتب المطبوعة تدريجيًّا ، على وفاق مع مرحلة تالية، دون أي نقض لحسن النية أو الذمة . أما في الشعر العربي ، حيث الصناعة أشد تعقيدًا مما هي في أي أسلوب آخر معروف فإن هذه العملية ستكون مستحيلة . إن المؤلفات إنما

كتبت لتقرأ . ويمكن أن يلاحظ أنه كما أن الداخلين في دين الإسلام قد أولوا ظهورهم لدياناتهم القديمة ، حتى إن القرآن يعرف عنها أكثر مما يعرفه المسلمون فيما بعد ، فإن الناس في الجزيرة العربية قد فعلوا بالمثل فولوا ظهورهم للغاتهم ولهجاتهم القديمة ، حتى إن المعونة على فهم النقوش لا يمكن الحصول عليها إلّا من مؤلِّفيْن اثنين فقط نعتهما المرحوم الأستاذ هرتمن Hartman بأنهما غريبان حقّا . وكما أن وجود أفكار إسلامية في أعمال واضحة الوثنية هو دليل واضح على أنها زائفة منحولة ، كذلك فإن استعمال اللهجة التي جعلها القرآن كلاسيكية يدعو إلى ارتياب شديد .

وليس من المستحيل أن تكون لغة الحجاز هي لغة البلاط في الحيرة ، لكن يعوزنا الدليل على هذا خارج نطاق «القصائد القديمة» ؛ إن فلوات شاسعة تفصل بين الإقليمين (الحجاز والحيرة) . والمسلمون الذين يروون قصائد من كل أجزاء شبه الجزيرة العربية منظومة بنفس اللهجة يبدو أنهم يفعلون ذلك على غرار دأبهم على أن يجعلوا الكثيرين أو معظم هؤلاء الشعراء من المؤمنين بعبادة الله وحده لا شريك له ؛ إنهم يُسْقِطون على الأزمان الماضية الظواهر التي يألفونها ويعرفونها . وشيء من هذا القبيل يبدو أنه حدث مع جغرافية هذه القصائد : فعمرو بن كلثوم ، صاحب إحدى المعلّقات ، يقول إنه شرب الخمر في بعلبك ، ودمشق ، وقاصرين ؛ أما الخمر التي يتوق إليها فهي خمر الأندرينا وقيل إن هذين الموضعين الأخرين هما بجوار حلب ولا شك أنه كانت لديه فرصة للقيام برحلات واسعة إبان حياته التي يزعم أنها بلغت مائة وخمسين عامًا ؛ لكن المعرفة الوثيقة بهذه الأماكن وبمناطق وقبائل الجزيرة العربية كما تكشف عنها هذه القصيدة تذكّر القارئ بالعصر الذي امتدت فيه الدولة الإسلامية فشملت الشام وبلاد العرب ، أولى من أن تذكر بالعصر الذي كان العرب فيه على الحال التي وُصفت في تاريخ يوشع العمودي ، حوالي سنة 500م .

وهناك خطٌّ ثالثٌ للبيّنة يوجد في «محتوى» القصائد . إذا كانت القصائد تبدأ عادة بالغزل لأن القرآن يقول إن الشعراء يهيمون في كل واد ، وإذا كانوا يَمْضون بعد ذلك إلى وصف أسفارهم وركائبهم لأن القرآن يقول : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء : 224] ، وهذا يعني قطعًا أن الشعراء هم أيضًا غاوون ، وإذا كانوا يتنقلون بعد ذلك إلى

الإطناب في وصف أفعالهم وإنجازاتهم ، وغالبها يتنافى مع الأخلاق ، لأن القرآن يقرر : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ - فإننا نستطيع على الأقل أن نقتفي إلى المنبع هذا الرتوب ، الذي دعا بعض النقاد إلى القول بأن كل ما يهم في القصائد كان هو اللغة، لأنها جميعًا تكرر نفس المعاني[1] . لكن إذا كان هذا الشكل النمطي stereotyped أسبق من القرآن ، فلابد أنه يرجع إلى نماذج معترف بها ، والبحث عن هذه النماذج يعود ، كما رأينا ، إلى آدم . صحيح أن القصائد تبدي عن معرفة رائعة بتشريح الفَرَس والجمل ، وربما بعادات حيوانات أُخرى غيرهما ؛ لكن هذه الأمور ، كما نعرف ، درسها اللغويون كما درسها الشعراء . ومن الممكن جدًّا أن يكون شاعر بدوي قد بدأ قصيدة بالبكاء على أطلال منازل محبوبته ، أو بوصف خيالها ، ثم انتقل إلى وصف ناقته أو فرسه ، لكننا لا نستطيع أن نذكر بالدقة شاعرًا كلاسيكيًا كان إنتاجه أساسًا للتربية ، وكان نموذجه مثالًا ينبغي على طالبي فن الشعر أن يحتذوه فلو كان قد وجد شاعر أو شعراء كلاسيكيون من هذا النوع ، لأتى على ذكرهم القرآن ، لأنهم كانوا سيكونون المصدر المعتمد للأفكار الشائعة . لقد كان من الممكن إدانة قدوتهم بأنها سيئة ؛ لكن لم يكن من الممكن إنكار أن الشعب كانت عنده كتب يدرسها .

وفي معظم القصائد المنسوبة إلى الشعراء الأوائل ما يسمى قصائد مناسبات ، وفيها تسجيل لتجارب لا تهم إلا أصحابها وحدهم أو على الأفضل بعض أهل قبائلهم . ولا يمكن إنكار أن العربي الذي يطلّق زوجته أو يغير على جمال أو يذبح عدّوه ربما نظم قصيدة في هذا الموضوع ؛ وحيثما اشترك أشخاص عديدون في مثل هذه الأعمال، فلربما سجل كل واحد منهم تجربته على هذا النحو . لكن هوراس مصيب جدّا حين يقول : «لو صمتت الأوراق عن ذكر ما فعلت من خير فلن تنال المكافأة» ؛ لابد أن يكون التسجيل على ورق أو ما يساويه ، وإلا لما كان لمثل هذه التأليفات من حظ في الحفاظ عليها . وإذا كان ما يرويه الراوي شيئًا يتخذ شكل حوار أي سلسلة فيها يرد الشاعر على الشاعر ، فإن احتمال أن يكون الكل مخترعًا يصير احتمالًا قويًا جدًّا ؛ لأننا لا نستطيع أن

(1) ابن رشيق في كتابه «العمدة» .

نعزو إلى الشعراء المتنافسين أنهم عملوا على المحافظة على أعمال بعضهم البعض ، فيحتاج الأمر إلى تدخل طَرَف ثالث ؛ بينما إذا افترضنا أن الكل صدر عن عقل واحد ، فإن لدينا على الأقل شيئًا أمامنا بسيطًا وسهل المقارنة والتناظر .

وافترض الاختراع يفسّر أيضًا الأحوال التي فيها الأخبار المربوطة بالأشعار تناقض التجربة . فمؤلف «الأغاني» ، الذي يروي عددًا من الأبيات المرتجلة في منافسة شعرية اشترك فيها النابغة الجعدي ، والعجّاج ، والأخطل[1] ، يقدّر أن هذا النابغة لابد أن سنّه كانت آنذاك 220 سنة ، ويعلن رضاه عن هذه النتيجة . وثم آخرون جعلوه يبلغ سن المائة والثمانين ، لكن لما كان من اليقين أنه احتفل بعيد ميلاده الثمانين بعد المائة في زمان النبيّ ، فإن هذا كان تقديرًا أقل من الحقيقة . وحين نقرأ المساجلة الشعرية بين هوميروس وهزيود ، فإن التاريخ لا يهّمنا ، لأننا نعرف أن هذه الحكاية كلها خيالية . لكن إذا كان الشخص الذي روى ذلك بنيّة حسنة هو نفس مصدرنا الأساسي عن تاريخ الشعراء ، فلن نتهم بالمبالغة في الشك .

ذلك مثال ؛ وهناك أمثلة أخرى عديدة : فلربما نثق بأقوال «الأغاني» بمقدار ما يتضح أنها تستند إلى مواد مكتوبة ؛ فإن كانت لدينا مجموعة الأشعار التي جمعت بأمر الخليفة المهدي ، لكنا واثقين أن هذه القصائد كانت موجودة في عام 158هـ . وإذا بدا الجامع لها شخصًا ناقدًا وصادقًا إلى حد معقول ، فإننا كنا سنثق فيه لو أخبرنا أنه جمع مادّته من وثائق أسبق بكثير من ذلك التاريخ . لكن إذا كان لدينا ، بدلًا من الاعتدال والصدق ، حكايات طويلة عن أناس عاشوا مائتي سنة ، وعن مجموعات من القصائد دفنت تحت القصور ، وهياكل عظيمة هائلة على رؤوسها ألواح مكتوب عليها – فسيكون لدينا ما يبرّر رفضنا كل شيء على أساس أنه مصنوع ومنتحل . وإذا كنا نجد مؤلّفنا ، بدلا من أن يعتمد على مواد مكتوبة ، يعتمد على نقل شفوي طوال مدة لابد أن يكون قد نُسِي فيها كل ما كان حُفِظ – فإننا نستطيع أن نتأكد تأكدًا مضاعفًا أن أقوال هذا المؤلف لا ينبغي أن نثق فيها ، في أي موضوع كتب أو روي .

(1) «الأغاني» ، ج4 ، ص129 ، ص131 .

فإذا كان الشعر الجاهلي مشكوكًا فيه لأسباب خارجية وباطنة على السواء ، فإننا نعود إلى مسألة بداية الشعر العربي : هل هو موغل في القِدَم ، على الرغم من أن الآثار التي لدينا معظمها ترجع إلى ما بعد الإسلام؟ أو هو كله أنشئ بعد الإسلام ، وما هو إلّا تنمية للأساليب الموجودة في القرآن ؟ إن هذه المسألة تبدو بالغة الصعوبة .

فمن ناحيةٍ يبدو لنا أن ثمّ استمرارًا : فشعراء العصر الأموي يتلون شعراء عهد النبي وصحابته ، وهؤلاء الأخيرون تالون لشعراء الجاهلية . وبعض الدواوين المبكرة ، مثل ديوان حسّان بن ثابت ، مادح النبي ، يوحي بالقليل من الثقة ؛ لكن سيكون من الصعب زعزعة صحّة دواوين شعراء العصر الأموي . وفضلًا عن ذلك فإن بعض صناعة الشعر يبدو أنه وراء عبارات من نفس النوع ترد في «العهد القديم» من الكتاب المقدس ، ومن هنا فإن الفرض القائل بأن العرب ألّفوا قصائد – وإن كنا لا نستطيع أن نتيقن من أننا نملك الآن أي شعر أسبق من ظهور الإسلام – هو فرْض ذو إغراء .

ومن ناحية أخرى ، فإنه إلى جانب خلوّ النقوش من الشعر ، فإننا نلاحظ أن القرآن لا يشير إلى الموسيقى أدنى إشارة[1] . وعبثًا نحاول أن نعثر على باب «الموسيقى» و«الغناء» في فهرس القرآن الذي وضعه د.أ ستانتون Stantion ، وهو فهرس مفيد جدًّا . وكلمة «رَتِّل» في القر آن لا يمكن أن يكون معناها : «يُغَنّي» ، لأنه يوصف بها الموجود الإلهي [سورة الفرقان 34][2] ؛ ولابد أن معناها هو تقريبًا : «رتِّب» . و«المزامير» ، ويدل اسمها السرياني واليوناني بوضوح على : «كلمات مصحوبة بالزمر أو الآلات الوترية»، صارت في القرآن : «زبور» أي «نصوص» ، «كُتُب» . والواقع أن كتاب «الأغاني» يذكر تواريخ إدخال الموسيقى في الجماعات الإسلامية ، وهذه التواريخ ترجع بنا إلى العصر الأموي . إذ يذكر أنه حوالي سنة 65 هـ أدخل اسمه مِسْجَح : «البربطية» و«الأستخسية»،

(1) راجع «تلبيس إبليس» ، ص246 . لكن الإشارة غامضة مبهمة .

(2) الآية هي : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

وقد أخذهما عن الروم ، وقد بدأ دراساته الموسيقية بسماعة البنائين الفُرْس يدندنون بنغمات وهم يعيدون بناء الكعبة بعد تدميرها في ذلك العام[1] . والمغنّية رائقة أدخلت الغناء في المدينة حوالي ذلك الوقت[2] . ومع ذلك توجد دعاوى أخرى . وأولى الكلمتين اللتين ذكرناهما معناهما : «العزف على الهارب» ؛ أما الثانية فغامضة . والسيد فارمر Farmer وهو حجة عظيمة في هذا الموضوع ، يعتقد أنها تعني النظام الذي وضعه أرستوكسينوس[3] .

وأقوال صاحب «الأغاني» هذه يلوح أنها تتفق تمامًا مع الظاهرة التي لاحظناها – وهي الخلوّ من الإشارة إلى الموسيقى في القرآن ، وإن كانت في معظم الجماعات عنصرًا مساعدًا مهمّا في العبادات العامة ، وبالنسبة إلى جماعة حربية مثل جماعة المسلمين كنا نتوقع الإقرار بأهميتها لعمليات الحرب . لكن إذا كانت الموسيقى إنما أدخلت في العصر الأموي ، فهل نستطيع أن نتصور أن الوزن الشعري قد وجد عند العرب من قبل بهذا الانتظام والغزارة اللذين يكشف عنهما شعرهم؟ والترتيب الأكثر اعتيادًا للنشوء هو الرقص ، فالموسيقى ، فالشعر ؛ وتحرر الشعر من الموسيقى هو في العادة عملية طويلة . وبعض الأوزان الشعرية العربية يلوح أنها توحي إما بالرقص أو بالموسيقى أو بكليهما .

ووجود القرآن ، وهو يحتوي على مبادئ أولية للنثر المسجوع وللوزن ، من شأنه أن يفسرّ نموّ كليهما حينما أدخلت نظرية وممارسة الموسيقى ؛ وإسقاط الفن على العصر الجاهلي لن يكون أمرًا غير مفهوم ولغة القرآن صارت لغة البلاط ، وبقيام البلاط نشأت مهنة شاعر البلاط . ومدائح رؤبة للخليفة العباسي الثاني هي في بحر الرجز ، وهو وسط بين الشعر والنثر ؛ وكما رأينا فإن أحد مشاهير الرواة أكد أن والد هذا الشاعر كان أول من نظم أكثر من بيتين في هذا الوزن ، وهو أقل البحور فنيّة . ويبدو من العجيب أن تكون

(1) «الأغاني» ، ج3 ، ص84 .
(2) «الأغاني» ، ج16 ، ص13 .
(3) [Aristoxonus : موسيقي وفيلسوف يوناني من المدرسة المشائية ، ازدهر حوالي سنة 318 ق.م وكتابه عن الأنغام Harmonies لا يزال موجودًا ، وقد نشره وترجمه H.S. Macran سنة 1902م – المترجم] .

قصائد طويلة قد نظمت في الأوزان الأصعب من الرجز في عصر أقدم .

والبحث في صِحّة دواوين شعراء عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي من شأنه أن يتجاوز حدود بحثنا هذا . والبيّنة التي أمامنا فيما يتصل بالمسألة الرئيسية تبدو كافية لاعتبار كل الشعر الجاهلي مشكوكًا فيه ، وربما أيضًا كل الشعر السابق على العصر الأموي. والممالك السابقة على الإسلام والمعروفة لنا من النقوش كانت عالية الحضارة، لكن لا يبدو أنه كان فيها شعر ؛ فهل نستطيع أن نصدّق أن البدويّ غير المتحضر كان عنده شعر على النحو المتضلّع elaborate الذي ينسبه إليه الرواة والإخباريون المسلمون؟ وبالجملة فإن الاحتمال الأرجح ، فيما يبدو ، هو افتراض أن الشعر والنثر المسجوع مستمدان كلاهما في الغالب من القرآن ، وأن المحاولات الأدبية التي سبقت القرآن كانت أقل ، وليست أكثر ، حظّا من الفن .

وشاعر القبيلة يمكن أن يقارن بالشاعر الرَّعَوي ، وله نسبة إلى الواقع مشابهة . ومؤلف سفر «الحكمة» [في العهد القديم من الكتاب المقدس] واضح وضوحًا أكثر من اللازم حين يقول (إصحاح 38 ، العبارة 25) :

أنَّى يصير حكيمًا (والكلمة اليونانية يمكن أن تترجم : يصير شاعرًا) من يمسك بالمحراث .

وكل مجده في المنخاس

ويسوق الثيران ولا يتركها أثناء الشغل

ولا يتكلم إلّا عن القطيع؟!

لكن يبدو أن رأيه هذا سليم . فما من إنسان يظن أن فرجيل أو ثيوكرتيوس راعي ضأن أو ماعز ، إنهما رجلان مثقفان متعلمان «يحاكون» رعاة الضأن والماعز . ومن الواضح أن هذه هي حال أصحاب المعلّقات ، مع إجراء التعديلات المناسبة . فطرفة ، على سبيل المثال ، رجل عالم ، مثقف يعرف شيئًا عن القناطر البوزنطية ، والملاحة على نهر دجلة، وفي الخليج الفارسي ؛ وربما على نحو أكثر احتمالًا : في البحر الأحمر . وعلى الرغم

من أنه توفي قبل الهجرة بحوالي سبعين عامًا ، فإنه يلتقط عبارة من القرآن ، يسيء فهمها . ففي سورة النمل : 44 نجد أن ملكة سبأ حين دخلت : ﴿ ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ ﴾ ، لكن سليمان شرح لها : ﴿ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ ﴾ . وبعض المسلمين بالطبع يفترضون أن معنى هذا الصرح أنه «برج مرتفع البناء مصنوع من قطع من الزجاج» ؛ لكن يبدو من الواضح أن المعنى الحقيقي هو أنه «ناعم مصقول» ، وهو وصف ربما ينطبق على قصر سليمان المفترض أنه من البلّور ، لا على قصر عادي . ولهذا فإن طَرَفة حين يشبه فخذي ناقته «كأنهما بابا منيف مُمَرَّد» (البيت رقم 19) ، فمن الصعب على المرء أن يتحاشى الاستنتاج بأنه إنما يفكر في الآية القرآنية المذكورة ، حيث كلمة «ممرد» تنسب إلى القصر الخاص الذي بناه سليمان ؛ فثقافة طرفة إذن تشمل دراسة القرآن . لكن القرآن نُزِّل قبل التاريخ المفترض لوفاة طرفة بحوالي ستين عامًا . وهذا مثل «دنيا» عمرو بن كلثوم ، الذي يذكر أن وفاته كانت سنة 600م ، لكن باستخدامه لهذه الكلمة يكشف عن معرفة بما ذهب إليه القرآن ، والقرآن لم يبلّغ للناس إلّا بعد وفاته بعشرين عامًا تقريبًا .

وإذا كان الموقف الأكثر حكمة تجاه مسألة ما إذا كان الشعر العربي يرجع إلى أقدم الأزمان ، أو هو متأخر عن القرآن – هو تعليق الحكم ، فالسبب في هذا هو الطابع المميِّز للبيّنة التي أمامنا . إننا على أرض راسخة حين نتعامل مع النقوش ؛ ويمكن الاعتماد على القرآن فيما يتعلق بأحوال العرب الذين توجه إليهم في زمان النبيّ . أما فيما يتصل بتاريخ الشعر العربي فعلينا أن نلجأ إلى مصادر أخرى ، معظمها يعالج أزمنة وأحوالًا ليست لهم خبرة بها ، وتكوينهم (العقلي) جعلهم يفترضون أشياء كثيرة أضلّتهم سواء السبيل . وفي حكمنا على أقوالهم ، يمكن أن نذهب في الشك إلى أبعد مما ينبغي ، لكن من الممكن أيضًا أن نبالغ في الثقة بها .

أبريل سنة 1925م

نص مقالة مرجليوث في براءة طه حسين

وهذه هي ترجمة حرفية - كما راجعناها على الأصل - للنص الكامل لمقالة المستشرق الإنجليزي مرجليوث كان قد بعث بها إلينا مشكورًا الدكتور إبراهيم عبد الرحمن رئيس قسم اللغة العربية الأسبق بجامعة عين شمس .. إسهامًا منه في تطوير البحث العلمي الصحيح الذي يضع فكر طه حسين في الميزان .. بعيدًا عن التهوين من شأنه أو التهويل في أمره .. ننشرها خدمة للباحثين . ونص المقالة على النحو التالي :

لم يجرّ كتاب من الشر على صاحبه مثلما جرّ كتاب «في الشعر الجاهلي» على صاحبة طه حسين ، فقد اتخذ منه المعارضون لآرائه مادة خصبة للنيل من سمعته ، والحط من مكانته ، واتخذ منه الحاقدون على مصر وسيلة للتهجم عليها والتنكر لدورها السياسي والثقافي والتكشيك في انتمائها العربي .. إلى غير ذلك من ردود الفعل التي أخذت تنشرها الصحف العربية في السنوات الأخيرة في شكل تعقيبات قصيرة حينًا ومقالات طويلة حينًا آخر ، وهذا وذاك يشكل لكثرته وتنوع مصادره ، تيارًا من النقد العدواني المدمر الذي يتمثل خطره أكثر ما يتمثل في خداع القارئ العادي الذي ليست له خلفية ثقافية عميقة ، وحمله حملًا على تصديق ما يلقى إليه باسم الدين مرة ، والعلم مرة أخرى.

ومن هذه الكتابات التي تناولت شخص طه حسين وعقيدته ما كان يكتبه مصطفى صادق الرافعي ومحمد محمد حسين وغيرهما ، ونقف هنا عند هذه الفقرات القصيرة من كتاب «الاتجاهات الوطنية» في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ، فهو نموذج لسائر الكتابات الأخرى: «.. واضح من كلام طه حسين الذي قدمنا أمثلة منه جرأته على الدين وخطره على الناشئين» .

وقد تجددت حملة التهجم على طه حسين أخيرًا في بعض الكتابات المصرية . وهو ما يجعل منها ظاهرة مقلقة في ثقافتنا المعاصرة ، ومصدر القلق أننا نبيح لأنفسنا الحكم على الأشياء عن طريق «السماع» ، فنقع بذلك في أحكام ظالمة وغير صحيحة . ولو أخذنا أنفسنا بالعودة إلى الأصول لقراءتها وتحليلها لجاءت أحكامنا صحيحة ومنصفة. وفي موضوع طه حسين والشعر الجاهلي أرشح لهذه القراءة ثلاثة أعمال نبدأ بأحدثها وهو : رأي مرجليوث في كتاب «في الأدب الجاهلي» المشنور في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية - أكتوبر 1927م .

ولهذا الرأي أهميته وخطورته لأنه أولًا : يمثل وجهة نظر لا تزال غير معروفة للذين كتبوا عن طه حسين ، ولأنها ثانيًا : صادرة من طرف أصيل في هذه القضية المزعومة .. قضية «سطو» طه حسين على أعمال المستشرقين .

وترجمة المقال : هذه طبعة موسعة من كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» الذي نشر في العام الماضي . وكان موضوعًا لكثير من المقالات والدراسات في صحافة القاهرة ، ومن المؤكد أن طبعة الكتاب الأولى كانت قد سحبت من التداول لاحتوائها على بعض الفقرات التي يظن أن فيها مساسًا بالقرآن الكريم . وفكرة الكتاب مماثلة - إلى حد كبير - للفكرة التي أدرت حولها بحثي عن «أصول الشعر الجاهلي» الذي نشرته في هذه المجلة في الوقت نفسه تقريبًا التي ظهرت فيه طبعة الكتاب الأولى . وبذلك توصل كلٌّ منا - مستقلًا عن الآخر تمامًا - إلى نتائج متشابهة .

«وتتلخص هذه الفكرة في أن النصوص الشعرية التي يفترض أنها من عمل شعراء جاهليين ، مشكوك في صحتها ، وهو ما يجعل منها نصوصًا لا يصح اتخاذها وثائق تاريخية أو لغوية ».

«ولقد أثبت الأستاذ القاهري بحق أن الشكل اللغوي الذي صيغت فيه هذه الأشعار يؤكد أن لغة القرآن كانت تعم سائر أجزاء الجزيرة العربية ، في الوقت الذي تؤكد فيه شواهد أخرى عديدة من النقوش ، أنه كانت هناك لهجات (أو بالأحرى لغات) أخرى

مستخدمة في الجزيرة العربية» .

«وإذا كان طه حسين قد استطاع بمهارة فائقة ، أن يرصد الدوافع المختلفة لتحريف الشعر في العصور الإسلامية ، ونسبته إلى شعراء جاهليين ، يعتبرهم هو بحق شعراء من صنع الخيال ، فإنه لم يكن مستعدًا أن يؤكد أو ينفي الوجود الحقيقي لامرئ القيس الذي يتصدر اسمه قائمة الشعراء الجاهليين» .

«والقسم الأخير من هذا الكتاب قسم بنّاء . فقد خصصه طه حسين للتدليل على وجود مدارس شعرية ، قرب ظهور الإسلام ، ذكر منها واحدة تبتدئ بأوس بن حجر ، فزهير ، فالحطيئة ، فكعب ، فجميل ، وتنتهي بكثيِّر عزَّة . ولكن قيمة هذه النظرية قد اهتزت إلى حد ما ، بتأكيد المؤلف أن كثيرًا من الشعر المنسوب إلى هؤلاء الشعراء شعر موضوع، وملاحظة أن القصة الوحيدة الباقية عن أوس من صنع خيال سقيم ، وأن الرواة الذين وصل إلينا عن طريقهم خبر هذه الصلة الفنية بين شعراء هذه المدرسة يفصل بينهم وبين آخرهم زمن طويل! ولذلك فإن جزء النقض من نظرية طه حسين لا يزال أقوى أجزاء الكتاب ، وأكثرها تأثيرًا في الدراسات الأدبية في العالم العربي ، تلك التي اختطت بفضله طرقًا جديدة . ومن الحقائق الثابتة أن نقوش المقابر في المجتمعات الجاهلية التي كانت تستخدم الخط الحميري ، تؤكد لنا عدم وجود أي أثر للشعر حتى في تلك النقوش التي يجب أن يتوقع المرء أن يجد فيها شيئًا منه ، أعني نقوش الجنائز ، كما أن المجتمعات الجاهلية التي ينسب إليها طوفان من الشعر يؤكد معرفة فنية بالكتابة . يصمها القرآن الكريم بالأمية!

«إن صعوبات خطيرة تواجه الزعم القائل بأن هذه المجموعات الشعرية أو جزءًا منها على الأقل قد تم حفظه عن طريق الكتابة أو الرواية الشفوية . كما أن هناك شكوكًا عميقةً تهدم النظرية القائلة بأن الصناعة الشعرية نفسها من عمل شعراء جاهليين! نحن – إذن – في ظلام دامس ، ويجب قبل أن نقرر أية حقيقة ذات أهمية أن نبدأ تلك الشكوك المدمرة. وهو ما أنجز منه طه حسين كثيرًا ذا قيمة» .

ولا نشك في أن مرجليوث قد كتب مقالته تلك في كتاب طه حسين وبين يديه هذا الكم الهائل من الدراسات والمقالات التي كانت تنشرها الصحافة المصرية على نحو ما أشار في مطالعها . وأن من بين ما جاء فيها اتهام طه حسين بالسطو على أفكار مرجليوث. وهو اتهام حمل هذا المستشرق على ترتيب أفكاره في هذه المقالة ترتيبًا علميًا دقيقًا يتمثل في شيئين :

الأول : حقيقة ثابتة وهي أن العملين كليهما قد نشرا في وقت واحد تقريبًا ، وأن كلًّا من الكاتبين مرجليوث وطه حسين قد توصل إلى آرائه مستقلًا تمامًا عن الآخر .

والثاني : أن آراء مرجليوث في الشعر تناقض آراء طه حسين . فمرجليوث ينكر أن يكون الجاهليون قد عرفوا نظم الشعر ، وأن ما وصل إلينا منه من صنع شعراء المسلمين الذين احتذوا فيه لغة القرآن ، على حين يذهب طه حسين إلى الثقة في وجود شعر جاهلي، ولكنه يتشكك في صحة كثير من نصوصه التي وصلت إلينا ، وكانت بسبب الرواة ، عرضة للوضع والتحريف . وهو لذلك يلح فيما يسميه مرجليوث الجزء البنَّاء من كتابه على استكشاف مقياس نقدي للتمييز بين الشعر الصحيح . وهو ما يحتاج إلى وقفة نقارن فيها بين كتاب طه حسين ودراسة مرجليوث عن أصول الشعر الجاهلي .